

المسيحيون في الدولة الإسلامية

www.christianlib.com



المسيحيون في الدولة الإسلامية

المسيحيون في الدولة الإسلامية

تأليف
الأب سهيل قاشا

دار الملاك

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الاولى

٢٠٠٢م - ١٤٢٣هـ

دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

بيروت - لبنان - حارة حريك - قرب مستشفى الساحل - هاتف: ٠٣/٧٥٥٢٠٠ - ٤٥٠٧٦٩ / ٠١ - فاكس: ٠١/٣١٤٨٢٤

ص.ب ١٥٨ / ٢٥ الغبيري - Email: dam @ dar - almalak. com. / Int: www. dar - almalak. com.

الاهراء

إلى أبناء الوطن العربي الواحد

بُناة الحضارات

مسيحيين ومسلمين

رمز الأخوة والتسامح

عنوان المحبة والسلام

عربون العيش المشترك الواحد

نضالاً

وصموداً

وانتصاراً

سهيل قاشا

٢٠٠٢

تقديم

تربطني والاب سهيل قاشا روابط متينة، وقديمة، تعود الى أوائل الستينات، أيام ما كان يتردد الى مكتبتنا الصغيرة في دير الآباء الدومنيكان بالموصل لشراء بعض من كتبها الروحية والتعليمية، الادبية، والتاريخية، فكنا نلتقي بأوقات ضيقة لا تتعدى النصف الساعة.

وتمر الأيام، واذ به يفاتحني بتكليفه من قبل راعي أبرشيته المطران عمانوئيل بني بوضع سيرة الشهيد مار زينا المزمع تجديد كنيسة في مسقط رأسه (قره قوش) بهمة المرحوم القس يوسف ككي. ويضع أمامي مسودات عديدة للمخطوطة، التي تسرد سيرة الشهيد الأنف الذكر مع بعض التحقيقات. ولما وجدت فيه عزيمة البحث الدقيق، والتحقيق الرصين، والحسّ التاريخي في النقد بقابلية توحى بمستقبل المؤرخ، مددت له يدي ورحت أوجهه الى العلمية، وارشده الى المصادر والمراجع مع السهر على النهج التاريخي الجديد بالطعن والتجريح، فكان ان أصدر كتابه الاول "سيرة الشهيد مار زينا" عام ١٩٦٥م.

ومن حينه توثقت العلاقات العلمية والعملية بيننا، وتقدمت في سلم الدراسة الاكاديمية على طريق نشر المقالات والبحوث التي نالت اعجاب انداده من الباحثين والمؤرخين، وقد انجز كتابه وباشرا في ايضاً "تكريت حاضرة الكنيسة السريانية" عام ١٩٩٤م، والذي اكثرت فيه الجلّد والمواصلة في البحث المضني.

واليوم، يضع أمامي مجلداً ضخماً في التاريخ المسيحي والموسوم بـ "المسيحيون في الدولة الاسلامية" بعد أن أنجز دراسته الثمينة والقيمة "المسيحيون في العهد الاموي" بثلاثة أجزاء يصدر عن مركز التراث العربي المسيحي، لإقدمه للقارئ العربي، المسلم والمسيحي، فاقول:

في زمن ليس ببعيد، كان الميدانان الادبي والتاريخي منفصلين انفصالاً تاماً، وكان الباحثون في التاريخ لا يتعدّون ما يأخذونه عن الشعراء (الذين كان دورهم يقتصر على تخليد اسماء ممدوحهم من الملوك والامراء، كما قال النظامي العروضي السمرقندي) من اسماء لبعض الممدوحين الكبار المغفلين في المصادر التقليدية. بينما كان باحثو الادب يكتفون بشرح الكلمات الصعبة الواردة في القصائد، بعد فصل عام يمرون فيه بالخطوط العريضة للاطار السياسي القائم في عصر شعرائهم .

أما الآن، فقد ادرك الباحثون في التاريخ انه لا يمكنهم، من بعد قصر أبحاثهم على المصادر المسماة تاريخية، تلك التي تكتفي، في أغلب الأحيان، بسرد الأخبار غير محاولة تحليلها، او التي تركّز إهتمامها على الملوك والمعارك والمؤامرات، فانكبوا، اكثر فاكثراً، على المصادر الادبية، دارسين موضوعاتها التي تعكس احاديث المجالس، والتي تكشف عن اهتمام عصرها ونظراته الخاصة، الى الوجود وما فيه، فيجتهد الباحث التاريخي في ان يكتشف ضمن النصوص الادبية، كل الاشارات الممكنة عن البيئة التي عاش فيها الشاعر، وهنا المعلومات عن حياته اليومية، وما يكتنفها من حاجات كالمأكل والملبس والاثاث والعادات والاعراف وغيرها.

ليس من شك ان الدولة العربية الاسلامية، على مرّ أطوارها كانت من أرقى الحضارات التي توالى على المنطقة في تاريخها الطويل، الحافل بالتلقبات والتناقضات وذلك بفضل التفاعل العجيب الذي شهدته الدولة العباسية،

سيما بغداد بين الحضارات القديمة، والحديثة، الشرقية والغربية، المنصبة روافدها هادئة او صاخبة، في خضم الاسلام المتطور، المختمرة على تداخل بالغ، وتنافذ عميق في تلك البيئة النشطة بحوية، فعالة الى استساغة كل غذاء، متمثلة في شخصيتها الجبارة فلسفة اليونانية، الى علوم السريان، الى جماليات الفرس، الى مهارات الهند والصين، الى مغامرات الكرد والترك والديلم، الى مزج الزنج والسودان، الى تल्प السند وحيل الزط وقساوة القرامطة.

أوليس عجيباً أن نشهد تلك الشعوب تتعايش على تباين العقائد والعبادات والخلقيات: من اليهودية، الى المسيحية النصرانية، والرومية، الى الزرادشتية حتى المزدكية، الى الصابئة، الى البوذية، الى الدهرية، مؤثرة الاثر البليغ في نشأة البدع، والملل، والنحل في الاسلام وفرقه ثم تتخاطب، وتتناقش، وتتجادل في كل ذلك بمختلف اللغات واللهجات، وتراقص مترنحة على متنوع الالحان والانغام، متمرسه بتراثاتها العلمية، والادبية، منطقاً، وطباً، وفلكاً، ورياضيات، ثم قصصاً، وشعراً، آخذة بتطبيقاتها العملية، في المجتمع مدحاً، وهجاء، وفخراً، ورثاء، ثم تعليمًا، وعلاجًا، وصناعة حتى الشعوذة والاحتيال احياناً.

واذا ببغداد المهيمنة، على هذه الحضارة الجديدة في عرف العرب، تنظم المعارف البشرية في عصرها، وترتب العلاقات الاجتماعية، تشرح المنطق وتفرض أصوله، توضح معالم الفلسفة وتصنف العلوم بأسرها، معتمدة العقل والقياس، تفسر نصوص القرآن وتنشئ علم الكلام، تحدد علوم اللغة وتصنع أصول البلاغة والبيان، تنسق فنون الشعر وتفضل طبقات الانشاء.

فتندمج المعلومات الوضعية، من قديم وحديث، من أصيل ودخيل، بالطبيعة الانسانية الخالدة، حتى لا مفارقة بين خواطر العقل وشواعر القلب، ولا تدابير بين رياضات الفكر ومطارح الحس والخيال. إنما هو الانسان بكله

تصهره هذه البودقة الهائلة في جيشانها، فتعيده سبيكة، كاملة، في نتاج الثقافة الحق.

هذه الحضارة العربية الاسلامية البالغة اوج ازدهارها في أيام الدولة العباسية، سيما في القرنين الاولين من حياتها، والمائلة الى الانحدار في القرنين التاليين، المتدركة نحو الانحدار في القرن الاخير من عمرها البالغ خمسة قرون. والتي تمثل في الواقع العصر الذهبي للمشرق العربي، وهي تتألق بين أعظم الحضارات العالمية، نتيجة اسهام شعوب مختلفة: عرب وسريان، واثراك، وفرس، وهنود وحتى يونان. كما اخذت من اديان مختلفة اسلامية ومسيحية وحتى يهودية. وازدهرت تلك الحضارة من الخليج الى المحيط خلال ستة قرون وأمنت للغرب نصوص العلماء والفلاسفة القدامى. زائدة عليها مبتكراتها الخاصة. وبهذا كانت حلقة وصل بين ثروة الماضي ووعود المستقبل.

هذا هو الكتاب الذي يبرز علينا من وراء الغيب يحكي لنا قصة التعايش الانساني والتعامل البشري والحياة المشتركة بين مادة الدولة وهويتها الاسلام والمسلمين وبين بطاقات الاحوال الشخصية لاهل الذمة (اليهود والنصارى والصائبة) كيف كانت علاقاتهم المتينة والمبنية على الاخوة والمواطنة من حيث الحقوق والواجبات والممارسة اليومية، رغم ما كان يشوبها من الاضطهاد والصلافة لفترات قصيرة كأني بها حجابات الغيمة الصيفية ما ان تتحالك حتى تتبدد وتعود الشمس ناصعة بكبد السماء، العدالة والمساواة.

وهكذا تكون غاية المؤلف الذي يرسم لوحات واضحة الخطوط زاهية الالوان رغم العتمة بمسحتها الضبابية التي لا تؤول ان تنقشع، لوحات عن الحياة الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والثقافية التي مارسها المسيحيون وعاشها ضمن اللوحة الكبيرة لحياة الدولة، وهو بذلك يؤمن للباحثين في الآداب العربية والمجتمعات الاسلامية خصوصاً وفي التاريخ عموماً من المظاهر

التي كانت تحيط بالادباء، كتابا، وشعراء، فلاسفة ومنطقيين، ومترجمين، أطباء ووزراء وتكوّن حضارة عهدهم.

فالكتاب هو ثمرة توثيق وافر وسنوات عديدة من الدراسة المتصلة واستمرار مضني من الجَلْد والجهد، والصبر، والسهر. فيشرّف كتاب الاب سهيل قاشا مؤلفه المعروف بمؤلفاته العديدة وبحوثه الرصينة ذات القيمة الراجحة، فنتمنى ان يستفيد قراء عديدون من ثروة هذا الكتاب الثمين.

بيروت في الاول من تشرين الثاني

١٩٩٤م

الأب جان موريس فيبي الدومنيكي*

* ونحن نطبع هذا الكتاب وقد غادرنا الأب جان فيبي إلى عالم السماء - رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه - لا بد من إلقاء بعض الضياء على ومضات حياته العلمية الكبيرة فنقول: ولد في فرنسا عام ١٩١٤. دخل الرهبانية الدومنيكية في العام ١٩٣٢، وسيم كاهناً عام ١٩٣٨. قدم إلى العراق وعاش في مدينة الموصل التي أحبها وأحبه شعبها للفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٧٢. في العام ١٩٤٥ أسّس كلية الموصل وأدارها إلى العام ١٩٥٩. وانتقل إلى بغداد عام ١٩٦٦ لتأسيس دير للدومنيكان فيها. وأثناء إقامته فيها حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة ديجون الفرنسية بأطروحته عن "مقارنة تكريت" كما مُنح الدكتوراه الفخرية من جامعة لوفان البلجيكية والسوربون في باريس. وحصل على دكتوراه الشرف من المعهد الشرقي في روما. وتعيّن عضواً في لجنة التاريخ الدولية منذ تأسيسها من قبل الفاتيكان. توفي في بيروت عام ١٩٩٥. من أشهر مؤلفاته وكلها بالفرنسية والانكليزية: "أشور المسيحية" و"أحوال النصارى في خلافة بني العباس" (بيروت ١٩٩٠) "معرب و"الموصل المسيحية" وغيرها. كنت أزوره في الشهر مرة طوال مكوثي في بيروت (١٩٩٢-١٩٩٥).

المقدمة

خرجت الجيوش العربية الاسلامية، في مطلع القرن السابع الميلادي من الجزيرة العربية لتحرير ارض العراق من الاحتلال الفارسي والذي تم بعد معركة القادسية الفاصلة عام ٦٣٥م/١٤هـ. ثم تحرير بلاد الشام من السيطرة البيزنطية بعد معركة اليرموك عام ٦٣٦م/١٥هـ. واستمرت الجيوش العربية الاسلامية ببسط نفوذها على ما يجاور العراق وبلاد الشام فوصلت الهند وحدود الصين شرقاً، ثم سيطرت على بلاد الاناضول وارمينية شمالاً، ومن ناحية الغرب دخلت مصر وانتشرت على امتداد شمال افريقيا. بما فيه ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، ومن ثم عبرت الى اسبانيا فاسست دولة عربية اسلامية في جنوبها ببلاد الاندلس.

هكذا نشأت الامبراطورية العربية الاسلامية، بايام الخلفاء الراشدين، وتكونت بايام الخلفاء الامويين، ثم اكتملت وازدهرت وبلغت اوج عظمتها في ايام الخلفاء العباسيين، غير انها مثلما تكونت، سقطت وتجزأت اقطارها بسقوط بغداد عام ١٢٥٨م على يد هولاكو المغولي.

هذه الدولة بالتاكيد حكمت شعوبا وقبائل مختلفة القوميات ومتعددة الاديان والمذاهب، مما حدا باداراتها ان تسنّ قوانين وشرائع خاصة بافرادها المختلفة معها دينا ومذهبا وعقيدة حيث تكون بطبيعة الحال مجتمعاً جديداً من تلاقح الافراد وتزاوج الاسر، فبرز ما اطلق عليه تاريخيا واسلاميا "أهل الذمة" في الدولة الاسلامية.

وكما تعرف ان الاسلام بكتابه الكريم شرّع سننا خاصة باهل الكتاب من اليهود والنصارى والصابئة وغيرهم بحسب ما ورد فيه من تشريعات خاصة تطورت بتقادم الايام والاحوال واضيف عليها بتوالي الزمن من قبل الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين تخف وطأتها تارة وتشتد اخرى، وهذا ما اردنا توضيحه في كتابنا هذا.

كثيرة هي الاتهامات العديدة التي توجه الى الاسلام وشريعته من مؤرخي أوروبا وباحثي العرب على ظلم اهل الديانات الاسلامية (اهل الذمة) من اليهود والنصارى والصابئة وغيرهم، وقسم من تلك الاتهامات بشعة ومزورة لعدم الرجوع الى المصادر القديمة الموثوقة، واستنباط الحقائق التاريخية من باحثين امتازوا بالنزاهة، والحياد والانصاف التاريخي والعلمي.

لهذا اتيت بكتابي هذا شارحاً ومحققاً ومدققاً لتثبيت وتوضيح لكل ذي حق حقه على مرّ التاريخ، واستنتجنا النتائج الحقيقية للعلاقة بين الاسلام وكتابه القرآن وبين اتباع الديانات اللااسلامية موضحين التسامح الذي منحه الاسلام لهم بالاضافة الى حرية المعتقد والعمل والتملك والحماية الشخصية مع املاكهم لقاء دفع الجزية الزهيدة يتقاضاها بيت مال المسلمين.

ان ظلم بعض الخلفاء الامويين ومن بعدهم العباسيين لاهل الذمة في فترات مزاجية وعصبية وحسب الظروف التي يمر بها الخليفة او قواده، فليس معناه ان الاسلام عامة أمعن في ظلم المسيحيين وبقية اهل الذمة. فالتصرف الفردي للخليفة لا يرتبط مباشرة بركائز الديانة الاسلامية، ولا يوجب ربط عمله بتسامح الاسلام وتعاليم شرّعها محمد تجاه اهل الملل الاخرى وخاصة المسيحيين منهم .

من هنا بدأ عملنا الدؤوب لتظهر العلاقة والمستوى المعيشي والاجتماعي والثقافي وحتى الجانب العسكري التي وصلت اليه اهل الديانات اللااسلامية -

أهل الذمة - مع رجال دينها وعلمائها، اطباؤها ومهندسيها، مترجميها وكتّابها، وارتقائهم أعلى المناصب في العصرين الأموي والعباسي، مستغلين هذه الظروف لتقوية ابناء طائفتهم وحمايتهم من بعض تصرفات الولاة أو القواد العباسيين.

لذلك فقد كسرنا البحث الى فصول متعددة، أردنا من خلالها الشرح والتوضيح بأسهاب عن حياة أهل الذمة سيما المسيحيون منهم وعلاقتهم بالسلطة والادارة، إذ برزوا خاصة في تطور الدولة الاسلامية والبلوغ بها الى أوج عظمتها سيما في الحياة الفكرية الثقافية والعلمية والعملية وعلى الاخص في الطب والترجمة والعلوم الاخرى كالهندسة والفلك وصنع الادوية، اضافة الى الفلسفة وعلم الكلام، فاعتمد لذلك عليهم الخلفاء والوزراء والامراء والاسر الغنية لما تمتعوا به من قابليات وطاقات فكرية مع سلوكيات اجتماعية، تجذب الانظار كالأمانة والوفاء والصدق والاخلاص والتعامل الاجتماعي ذات العلاقات السليمة والصالحة والتي استمرت باستمرار الدولة العربية الاسلامية.

ما دفعني، اصلاً، الى هذا البحث الحضاري التناقض الذي يقع عليه الدارس، وهو ينظر في تاريخ الدولة العربية الاسلامية منذ نشأتها ايام الخلفاء الراشدين وحتى سقوطها بسقوط الدولة العباسية مروراً بالخلافة الاموية في الشام، واختلاف الطبقات الاجتماعية، والثقافية والعلمية فيها، وتضارب روايات المؤرخين القدامى والمحدثين وتناقضاتهم رغم ترادفهم وتواردتهم من منهل واحد. فالجتمعات البشرية، في كل مكان وزمان عرضة للتمازج والاختلاط والتصديق القائم بين مختلف العناصر الاصلية والطارئة عليها، مع الرفض وعدم القبول الواحد للآخر، ثم التجاذب والتنافر، يتمثل تماماً بالمدونين للتاريخ من مجتهدين واصيلين، من دخلاء ومتطفلين عليه بين التقليديين والاصوليين.

قلنا كسرنا الكتاب الى الفصول التالية:

الفصل الاول: احكام الاسلام في أهل الذمة، وتناولنا فيه التعريف باهل الذمة، وعقد الذمة، المستأمنون من اهل الكتاب وشروط عقد الذمة ونقضه. كما وتناولنا فيه الاحكام المالية كالجزية، والخراج وعشور التجارة واحكام العقوبات والجرائم، واحكام الاحوال الشخصية، مع الاحكام الاسلامية في حقوق أهل الذمة، كالحقوق السياسية، وحقوقهم في العمل والوظائف.

الفصل الثاني: وتحدثنا فيه عن دور اهل الذمة في الحضارة العربية الاسلامية في العلوم الآداب والفنون كالشعر والموسيقى ثم المدارس واثرها في الثقافة العربية الاسلامية.

الفصل الثالث: وتكلمنا فيه عن احوال أهل الذمة، في الدولة العباسية في التنظيم الاداري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي اضافة الى التقاليد والاعیاد والمناسبات.

الفصل الرابع: وتناولنا فيه دور اهل الذمة المسيحيون في النهضة العلمية في الدولة العربية الاسلامية، وخاصة الاطباء والحكماء وعلاقتهم بالخلفاء العباسيين.

الفصل الخامس: تطرقنا فيه على دور الاطباء المسيحيين في المجتمع العباسي: نوادرهم وطرائفهم وأیضا نكباتهم وتنافسهم. وكذلك عرجنا على دخل الاطباء العاديين والمشهورين منهم .

الفصل السادس: من الاهمية بمكان ان نشرح حركة الترجمة والنقل في الدولة العربية الاسلامية من اللغة اليونانية والسريانية والفارسية والهندية فتناولنا حركة التعريب هذه بشيء من الاسهاب لما لها من الاهمية في ايام الدولة العباسية.

الفصل السابع: ذكرنا عن المسيحيين وتعريب التراث اليوناني في عصر الدولة العباسية سيما ايام المنصور والرشيد والمأمون.

الفصل الثامن: وجدنا من الضرورة التطرق على الوزراء والكتاب المسيحيين في الدولة العربية الاسلامية فذكرناهم باقتضاب ملحوظ فوق الملل والتكرار.

الفصل التاسع: أوردنا بذكر ملحوظ دور الاطباء المسيحيين السياسي في العصر العباسي، وما قاموا به من الدفاع عن مللهم ومقاومة ما كان ينتابهم من المحن والصعوبات في التدرج بالمناصب والمكانة الاجتماعية .

وختمنا البحث في خلاصة عامة مع قائمة طويلة بجميع المصادر والمراجع القديمة والحديثة، الاجنبية والعربية، بقي ان نقول:

لقد استغرق منا الوقت في اعداد هذا الكتاب اكثر من عشرين سنة رجعنا فيها الى امهات المصادر العربية الاسلامية من مخطوطات وكتب تراثية قديمة مع كتب عربية حديثة اضافة الى كتب المستشرقين المترجمة منها والاصلية مستقصين الاخبار والاحداث والسير والتراجم من مكانها مع دقة التحقيق والتدقيق والتوفيق والمقارنة. علما ان سبق وكتبنا في هذا الميدان مقالات وبحوث عديدة نشرناها في المجلات العراقية، والعربية، مع اصدار كتاب اول بهذا الموضوع تحت عنوان "لمحات من تاريخ نصارى العراق" عام ١٩٨٥م. كما ونوه - ان صح الذكر - انه قمنا بانجاز كتاب آخر بثلاثة اجزاء سرى النور قريباً تحت عنوان "المسيحيون في العهد الاموي" وسيصدر عن مركز التراث العربي المسيحي.

استندت في بحثي المتواضع هذا - كما ذكرت اعلاه - الى مصادر قديمة ومراجع حديثة، عربية واجنبية، ضارباً في الجذور، من اهم المصادر التي بنيت

عليها ومعتمداً في الوقت نفسه، الدراسات التي تنظر بعين جديدة الى الحضارة، على ضوء التفاعل العالمي، والتقدم الفلسفي العلمي، ومن خلال المفاهيم الانسانية الحديثة، ورجعت الى الاطروحات الجامعية، مفيداً من الجوانب الحضارية الجدية التي عاجلتها لمنهجية دقيقة مراقبة.

واعتمدت المنهج التاريخي التكاملي المناسب، وحاولت جاهداً ان القي نظرات جديدة على موضوع اكثر التداول فيه مستأنسا بأراء البحاثة الثقة، وان ابتعد عن التحيز، وادلّ على بعض الثغرات التي كان لها تأثير سلبي في تكوينات المجتمعات الاسلامية والتاريخ وعموماً يتقدم تقدماً متصلاً مستمراً وانما تعثره نكسات وخطوات الى الوراء، تعرقل الى حين قفزاته التقدمية الا ان احكامه دوماً عادلة وصارمة.

وكنتيجة حتمية لكتابنا هذا هو تبيان الحقيقة في العيش المشترك الذي كان يمارسه اجدادنا القدماء في ندوات وحوارات فكرية، ودينية، وعلمية، وجدالات اثمرت فيها المحبة والتعاون والعلاقات الانسانية، والتي تصبو اليها في مجتمعاتنا اليوم مستقبليين القرن الحادي والعشرين بذهنية جديدة ونيات سليمة غير مبيتة، مبنية على الاخوة والتسامح والصلوات المميزة، فيعرف كل حدوده، حقوقه وواجباته لخدمة الوطن والدفاع عنه والنهوض بالامة الى اسمى مراتب التطور العلمي والفكري والاجتماعي والاقتصادي. فنعيش في وطن حر حياة حرة كريمة.

بعد كل هذا الكلام - قاتل الله المقدمات الشرقية والغربية - لا يمكنني، كما لا يسع أحد غيري، ان يدعي الاحاطة بكل موضوعات الحضارة والمجتمع، وتوفيتها حقها من البحث والتفريع والاستقصاء، اذ هي موضوعات لا يحدها حد، ولا يحصرها حصر، وقد اعتاد الباحثون في شؤون الحضارة ان يتركوا مشاغل الفكر والتاريخ والادب، على اهميتها البالغة في تكوين

الحضارات والمجتمعات، لان طلاب المعرفة يكونون قد توسعوا فيها على مدى دراساتهم السابقة، ولأنها تستحق أبحاثاً واسعة، ومتعددة مستقلة. فحذوت حذوهم، وعالجت موضوعات حضارية اجتماعية فكرية بدت لي مهمة، واغفلت غيرها مما لا يقلّ عنها اهمية، وبذلك يمكنني القول انني توقفت عند وجوه من الحضارة العربية الاسلامية، ولم اعالج كل جوانبها، غير ان المحطات التي توقفت عندها تعطي صورة وافية عن ميزة هذه الحضارة واهميتها.

وارجو ان اكون قد اضفت مدمكاً جديداً، وان صغيراً على صرح الحضارة العربية الاسلامية الشاهق، ولبنة جديدة في صرح الدراسات العربية، وملأنا فراغاً في مكتبتها وان بـحيز ضيق.

والله وليّ التوفيق.

دير الشرفة

١٩٩٥/٥/١٧

الفصل الأول

أحكام الاسلام في أهل الذمة

التعريف بأهل الذمة

لقد اعتبر محمد، ومن جاء بعده من الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين، ان اليهود، والنصارى المسيحيين، هم أهل الذمة ممن اعترف الاسلام بهم وعقد الذمة معهم، وقد ادخل كل من المجوس والصابئة في عداد أهل الذمة، وأما معنى الذمة فهي:

الذمة في اللغة العهد والامان والضمان، وأهل الذمة هم المعاهدون من النصارى واليهود وغيرهم ممن يقيم في دار الاسلام^(١).

ومعناها ايضا العهد الخاضع لاحكام المسلمين القائم باداء الجزية المرتبة عليه من قبل الامام سواء كان يهوديا او نصرانيا او مجوسيا او وثنياً غير عربي^(٢).

والذمة، في الفقه الاسلامي: العهد الذي يُعطى للقوم الذين لم يدخلوا في الاسلام عند فتح المسلمين لبلادهم، ولا يُسترقون، ويؤمنون على حياتهم وحریتهم واموالهم، وعباداتهم^(٣). فجاء في حديث محمد (يسعى بذمتهم ادناهم) وقد فسّر الفقهاء (ذمتهم) بمعنى الامان^(٤).

(١) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج ٤ ص ١١٥. المنجد ص ٢٣٧. السرخسي الحنفي، شرح السير الكبير، ج ١ ص ١٦٨.

(٢) الغزي، جلاء الظلمة عن حقوق أهل الذمة (مخطوط) ورقة ١٨.

(٣) انظر دائرة المعارف الاسلامية، مادة ذمة ج ٩ ص ٣٩٠ - ٣٩١.

(٤) ادريس الحنبلي، كشف القناع، ج ١ ص ٧٠٤.

ويعترف المستشرق كلود كاهن Cahen الذمة، بأنه مصطلح لتمييز نوع من العقد يمنحه المسلمون لضيفة، وحماية اعضاء الديانات الاخرى المعترف بها بشرط انها (اي الديانات) تعترف بسيادة المسلمين عليها^(٥) .

عقد الذمة

وقيل: في تفسير عقد الذمة بأنه إقرار من الكفار على كفرهم بشرط بذل الجزية، والتزام احكام الذمة^(٦) .

وقيل: إنما قبل منهم عقد الذمة - ليقفوا على محاسن الاسلام، فعسى ان يؤمنوا^(٧) .

وقيل أيضاً: والحكمة في عقد الذمة معهم احتمال دخولهم في الاسلام عن طريق مخالطتهم للمسلمين، واطلاعهم على شرائع الاسلام، وليس المقصود من عقد الذمة تحصيل المال^(٨) .

ويقول المؤرخ زيدان في كتابه أحكام الذميين: وعلى هذا يمكن القول: (بأن عقد الذمة بمقتضاه يصير غير المسلم في ذمة - المسلمين، أي في عهدهم، وامانهم على وجه التأيد، وله الإقامة في دار الاسلام على وجه الدوام^(٩) .

ويقول المستشرق ريسلر: (وتطلق لفظ الذمة - على غير المسلمين الذين كانوا يقطنون اراضي العالم الاسلامي، ويتمون الى الاديان المنزلة)^(١٠) .

(٥) انظر Cahen, Ency.. of Islam, Dhimma, p.227.

(٦) ادريس الحنبلي، كشف القناع، ج ١ ص ٧٠٤.

(٧) السرخسي الحنفي، شرح السير الكبير، ج ٣ ص ٢٥٤.

(٨) السرخسي، المبسوط، ج ١ ص ٧٧.

(٩) انظر عبد الكريم زيدان، احكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام، ص ٢٢.

(١٠) انظر جاك ريسلر، الحضارة الاسلامية، ص ٧٧.

المستأمنون

ويسمون ايضاً بـ(المستأمنون) وهم الذين طلبوا الامان^(١١) . والمستأمن (بكسر الميم) هو الطالب للأمان. ويصح (بفتح الميم) بمعنى صار آمناً^(١٢) . وقد ورد هذا اللفظ في القرآن "وان أحداً من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبْلغْه مَأْمَنَهُ"^(١٣) .

فالذميون يعتبرون من أفراد الأمة، الاسلامية، في دار الاسلام^(١٤) . يرتبطون بالدولة الاسلامية.

أما المستأمنون فهم الاجانب عن دار الاسلام، وليسوا من أهلها^(١٥) ، ولكنهم حصلوا على الأمان من المسلمين ليعيشوا معهم ولتعاملوا عن طريق التجارة وغيره.

وأهل الذمة: هم المستوطنون في بلاد الاسلام من غير المسلمين، وُسِمُوا بهذا الاسم لانهم دفعوا الجزية، فأمنوا على ارواحهم واعراضهم واموالهم وأديانهم، واصبحوا في ذمة المسلمين^(١٦) .

(١١) معلوف، المنجد، ص ١٦.

(١٢) ابن عابدين، ردّ المختار، ج ٣ ص ٣٤١.

(١٣) سورة التوبة، الآية ٦.

(١٤) دار الاسلام هي الدار التي تجري عليها أحكام الاسلام ويأمن من فيها بأمان المسلمين سواء كانوا مسلمين او ذميين (عبد الوهاب خلاص، نظام الدولة الاسلامية، ص ٦٩).

(١٥) انظر زيدان، احكام الذميين، ص ٦٧.

(١٦) انظر الخربوطلي، الاسلام واهل الذمة ص ٦٥.

أهل الكتاب

وهم يسمون أيضاً بـ (أهل الكتاب) وهم الذين لهم كتب منزلة، من اليهود^(١٧) والنصارى^(١٨).

وقد ورد ذكر (أهل الكتاب) في القرآن في آيات كثيرة^(١٩). منها قوله تعالى: "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً"^(٢٠).

وأهل الكتاب عند الحنفية أصحاب الكتب السماوية المنزلة. كالنوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وشيث وزبور داود^(٢١). وعند الشافعية والحنبلية هم النصارى واليهود دون غيرهم مستندين إلى قوله تعالى: (إن تقولوا إنما انزل الكتاب على طائفتين من قبلنا)^(٢٢). ويقول

(١٧) اليهود، نسبتهم إلى يهودا بن يعقوب (الشعاري)، غذاء الالباب لشرح منظومة الاداب، ج ٢ ص ١٢.

(١٨) النصارى: وقد سُموا بهذا الاسم نسبة إلى قرية بالشام يقال لها ناصرة (نفس المصدر السابق).

(١٩) سقري البقرة، آية ١٠٥ و ١٠٩. سورة آل عمران، آية ٦٤ و ٦٥ و ٦٩ و ٧٠ و ٧١ و ٧٢ و ٧٥ و ٩٨ و ٩٩ و ١١٠ و ١١٣ و ١١٩. وسورة النساء، الآية ١٢٣ و ١٥٣ و ١٥٩ و ١٧١. سورة البينة، آية ١ و ٦، سورة المائدة، الآية ٤ و ١٥ و ٤٧ و ٦٥ و ٦٨ و ٧٧. سورة العنكبوت، آية ٤٦، سورة الحديد، آية ٢٩، سورة الحشر، آية ٢ و ١١... (٢٠) سورة آل عمران، آية ٦٤.

(٢١) الحصكفي، الدر المختار، ج ٣ ص ٣٧٠ الزيلعي، تبين الحقائق وشرح كثر الدقائق، ج ٢ ص ١١٠. علماء الهند، الفتاوى الهندية، ج ١ ص ٢٨١. (المنزل على إبراهيم عشر صحائف وعلى شيث ١٥٠ صحيفة) ابن الاثير، الكامل، ج ١ ص ٢٩ و ٧٠. أما الزبور (فقد انزل على داود ويتضمن قصائد وانشيد في تسبيح الله وحمده والثناء عليه والتضرع له) (عبد الوهاب النجار، قصص الانبياء ص ٣٠٧).

(٢٢) سورة الانعام، آية ١٥٦.

الشهرستاني^(٢٣) (٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م): (ويخاطب القرآن اليهود والنصارى يا اهل الكتاب، والى جانب هؤلاء من لهم شبهه الكتاب مثل المجوس والمناوية^(٢٤) . فان الصحف التي انزلت على ابراهيم قد ارفعت الى السماء لاحداث احدثها المجوس. ولهذا يجوز عقد العهد والزام معهم، ولكن لا يجوز مناكتهم ولا اكل ذبائحهم فان الكتاب قد رفع عنهم)^(٢٥) .

وتسمية اهل الكتاب التي وردت في القرآن تشمل اليهود والنصارى، ثم توسعت هذه التسمية لتشمل الصابئة والمجوس، كما وردت في القرآن آيات تطلق عليهم (اهل الذكر) وهم اصحاب الاسفار القديمة والمزامير^(٢٦) .

ويجيز مالك^(٢٧) والاوزاعي^(٢٨) والزيدية^(٢٩) . عقد الذمة. لغير المسلمين سواء كانوا من وثنيي العرب او غيرهم، مستندين الى الآية القرآنية (فاقتلوا

(٢٣) الشهرستاني (ابو الفتح محمد) متكلم من فلاسفة الاسلام ومؤرخي الاديان اشتهر بكتابه "الملل والنحل" استعرض فيه المذاهب الدينية، والفلسفية التي عرفها من مدرسة الاشعرية.

(٢٤) المناوية مذهب فكري ديني أسسه ماني (٢١٥ - ٢٧٦ م) والقائل بمبدأين: مبدأ الخير ومبدأ الشر. النور والظلام، واليه مرجع اليزيدية. ادخل ماني في التصوير الفارسي نسور التصوير الصيني ورسم الملائكة والشياطين.

(٢٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ج ١ ص ٢٠٨.

(٢٦) The Ency of Islam, vol. 1. p.264 - 266 .

(٢٧) مالك بن أنس (٩٣ - ١٧٩ هـ / ٧١٢ - ٧٩٥ م)، أحد الائمة الاعلام. مؤسس المالكية. احد المذاهب الفقهية الكبرى في الاسلام. ولد وتوفي في المدينة له "الموطأ" الذي هو اساس المذهب. و"الرد على القدريه" و"المدونة الكبرى" لمذهبه - مكانة كبرى في المغرب.

(٢٨) الاوزاعي (عبد الرحمن) (٨٨-١٥٧ هـ / ٧٠٧-٧٧٤ م) من ائمة الفقهاء في الاسلام. وُلد في بعلبك. ترك مذهباً معروفاً. كان جريئاً. احتج على ظلم الولاة، لا سيما بعد ثورة المنيطرة سنة ٧٥٩ م. قهره جنوبي بيروت له كتاب "السنن" و "المسائل".

(٢٩) الزيدية: طائفة من الشيعة تقول بإمامة زيد بن علي بن الحسين. قامت لهم دولة في طبرستان بايران. أسسها الحسن بن زيد. أكثر سكان اليمن هم من الزيدية، ومنهم الائمة الزيديين والرسيون الذين ملكوا اليمن. انتهى حكمهم في ثورة عام ١٩٦٢.

المشركين حيث وجدتموهم^(٣٠)) وقد نزلت هذه الآية قبل نزول آية الجزية. ولما نزلت آية الجزية اخذها الرسول من المجوس وهم ليسوا من اهل الذمة وهذا دليل على جواز اخذها من المجوس، وان كان محمد لم يأخذ الجزية من عبدة الاوثان من العرب لانهم اسلموا جميعا بسبب الآية (وقاتلوا المشركين كافة^(٣١)) التي نزلت قبل نزول آية الجزية. ويقول زيدان: (ولان كفر المجوس اشد من كفر عبدة الاوثان لانهم يقرّون بتوحيد الله بخلاف المجوس الذين لا يقرّون بالتوحيد)^(٣٢).

وقد استندت المذاهب الفقهية، في قبول الجزية من المجوس الى قول محمد فيهم : (سنّوا بهم سنّة اهل الكتاب غير ناكحي نساءهم ولا آكلي ذبائحهم)^(٣٣).

المعاهدون

وترد في كتب الفقه والتاريخ على الطوائف الدينية من غير المسلمين إسم (المعاهدون) وهم الذين كتبوا العهود مع المسلمين على ترك القتال والموادة والامان^(٣٤) على انفسهم واموالهم ونسائهم وعقائدهم لانهم اصحاب عهد يلتزم المسلمون بالمحافظة عليه. فإن كانوا هؤلاء في دار الاسلام اعتبروا من اهل الذمة وتطبّق عليه احكام الذمة، اما اذا كان المعاهدون الذين سالموا وهادنوا المسلمين بالتوقف عن القتال، فان دخلوا في دار الاسلام لم يتعرض لهم احد بسوء لأنه آمن بتلك المعاهدة.

(٣٠) سورة التوبة، آية: ٥٠.

(٣١) سورة التوبة، آية: ٣٦.

(٣٢) انظر: زيدان، احكام الزميين، ص ٢٨.

(٣٣) رواه الشافعي في المنن في جمع وترتيب مسند الشافعي السنن، ج ١ ص ١٢٦. ومالك، الموطأ، ج ٢ ص ١٣٩. سحنون، المدوّنة الكبرى، ج ٣ ص ٤٦.

(٣٤) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٧ ص ١٠٦ و ١٠٨.

وان كتب الاسلام ترمي من استعمال اصطلاح (المعاهدون) على اهل دار الحرب الذين يعقدون المعاهدات مع المسلمين على ترك القتال.

الجوالي (٣٥)

وهم يسمّون احياناً بـ(الجوالي) (٣٥). وهم اهل الذمة الذين اجلاهم عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤) من جزيرة العرب ثم نقلت هذه اللفظة الى الجزية التي اخذت منهم. واستعملت في كل جزية تؤخذ، وان لم يكن صاحبها جلا عن وطنه (٣٧). وجاء في كتاب جامع المختصر (٣٨)، (الجوالي: وهم اهل الذمة في بلاد الاسلام، ويؤدون الى الخليفة الجزية بمقتضى الشريعة).

ومهما يكن من تعدد التسميات فان التسمية عند الفقهاء والمؤرخين هي اسم (اهل الذمة) وهم اليهود والنصارى والمجوس والصابئة.

عقد الذمة

بعد قيام الفتوحات الاسلامية، ولا سيما بعد فتح العراق وبلاد فارس، اصبح على المسلمين، وضع نظام يحدد الحقوق والواجبات بينهم وبين الذميين من اهل البلاد المفتوحة، بما تتلاءم والاسلام، واجراءات محمد والخلفاء الراشدين بعقد سلسلة من عهود الصلح، والامان مع الذميين اطلق عليها في التاريخ الاسلامي احكام عقد الذمة.

(٣٥) الجوالي، جمع جالية، اصلها الجماعة التي تفارق وطنها وتنزل وطناً آخر. كما انها تستعمل محل لفظة (جزية) راجع، رسائل الصائب ص ١٤٠ و ٤١٢. الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي ص ١٩٦.

(٣٧) ابن الساعي، الجامع المختصر، ص ٢٥٩.

(٣٨) ابو يوسف، الخراج، ص ٢٣. الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ١٢٨. ترتون، اهل الذمة، في الاسلام، ترجمة الدكتور (حسن حبشي، ص ٩.

وتعقد الذمة لكل شخص راغب من أصحاب الديانات التي أشار إليها القرآن، وقد شرع عقد الذمة لأول مرة بعد فتح مكة، ويؤيد ذلك آية الجزية التي تتضمن عقد الذمة، وهي قوله: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله وباليوم الآخر، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" (٣٩)

ويتولى عقد الذمة الامام او نائبه مع غير المسلمين، فلا يصح غيرهما لانه عقد مؤبد^(٤٠). ويشترط في عقد الذمة عند الشافعية والحنابلة شرطين هما: التزام دفع الجزية، والتزام احكام الاسلام^(٤١) وقال محمد فيهم:

"اذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم الى ثلاث خصال، فايتهن اجابوك اليها، فاقبل منهم وكفّ عنهم، ادعهم الى الاسلام فان هم أبوا فاسلهم الجزية، فان هم اجابوك فاقبل منهم، وان هم أبوا، فاستعن بالله وقاتلهم" (٤٢).

وقد اتخذت هذه المبادئ اساساً في عقد الذمة مع غير المسلمين، فكان القواد يخبرون اهل البلاد عند فتحها بين الاسلام والجزية والحرب.

وتعقد الذمة اذا طلب من يريد الذمة، فقد دعا محمد نصارى نجران الى عقد الذمة معهم حين طلبوها منه^(٤٣) او اذا كان الغرض

(٣٩) سورة التوبة، آية ٢٩.

(٤٠) انظر زيدان، احكام الذميين، ص ٣٣. القلقشندي، صبح الاعشى، ص ١٣ ص ٣٦٠.

(٤١) ابن ادريس الحنبلي، كشف القناع، ج ١ ص ٧٠٤. الشريبي، مغنى المحتاج، ج ٤ ص ٢٤٢ و ٢٤٣.

(٤٢) رواه صحيح مسلم، ج ٧ ص ٣١٠، سنن ابن داود، ج ٣ ص ٤١٦، وصحيح الترمذي ج ٧ ص ١١٩.

(٤٣) راجع، زيدان، احكام الذميين، ص ٣٠.

من عقدها مخالطة الذمي للمسلم، وإطلاعه على مبادئ الاسلام الذي قد يحمله الى اعتناقه^(٤٤) وقد حدد محمد حقوق من تعقد له الذمة، فقال: "فإذا قبلوا عقد الذمة، فأعلمهم ان لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين"^(٤٥) وقال الامام علي توكيداً لقول محمد: (انما قبلوا عقد الذمة لتكون اموالهم كاموالنا، ودماؤهم كدمائنا)^(٤٦) وبهذا يكون الذمي كالمسلم في الحقوق والواجبات.

نقض عقد الذمة

نستطيع ان نلخص الاسباب التي تنتقض عهود أهل الذمة. وهي:

- ١- إذا أسلم الذمي.
- ٢- إذا التحق الذمي، بدار اهل الحرب واشترك بها.
- ٣- إذا امتنع الذمي عن بذل الجزية.
- ٤- إذا شهر الذمي السلاح بوجه المسلمين.
- ٥- إذا ضرب الذمي مسلماً.
- ٦- إذا اعتدى الذمي على مال المسلم او على نفسه.
- ٧- إذا زنا الذمي بمسلمة او اصابها باسم نكاح.
- ٨- إذا طعن الذمي في الدين الاسلامي وذكر الله وكتابه ورسوله بسوء.
- ٩- إذا قطع الذمي الطريق على المسلمين، او غيرهم في دار الاسلام.
- ١٠- إذا فتن الذمي مسلماً عن دينه.

(٤٤) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٧ ص ١٠٠.

(٤٥) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٧ ص ١٠٠.

(٤٦) السرخسي الحنفي، شرح السير الكبير، ج ٣ ص ٢٥٠.

١١- اذا تجسس الذميّ على المسلمين، وكشف عوراتهم، ونقائصهم للاعداء^(٤٧).

١٢- اذا قدّم الذميّ الطعام والشرب المحرّم على المسلمين واطعمه لهم^(٤٨).
وقد اختلف الفقهاء فيما ينقض العهد، فيرى ابن قيّم الجوزية^(٤٩) (ت ٧٥١ هـ/١٣٥٠ م): "اذا خالف الذميّ عقداً من العقود التي عاهد عليها، انتقض عهده".

شروط عقد الذمة

يدو أن احكام ابن قيّم الجوزية^(٥٠) كانت شديدة وقاسية على أهل الذمة بينما نجد الرحمة والرأفة التي تجلّت في احكام الخليفة عمر بن الخطاب بعد اول حادثة صلب في الاسلام يوم امر بصلب ذميّ زنا بامرأة مسلمة من الشام فقال: (ايها الناس اتقوا الله في ذمة محمد، ولا تظلموهم فمن فعل فلا ذمة له)^(٥١).

والواقع ان الشروط التي وضعت عند عقد الذمة، اضيف اليها شروط أخرى وضعها الفقهاء بشروط لاحقة، وهذا هو السرّ في اختلاف الفقهاء، فيما ينقضوا عهد الذمة. كما ان اختلاف الحكم على شروط نقض العهد جعل الفقهاء في اختلاف كبير، فنصّ الامام أحمد بن حنبل على ان قذف

(٤٧) ابن قيم الجوزية، اهل الذمة، ص ٧٩٣-٨٠١. زيدان، احكام الزميين، ص ٤٢، ٤٣، ابو عبيدة، الاموال، ص ٢٥٩. القزّي الحنفي، جلاء الذمة (مخطوط) ورقة ٨٠ و - ظ.

(٤٨) Fattal, le statut legal des non Musulman, p.77.

(٤٩) ابن قيّم الجوزية، احكام اهل الذمة، ص ٧٩٣.

(٥٠) ابن قيّم الجوزية (محمد) (ت ٧٥١ هـ/١٣٥٠ م) فقيه حنبلي دمشقي - تلميذ ابن تيمية، سجن معه. قاوم الفلاسفة. مصنفاة كثيرة منها "مدارج السالكين"، "إعلام الموقعين"، "الطريق الحكيمة" "الكافة الشافة"، "شفاء الغليل".

(٥١) ابن قيّم، احكام اهل الذمة، ص ٧٩٢.

الذميّ للمسلم لا يكون نقضا للعهد^(٥٢). وقاس الذميّ في هذا الاجراء والحكم على المسلم، فاذا كان المسلم لا يقتل بالقذف، فكذلك الذمي^(٥٣) ولا ينقض عهد الذميّ ايضاً اذا اظهر منكراً، وانما يكفي حينئذ بتعزيزه^(٥٤).
ونصّ الامام الشافعي^(٥٥) في كتابه (الام): "على ان العهد لا ينتقض بقطع الطريق، ولا بقتل المسلم، ولا بالزنا بالمسلمة، ولا بالتجسس، بل يحدّ فيما فيه الحد^(٥٦)".

ويرى المالكية، "ان ما يأتيه الذميون مما فيه ضرر على المسلمين يوجب التأديب لا القتل، وانه لا يكون هذا نقضا للعهد^(٥٧)".
وذهب ابو حنيفة^(٥٨) واصحابه: الى ان العهد لا ينتقض بالسب، ولكن هذا السب اذا تكرر، فعلى الامام ان يعاقب فاعله تعزيراً^(٥٩).

(٥٢) ابن قَيِّم، احكام اهل الذمة، ص ٨٠٠.

(٥٣) ابن قَيِّم، احكام اهل الذمة، ص ٨٠٣.

(٥٤) ابن قَيِّم، احكام اهل الذمة، ص ٨٠٥.

(٥٥) الشافعي (محمد بن ادريس) (١٥٠-٢٠٤ هـ/٧٦٧-٨٢٠ م) إمام مؤسس أحد المذاهب السنية الاربعة ولد في غزّة ونشأ في مكة، ولازم الامام مالك في المدينة ودرس عليه. توفي بمصر وقرره معروف في القاهرة بسفح الجبل المقطم. له تصانيف كثيرة، اشهرها كتاب "الام" في الفروع، جمعه البويطي، وبوّه الربع بن سليمان، وله "المسند في الحديث، والسنن" و"الرسالة" في الاصول.

(٥٦) الشافعي، الام، ج ٤ ص ١٠٩.

(٥٧) ابن قَيِّم، احكام اهل الذمة، ص ٨٠٩.

(٥٨) ابو حنيفة (نعمان بن ثابت) (ت ١٥٠ هـ/٧٦٧ م) إمام المذهب الحنفي واحد الائمة الاربعة المجتهدين عند السنة. ولد بالكوفة ودرّس فيها وافتى. استدعاه ابو جعفر المنصور لتولي القضاء في بغداد فرفض فحبسه الى ان مات. من آثاره: "الفقه الاكبر" و"مسند أبي حنيفة"، هو أول من فصل الفقه الى ابواب واقسام. وصاحب الاجتهاد في الفقه والفرائض بالقياس والري. روى عنه فريق من المجتهدين ونشروا مذهبه في عشرات المؤلفات.

(٥٩) ابن قَيِّم، احكام اهل الذمة، ص ٨١٠.

وان من اظهر لكافر امانا لم يجز قتله بعد ذلك لاجل الكفر استناداً الى قول محمد: "من آمن رجلاً على ذمة، وماله ثم قتله، فانا برئ منه، وان كان المقتول كافراً^(٦٠)".

ويؤكد الماوردي^(٦١)، قول محمد فيهم فيقول: اذا نقض اهل الذمة عهدهم لم يستبح بذلك قتلهم، ولا غنم اموالهم، ولا سبي ذراريهم ما لم يقاتلوا، ووجب اخراجهم من بلاد المسلمين آمنين، حتى يلحقوا ما منهم من ادنى بلاد الشرك، فان لم يخرجوا طوعاً، اخرجوا كرها^(٦٢)."

الأحكام المالية

أولاً: الجزية^(٦٣): فرض ملوك الفرس الجزية على عامة اهل العراق، واعفوا منها الامراء، والمرازية، والاساورة، والموابذة، والهرابذة، ومن في خدمتهم. وقد فرض عمر بن الخطاب^(٦٤)، الجزية على غير المسلمين من سكان العراق ما عدا نصارى تغلب^(٦٥) واهل نجران^(٦٦).

(٦٠) ابن قيم، احكام اهل الذمة، ص ٨٥٧ - ٨٥٨.

(٦١) الماوردي (ابو الحسن) (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م)، فقيه شافعي من الكبار ولد بالبصرة. تولى القضاء في أيام القائم بالله العباسي ببغداد. مال الى المعتزلة من كتبه: "ادب الدين، والدنيا". "الاحكام السلطانية" في السياسة المدنية الشرعية". له "أعلام النبوة" و"الحاوي" في الفقه.

(٦٢) الماوردي، الاحكام السلطانية ص ١٤٦.

(٦٣) الجزية: تستعمل لفظة (جوالي) احياناً محل لفظة (جزية) وتعني كلمة (الجوالي) الجزية التي تدفعها جماعات اهل الذمة التي نزلت من اوطانها الاصلية، ثم اصبحت مرادفة لكلمة جزية، (راجع رسائل الصائى ص ١٤٠، الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي ص ١٩٦).

(٦٤) عمر بن الخطاب (ت ٢٣ هـ / ٦٤٤ م) ثاني الخلفاء الراشدين (١٣ هـ / ٦٣٤ م) أول من لُقّب بامير المؤمنين. خلف ابا بكر الصديق اشتهر بعدله، في أيامه فتحت الجيوش

فالجزية ما يؤخذ من اهل الذمة^(٦٧) . وقيل: هي الخراج المضروب على رؤوس اهل الذمة^(٦٨) . والاصطلاح الشائع في تعريف الجزية: هي الاموال المفروضة على رؤوس اهل الذمة، وتؤخذ ممن دخل الذمة، من اهل الكتاب والمجوس لقاء الحماية، لهم ليكونوا بالكف آمنين. وبالحماية محروسين، كما في قول محمد (احفظوني في ذمتي)^(٦٩) .

وقد اوجبت الجزية على اهل الذمة استناداً الى ما جاء في القرآن والسنة، والاجماع فقال القرآن: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"^(٧٠) .

وقد أجمع الفقهاء على اخذها من اهل الكتاب، ومن المجوس لاختها محمد من مجوس هجر. كما اخذها عمر بن الخطاب من مجوس العراق^(٧١) .

الاسلامية الامبراطوريتين الساسانية بقيادة سعد بن ابي وقاص والبيزنطية بقيادة عمرو بن العاص وابو عبيدة بن الجراح ويزيد بن ابي سفيان وخالد بن الوليد. انشأ "الديوان" لدفع رواتب الجيش، و"الامصار" لادارة الجند والمدن. اغتاله ابو لؤلؤة الفارسي في المسجد.

(٦٥) تغلب بن وائل: قبيلة عربية من ربيعة من العدنانية اخت بكر. جرت بينهما حرب البسوس. ومن شعرائها المهلهل وعمرو بن كلثوم والاخلط. كانوا مسيحيين. حالقوا الامويين ودخل بعضهم الاسلام. منهم بنو حِمدان اصحاب حلب.

(٦٦) نجران، وإد على حدود اليمن والسعودية اشتهر في تاريخ المسيحية وشهادتها الذين احرقهم ذو نواس "في الاخدود سنة ٥٢٣م. اطلال مدن ومعابد قديمة وسدود ونقوش وكتابات سبئية ومعينية. (راجع ابو يوسف، الخارج، ص ٦٩).

(٦٧) راجع المصباح المنير، ج ١ ص ١٣٨.

(٦٨) ابو يوسف، الخارج، ص ٦٩.

(٦٩) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ١٤٣.

(٧٠) سورة التوبة، الاية ٢٩.

(٧١) الطبري، اختلاف الفقهاء، ص ١٩٩. الشريبي، مغنى المحتاج، ج ٤ ص ٢٤٢. ابو عبيدة، الاموال، ص ٣٣.

وقيل ان عمر بن الخطاب تردد اول الامر، ثم قال: ما ادري كيف اصنع بالجوس؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: اشهد لسمعت رسول الله يقول: "سنوا بهم سنة اهل الكتاب" (٧٢).

وقد اختلف الفقهاء ممن تؤخذ الجزية بعد اتفاقهم على اخذها من اهل الكتاب والجوس. فقال ابو حنيفة: تؤخذ من اهل الكتاب والجوس وعبد الاوثان من العجم، ولا تؤخذ من عبدة الاوثان من العرب. ومن الحنفية من يقول: ان الجزية تؤخذ من كل كافر (٧٣).

وأما كيفية أخذها فقد اختلفوا ايضا في تفسير قول القرآن (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)، والمعنى حتى تعطوا الجزية عن رقابهم، واختلف في اشتقاقها. فقال الماوردي (٧٤)، وابو يعلى (٧٥)، أسسها مشتق من الجزاء. اما جزاء عن كفرهم لاخذها منهم صغاراً، او جزاء على أماننا لهم لاخذها منهم رفقا (٧٦). وقال ابن قدامة المقدسي (٧٧) هي مشتقة من جزاء. بمعنى قضاء لقوله "لا تجز نفس عن نفس شيئا" فتكون الجزية مثل الفدية.

ويبدو أن الرأي الاول هو الصحيح حيث ثبت من احكام محمد والخلفاء الراشدين، ومن جاء بعدهم انهم كانوا يأخذون الجزية (اماناً) من اهل الذمة

(٧٢) ابن قيم، احكام اهل الذمة، ص ٢. الصولي، ادب الكتاب، ص ٢١٤.

(٧٣) ابن قيم، احكام اهل الذمة، ص ٣.

(٧٤) الماوردي، الاحكام، ص ٤٢.

(٧٥) ابو يعلى (ابن الفراء محمد) (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م): عالم بغدادى، شيخ الحنابلة في عصره. قرّبه الخليفة القائم العباسي وولّاه القضاء. له تأليف كثيرة منها: "الاحكام السلطانية" و"الكفاية" و"المعتمد" في اصول الدين.

(٧٦) ابو يعلى. الاحكام السلطانية، ص ١٣٧.

(٧٧) ابن قدامة (عبد الله موفق الدين) (ت ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م) فقيه حنبلي من الكبار إمام في علم الخلاف والاصول. مقدسي النسبة، دمشقي الموطن. من آثاره "المغني" في شرح مختصر الخرقي. و"المقنع".

لقاء تعهد المسلمين بالمحافظة على ارواحهم، واموالهم وعباداتهم ولقاء اعفائهم من الخدمة، في الجيش.

وتجبي الجزية على الذكور العقلاء، والبالغين، ولا تُجب على الصبيان والنساء والمجانين، والزمنيين والعميان، والشيوخ، والرهبان^(٧٨).

واما وقت جبايتها ففي شهر المحرم ابتداء السنة الهجرية، او في آخرها بدلاً عن نصره المسلمين لاهل الذمة في دار الاسلام، ولما كانت نصره اهل الذمة للمسلمين يشك فيها لاتفاقهم في الاعتقاد مع اعداء المسلمين (اهل دار الحرب) فاجب الشرع الاسلامي عليهم الجزية لتؤخذ منهم وتصرف على المقاتلة من المسلمين فتكون خلفاً للنصرة. ويؤيد هذا الرأي السرخسي (ت ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ م) بقوله: "ان الجزية من حق المسلمين خلفاً عن النصره"^(٨٠).

وما عهود الصلح التي أبرمها القادة المسلمون الا دليل على ان الجزية فرضت لحماية المسلمين لاهل الذمة، فهذا عهد خالد بن الوليد^(٨١) لصلوبا^(٨٢) بن نسطونا أحد زعماء الخيرة: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا، وقومه. اني اعاهدكم على الجزية والمنعة"^(٨٣)...

(٧٨) أبو عبيدة، الاموال، ص ٥١. ابو يوسف، الخراج، ص ١٢٢. الشافعي، الام، ج ٤ ص ٩٨. الكاساني، ج ٧ ص ١١١. علماء الهند، الفتاوي الهندية، ج ٢ ص ٢٤٥. القرطبي، تفسير، ج ٤ ص ٩٨.

(٨٠) راجع زيدان، احكام الذميين، ص ١٤٣.

(٨١) خالد بن الوليد (ت ٢١ هـ/٦٤٢) صحابي، مخزومي، من قادة العرب، قاد الجيوش الاسلامية في فتوح فارس والشام. هزم الروم باجنادين واليرموك توفي في حمص او في المدينة.

(٨٢) نعتقد ان اسمه صليبا او صليوا بحسب اللفظ السرياني من جهة التركيب والتفشية أي التلين والتشديد.

(٨٣) هذا نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه. اني اعاهدكم على الجزية والمنعة على كل ذي يد بيانقيا وبسما جميعا، على

وجاء في كتاب سويد بن مقرن المزني^(٨٤)، قائد جيش عمر بن الخطاب في بلاد فارس الى ملك جرجان... لكم الذمة، وعلينا المنعة^(٨٥)، وقال ابن رشيد المالكي: "انما تؤخذ الجزية منهم سنة بسنة جزاء تأمينهم، واقرارهم على دينهم، يتصرفون في جوارى المسلمين وذمتهم آمين^(٨٦)".

قيمة الجزية

والواقع ان الجزية لا تعتبر عقوبة في حق الذمي لبقائه على دينه، وانما مساهمة منه مادياً بالدفاع عن بلاده التي يسكنها، وهي دار الاسلام، فلو كانت الجزية عقوبة لوجبت على جميع اهل الذمة دون استثناء، ولفرضت بالدرجة الاولى على رجال دينهم باعتبارهم اصحاب الدين المخالف للاسلام.

ولما كانت الجزية تسقط حال اشتراك الذمي مع المسلم في مهمة الدفاع عن بلاد الاسلام، او عجز المسلمين عن حمايتهم، مما يؤكد انها كانت تدفع بدل الخدمة، العسكرية، واننا نؤيد ما ذهب اليه بعض الفقهاء من ان الجزية لا تؤخذ من اهل الذمة، بالاذلال لهم، والشدة معهم عند أخذها، لأن هذا الرأي يتنافى مع سنة محمد ووصاياه بلزوم الرحمة والرفق بهم، كما يتعارض مع ما

عشرة آلاف دينار سوى الخزنة، القوي على قوته والمقلّ على قدر اقلاله في كل سنة. وانك قد نقبت على قومك، وان قومك قد رضوا بك. وقد قبلتُ ومن معي من المسلمين. ورضيت ورضي قومك. فلك الذمة والمنعة. فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا حتى نمنعكم.. شهد هشام بن الوليد والقعقاع بن عمرو وجريز بن عبد الله الحميري، وحظله بن الربيع. وكتب سنة اثني عشرة في صفر

(٨٤) ساهم في عهد ابي بكر في قتال المرتدين في ذي القصة، وفي فتح العراق وطبرستان وانتهى خبره (الطبري، تاريخ، ج ٥ ص ٢٦٥٩).

(٨٥) الطبري، تاريخ ج ٥ ص ٢٥٤.

(٨٦) ابن قيم، احكام اهل الذمة ص ١٧.

فعله الخلفاء من بعده، والتي تتجلى في وصاياهم لقوادهم وفي عهودهم مع اهل الذمة، والتي سنوضحها عند الكلام عن (موقف الحكام المسلمين من اهل الذمة). وتسقط الجزية عن الذمي في حالة اسلامه او موته، او عجزه وفقره، او عجز الدولة عن حمايته، او التحاقه باهل دار الحرب.

مقدار الجزية

اما مقدار الجزية فقد اختلف أئمة الاسلام في تقديرها. فقد وضع محمد الجزية على من بالمدينة، ومكة، واليمن، ونجران، من النصارى واليهود والمجوس، وجعلها على الرجل ديناراً واحداً، وليس في ذلك النساء والصبيان^(٨٧). ثم جعلها عمر بن الخطاب على أهل السواد في العراق ديناراً (اثنى عشر درهما) على الطبقة السفلى، وعلى الوسطى دينارين (اربعة وعشرون درهما) وعلى العليا اربعة دنانير (ثمانية واربعين درهماً) واسقط ذلك عن النساء والصبيان^(٨٨) وفعل ذلك على قدر الطاقة واليسار.

ويبدو من هذا الاجراء انه اراد ان يجعل من هذا التقسيم نظاماً ثابتاً يسير عليه المسلمون فيما بعد. فيقول الماوردي^(٨٩) وجعلها عمر بن الخطاب نظاماً ثابتاً يسير عليه الولاة في سائر الامصار، ليمنع اجتهداهم، فكتب بذلك عمر بن الخطاب الى عماله في الامصار: (ولا يوضع عليهم اكثر من ذلك، ومن عجز منهم خفف عنه^(٩٠)). ولا يتعين في الجزية ذهب، ولا فضة، بل يجوز اخذها مما يتيسر من أموالهم، من ثياب، وسلاح، ومواشي، وحبوب وغير ذلك^(٩١).

(٨٧) الصولي، ادب الكتاب، ص ٢١٤.

(٨٨) ابن قيم احكام اهل الذمة، ص ٢٨ الصولي، ادب الكتاب، ص ٥.

(٨٩) الماوردي، الاحكام السلطانية ص ١٣٨.

(٩٠) ابن آدم، الخراج، ج ١ ص ٩.

(٩١) ابن قيم، احكام اهل الذمة، ص ٢٩ الصولي، ادب الكتاب، ص ٢٠٥.

وروى علي بن ابي طالب^(٩٢): انه كان يأخذ الجزية من صاحب البربر، ومن صاحب المال مالا، ومن صاحب الحبال جبالا، ولا يأخذ فيها حمرا، ولا خنزيرا، ولا يباع في الجزية بقرهم، ولا حميرهم، ولا مواشيهم^(٩٣): بل كانت تباع الخمور والخنازير ثم يحصل ثمنها^(٩٤).

وقد اوصى محمد بحسن معاملة اهل الذمة فقال: "احفظوني في ذمتي"^(٩٥). وسار عمر بن الخطاب على نهجه في معاملتهم فقال: (ولا يحلّ تكليفهم ما لا يقدرّون عليه، ولا تعذيبهم على ادائها، ولا حبسهم، ولا ضربهم)^(٩٦). وقيل سأل عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن خديم^(٩٧) ما لك تبطئ بالخراج؟ فقال: امرتنا ألا نزيد عليهم على اربعة دنانير، فلسنا نزيدهم على ذلك، ولكن نؤخرهم الى غلاتهم. قال له عمر: "ما عزلتك ما حييت"^(٩٨).

(٩٢) علي بن ابي طالب (ت ٤٠ هـ / ٦٦١ م) رابع الخلفاء الراشدين واول الائمة الشيعية. ربيب محمد وابن عمّه وصهره على ابنته فاطمة. من ابطال معركة بدر وأحد وخيبر والخنندق وحنين. بويح له بعد مقتل عثمان. انهى عصيان البصرة في معركة الجمل. رضي بالتحكيم بعد معركة صفين فثار عليه الخوارج. اغتاله خارجي. يعتبر صاحب المدرسة الاولى في الاسلام التي انبثق منها مجرى ثقافي عريض، جمعت كلماته في "نهج البلاغة".

(٩٣) الصولي، ادب الكتاب، ص ٢١٥.

(٩٤) ابو يوسف، الخراج، ص ٧٢.

(٩٥) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ١٤٣.

(٩٦) ابن قيم، احكام اهل الذمة، ص ٣٤. ابو يوسف، الخراج، ص ١٢٥.

(٩٧) صحابي قرشي، شهد غزوة خيبر، وصار واليا على حمص في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي في خلافته سنة ٢٠ هـ / ٦٤٠ م.

(٩٨) ابن قيم، احكام اهل الذمة، ص ٣٦.

«كان علي بن أبي طالب: يأخذ من أهل الذمة، الامتعة بقيمتها من الدراهم التي عليهم من الجزية، ولا يحملهم على بيعها ثم يأخذ ذلك من الثمن، اراده الرفق بهم، والتخفيف عنهم»^(٩٩).

وامر عمر بن عبد العزيز^(١٠٠) اسقاط الجزية على من أسلم من أهل الذمة فقال: "انما أمر ان تؤخذ الجزية ممن رغب عن الاسلام، واختار الكفر عتياً، وخسرانا مبيناً، فصنع الجزية على من اطاق حملها، وخلّ بينهم وبين عمارة الارض، فان في ذلك صلاحاً لمعاشر المسلمين، وقوة على عدوهم. وقال بلغني ان امير المؤمنين عمر بن الخطاب مرّ بشيخ من أهل الذمة. يسأل عنى ابواب الناس، فقال له عمر: ما انصفناك ان كنا اخذنا منك الجزية في شبيبته ثم صنيته في كبرك. قال، ثم اجرى عليه من بيت المال ما يصلحه^(١٠١)".

يرى المستشرق كلود كاهن Cahen: ان ضريبة الجزية التي عبّرت عن استطاع غير المسلمين ضمن نطاق مالي محدود، كانت مطابقة لعادات الاجتماعات الدينية في القرون الوسطى^(١٠٢) مستندا الى ان هذه الضريبة كان قد فرضها الفرس والروم. ومن هذا يتضح مدى سماحة محمد وعطفه، والخلفاء والقواد على أهل الذمة. غير انه نسي ظروف الضيق والشدة التي كانت يفرضها الخلفاء انفسهم بحسب سياسات البلد مع الروم البيزنطيين وغيرهم ازاء الدولة الاسلامية.

(٩٩) أبو عبيدة، الاموال، ص ٤٤.

(١٠٠) عمر بن عبد العزيز بن مروان (٦١ - ١٠١ هـ/ ٦٨١ - ٧٢٠ م) الخليفة الاموي الثامن (٩٩ هـ/ ٧١٧ م) اهتم بالاصلاح الاداري والمالي.

(١٠١) أبو يوسف، الخراج، ص ١٢٦. أبو عبيدة، الاموال، ص ٤٥.

(١٠٢) راجع Cahen, Ency. of Islam, Dhimma, p.127.

ثانيا: الخراج^(١٠٣):

هو ما يخرج من غلة الارض، ومعناه المال المضروب على الارض والجمع إخراج، وأخرجه^(١٠٤). وفي اصطلاح الفقهاء، الخراج ما وضع على رقاب الارضيين من حقوق تؤدي عنها^(١٠٥). وقد ورد على لسان الفقهاء استعمال الخراج بمعنى الجزية، فما قاله ابو حنيفة: "ولا يترك ذمي في دار الاسلام بغير خراج رأسه^(١٠٦)". ولكن المعنى الشائع في استعمال كلمة الخراج عند الفقهاء، والمؤرخين هو ما يفرض على الارض من ضريبة مالية، وارضيتها تسمى بالاراضي الخراجية، واول من فرضها محمد على اهل هجر كل محتلم ذكر كان او انثى^(١٠٧). وكذلك فعل عمر بن الخطاب عند فتحه العراق بما فعله محمد.

وكانت اغلب اراضي السواد في العراق قد فتحت عنوة، عدا عدة قرى فتحت صلحاً، فقد تركها عمر بن الخطاب بيد اصحابها مقابل مقدار معين

(١٠٣) الخراج: كلمة عربية استعارها العرب من مصطلحات الروم الادارية، ولعلها مأخوذة من الكلمة اليونانية (خورنيا Kornia) وكان معناها بصفة عامة الضريبة التي فرضت على غير المسلمين في دار الاسلام (وهي تماثل سواء بسواء). وظلت كلمة خراج تدل على هذا المعنى العام نفسه في كتب الفقه المتأخرة ولعل كلمة خراج قد اعتبرت الاصل. بمعنى (خراج الارض)، وقد جرت العادة قبل ذلك بان يدفعوا ضريبة من هذا القبيل في تلك الربوع ايام خضوعها لحكم الروم والفرس، واحتفظ العرب بكثير من تفاصيل النظام القديم في جبايتها (دائرة المعارف الاسلامية، مادة الخراج، ج ٨ ص ٢٨٠ وما بعدها).

(١٠٤) لويس معلوف، المنجد، ص ١٦٩. وفي المصباح المنير، الخراج ما يحصل من غلة - الارض، ج ١ ص ٢٢٧.

(١٠٥) الماوردي، الاحكام السلطانية ص ٤١، ابو يعلى، الاحكام، ص ١٤٦.

(١٠٦) ابو يوسف، الخراج، ص ١٣٢.

(١٠٧) ابو يوسف، الخراج، ص ١٢٩.

من المال^(١٠٨)، وتسمى اراضي الصلح، وجعل بدل الجزية والخراج فكانت ضريبة واحدة كما فعل مع مسيحيي تغلب عندما ضاعف الصدقة، فهو خراج في الحقيقة^(١٠٩). واما الاراضي التي فتحت عنوة، فقد ابقاها عمر بيد اصحابها مقابل مقدار معين من الخراج عليها. وأبقى الجزية عليهم^(١١٠).

أما الاراضي العشرية التي يمتلكها الذمي، فعند ابي حنيفة تصبح خراجيه، وعند ابو يوسف تبقى عشرية، وعليه يدفع مضاعفاً، كما هو الحال بالنسبة لنصارى تغلب^(١١١).

جباية الخراج

أما في جباية الخراج فقد اتخذت طريقتين:

الاولى، ما يفرض على مساحة الارض كما فعل الخليفة عمر بن الخطاب في اراضي السواد^(١١٢) في العراق بعد فتحها، فقد تركها بأيدي اهلها، وفرض على كل جريب ارض صالحة للزراعة قفيزاً مما يزرع فيها ودرهما، فروي عن

(١٠٨) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٢ ص ٥٨.

(١٠٩) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٢ ص ٥٨.

(١١٠) ابو يوسف، الخراج، ص ٤٤.

(١١١) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٢ ص ٥٤ و ٥٥.

(١١٢) أرض السواد: وهو يشمل النصف الجنوبي من دجلة والفرات الممتد حتى الخليج العربي (ماجد التاريخ السياسي للدولة العربية ج ١ ص ١٦٨) والذي يتاخم ارض العرب حيث توجد بادية السماوة (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥ ص ١٣٠) ويقول ابن منظور: والسواد ما حوالي الكوفة والبصرة من القرى والرساتيق وقيل انما سمي بالسواد لكثرة النخل والشجر والخضرة واسوداده، ولأن الخضرة تقارب السواد، ولأن العرب تسمى الاسود اخضر والاخضر اسود (ابن منظور، لسان العرب ج ٤ ص ٢٠٩ تاج العروس، ج ٢ ص ٣٨٥).

ابي يوسف^(١١٣) انه قال: (اذا كانت النخيل والاشجار ملتفة جعلت عليها الخراج بقدر ما تطيق، ولا أزيد على ان يوظف على جريب الكرم عشرة دراهم)^(١١٤).

واما الطريقة الثانية: ما يؤخذ بالمقاسمة، وهو اخذ نسبة معينة من الناتج نحو الخمس او السدس، وما اشبه ذلك^(١١٥).

ويؤخذ الخراج مرة واحدة في السنة اذا كان حسب المساحة. وأما خراج المقاسمة فيتكرر اخذه بتكرار الخراج من الارض^(١١٦). وبذلك يكون قرار الخليفة عمر بن الخطاب بابقاء الارض بأيدي اصحابها من اهل الذمة. ان تحول حكم ارض السواد من الغنيمة الى الصلح دون ان يكون ما بين اهل الارض والمسلمين عهداً او شروط صلح اتفقوا عليها^(١١٧).

وقد راعى المسلمون في فرض الخراج بحسب طاقة الارض وخصوبتها، ونوعية الانتاج، واثمانه وطريقة السقي، وموضع الارض من المدن والاسواق^(١١٨)، وعدم تكليف صاحبها فوق مقدوره، ويتجلى هذا في قول الخليفة عمر بن الخطاب لحذيفة بن اليمان، وعثمان بن حنيف لما مسح سواد

(١١٣) ابو يوسف القاضي (يعقوب بن ابراهيم) (ت ١٨٢هـ/ ٧٩٨ م) ولد في الكوفة. درس على يد ابي حنيفة وكان اكبر اصحابه. تولى قضاء بغداد أيام المهدي والهادي والرشيد. اول من دعي بقاضي القضاة. له كتاب "الخراج" و"الرد على سير الازاعي".

(١١٤) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٢ ص ٦٢ (الجريب= ١٣٦٦ م) والقفيز وزنه ٢٧٥١ كغم. الرئيس، الخراج في الدولة الاسلامية، ص ٢٧٧ - ٢٧٩.

(١١٥) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٢ ص ٦٣. علماء الهند، الفتاوي الهندية، ج ٢ ص ٢٣٧.

(١١٦) ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار، ج ٣ ص ٣٦٥.

(١١٧) ثابت الراوي، العراق في العصر الاموي، ص ٦٠.

(١١٨) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ١٤٣ - ١٤٤ أبو يعلى، الاحكام، ص ١٥١.

العراق ووضعاً عليه الخراج قال عمر لهما: (لعلكما حملتما الارض ما لا تطيق؟ قالوا: لا بل حملناها ما تطيق، ولو زدنا لطاقت) ^(١١٩).

وقد اتبع الخليفة علي بن أبي طالب السياسة التي رسمها عمر بن الخطاب، والتزم بها معظم خلفاء بني أمية، وولاتهم في العراق، وكتب عمر بن عبد العزيز الى عامله على الكوفة قائلاً له: "... وأمرتك الا تطرق عليهم ارضهم، والا تحمل خراباً على عامر، ولا عامراً على خراب. ولا تأخذ من الخراب الا ما يطيق، ولا من العامر الا وظيفة الخراج في رفق، وتسكين لاهل الارض. وأمرتك الا تأخذ في الخراج اجور الضرابين، ولا إذابة الفضة، ولا هدية النيروز والمهرجان. ولا ثمن الصحف، ولا اجور البيوت، ولا دراهم النكاح" ^(١٢٠)، ولا خراج على من اسلم من اهل الارض ^(١٢١).

وكان الخراج حتى خلافة المتوكل ^(١٢٢) (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٦ - ٨٦١ م) يؤخذ في أيام النيروز الذي كان معمولاً به أيام الفرس. واقتدى به ملوك الاسلام، فامر المتوكل بتأخير الخراج حتى يتم نضوج الحاصل ^(١٢٣) وذلك رفقاً بالرعية.

(١١٩) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٢ ص ٦٢ و ٦٣. يحيى بن آدم، الخراج، ج ١ ص ٩.

(١٢٠) دراهم النكاح: يراد بها بغايا كان يؤخذ منهم الخراج.

(١٢١) ابو عبيدة، الاموال، ص ٦٥ ابن قيم، احكام اهل الذمة، ص ٣٨ - ٣٩.

(١٢٢) الخليفة المتوكل على الله (جعفر بن المعتصم) (٢٠٦ - ٢٤٧ هـ / ٨٢١ - ٨٦١ م)

الخليفة العباسي العاشر (٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م) كان محباً للسنة فحارب المعتزلة ورفع

"الحنّة" عن الناس. حاول نقل عاصمته الى دمشق وعاد إلى سامراء حيث اغتاله القادة

الأتراك بالاشتراك مع ابنه الأكبر المنتصر. كان موته بداية انحطاط الخلافة العباسية.

(١٢٣) البيروني، الآثار الباقية، ص ٣١.

عشور التجارة

العشر هو مقدار الضريبة المفروضة على أموال اهل الذمة المعدة للتجارة، والمنقولة، من دار الحرب الى دار الاسلام، وبالعكس، ويزيد هذا المقدار وينقص بناء على قاعدة المعاملة بالمثل (خذوا منهم ما يأخذون منا)^(١٢٤).

والاموال الخاضعة لضرائب التجارة جميع عروض التجارة من حساب وحيوانات، وثياب، وامتعة، واطعمة، وكذلك الذهب والفضة، نقوداً كانت او معدناً وغيرهم^(١٢٥).

وقد حدّد عمر بن الخطاب الضرائب المفروضة على التجارة بقوله: خذوا من المسلم ربع العشر، ومن الذميّ نصف العشر، ومن الحربيّ العشر^(١٢٦). ويشترط في المال الخاضع لضريبة العشر: ان يبلغ النصاب، وان يكون معداً للتجارة. واختلف في تحديد نصاب المال وهو يتراوح بين ١٠ - ٢٠ ديناراً. ولا تجب ضريبة العشر على الذميّ، والمسلم اذا انتقل بتجارته من بلد الى آخر بدار الاسلام^(١٢٧) وتستوفى ضريبة العشر من الذميّ والمسلم والحربيّ مرة واحدة في السنة مهما تكررت مرات التجارة^(١٢٨). فاذا ازداد المال اخذ من الزيادة وحدها لانها لم تعشر^(١٢٩). ويعفى الذميّ من ضريبة العشر ان كان عليه دين بمقدار ما معه، او ينقص عن النصاب، فيمنع اخذ

(١٢٤) السرخسي الحنفي، شرح السير الكبير، ج ٤ ص ٢٨٣.

(١٢٥) ابو يوسف، الخراج، ص ١٣٣ - ١٣٤.

(١٢٦) أبو عبيدة، الاموال، ص ٥٣٣ و ٥٣٤، أبو يوسف، الخراج، ص ١٣٥، ابن قيم، احكام اهل الذمة، ص ١٦٦.

(١٢٧) ابو يوسف، الخراج، ص ٣٣.

(١٢٨) ابو عبيدة، الاموال، ص ٥٣٣ و ٥٣٤.

(١٢٩) ابن قيم، احكام اهل الذمة، ص ١٦١.

العشر منه، ولا يقبل منه الا بينه من المسلمين^(١٣٠). ويعفى ايضا من ضريبة التجارة كل من دخل بميرة، والناس اليها بحاجة ليكثرها على المسلمين^(١٣١).

أما حجة الفقهاء في فرض الخمس على الذميّ، وهو ضعف ما يدفعه المسلم استنادا الى اجراءات عمر بن الخطاب مع نصارى تغلب باخذه ضعف الصدقة التي على المسلم^(١٣٢). ويعفى العبد من ضريبة التجارة على البضاعة ان كانت ملكاً له^(١٣٣).

أما العشور على تجارة الخمر، والخنازير فاختلف الفقهاء في جبايتها. فمنهم من فرضها على الخمر دون الخنازير، ومنهم من فرضها على الاثنين معاً^(١٣٤). ومنهم من قال لا يعشر الخمر ولا الخنازير^(١٣٥). ومنهم من قال يعشرها لإستوائهما في المالية^(١٣٦).

أما الضريبة على تجارة العبيد، فكانت تبلغ عشر دراهم على كل فرد وعلى الخيل ثمانى دراهم^(١٣٧).

(١٣٠) ابن قيم، احكام اهل الذمة، ص ١٦٥.

(١٣١) ابن قيم، احكام اهل الذمة، ص ١٦٧.

(١٣٢) السرخسي، شرح السير الكبير، ج ١ ص ٢٨٣.

(١٣٣) ابن ابي أصيبعة، عيون الانباء، ج ٢ ص ٢٦٢.

(١٣٤) ابو يوسف، الخراج، ص ١٣١. علماء الهند، الفتاوى الهندية، ج ١، ص ١٨٣.

(١٣٥) السرخسي الحنفي، شرح السير الكبير، ج ٤ ص ٢٨٧.

(١٣٦) المرغيناني، الهداية، ج ١ ص ٥٣٥.

(١٣٧) الشافعي، الام، ج ٤ ص ١٢٥.

أحكام العقوبات والجرائم على أهل الذمة

تنطبق احكام الاسلام في الجرائم على جميع ما في دار الاسلام، بغضّ النظر عن دين وجنسية مرتكبها الا في بعض جزئياتها اختلافا قليلاً بين الفقهاء بالنسبة الى الذميين^(١٣٨) فقد استثنى جميع الفقهاء عقوبة شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير لانهم (اهل ذمة) لا يؤمنون بحرماتها^(١٣٩).

وأما الاحكام العامة التي تنطبق على المسلم، والذميّ اذا كانت جرائمهم تمس أمن الدولة الاسلامية: كشهر السلاح، او التجسس أو قطع الطريق حيث يعاقب الذميّ والمسلم على السواء^(١٤٠).

وعند بعض اصحاب المذاهب ينتقض عقد الذمة بهذه الجرائم، فلا يجوز الا قتله الا اذا اسلم^(١٤١).

أما عملية التجسس، فقد حرمت في الشريعة الاسلامية فقد جاء في القرآن: "ولا تجسسوا، ولا يغتب بعضكم بعضاً"^(١٤٢).

وبالنسبة للذميّ ينتقض عهده بالتجسس، ويكون كالحربي^(١٤٣).

وقيل لا ينتقض عهده، فهي جريمة لا يزول بها ايمان المسلم، فلا يزول بها أمان الذمي^(١٤٤) وعند الاوزاعي: ان يعلم الذميّ بحسب الامان منه، ويؤمر بمغادرة دار الاسلام^(١٤٥).

(١٣٨) زيدان، احكام الذميين، ص ١٢٨.

(١٣٩) الكاساني، بدائع الصنائع ج ٧ ص ١٣٩ - أدريس الحنبلي، كشف القناع، ج ٤ ص ٥٥.

(١٤٠) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٢ ص ٩١.

(١٤١) ابن حزم، المحلى، ج ١١ ص ٣١.

(١٤٢) سورة الحجرات، آية ١٢.

(١٤٣) الطبري، اختلاف الفقهاء، ص ٥٨ و ٥٩.

(١٤٤) السرخسي، شرح السير الكبير، ج ٤ ص ٢٢٥، ٢٢٦.

(١٤٥) الطبري، اختلاف الفقهاء، ص ٥٩.

ويبدو ان الرأي الاخير هو الاصح، ولكن ليس دائماً لأن الضرر الذي قد يحدثه الذمي من عملية التجسس قد تؤدي بحياة الكثيرين من المسلمين، وفي مثل هذه الحالة يجب قتله ليكون رادعاً لغيره من الذميين على جريمتهم. وعدا هذه الجرائم قد وضع الفقهاء الاحكام على الجرائم الكبيرة، كالقتل، والزنا، والسرقة، هذه الاحكام مستوحاة من الشريعة الاسلامية وسنة محمد والخلفاء الراشدون، وما اجمع عليه الفقهاء، آخذين بنظر الاعتبار واقع الامة الاسلامية آنذاك. وتكاد هذه الاحكام تنطبق في اغلب نصوصها على المسلم والذمي، كما ان احكام المسلمين في الشريعة الاسلامية تنطبق في كثير من الامور مع ما هو موجود في شرائع اهل الذمة من الاحكام. ومن هذه الاحكام في جرائم القتل هي:

١ - عقوبة القصاص

وهي عقوبة القتل، وفي الشرع الاسلامي يُقتل القاتل عمداً استناداً لقول القرآن "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتل الحر بالحر، والعبد بالعبد، والانثى بالانثى^(١٤٦)....".

أما اذا وقع القتل خطأ او شبه العمد، فعند جمهور الفقهاء تؤخذ الدية^(١٤٧). ويُقتل الذمي بالمسلم لنقضه العهد، ومخالفته مقتضى عقد الذمة^(١٤٨). وللفقهاء اجتهادات اخرى في كيفية القتل، واسبابه ومسبباته.

ويعطى الذمي من القصاص اذا قتل مرتداً لان المرتد مباح الدم، فاشبه بالحربي، ولأن من لا يضمه المسلم لا يضمه الذمي^(١٤٩). وبحسب المذهب

(١٤٦) سورة البقرة، آية ١٧٨.

(١٤٧) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٧ ص ٦٥٥.

(١٤٨) ابن حزم، المحلى، ج ١ ص ٣٥٣.

(١٤٩) ابن قدامة المقدسي، المغني، ج ٧ ص ٦٥٧. الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٧ ص ٢٣٦.

الشيعة، فالقاتل الذميّ لذي لا يؤخذ بالقصاص إذا دخل الاسلام، وعليه فقط أن يدفع الدية^(١٥٠).

وقد اختلف الفقهاء في عقوبة قتل المسلم الذميّ عمداً، فقيل: ان الخليفة عثمان بن عفان^(١٥١) حكم علي مسلم لقتله ذميّ بدفع الدية، وليس بالموت، وكانت بقدر دية المسلم مستنداً في ذلك الى النظرية التي وضعت منذ عهد محمد (الذميّ لا يساوي المسلم أمام الشريعة) انما تعني هذه النظرية الحربي، ولا تعني الذمي^(١٥٢) واستناداً الى حديث محمد (من أمن رجلاً على دمه وماله ثم قتله فانا بريء منه، وان كان المقتول كافراً^(١٥٣)).

ويرى ابو حنيفة واصحابه، ان المسلم الذي يقتل الذميّ يحكم عليه بالموت مستندين الى قول القرآن "ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب^(١٥٤)".

أما ما اجمع عليه جمهور الفقهاء عدا الحنفية بعدم جواز قتل المسلم بكافر سواء كان ذمياً، او مستامناً^(١٥٥). وعند المالكية والشيعة في حالات خاصة اذ اختلفوا في صفة القتل، ار حداً للساد^(١٥٦).

Fattal, Le statut Legal Des Non Musulmans En Pays D'Islam, p.114. (١٥٠)

(١٥١) عثمان بن عفان (ت ٣٥ هـ/ ٦٥٦ م) ثالث الخلفاء الراشدين (٢٣ هـ/ ٦٤٤ م) قرشي أموي - تزوج برقية ثم بام كلثوم ابنتي محمد - جمع القرآن - قتل في داره إثر فتنة بين يدي زوجته نائلة بنت الفرافصة النصرانية.

Fattal, Le statut Legal Des Non Musulmans En Pays D'Islam, p.115. (١٥٢)

(١٥٣) ابن قيم الجوزية، احكام أهل الذمة، ص ٨٠٣.

(١٥٤) سورة البقرة، آية ١٧٩.

(١٥٥) ابن قدامة المقدسي، المغني، ج ٧ ص ٦٥٧. الشافعي، الام، ج ٧ ص ٢٩١ كاشف الغطاء، سفينة النجاة، ج ٢ ص ٨٤.

(١٥٦) الخرشي، شرح الخرشي، ج ٨ ص ٣، كاشف الغطاء، سفينة النجاة ج ٢ ص ٨٤.

من هذا يحملنا القول ان مذهب أبي حنيفة من اكثر المذاهب الاسلامية واقعية لانه يراعي واقع الأمة، ويحمل في طياته روح التسامح، والنزعة الانسانية، وقد بنى رأيه على مجرد التزام الذميّ باحكام الاسلام، فيجب ان يعامل كالمسلم ما داموا في دار الاسلام.

٢- الدية

أما الدية، فقد اختلفت باختلاف آراء الفقهاء: فذهب بعضهم الى انها تساوي دية المسلم، فدية الحر المسلم مئة جمل او ما تساوي الف دينار، او اثنا عشر الف درهم حسب تقدير عمر بن الخطاب. وتكون دية المرأة نصف دية الرجل.

وبالنسبة للمذهب الحنفي فيستند الى تشريعات ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب: وهي (اذا كان القتل حرّاً مسلماً فديته من الابل مئة، ومن الذهب الف دينار، ومن الفضة عشرة آلاف درهم، ومن الحلل مائتا حلة (ثوبان وازار ورداء). ومن البقر مائتا بقرة، ومن الغنم الفا شاة، ودية الانثى نصف دية الذكر، ودية الجنين عشر دية أمه^(١٥٧)).

وكذلك قال علي بن ابي طالب: "إنما قبلوا عقد الذمة، لتكون أموالهم كأموالنا، ودمائهم كدمائنا"^(١٥٨). ومعنى هذا انه جعل دية الذميّ تساوي دية المسلم، وكذلك فعل عثمان بن عفان: حيث أمر بدفع الف دينار الدية بسبب قتل مسلم ذميّاً^(١٥٩).

(١٥٧) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٢ ص ٢٥٤. الخرشي، شرح الخرشي ج ٨ ص ٣٢. الحصكفي، الدر المختار ج ٥ ص ٥١٦ و ٥١٧.

(١٥٨) السرخسي الحنفي، شرح السير الكبير، ج ٣ ص ٢٥٠.

(١٥٩) Fattal, Le statut Legal Des Non Musulmans En Pays D'Islam, p.116.

وقد اختلف الفقهاء بعد عهد الراشدين في تحديد دية الذميّ فجعلوا دية الكتابي (اليهودي والمسيحي) نصف دية المسلم، ودية المجوس ثمانمائة درهم، ودية المرأة نصف دية الرجل من دينها. (وقد ضَعَفَ ابن حنبل الدية على المسلم اذا قتل ذميّاً عمداً^(١٦٠)).

وقيل ان دية الكتابي ثلث دية المسلم دية نساءهم نصف ديات رجالهم. وقيل ايضاً: دية اهل الذمة جميعاً ثمانمائة درهم، ودية المرأة نصف دية الرجل، وهذا هو قول الشيعة^(١٦١).

أما الحنفية فيقولون: إن دية اهل الذمة جميعاً كدية المسلم، ودية المرأة نصف دية الرجل^(١٦٢).

وهذا جدول يبيّن مقدار الدية لأهل الذمة باختلاف آراء الفقهاء:

الفتية	دية المسلم	دية المسيحي	دية المجوسي
أبو حنيفة	١٢ ألف درهم	١٢ ألف درهم	١٢ ألف درهم
ابن حنبل	١٢ ألف درهم	٢٤ ألف درهم للقتل العمد	١٦٠٠ درهم للقتل العمد
ابن حنبل	١٢ ألف درهم	١٢ ألف درهم للقتل الخطأ	٨٠٠ درهم للقتل الخطأ
مالك	١٢ ألف درهم	٦ آلاف درهم	٨٠٠ درهم
الشافعي	١٢ ألف درهم	٤ آلاف درهم	٨٠٠ درهم
الشيعة	١٢ ألف درهم	٨٠٠ درهم	٨٠٠ درهم

(١٦٠) ابن قدامة المقدسي، المغني، ج ٧ ص ٣٩٣. ادريس الحنبلي، كشف القناع، ج ٤ ص ١١ و ١٢.

(١٦١) كاشف الغطاء، سفينة النجاة، ج ٢ ص ١١٢.

(١٦٢) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٧ ص ٢٥٤. الحصكفي، الدار المختار ج ٥ ص ٥٠٥. صحيح الترمذي، ج ١ ص ١٦٥.

ويرى المستشرق فثال Fattal^(١٦٣) إن أول تغيير لنسبة الحدّ حدث منذ عهد معاوية ابن ابي سفيان^(١٦٤)، فلما قتل طبيبه ابن آثال المسيحي^(١٦٥) قتله حبيب بن مهاجر، فقد اجبر القاتل بدفع دية المقتول (اثنا عشر الف درهم وهي تساوي دية المسلم). ولكنه اخذ نصفها له لانه هو الذي ادعى بدمه. وقد أصبحت هذه الطريقة عادة اتبعها من جاء بعده من خلفاء بني أمية حتى عهد عمر بن عبد العزيز، الذي الغى ذلك، وجعل دية الكتابي نصف دية المسلم يستلمها ذوي المقتول.

أما حكم دية الجنين: فيقول الشافعي: (ولو ان ذمية حملت فجنى عليها جان، فالقت جنينها ميتا كانت فيه دية جنين يهودي او نصراني وهي عشر دية أمه. أما اذا كانت الذمية زوجة مسلم فالدية هي دية جنين حرّة مسلمة)^(١٦٦).
أما جرائم الاعتداء على ما دون النفس فعقوبتها القصاص، وقد ثبت بالاجماع^(١٦٧) إستناداً الى قول القرآن: "وكتبنا عليكم فيها النفس بالنفس

Fattal, Le statut Legal Des Non Musulmans En Pays D'Islam, p.116 (١٦٣)

(١٦٤) معاوية بن ابي سفيان (ت ٦٠ هـ / ٦٨٠ م) مؤسس السلالة الاموية في بلاد الشام. حكم سورية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب والخليفة عثمان بن عفان، عارض الخليفة علي بن ابي طالب وقاتله في صفين عام ٣٧ هـ / ٦٥٧ م فكان التحكيم. صار خليفة عام ٤١ هـ / ٦٦٠ م جعل عاصمته دمشق. اشتهر بدهائه وحسن سياسته، اللين والشدّة.

(١٦٥) ابن آثال: كان طبيباً متقدماً من الاطباء المتميزين في دمشق. نصراني المذهب. ولما ملك معاوية بن ابي سفيان دمشق اصطفاه لنفسه واحسن اليه وكان كثير الافتقاد له، والاعتقاد فيه، والحادثة معه ليلاً ونهاراً. "وكان ابن آثال خبيراً بالادوية المفردة والمركبة وقواها وما منها سموم قاتل، وكان معاوية يقرّبه لذلك" (ابن ابي اميعة ج ١ ص ١١٦ - ١١٧).

(١٦٦) الشافعي، الام، ج ٦، ص ٩٦.

(١٦٧) ابن قدامة، المغني، ج ٧ ص ٧٠٢ القرطبي، تفسير، ج ٦ ص ١٩١.

والعين بالعين، والانف بالانف، والاذن بالاذن، والسن بالسن، والجروح قصاص (١٦٨) .

جرائم الزنا

أما جرائم الزنا، فقد حرّم الله فعلها، فقال القرآن: "لا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلاً" (١٦٩) . وعقوبة الزنا مختلف فيه بحسب طبيعة الزاني والزانية، وفعل الزنا، فقد اشار القرآن الى عقوبة الجلد للزاني والزانية فقال: "الزاني والزانية فاجلدوا كل منهما مائة جلدة (١٧٠)".

وقد شرّع الاسلام عقوبة الرجم، - وهذا تشريع يهودي - وباجماع الفقهاء الرجم على الزاني والزانية المحصنين (١٧١) . ومعناه رجم الزاني والزانية بالحجارة حتى الموت (١٧٢) . او بعقوبة التغريب، وهي نفي الزاني عن البلد الذي زنا فيه الى بلد غيره (١٧٣) .

اللواط

أما اللواط، فيدخل في مفهوم الزنا عند المالكية والشافعية والحنابلة وابي يوسف، ومحمد صاحبي ابي حنيفة. وعند ابي حنيفة والشيعة لا يدخل في مفهوم الزنا، ولا يجب فيه الحد، وانما فيه التعزير (١٧٤) .

(١٦٨) سورة المائدة، آية ٤٥ .

(١٦٩) سورة الاسراء، آية ٣١ .

(١٧٠) سورة التوبة، آية ٢ .

(١٧١) ابن قدامة المقدسي، المغني، ج ٢ ص ١٦١ .

(١٧٢) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ٢١٥ .

(١٧٣) ابن قدامة المقدسي، المغني، ج ٨ ص ٢١٥ .

(١٧٤) الكاساني، البدائع والصنائع، ج ٧ ص ٣٤ . الشربيني، مغني المحتاج، ج ٤ ص ١٤٤ .

ادريس، كشاف القناع، ج ٤، ص ٥٦ و ٥٧ .

وتطبق جميع احكام الاسلام في العقوبات والجرائم على الذميّ إلا حدّ الخمر لانه لا يعتقد حرمة شربه عندهم.

وقد اختلف الفقهاء في فرض عقوبة الزنا على الذميّ، وان اتفقوا باقامة حدّ الزنا وحجتهم في ذلك ان محمد رجم اليهوديين اللذين زنيا، مما يؤيد وجوب فرض حدّ الزنا على الذميّ كالمسلم، ولأن الذميّ صار بعد الذمة كالمسلم في العقوبات والمعاملات (لهم ما لنا وعليهم ما علينا).

وترى الشيعة عقوبة القتل على الذميّ اذا زنا بمسلمة مطاوعة ومكرهة، ولا تسقط العقوبة باسلامه. اما اذا زنا بذمية فللامام إقامة الحد عليه بموجب شرع الاسلام، او دفعه الى اهل دينه ليقيموا عليه العقوبة حسب معتقدهم^(١٧٥). معتمدين على السوابق، فقيّل في زمن الخليفة علي بن ابي طالب: ان مسلماً ارتكب الزنا مع ذميّة، فقرر وضع الحدّ عليه، وارسلت الذميّة الى اهل دينها لعقابها حسب شريعتهم^(١٧٦).

كما اختلف الفقهاء في عقوبة الذميّ المرتكب الزنا من ذميّة، فيرى الشافعي: إذا كان الذميّ محصن يرحم بالحجارة حتى الموت. ويرى ابو حنيفة ضربه مئة جلدة. ويرى مالك: ان لا يعاقب حسب الشرع الاسلامي، وانما يرسل الى ابناء ملته لعقابه حسب شرائعهم^(١٧٧).

أما اذا قذف ذميّ مسلماً أو مسلمة، وتوافرت شروط الجريمة وجب على الذميّ حد القذف^(١٧٨). واذا قذف الذميّ بغير الزنا بلفظ من الفاظ السباب مسلماً أو ذميّاً، وجب عليه التعزير^(١٧٩).

(١٧٥) كاشف الغطاء، سفينة النجاة، ج ٢ ص ٦٤.

(١٧٦) Fattal, Le statut Legal Des Non Musulmans En Pays D'Islam, p.120

(١٧٧) الكاساني، الصنائع والبدائع، ج ٧ ص ٤٠، الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ٢٢١
كاشف الغطاء، سفينة النجاة، ج ٢ ص ٧١.

(١٧٨) السرخسي، المبسوط، ج ٩، ص ١١٩، ابن قدامة، المغنى، ج ٨ ص ٢٢٦. الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ٢٢١. ابو يعلى، الاحكام، ص ٢٦٤.

الاعتداء على الاموال

اما جرائم الاعتداء على الاموال، فيعاقب الذمي بنفس العقوبة الواقعة على المسلم. فاذا ارتكب ذمي جريمة السرقة من مسلم او ذمي، وثبتت عليه الجريمة، وجب إقامة الحدّ عليه لان الذمة بعقد الذمة التزم احكام الاسلام، فيقام عليه الحد كالمسلم، ولا خلاف في هذا بين الفقهاء، فيقطع الذمي بسرقة مال المسلم او الذمي، ويقطع المسلم بسرقة ما لهما^(١٨٠).

ويرى المستشرق فتال Fattal^(١٨١): ان الدخول في الاسلام هي الطريقة الوحيدة بالنسبة للذمي للتخلص من العقوبات. والحقيقة، ان اسلام الذمي لا يُمكنه ان يتخلص من العقوبات لان اغلبها يسري على المسلم والذمي، ولكن بعضها تنقذه من عقوبة الموت الى الابد.

(١٧٩) ابن قدامة، المغني، ج ٨ ص ٢٦٨، الشريبي، مغنى المحتاج، ج ٤ ص ١٧٥. الخرشي، شرح الخرشي، ج ٨ ص ١٠٢.

(١٨٠) ابن قدامة، المغني، ج ٨ ص ٢٦٨. الشريبي، مغنى المحتاج، ج ٤ ص ١٧٥. الخرشي، شرح الخرشي، ج ٨ ص ١٠٢.

(١٨١) Fattal, Le statut Legal Des Non Musulmans En Pays D'Islam, p.119.

أحكام الأحوال الشخصية لأهل الذمة

زواج المسلم بالذمية:

يتفق أغلب الفقهاء على جواز زواج المسلم من نساء اهل الكتاب، وان كان البعض من الخلفاء والفقهاء، يكرهون الزواج بهنّ، فكان عمر بن الخطاب لا يجذ الزواج بالكتائيات. فقيل: بعث الى حذيفة بن اليمان بعدما ولاه المدائن^(١٨٢): إنه بلغني انك تزوجت امرأة من اهل المدائن من أهل الكتاب فطلقها، فكتب اليه: لا أفعل حتى تخبرني أحلال أم حرام؟ فكتب اليه، لا بل حلال. ولكن في نساء الاعاجم خلافة، فان اقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم^(١٨٣).

كما كره مالك بن أنس زواج المسلم بالكتائية، لانها تتغذى بالخمر ولحم الخنزير، وتغذي ولدها بهم، وهو يقبلها، ويضاجعها، وليس له منعها من ذلك، ولا من الذهاب الى الكنيسة^(١٨٤).

أما اللذين يجوزون الزواج بالكتائيات فهم يستندون في ذلك الى قول القرآن: "اليوم احلّ لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حلّ لكم، وطعامكم حلّ لهم، والمحصنات من المؤمنات، والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم اذا اتيموهن اجورهن محصنين غير مسافحين، ولا متخذي اخدان^(١٨٥)...".

(١٨٢) المدائن: موقع اثري في العراق جنوبي بغداد على ضفتي دجلة. أطلال مدينتي سلوقية وقطيسفون عاصمة الفرثيين. فتحها العرب بعد معركة القادسية، نقل المنصور (ابو جعفر) انقاضها لبناء بغداد. الان مركز قضاء.

(١٨٣) الطبري، تاريخ، ج ٣ ص ٥٨٨. Fattal, p.129.

(١٨٤) ابن حزم، المحلى ج ٩ ص ٤٤٥. ابن قدامة المقدسي، المغني، ج ٦ ص ٥٨٩.

(١٨٥) سورة المائدة، آية ٤.

وأما حجة القائلين بكراهية، نكاح الكتابيات الى قول القرآن: "ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن"^(١٨٦). وان لفظ (المشركات) هنا إنما يتناول عبدة الاوثان عند الاطلاق، ولا يدخل فيهم اهل الكتاب^(١٨٧) بدليل قول القرآن: "ما يود الذين كفروا من اهل الكتاب، ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير ربكم"^(١٨٨). ففرق القرآن بين أهل الكتاب، وبين المشركين منهم في اللفظ وظاهره يقتضي ان المعطوف غير المعطوف عليه^(١٨٩). ويقول المستشرق فتال Fattal: بعض الفقهاء يفضلون زواج المسلم بكتابية لان هذا الزواج يفتح الطريق بالنسبة للزوجة الكتابية لكي تدخل في الاسلام بتأثير زوجها^(١٩٠).

أما الزواج بمجوسية لم يحل عند جمهور الفقهاء لانهم ليسوا من اهل الكتاب، وذهب الظاهرية^(١٩١) الى جواز زواج المسلم بمجوسية بحجة انها من اهل الكتاب لقول محمد (سوّا بهم سنّة اهل الكتاب). ولأنه روى ان حذيفة ابن اليمان^(١٩٢) تزوج بمجوسية، ولأن المجوس يقرّون بالجزية، فاشبهوا اليهود والنصارى في الحقوق. وعند الشيعة^(١٩٣) بين النكاح الدائم فلا يحلّ وبين المتعة فتحلّ.

(١٨٦) سورة البقرة، آية ٢٢١.

(١٨٧) زيدان، احكام الذميين ص ٣٤٣.

(١٨٨) سورة البقرة، آية ١٠٥.

(١٨٩) زيدان، احكام الذميين، ص ٣٤٣.

(١٩٠) Fattal, Le statut Legal Des Non Musulmans En Pays D'Islam, p.129

(١٩١) ابن حزم، المحلّى، ج ٩ ص ٤٤٥.

(١٩٢) حذيفة بن اليمان (ت ٣٦هـ/٦٥٦م) صحابي من الفاتحين ولّاه عمر بن الخطاب على

المدائن فتغلّب على الفرس في معركة نهاوند سنة ٦٤٢م.

(١٩٣) زيدان، احكام الذميين، ص ٣٤٥.

أما نكاح الصابئيات^(١٩٤) فمختلف فيه على قولين:

الاول جواز نكاح الصابئية حيث اعتبروها من اهل الكتاب. وممن أباح نكاحهم أبو حنيفة لأنهم عنده من جملة أهل الكتاب، وان كانوا يخالفون أهل الكتاب في بعض ديانتهم، فان هذا لا يمنع نكاح نسائهم.

والثاني عدم جواز نكاح الصابئية، فابو يوسف ومحمد، اصحاب ابو حنيفة فقالا بجرمة نسائهم لان الصابئة عندهما ليسوا من اهل الكتاب. فمنهم يعبدون الكواكب والنجوم. واما الحنابلة والشافعية فلم يقولوا بالحلّ او الحرمة، وانما قالوا فيهم: ان كانوا يوافقون النصارى واليهود في اصل دينهم كانوا منهم فتحلّ نساءهم للمسلم، وان كانوا يخالفون في اصول دينهم لم يكونوا منهم فلا تحلّ نساءهم للمسلم^(١٩٥).

ب - زواج المسلمة بالذميّ

اما زواج المسلمة بالذميّ فلا يجوز مطلقاً عند جميع الفقهاء، مستندين الى قول القرآن "ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا"^(١٩٦). ولأن زواج المسلمة بغير المسلم خوف وقوعها في الكفر لأن الزوج قد يدعوها الى دينه، ولانساء في العادة يتبعن الرجال، ويقلدنهم في الدين^(١٩٧).

(١٩٤) الصابئة: ديانة اصل اتباعها من حرّان ما بين النهرين ولغتهم السريانية المندائية. عبدوا الكواكب وتبنّوا لاحقا بعض الطقوس النصرانية، عدّهم القرآن من اهل الكتاب. اشتهر منهم اطباء وفلاسفة ومنجّمون.

(١٩٥) ابن قدامة، المغنى، ج ٦ ص ٥٩١، الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٢ ص ٢٧١. العلماء الهنود، الفتاوى الهندية، ج ١ ص ٢٨١.

(١٩٦) سورة البقرة، آية ٢٢١.

(١٩٧) الشافعي، الام، ج ٥ ص ٥. الكاساني، الصنائع والبدائع، ج ٢ ص ٢٧١ - ٢٧٢، كاشف الغطاء، سفينة النجاة، ج ٢ ص ٤٠١.

وقد اجاز القرآن الزواج بالأمة الكتابية (اي العبداء او الجارية من اليهود والنصارى) فقال القرآن "وانكحوا الايامى منكم، والصالحين من عبادكم وامائكم" (١٩٨).

ج - أحكام عامة

وهناك احكام عامة متعددة اقرها الفقهاء لأهل الذمة في دار الاسلام. فلهم حق التمتع بحقوقهم الخاصة، فلهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين من الحقوق والواجبات. وقد صرح الفقهاء بان الذمي في المعاملات كالمسلم^(١٩٩). فله الحق في الزواج وانشاء الاسرة، والتمتع بجميع حقوق الاسرة من طلاق، ونفقة وارث، والتمتع بالحقوق المالية، والتصرف بها والعمل مع المسلمين او الذميين. وقد نص الفقهاء على ان (حكم اموالهم حكم اموال المسلمين في حرمتها^(٢٠٠)). وفيه يتعهد المسلمون بحماية ممتلكات الذمي من أي شخص سواء اكان مسلماً او غير مسلم^(٢٠١).

حكم الشهادة

اما فيما يخص حكم الشهادة، فمختلف في قبول شهادة الذمي، فبعضهم يقبل شهادته، ويطلب ابن حنبل من الذمي ان يقسم بانه ليس مخادعاً، ولم يخف شيئاً، ولم يبدل في الشهادة او الوصية^(٢٠٢).

ويذكر مالك: الاساليب الواجبة على الذمي مراعاتها عند قسم اليمين، فيرى: ان يكون استحلافه في محل عبادته سواء كانت كنيسة مسيحية، او

(١٩٨) سورة النور، آية ٣٢.

(١٩٩) السرخسي الحنفي، شرح السير الكبير، ج ١ ص ٢٠٧.

(٢٠٠) ابن قدامة، المقدسي، المغنى، ج ٨ ص ٤٤٢ - ٤٤٥.

(٢٠١) Fattal, Le statut Legal Des Non Musulmans En Pays D'Islam, p.77

(٢٠٢) الشعراني، الميزان، ج ٢ ص ١٧٧.

كنيساً يهودياً، أم بيت نار للمجوس. فمثلاً على المسيحي أن يقسم في الكنيسة ويقول: (اقسم بالله الذي أنزل الانجيل على عيسى). وكذلك يفعل اليهودي بالنسبة للتوراة وموسى^(٢٠٣).

هـ - اقتناء العبيد

وتسري أحكام اقتناء العبيد على الذمي، فيسمح للذميّ شراء أي جنس من العبيد يقع عليه إختياره. ولكن الشافعي يميل لحمل الذميّ على بيع عبده المسلم لرجل مسلم، ولذلك فإن اسلام العبد الذميّ يرغم مولاه الذميّ على بيعه لمسلم^(٢٠٤).

و - الخمر

وعلى الرغم من أن عمر بن الخطاب الخليفة الثاني الراشدي قد أشار الى عدم جواز الذميّ بيع الخمر لمسلم، أو عرضها في الاسواق، إلا أنه سمح لاهل الذمة شربها وتجارها^(٢٠٥).

ز - الأحوال الاجتماعية

وهناك احكام أخرى عامة تتعلق بالأحوال الاجتماعية لاهل الذمة، وعلاقة المسلمين بهم، فقد أجاز محمد عيادة أهل الذمة، في مرضهم، فقد عاد محمد يهودي ودعاه الى الاسلام. وقيل جاء قيس بن شماس الى محمد فقال: (إن أمّه توفيت وهي نصرانية)، وهو يجب أن يحضرها. فقال له محمد: (اركب دابتك وسر أمامها، فإذا ركبت، وكنت أمامها فلست معها).

(٢٠٣) سحتون، المدونة الكبرى، ج ٤ ص ١٠٤. ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء، ج ٢ ص ٢١٨.

(٢٠٤) الشافعي، الام، ج ٤ ص ١٨٨.

(٢٠٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء، ج ٢ ص ٢٢٥.

وقال أبي وائل ماتت امي وهي على النصرانية فاتيت عمر بن الخطاب فسألته فقال: (اركب في جنازتها وسر أمامها).

وقد امر محمد علي بن ابي طالب ان يوارى (يدفن) أبا طالب^(٢٠٦) وكان ابو طالب حنيفياً.

وقد حصّنت الشريعة الاسلامية بسكنى أهل الذمة بين المسلمين ليطلعوا على محاسن الاسلام، ولأن الرسول وكثير من الصحابة كان يجاورهم جماعة من اهل الذمة^(٢٠٧).

وقد كره الفقهاء إيجار الدور، ويبيعها لأهل الذمة، لانه يكفر فيها، وينصب الصليبان فيها وغير ذلك^(٢٠٨). ولكنهم أجازوا استئجارهم، وإيجارهم، فقد استأجر محمد دليلاً يدلّه على طريق الهجرة، وكان مشركاً. ودفع اليه راحلته هو وابو بكر الصديق. كما أجر علي بن ابي طالب نفسه من يهودي يستقي له كل دلو بتمرة لان في هذا العلم لا يتضمن تعظيم دينهم، وشعائرهم^(٢٠٩).

وأجاز الفقهاء التصدّق على مساكين اهل الذمة، فقد ذكر سعيد بن المسيّب^(٢١٠): ان محمد تصدّق بصدقة على اهل بيت من اليهود^(٢١١). ورؤي عن ابن ميسرة قال: كانوا يجمعون اليه صدقة الفطر فيعطونها او يعطي فيها

(٢٠٦) الغزي، جلاء الظلمة، (مخطوطة) ورقة ٣١ ظ. ابن قيم، احكام اهل الذمة ص ٢٠٠ - ٢٣٠.

(٢٠٧) الغزي، جلاء الظلمة، (مخطوطة) ورقة ٢٢ ظ.

(٢٠٨) ابن قيم، احكام اهل الذمة ص ٢٨٤.

(٢٠٩) ابن قيم، احكام اهل الذمة ص ٢٧٧.

(٢١٠) سعيد بن المسيّب (ت ٩٤ هـ/ ٧١٢ م) أحد الفقهاء المدينة المنورة السبعة.

(٢١١) ابو عبيدة، الاموال، ص ٦١١ (باب اعطاء اهل الذمة من الصدقة)

للرهبان^(٢١٢). وجواز ذلك استناداً الى قول القرآن (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرؤهم . وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين)^(٢١٣).

وأجاز الفقهاء للمسلم الانفاق على أقاربه من اهل الذمة مستندين في ذلك الى قول القرآن: (واتقوا الله الذي تسألون به الأرحام)^(٢١٤).

وفي الحديث: (لا يدخل الجنة قاطع رحم). وقد حرم الاسلام قطيعة الرحم وان كان كافراً^(٢١٥).

ولا يأذن الفقهاء للمرأة الكتابية اذا تزوجت مسلماً أن ترتاد الكنائس والبيع، او الخروج في الاعياد المسيحية. وليس لزوجها المسلم من منعها من صيامها الذي تعتقد وجوبه، وصلواتها، وليس له حمل اليهودية على كسر السبت وليس له حملها على اكل اللحوم المحرمة عليهم^(٢١٦).

وأما حكم السبي من النساء والاطفال، فلا يجوز ان يقتلوا ان كانوا من أهل الكتاب، فقد نهى محمد عن قتلهم، ويكونوا سبياً مسترقاً، يقسمون مع الغنائم^(٢١٧).

أما في الاحكام الاخرى، فيقضي الشافعي نفى الذمي من دار الاسلام اذا انتقل من ديانته معاهد عليها الى اخرى، وذلك لانه لا يجوز اخذ الجزية على

(٢١٢) ابو عبيدة، الاموال ص ٦١١ ابو يعلى، الاحكام، ص ١١٧.

(٢١٣) سورة الممتحنة، آية ٨.

(٢١٤) سورة النساء، آية ١.

(٢١٥) ابن قيم، احكام اهل الذمة ص ٤١٧.

(٢١٦) ابن قيم، احكام اهل الذمة، ص ٤٣٨-٤٤١.

(٢١٧) الماوردي، الاحكام السلطانية ص ١٣٤.

غير الدين الذي اخذت منه اولاً^(٢١٨) . ولأنه لا يجوز أي تغيير في الدين، الا اذا كان دخولاً في الاسلام، فلا يجوز للمسيحي ان يهودّ، ولا لليهودي ان يتنصّر. ولم يكن المسيحي يرث اليهودي، ولا العكس. كما لم يكن اليهودي او المسيحي ان يرث المسلم، ولا المسلم يرثهما^(٢١٩). وذلك استناداً الى الاثر الثابت عن محمد انه قال: "لا يتوارث اهل ملتين"^(٢٢٠). وقد التزم به الخلفاء، فقد أصدر الخليفة عمر بن الخطاب الى الاشعث عندما طلب ان يرث املاك عمته التي تزوجت يهودياً ثم ماتت بلا ولد، فرفض عمر بن الخطاب طلبه في ارثها^(٢٢١) فعلى هذا الأساس والقيام يُحرّم ابن الذميّ من املاك ابيه اذا اسلم الابن، كما تسقط ولاية الذميّ على ابنته المسلمة في الزواج^(٢٢٢).

وفي حكم القضاء فقد اجاز الفقهاء لاهل الذمة القضاء عند القضاة المسلمين، ووفق الشريعة الاسلامية فكان القضاة يجعلون للمسيحيين يوماً في منازلهم، وأول من أدخلهم المسجد محمد بن مسروق للنظر في خصوماتهم^(٢٢٣).

واجاز الاسلام شهادة الذميّ واخباره لان الاديان السماوية تحرم الكذب ولأن القرآن أثبت الامانة لاهل الكتاب اذ قال: "ومن اهل الكتاب من ان

(٢١٨) الشافعي، الام، ج ٤ ص ١٠٥.

(٢١٩) انظر آدم متر، الحضارة الاسلامية، ص ٥ حاشية (١) نقلاً عن كتاب الخراج لقدامة بن جعفر (مخطوط) بالمكتبة الاهلية بباريس.

(٢٢٠) رسائل الصائبي (مخطوط) برقم ٧٦٦ مكتبة ليدن ص ١٢١١ب، نقلاً عن حاشية من كتاب متر، الحضارة الاسلامية ص ٤٦.

(٢٢١) ابن رسته، الاعلاق النفيسة، ص ٢٠٥.

(٢٢٢) سحنون، المدونة الكبرى، ج ٤ ص ٢٥٩.

(٢٢٣) الكندي، الولاة والقضاة ص ٣٩٠.

تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما (٢٢٤) " .

فهذه الاحكام قد حددت العلاقة بين اهل الذمة، وبين المسلمين، وهي احكام يتجلى فيها الاسلام ونظرته اليهم. كما ان محمد والخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من الخلفاء والفقهاء التزموا بما جاء في القرآن وفي سنة محمد.

(٢٢٤) سورة آل عمران، آية ٧٥.

الأحكام الإسلامية في حقوق أهل الذمة

١- الحقوق السياسية

لقد أباح الخلفاء الراشدون الاربعة (ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب) ومن جاء بعدهم من خلفاء بني أمية (الامويون) وخلفاء بني العباس (العباسيون) حرية الرأي، والاجتماع لغير المسلمين من اليهود والمسيحيين وغيرهم، وانه ليس في الشريعة الاسلامية ما يمنع ذلك، فقد سُمح لأهل الذمة الاجتماع في كنائسهم ومعابدهم، والقيام بشعائهم الدينية، وتبادل الآراء فيما يخص اختيار وانتخاب رؤسائهم الدينيين، وما يترتب على ذلك من مناقشة اوضاعهم، وحلّ مشاكلهم فيما بينهم بحج من الحرية التامة على ان لا يُسيئوا استعمالها بإثارة الفتنة او التحريض على العصيان او الردّة او الدعوة الى التشكيك في العقائد الاسلامية. هذه الحقوق قد اقرّها الاسلام لانه سمح للمسلمين بمناقشة آرائهم الدينية وعقائدهم بالحسنى فقال القرآن: "ولا تجادلوا اهل الكتاب إلاّ بالتي هي احسن^(٢٢٥)". وقد اعترف محمد بحقوقهم وجعلهم على قدم المساواة مع المسلمين في الحقوق والواجبات فقال محمد: "...فاعلمهم ان لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين^(٢٢٦)".

وتوسع الخلفاء في منح أهل الذمة من الحقوق فجعلوا حرمة أموالهم وحياتهم كحرمة اموال المسلمين وحياتهم، فقال الخليفة على بن ابي طالب: (إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا)^(٢٢٧).

(٢٢٥) سورة العنكبوت، آية ٤٦.

(٢٢٦) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٧ ص ١٠٠.

(٢٢٧) السرخسي الحنفي، شرح السير الكبير، ج ٣ ص ٢٥٠.

وأباح الحكام المسلمون لهم حق تعليم اولادهم وفق ديانتهم، وفي حق انشاء المدارس الخاصة بهم، او تعليمهم في الكنائس والاديرة والمعابد التي تعود لهم، وبهذا يكون الذميّ كالمسلم في حق التمتع بالتعليم.

٢- الحقوق الدينية

اعطى الاسلام لاهل الذمة حق ممارسة شعائهم الدينية، مستوحين هذه السياسة من هدى القرآن الذي نصّ: (لا إكراه في الدين)^(٢٢٨) فسمح لهم اقامة شعائهم وطقوس عباداتهم الدينية. ويتجلى هذا في العهود والمواثيق التي اعطاها محمد والخلفاء الراشدون والامويون والعباسيون والامراء والقواد المسلمون لاهل الذمة. ومما جاء في عهد محمد لأهل نجران مثلاً: (ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد على اموالهم، وملتهم، ويبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل او كثير)^(٢٢٩).

ويعلّل المستشرق فتال Fattal اجراءات محمد هذه، وتسامحه معهم لأن محمد اظهر حرية تامة بالنسبة للكفرة لانه اراد ان يكسبهم الى الاسلام عن طريق الاقتناع^(٢٣٠).

وان ما جاء في عهد خالد بن الوليد لأهل عانات^(٢٣١) (...) ولهم ان يضربوا نواقيسهم في اية ساعة شاءوا من ليل أو نهار، الا في أوقات الصلوات، وان يخرجوا الصلبان في ايام عيدهم^(٢٣٢).

(٢٢٨) سورة البقرة، آية ٢٥٦.

(٢٢٩) ابو يوسف، الخراج، ص ٧٢.

(٢٣٠) Fattal, Le statut Legal Des Non Musulmans En Pays D'Islam, p.159.

(٢٣١) عانات (عانة) مدينة سريانية قديمة، كانت قاعدة ابرشية في ايام الفتح الاسلامي وحتى سقوط الدولة العباسية تقريبا ثم انقرضت منها المسيحية، تقع على الفرات وهي اليوم مركز قضاء تابع لمحافظة الانبار في العراق.

ويؤكد المستشرق فتال Fattal^(٢٣٣) ان المسلمين احتراموا الشروط التي وضعها الخلفاء عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، اذ لم يهدم أي من محلات العبادة التي التزمت بها المعاهدات .

فالمعاهدات التي عقدت منذ عهد الخليفة ابي بكر الصديق ومن بعده من الخلفاء مع اهل الذمة كانت بصورة عامة تضمن الامان للكنائس، وحرية الطقوس الدينية، وكذلك المعاهدات التي عقدت مع مجوس فارس كانت تؤكد على حرية العبادة الدينية للذمين^(٢٣٤) .

ويبدو أن هذه الحرية المطلقة ابيحت لاهل الذمة في ممارسة طقوسهم الدينية في المدن والقرى، التي تكون غالبيتها منهم، وقد اختلف الفقهاء في كيفية ممارسة اهل الذمة شعائرتهم وطقوسهم الدينية، فذهب ابو حنيفة الى جواز اظهارها في القرى، والمواضيع التي ليست من امصار المسلمين^(٢٣٥) .

وقالت الحنابلة بمنع اظهار الصلبان، وضرب النواقيس في اوقات الصلاة^(٢٣٦)، والشافعية كالحنابلة في جواز اظهارها اذا انفردوا في قرية او موضع^(٢٣٧) .

ويرى زيدان في كتابه احكام الذمين^(٢٣٨) (جواز اقامة شعائرتهم الدينية داخل كنائسهم ويمنعون من اظهارها في خارجها، لان امصار المسلمين

(٢٣٢) أبو يوسف، الخراج، ص ١٤٦.

(٢٣٣) Fattal, Le statut Legal Des Non Musulmans En Pays D'Islam, p.175

(٢٣٤) Fattal, Le statut Legal Des Non Musulmans En Pays D'Islam, p.161

(٢٣٥) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٧ ص ١١٣.

(٢٣٦) ادريس الحنبلي، كشاف القناع، ج ١ ص ٧٢١.

(٢٣٧) الشريبي، مغنى المحتاج، ج ٤ ص ٢٥٧.

(٢٣٨) زيدان، احكام الذمين، ص ٩٩-١٠٠.

مواضع إعلان للدين، واطهار شعائر الاسلام، فلا يصح إظهار شعائر تخالف لما في هذه الأمصار من معنى الاستخفاف بالمسلمين. وان المنع ليس منصباً في ذاته على الشعائر الدينية وانما اظهره في أمصار المسلمين يُحدث شيء من الفتنة والاضطراب). ولهذا لا يمنع الفقهاء من اظهار شعائرهم الدينية في القرى، والأماكن التي ليست من أمصار المسلمين.

وقد سمح المسلمون لأهل الذمة بناء المعابد والكنائس وبيوت النار التزاماً لتلك العهود التي اعطاها المسلمون لهم. وقد التزم بتنفيذ احكامها الخلفاء فيما بعد، فقد كتب عمر بن عبد العزيز الى عمّاله (ألا يهدموا بيعة، ولا كنيسة ولا بيت نار)^(٢٣٩). لان الاجماع قد حصل عليهم، فانهم موجودون في بلاد المسلمين.

ولقد اجيز للذميّ ان يوصي للوقف على الكنائس من ماله لأهل ملّته من المسيحيين واليهود^(٢٤٠). وهذا دليل ثابت على أنهم كانوا يبنون الكنائس، ويصلحونها، ولكن الفقهاء اختلفوا فيها حسب طريقة فتح البلاد.

فقد اجاز فقهاء الحنفية إحداث الكنائس في القرى التي ليست من أمصار المسلمين^(٢٤١). وزاد عليها الشافعي، باطلاقها في القرى^(٢٤٢).

أما الكنائس القديمة في الامصار المفتوحة عنوة، لا يتعرض لها ولا يهدم منها، وان هدمت فعلى رأي الحنفية تتخذ مساكن لان المصر الذي فيه الكنيسة، فتح عنوة فلا يحق للذميّين اتخاذها معابد لهم^(٢٤٣). والشافعية يقرّون عليها للمصلحة العامة^(٢٤٤). وعند الحنابلة قولان:

(٢٣٩) ابن قدامة المقدسي، المغني، ج ٨ ص ٥٢٧. ابن قيم، احكام اهل الذمة، ص ٦٩.

(٢٤٠) المسعودي، مروج الذهب، ج ٥ ص ٣٨١.

(٢٤١) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٧ ص ٤١٤.

(٢٤٢) الرملي، نهاية المحتاج، ج ٧ ص ٢٢٩.

(٢٤٣) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٧ ص ١١٤.

(٢٤٤) الرملي، نهاية المحتاج، ج ٧ ص ٢٢٩.

الاول: هدمها، لان البلاد فتحت عنوة، الا اذا اذن لهم الامام بذلك، لأن الامام لما أقرّ اهل الذمة على عقائدهم فمن لوازم هذا الاقرار السماح لهم انشاء المعابد^(٢٤٥). وقد فسّر ابن قيم الجوزية حرية الاعتقاد تفسيراً ينطبق مع احكام الشريعة الاسلامية^(٢٤٦). وقد بدأ انطلاقه في احكام المعابد والكنائس من الآية القرآنية: "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع، وبيع، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا"^(٢٤٧). فاعترف بانه يحرم على المسلمين التعرض للذميّين بالظلم والاذى عند إداء شعائهم الدينية. ولم تكن حجة الفقهاء في بناء البيع والكنائس ولا حديث ابن عباس: (ايما مصر مصرّته فليس لاحد من اهل الذمة ان يبنوا فيه بيعة ولا يضربوا فيه ناقوساً، ولا يشرب فيه خمرأ، ولا يتخذ فيه خنزيراً)^(٢٤٨). وهذا القول يتعارض مع عهد محمد لاهل نجران، وعهود الخلفاء، والقواد لاهل الذمة في الامصار المفتوحة، لان إقرار الذميّ على دينه تؤيدها، وتقرّها النصوص والعقود والعهود، بضمانهم حرية معتقده وتمكينه من إداء شعائره الدينية، فلم يكن لعقد الذمة معنى ولم يكفل الذميّ حرية المعتقد، وعدم التعرّض لما يدين به ويعتقد.

الثاني: ان الخلفاء في العصور الاسلامية ولا سيما في العصر الاموي (٦٦١ - ٧٥٠ م) والعباسي (٧٥٠ - ١٢٥٨ م) لم يأخذوا بأراء الفقهاء، فقد سمحوا لاهل الذمة بممارسة شعائهم الدينية بحرية تامة في القرى والمدن. وبناء الكنائس والمعابد ما داموا في طاعة الخليفة، ولذا فقد كان الخلفاء في وادٍ والفقهاء في وادٍ آخر.

(٢٤٥) زيدان، احكام الذميّين، ص ٩٨.

(٢٤٦) ابن قيم، احكام اهل الذمة، ص ٦٩٨.

(٢٤٧) سورة الحج، آية ٤٠.

(٢٤٨) ابو عبيدة، الاموال، ص ٩٧.

حقوق اهل الذمة في اموال الدولة الاسلامية

بلغ من إهتمام محمد والخلفاء بمصالح اهل الذمة ورعاية حقوقهم والاشراف على أحوالهم ما دفعهم الى تمكينهم ومساعدتهم في أحوالهم المعاشية فاباحوا لهم التمتع بموارد الدولة المالية ومرافقها العامة، ومشاركتهم للمسلمين فيها، فقال محمد: (الناس شركاء في الماء والكلأ والنار)^(٢٤٩). ولذا فقد ضمن لهم من موارد بيت المال في حالة الحاجة والعجز لانهم من رعايا الدولة الاسلامية.

وقد اوجب محمد على الخلفاء ضرورة الاشراف على أموال الرعية، وان الامام مسؤول عنها فقال: (فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالامام راعٍ ومسؤول عن رعيته...) ^(٢٥٠).

وقد اوصى القرآن بحسن معاملتهم فقال: (ان الله يحب المحسنين) ^(٢٥١).

وقد سار الخلفاء المسلمون على هدى القرآن وسنة محمد، فقد ضمن الخالد بن الوليد هذه الوصايا في عهده الذي قطعه مع أهل الذمة، فجاء في صلح أهل الحيرة قوله: (وجعلت لهم ايما شيخ، ضعف عن العمل او اصابته آفة من الآفات، او كان غنيا فافتقر، وصار اهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين، ما قام بدار الهجرة ودار الاسلام) ^(٢٥٢).

وعندما قدم الخليفة عمر بن الخطاب الى بلاد الشام مرّ بقوم مجذومين من النصارى فامر ان يعطوا من الصدقات، وان يجري عليهم القوت ^(٢٥٣) "

(٢٤٩) ابو عبيدة، الاموال، ص ٢٩٥.

(٢٥٠) الزبيلي، تيسير الاصول، ج ٢ ص ٣٦، اخرجه كتب الحديث الخمسة الا النسائي.

(٢٥١) سورة آل عمران، آية ١٣٤.

(٢٥٢) أبو يوسف، الخراج، ص ١٤٤.

(٢٥٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٧٧.

وروى ابو يوسف: (ان عمر بن الخطاب مرّ بباب قوم وعليه سائل يهودي يقول: شيخ كبير ضير، فقال عمر له: ما ألكاك الى هذا؟ قال: الحاجة الجزية؟ فاخذ عمر بيده وذهب به الى منزله واعطاه شيئاً، ثم ارسل الى خازن بيت المال وقال له: انظر هذا وأمثاله، فوالله ما انصفناه، ان اكلنا شيبته ثم نخذه عند الهرم، وقرأ قول القرآن: "إنما الصدقات للفقراء والمساكين" (٢٥٤) " وقال: الفقراء هم المسلمون. وهذا من المساكين من اهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه (٢٥٥)."

وكتب عمر بن عبد العزيز الى واليه على البصرة عدي بن أرطاة: (أما بعد... وانظر من قبلك من اهل الذمة من كبرت سنّه، وضعفت قوته، وولّت عنه المكاسب، فاجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه (٢٥٦)...) .

وقد اختلف الفقهاء في اعطاء الاموال من بيت مال المسلمين لذوي الحاجة من اهل الذمة. فقليل يجوز اعطاؤها بعد كفالة المسلمين. وروى ابو عبيدة، (لا يتصدّق على اليهودي والنصراني الا ان لا نجد مسلماً) (٢٥٧). وان لا تكون هذه الاموال من الزكاة. فقليل عن ابراهيم النخعي: (أما من الزكاة فلا تصدّق عليهم ولكن اعطهم من غيرها) (٢٥٨) لأن في ذلك مخالفة لسنة محمد حيث يقول: (لا تؤخذ من اغنيائهم فتدّ الى فقرائهم) (٢٥٩). وقال عمر بن شرحبيل: (انهم كانوا يعطون الرهبان من صدقة الفطر) (٢٦٠) ويبدو من

(٢٥٤) سورة التوبة، آية ٦٠.

(٢٥٥) ابو يوسف، الخراج، ص ١٤٤.

(٢٥٦) ابو عبيدة، الاموال، ص ٤٥ - ٤٦.

(٢٥٧) ابو عبيدة، الاموال، ص ٨٠٢.

(٢٥٨) ابو عبيدة، ص ٨٠٣.

(٢٥٩) حديث نبوي شريف.

(٢٦٠) أبو عبيدة، الاموال، ص ٨٠٣ - ٨٠٥.

استشهاد الخليفة عمر بن الخطاب بقول القرآن "انما الصدقات للفقراء والمساكين" (٢٦١) فمعناها يجوز اعطاء اهل الذمة من موارد الصدقات، ومهما يكن فان الغرض هو مساهمة الذمي من أموال الدولة الاسلامية في حالة فقره وعجزه.

حقوق اهل الذمة في العمل والوظائف

أطلق الاسلام لاهل الذمة حرية العمل في الدولة الاسلامية، في الحياة الاقتصادية والمساهمة بالاعمال المختلفة التي يرغبونها من تجارة وصناعة وحرف، كالمسلمين الا الربا فهو محظور عليهم كالمسلمين استناداً الى عهد محمد لمجوس هجر، (إما ان تذرؤا الربا او تأذنوا بحرب من الله ورسوله) (٢٦٢).

كما منع اهل الذمة من بيع الخمر ولحم الخنزير في امصار المسلمين او ادخالها على وجه الشهرة والظهور، الا ان يبيعوها في قراهم وامصارهم فيما بينهم، ولو كان فيه مسلمون (٢٦٣). وقد أجاز الفقهاء مشاركة المسلم الذمي والعمل معه على ان يلي المسلم البيع والشراء، وذلك لانهم يأكلون الربا ويستحلون الاموال، فقد قام محمد باعمال البيع والشراء والرهن مع اهل الذمة. فقد ثبت عن محمد انه اشترى من يهودي سلعة وأنه اخذ من يهودي ثلاثين وسقاً من شعيره ورهنه درعه. وانه زارعهم وساقاهم واكل من طعامهم (٢٦٤).

(٢٦١) سورة التوبة، آية ٦٠.

(٢٦٢) الكاساني، بدائع الصنائع، ج ٥ ص ١٩٣.

(٢٦٣) السرخسي الحنفي، شرح السير الكبير، ج ٢ ص ٢٥١. السرخسي، بدائع الصنائع، ج ٧ ص ١١٣.

(٢٦٤) ابن قيم، احكام اهل الذمة، ص ٢٦٩.

وقد استخدم حكام المسلمين أهل الذمة في وظائف الدولة المختلفة مع العلم ان وظائف الدولة ليست حقاً للفرد على الدولة إنما هو تكليف تكلفه به الدولة اذا كان أهلاً بها، وواجب يقوم به الفرد اذا عهد اليه بها^(٢٦٥). فقيل: ان الشاعر المسيحي ابو زبير الطائي حارب مع المسلمين في معركة الجسر^(٢٦٦). وفي المعاهدة التي أبرمها سراحة القائد عام ٢٢ هـ/٦٤٢م مع أهل ارمينية إنه اشترط على اهلها ان يشتركوا الى جانب المسلمين في الفتح بدلاً من دفعهم الجزية^(٢٦٧). وحارب جراحمة الشام في صفوف المسلمين بلا جزية^(٢٦٨).

لقد أجاز الفقهاء لاهل الذمة تولي وظائف الدولة، ومنهم الماوردي وأبو يعلي والحسن البصري^(٢٦٩) فقالوا: (يجوز للخليفة ان يولي وزارة التنفيذ لأهل الذمة^(٢٧٠)) وقد اختلف الائمة في ذلك، فابن قسيم الجوزية منع الذميين من استعمالهم في شيء من ولايات الدولة ومراقفها^(٢٧١).

أما مصطفى الحنفي فقد جَوَّز استكتابهم إذا رأى الامام في ذلك المصلحة، ولا يمنع من استخدامهم الا في حالتين:

(٢٦٥) زيدان، احكام الذميين، ص ٧٧.

(٢٦٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٢ ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء، ج ٢ ص ٢١٥.

(٢٦٧) ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء، ج ٢ ص ٢١٥.

(٢٦٨) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٩.

(٢٦٩) الحسن البصري (ابو سعيد) (ت ١١٠ هـ/٧٢٨م) تابعي ومتكلم ومحدث من مشاهير الثقات وكبار الزهاد. ولد بالمدينة وسكن البصرة. كان امام اهل البصرة وحرير الامّة في زمانه. وكان فريداً في معرفة الاحكام الشرعية والتدريس والوعظ والحديث. أثر تأثيراً عظيماً في جيله من المسلمين. تخرج عليه عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء راس المعتزلة. له مكانة عظيمة في التصوّف. مذهبه يقوم على النسك والإعراض عن الدنيا.

(٢٧٠) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ٢٨. ابو يعلي، الاحكام ص ١٥.

(٢٧١) ابن قسيم، احكام اهل الذمة في الاسلام، ص ٢٠٨ - ٢٣٦.

الاولى: إذا كانت الوظيفة تتضمن تنفيذ أحكام شرعية، واقامة حدود دينية، فلا يجوز استخدام الذميّ لانه لا يعتقد صحة شريعتنا، فكيف يتولى تنفيذ احكامها، واقامة حدودها.

الثانية: اذا كانت الوظيفة فيها تعاضم على المسلمين، او احتمال تصدي الذميّ لإيذاء المسلم، او يعتمد إذلاله، او يؤثر برعايته قرابته، واهل دينه، او يغشى الدولة او يفشي اسرارها^(٢٧٢).

ويبدو ان الماوردي وابو يعلى، وضعآ آراءهما المستمدة من مبادئ الشريعة، وواقع الامة الاسلامية آنذاك، فأجازوا استخدام اهل الذمة في مختلف مرافق الدولة التي لا يشترط فيهم الاسلام^(٢٧٣).

وأما ابن قيم الجوزية^(٢٧٤): فهو الآخر وضع آراءه استناداً الى احكام السلف والى واقع للامة فقد امتاز عصره بحدة النزاع المذهبي، وتحدي بعض الذميين للمسلمين وتعرض البلاد الاسلامية لهجمات الدول المسيحية مما دفعه الى المغاللات في منع الذميين من استعمالهم في شيء من ولايات الدولة ومرافقها. ولكن هذه النظرة لم تكن معمولاً بها دائماً، لانها تتعلق بالاوضاع السياسية للدولة الاسلامية وفي علاقاتها الخارجية مع الدول المجاورة.

وفيما عدا هذه الوظائف القليلة التي حجت عن اهل الذمة. فانه يجوز اشراك الذميين في تحمّل اعباء الدولة، وفي السيرة النبوية ادلة على ذلك، فاستخدام اسرى معركة بدر^(٢٧٥) في تعليم ابناء المسلمين القراءة والكتابة^(٢٧٦).

(٢٧٢) الغزي الحنفي، جلاء الظلمة عن حقوق اهل الذمة (مخطوط) ورقة ٢٦ و.ظ.

(٢٧٣) د. توفيق اليوزبكي الوزارة، نشأتها وتطورها في الدولة العباسية ص ٢٨١.

(٢٧٤) ابن قيم، احكام اهل الذمة، ص ٢٠٨ - ٢٣٦.

(٢٧٥) بدر: قرية جنوب غربي المدينة، قربها وقعت اول معركة بين المسلمين والقريشيين، قادها محمد نفسه عام ٢ هـ/٦٢٤م، انتصر فيها المسلمون.

(٢٧٦) زيدان، احكام الذميين، ص ٨٠.

وسمح محمد لاهل الذمة بالغزو معه في حروبه فقد: (أسهم قوم من اليهود وقاتلوا معه).

وقال الاوزاعي: (من لحق بالمسلمين أسهم له قبل ان يُسهم للخييل "الفرسان...")^(٢٧٧) ومعنى ذلك اسهامهم قبل اسهام الفرسان من المسلمين.

واستخدم محمد عندما توجه لفتح مكة عينا من خزاعة يخبره عن قريش^(٢٧٨) وكان هذا العين كافرا^(٢٧٩). ومع خطورة هذه المهمة، فقد اسندها محمد اليه ووثق به، واطمأن بخبره مما يدل على استخدام اهل الذمة في وظائف الدولة الاسلامية المهمة.

وقد ظل هذا التسامح طوال العصور الاسلامية. فبالاضافة الى جواز تقليد الذمي وزارة التنفيذ^(٢٨٠) - كما ذكرنا آنفا - فقد نصّ الفقهاء على جوزا اسناد وظائف اخرى في الدولة اليهم، لجباية الجزية والخراج^(٢٨١). وقد تجاوز الخلفاء على أقوال الفقهاء وتشريعاتهم فيما يخص استخدام اهل الذمة، في وظائف الدولة، وراعوا حاجات الدولة ومصالحها، فقد اشرك الخلفاء في مختلف عصورهم اهل الذمة، في اعمال الدولة ووظائفها، فالامويون اكثروا من استخدام المسيحيين حتى كان معاوية بن ابي سفيان كاتب مسيحي اسمه سرجون بن منصور^(٢٨٢)، وفي زمن العباسيين، عين الخليفة المنصور^(٢٨٣)

(٢٧٧) شرح المالكي، صحيح الترمذي، ج ٧ ص ٤٨-٤٩.

(٢٧٨) ابن قيم، زاد المعاد، ج ٤ ص ٢٠٢.

(٢٧٩) ابن قيم، زاد المعاد، ج ٤ ص ٢٠٢.

(٢٨٠) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ٢٨. ابو يعلى، الاحكام، ص ١٥.

(٢٨١) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ٢٨ ابو يعلى، الاحكام، ص ١٢٤ الغزي، جلاء الظلمة (مخطوط) ورقة ٢٦ و.ظ.

(٢٨٢) سرجون بن منصور: جد اسرة دمشقية خدم ابناؤها الامويين، منها منصور بن سرجون ويحيى او القديس يوحنا الدمشقي.

يهودياً اسمه موسى، كان احد اثنين في جباية الخراج. وعين الخليفة المأمون^(٢٨٤) أحد وجهاء (بورة) من مدن مصر اسمه بكّام رئيساً لبلدته، واقليمها، كما تولى الوزارة في زمن العباسيين بعض المسيحيين اكثر من مرة، منهم: نصر بن هارون سنة ٣١٩ هـ / ٩٣١ م. وعيسى بن نسطور المسيحي عام ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م^(٢٨٥) وقد عبّر المستشرق آدم متز، عن اعجابه من كثرة استخدام الذميين في وظائف الدولة الاسلامية فقال: (من الامور التي نعجب بها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الاسلامية)^(٢٨٦).

(٢٨٣) ابو جعفر المنصور (عبد الله) (ت ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م) الخليفة العباسي الثاني خلف اخاه السفاح عام ١٣٦ هـ / ٧٥٤ م وقتل قائده ابا مسلم الخراساني. اخضع العلويين وقضى على ثورة محمد النفس الزكية في المدينة، وثورة ابراهيم اخي محمد في الكوفة. قمع فتنة المقتنع في فارس. بنى بغداد عام ٧٦٢ م ودعاها بمدينة السلام وجعلها عاصمته. نظّم ادارة الدولة والمالية والبريد. توفي محرماً بالحج.

(٢٨٤) المأمون (عبد الله بن الرشيد) (١٧٠ - ٢١٨ هـ / ٧٨٦ - ٨٣٣ م) الخليفة العباسي السابع (١٩٨ هـ / ٨١٣ م) من كبار الخلفاء العباسيين. امه جارية فارسية. قتل اخاه الامين وخلفه. عين بالآداب والعلوم وانشأ "بيت الحكمة" في بغداد فازدهرت في عهده حركة الترجمة والنقل. ناصر المعتزلة، وامتنح الناس في خلق القرآن فعرف هذا الامتحان (بالحنة) خلفه اخوه المعتصم.

(٢٨٥) راجع ترتون، اهل الذمة، في الاسلام، ص ١٦٩.

(٢٨٦) راجع الرافي، الاسلام انطلاق لا جمود، ص ١٦ الحاشية.

الفصل الثاني

أحوال أهل الذمة في الدولة العباسية

بعد انتقال الخلافة من دمشق الى بغداد، إثر سقوط الامويين في الشام وقيام العباسيين في العراق، وسَّع الخلفاء العباسيون تطوير الدواوين على حسب النظام الساساني الفارسي، ووضعوا في كل ولاية ديواناً للخراج مسؤولاً عنه موظف كبير، يتفق منه على الولاية ويرسل الباقي الى بغداد، حيث ان مجموع هذه الدواوين تسمى بيت المال في ديوان الزمام، ويقول الجهشيارى^(١) في كتابه الوزراء: ان ابو العباس السفاح^(٢) وقد وضع على بيت المال خالد بن برمك ليكون أميناً عاماً، بالاضافة الى ذلك ولّاه ديوان الجند وترتيب امور رواتبهم ومصاريفهم. وقد وضع لدار الخلافة ديوان خاص يقوم على نفقاتها^(٣).

ولكن اهم الدواوين التي وضعت في العصر العباسي هو ديوان الرسائل، فقد لعب دوراً هاماً وبارزاً في النهضة العربية لانه كان يصدر رسائل الخلفاء والى جانبه ديوان الخاتم الذي تختم فيه تلك الرسائل بعد مراجعتها^(٤).

(١) الجهشيارى (ابو عبد الله محمد) (ت ٢٩٤٢) مؤرخ بغدادى كوفي الاصل، اشتهر بكتابه "الوزراء والكتاب".

(٢) ابو العباس السفاح (عبد الله): اول الخلفاء العباسيين (١٣٢ - ١٣٦ هـ / ٧٥٠ - ٧٥٤ م) ولد بالشرية عام ٧٢٢ م قاد الثورة على الامويين بعد وفاة اخيه ابراهيم عام ٧٤٨ م، بويح له بالخلافة في مسجد الكوفة. انتصر على مروان الثاني في معركة الزاب. اتخذ الانبار عاصمة له. أمر بآبادة الامويين.

(٣) د. حسين كرنيب، الدولة العباسية وعلاقتها بالديانات الإسلامية، ص ١٥١.

(٤) د. حسين كرنيب، المصدر السابق، ص ١٥١ الجهشيارى الوزراء والكتاب ص ٨٩.

وهناك ايضا ديوان يختصّ بالنظر في المظالم، وديوان الخبر الذي كان يختص بجمع أخبار الخلافة. وقد قال الطبري^(٥) في تاريخ الامم: ان هذا الديوان كان يحصي كل كبيرة وصغيرة للوالي ومن ورائه قواد الجيش والقضاة وعمال الخراج والمحتسبين ورجال الشرطة ويبلغونها الى صاحبهم وبدوره يبلغها للخليفة^(٦)، وقد لعب هذا الديوان مركزاً اساسياً في ايصال الاخبار الى جميع اقطار الخلافة، اذ كانت تركز عدة نقاط على طول الطرقات بين الامصار العربية^(٧).

التنظيم الاداري

لا بد من القاء نظرة فاحصة ودقيقة على أهل الذمة، وتوضيح ما إذا كان لهم دوراً "مهماً" في الحياة السياسية في الدولة العباسية. وكذلك في النظم الادارية ام لا، ام انهم تقلدوا بعض المراكز في الادارات العامة، وكيف انهم اتقنوا صنعتها وبرزوا فيها خاصة في الدواوين والترجمة. وهنا لا بد أن نقول ان الدولة العباسية التي نهضت وانتصرت، ستذهب خاصة في اتجاه اهل الذمة، وتبني سياسة التعاون مع هؤلاء. فالعباسيين بعد ان اطمأن حكامهم الى تدعيم ركائز حكمهم، توجهوا فعلاً نحو توطيد سياستهم الداخلية وخاصة ببناء الدولة الاداري، وهم ورثوا عن الامويين معظم الادارات مع موظفيها

(٥) الطبري (ابو جعفر محمد بن جرير) (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م) مؤرخ ومفسر وفقه شافعي، حاول ان يكون له مذهب خاص. ولد في أمل بطبرستان. استوطن بغداد وتوفي بها - مؤلف مشهور. من كتبه "جامع البيان في تفسير القرآن" يعرف بتفسير الطبري. و"تاريخ الامم والملوك" يعرف بتاريخ الطبري. وله "اختلاف الفقهاء" و"آداب القضاة" و"تهذيب الآثار".

(٦) الطبري، تاريخ الامم والملوك ج ٦، ص ٣٣٦.

(٧) د. حسين كرنيب، الدولة العباسية، ص ١٥٢.

من غير المسلمين نظراً "لاتقائهم عدة لغات بالاضافة الى العربية، إذ أن الحاجة اليهم ملحة ولكن السياسة التي اتبعها العباسيون بتركهم في وظائفهم والتخلص منهم تدريجياً" في بعض ظروف الخلافة، واحلال العنصر المسلم مكانهم ملء الفراغ^(٨) ولكن في الحقيقة لا ينكر دورهم بتبوءهم اكثر المراكز حساسية في بعض العهود العباسية اذ كان لهم حرية مطلقة في بعض الادارات الخاصة بهم. فالجتماع العباسي كان خليطاً من عدة مذاهب بالاضافة الى العنصر الاسلامي فالقرن الرابع الهجري يُظهر ما كان للمجوس من دور فعال بالاضافة الى دور المسيحيين واليهود وذلك بعد الاعتراف بهم ووضعهم في مصاف اهل الكتاب ومعاملتهم بنفس المعاملة ضمن النظام العباسي .

ولقد كان بين اهل الذمة فروقات واضحة، فاليهود استطاعوا ان يكونوا مجتمعاً متجانساً، ويحافظوا على مركزهم السياسي ضمن الدولة العباسية^(٩) . رغم ان المسيحيين كان لهم المركز الاقوى في تلك الاثناء^(١٠) . وأما المجوس فاستطاعوا النفاذ الى قلب الدولة الاسلامية باعتناق اعداد مذهلة منهم الدين الاسلامي وبواسطتهم دخلت الحضارة الفارسية الى قلب الجزيرة وتاثر الاسلام والمسلمين بهم حضارياً وسياسياً وتنظيمياً^(١١) .

يقول أحمد امين في كتابه^(١٢) واستنادا الى الصائبي انه في القرن الثالث الهجري تولى ديوان الجيش العباسي مسيحي، وكان المسلمون يقبلون يده مما

(٨) د. حسين كرنيب، الدولة العباسية، ص ١٥ .

(٩) آدم متز، الحضارة الاسلامية، ص ٧٨ .

(١٠) د. حسين كرنيب، الدولة العباسية، ص ١٥٤ .

(١١) د. حسين كرنيب، الدولة العباسية، ص ١٥٤ .

(١٢) احمد امين، ظهر الاسلام، ص ٨٣ .

حدا بعلي بن عيسى ان يقول لابن الفرات^(١٣): "اما اتقيت الله في تقليدك ديوان الجيش لرجل نصراني، وجعلت أنصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمثلون لاوامره؟ قال له ابن الفرات: ما هذا شيء ابتدأته ولا ابتدئته. وكان الناصر لدين الله^(١٤) قلّد الجيش لكاتبه النصراني اسرائيل، وقلّد المعتضد^(١٥) ملك بن الوليد النصراني كاتب بدر. فقال علي بن عيسى ما فعلا صواباً. فقال ابن الفرات حسبي الاسوة بهما وان اخطأ على زعمك^(١٦) .

ويقول ترتون المستشرق، بأن أهل الذمة قد انفصلوا إدارياً، ومن الناحية الدينية والمحاكم الشرعية كلياً عن الاسلام واعطوا حق الاحكام عن اتباعهم حسب معتقداتهم. فقد كان لهم موظفون وادارات ومحاكم مختصة بهم اختصاصاً لا علاقة لهم بالاسلام لا من قريب ولا من بعيد سوى ما يتقدم به أحد المتخاصمين باللجوء الى المحاكم الاسلامية للفصل بينه وبين خصمه. فيقول يكفي الاسلام انه ربط قضايا اهل الذمة في الامور المدنية، والجنائية، والقضائية برؤسائهم الروحيين الذين كانوا يقومون مقام القضاة لتشمل احكامهم الزواج والميراث والمنازعات التي تخصّ المسيحيين وحدهم.

(١٣) ابن الفرات (ابو الحسن علي) (ت ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م) وزير عباسي من الادباء. نكبه المقتدر وقتله مع ابنه المحسن والقي بهما في دجلة. افاض المؤرخون في ذكر اخبار آل الفرات ونكبتهم.

(١٤) الناصر لدين الله (احمد بن المستضيء) الخليفة العباسي الرابع والثلاثين (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ / ١١٨٠ - ١٢٢٥ م) قضى على نفوذ قادة الجيش ووضع حداً للتسلط السلجوقي. اشتهر بالحزم.

(١٥) المعتضد بالله (احمد بن الموفق): الخليفة العباسي السادس عشر (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ - ٩٠٢ م) عقد صلحاً مع حمارويه الطولوني واقترن بابنته. هزم جيشه ابو سعيد الجنابي.

(١٦) احمد أمين، ظهر الاسلام، ص ٨٣.

ولكن الماوردي^(١٧) يؤكد ما ورد على لسان ترتون السابق ذكره، ان بعض الخلفاء عرف منهم تقليد القضاء من غير المسلمين ليحكموا بين اهل ملتهم ويكون بذلك استقلالاً تاماً من الناحية القضائية والادارية للديانات غير المسلمة ضمن الدولة العباسية^(١٨).

ويقول احمد شلي^(١٩) في موسوعته ان المسيحيين خاصة كان لهم استقلالاً ذاتياً في ادارتهم ومحاكمهم الدينية عن المسلمين فيهم يهتمون للتوراة والانجيل ضمن الدولة الاسلامية دون أي عائق او مضايقة، بل بالعكس من ذلك فقد لاقوا التسامح والتشجيع وايضاً الحماية لاحكامهم من قبل الجيش الاسلامي.

وقال ابن الاثير^(٢٠) انه في القرن الثالث للهجرة كان لعضد الدولة البويهية في بغداد وزير نصراني اسمه نصر بن هارون اذن له بعمارة البيع والاديرة واطلاق الاموال لفقراء المسيحيين مع احصاء عددهم.

ولكن أيام الخليفة المتوكل^(٢١) (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٦)، وعندما استولى الجيش التركي على زمام الامور للدولة العباسية، واصبح يدير جميع

(١٧) الماوردي (ابو الحسن) (ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) فقيه شافعي من الكبار ولد بالبصرة تولى القضاء في ايام القائم العباسي ببغداد. مال الى المعتزلة. من كتبه: "ادب الدين والدنيا" و"الاحكام السلطانية" في السياسة المدنية الشرعية، "أعلام النبوة" "الحاوي" في الفقه.

(١٨) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ٥٤.

(١٩) احمد شلي، موسوعة النظم الاسلامية، ج ٦ ص ١٥٧.

(٢٠) ابن الاثير (عز الدين علي) (١١٦٠ - ١٢٣٤ م) مؤرخ كبير، اخو مجد الدين المبارك بن محمد وضياء الدين نصر الله. مؤرخ كبير من آثاره "الكامل في التاريخ" و"اسد الغابة، في معرفة الصحابة" و"اللباب"؟

إداراتها، وبدا الخلفاء صورة في الحكم، ونظراً لطغيان هذا الجيش وقساوته وتسلبه فسدت الادارات وفسد نظام الجباية والخراج. وانقسم الجيش العباسي الى فرق كل فرقة تتعصب لجنسها، هذا فضلاً عن تدخل الولاة بشؤون الادارات العامة تدخلاً جعل الرشوة هي رمز المعاملة، مما ادى الى فساد مبرح ضمن الادارة العباسية.

كل ذلك له تأثير سلبي على أهل الحكم، وعلى بقية السكان التي تعيش ضمن الدولة العباسية. فيقول روفائيل بابو اسحق^(٢٢): "ان نصارى العراق ورؤساءهم كانوا يحترمون الخلفاء العباسيين ويتخذونهم قضاة وحكاماً في تدبير شؤونهم السياسية. ولا سيما في انتخاب الجاثlique^(٢٣)، اذ ان المسلمين كانوا يتدخلون في بعض الاحيان لمصلحة الجاثlique في تنفيذ احكامهم على الرعية. فالخليفة المعتضد بالله بن الموفق (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ - ٩٠٢ م) بعد انتهائه من جمع المخالفات نصب من جديد الجاثليق يوحنا بن عيسى المعروف بالاعرج^(٢٤)، وأنعم عليه بثوب ديباج وعكاز وحذا حذوه اكثر الخلفاء. كل ذلك يدلنا على مدى إطلاق الحرية الادارية للبطريرك او الجاثليق بالتصرف بشؤون رعيته ضمن القوانين المتبعة لديهم، وحتى ان الخلفاء كانوا

(٢١) المتوكل على الله (جعفر بن المعتصم) (٢٠٦ - ٢٤٧ هـ / ٨٢١ - ٨٦١ م) الخليفة العباسي العاشر (٢٣٢ - ٨٤٧ هـ / م) كان محباً للسنة فحارب المعتزلة ورفع "المنعة" عن الناس. حاول نقل عاصمته الى دمشق وعاد الى سامراء حيث اغتاله القادة الاتراك بالاشتراك مع ابنه الاكبر المنتصر. كان موته بداية انحطاط الخلافة العباسية.

(٢٢) روفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٧٢ - ٧٤.

(٢٣) الجاثlique، مفردا جاثليق، لفظة يونانية تعني العام (المطران العام) وهو بمثابة البطريرك، وقد تعني الجامع، او الجامعة قاثوليكية.

(٢٤) راجع عنه كتاب اخبار فطاركة كرسي المشرق (المجلد) لعمر بن متى ص ٨١ - ٨٤ وكتاب اخبار بطاركة كرسي المشرق (المجلد) لماري بن سليمان، ص ٨٥ - ٨٩.

مولجين الى حدّ ما بالتدخل لصالح الجائليق في تطبيق هذه القوانين التي تعدّ الفريدة من نوعها اذا ما قورنت بالغرب المسيحي الصرف، وبالإضافة الى ذلك فالمسلمون راعوا حقوق المسيحيين وبعض اهل الملل الاخرى، اذ استخدموهم في الدواوين وولّوهم ولاّة على بعض المدن والقرى، وامناء على الخزائن المالية.

ونتيجة لذلك الوضع فقد قام المسيحيون بحسن تدبير الادارات التي تولوها على اكمل وجه وملأوا وظائفهم ورفعوا من شأنها اداريا وتنظيميا. ولا ننسى بان اغلب تصاميم وزخرفة القصور كان من تصاميم المهندسين المسيحيين اذ برعوا في الزخرفة والنقوش^(٢٥). ولقد تسمّر المسيحيون (او ثبتوا انفسهم) على المناصب والراتب العالية والدواوين ابان الحكم العباسي، فقد برعوا بالتعريب لارسطو وبقرات وحالينوس، وفي الفلسفة اليونانية^(٢٦)، كما سيمر معنا لاحقا.

ولكن آدم مitez يقول^(٢٧) : انه عام ٢٣٥هـ / ٨٤٩م أمر الخليفة المتوكل بأن لا يستعان باهل الذمة في الدواوين واعمال السلطان التي تجري احكامها على المسلمين، ولكن الخليفة المتوكل نفسه بعد عشر سنين وبمساعدة مهندس مسيحي بنى قصره الجعفري وصيّر اليه النهر بواسطته^(٢٨).

نعم اتبع المتوكل سياسة تختلف كل الاختلاف عن سياسة اسلافه، اذ انتبذ مذهب المعتزلة، ووضع حداً للمحنة، وعاد الى السنّة، وإذ كان مشهوراً

(٢٥) روفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٧٥، عن الباحث الفرنسي لا بور.

(٢٦) روفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٧٦.

(٢٧) آدم متر، الحضارة الاسلامية، ص ١٠٦.

(٢٨) د. حسين كرنيب، الدولة العباسية، ص ١٥٦.

بسورات الغضب التي كانت تنصبّ على المسلمين والمسيحيين على السواء، فغالباً ما كان ندماءؤه وحاشيته ضحايا نزواته، فضلاً عن تسننه الصارم ضد المسيحيين فيقول صليبا: "انه قتل كثيراً من الكتاب واستصفى اموالهم وهدم منازلهم. ولقي اهل الذمة منه الشدائد وكل اذى ومكروه"^(٢٩).

وفي عام ٨٥٠ م، اصدر الخليفة المتوكل أمراً ضد المسيحيين واليهود. ويبدو ان الدافع الى ذلك كان حسد بعض المسلمين الذين اوغروا صدر الخليفة على اهل الذمة، لانهم يشغلون مناصب مرموقة في الدولة، ولأن لهم نفوذاً كبيراً في البلاط وحتى بالقرب من شجاع والد الخليفة. وقد يكون في الامر ايضاً شيء من عدم الفطنة لدى المسيحيين او نوع من الاستعلاء على المسلمين. وكان المتوكل بحاجة الى دعم من الفقهاء السنيين، لذا فقد اضطر الى تنفيذ بعض القوانين البالية ضد الذميين، تلك القوانين التي سنّها اسلافه بين فترة واخرى، بالنظر الى الظروف الطارئة والراهنه، والتي لم يكن لها أي اساس في القرآن، ولا في المبادئ الاخلاقية التي فرضها الاسلاف بشأن الذميين^(٣٠).

وتنقسم هذه الاحكام الى قسمين كبيرين يحتوي كل منهما على ست مواد^(٣١):

(٢٩) المجلد، ص ٧١.

(٣٠) الا ان النقد المعاصر يميل الى الظن ان تلك الاجراءات لم تصدر الا عن اصحاب المتوكل ذاته بتأثير من الفتح بن خافان التركي الذي كان مولى الخليفة واغلب الناس عليه واقر بهم منه. المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٨٦.

(٣١) من المصادر التي تذكرها: القلقشندي، صبح الاعشى، ج ١ ص ٤١٥، وج ١٣ ص ٣٦٢ - ٣٦٤. الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ١٢٧ - ١٣٨. ابن الاخوة، معالم القربى، ص ٤١ - ٤٢، ابن الازرق، بدائع، ص ٦٨٤ - ٦٨٨، اضافة الى الطبري في تاريخه وابن الاثير في الكامل بالتاريخ وغيرها.

وتعتبر الست الاولى منها أساسية ومتفقه مع روح الشريعة الاسلامية،
وتهدف الى حماية الاسلام. وتشكل مخالفتها خرقاً للعهد (المزعومة) الممنوحة
لحماية المسيحيين وهذه هي:

- كل تهجم، وان بالاقوال على المسلمين او على القرآن او على
النبي.

- اهتداء مسلم الى المسيحية.

- ظلم يُقْتَرَف ضد مسلم او ضد امواله.

- كل صلة بامرأة مسلمة للزواج او للفجور.

- مساعدة اعداء المسلمين.

اما الست الاخرى، فمن الارجح صادرة عن الفقهاء، وهي تشكل
خرقاً للعهد:

- منع قرع النواقيس وتلاوة المزامير علناً.

- عدم عرض الخمور والخنازير والصلبان امام الانظار.

- عدم اقامة بنايات اعلى من بيوت المسلمين.

- عدم الاحتفال العلني بالمآتم.

- منع ركوب الخيل واستعمال السرج لركوب البغال والحمير.

ويضاف الى هذه الاحكام منع المسيحيين من استعمال اسماء او القاب
اسلامية. وغير ذلك من الامور المشينة^(٣٢). وكانت نتيجة هذه المضايقات
المتوقعة ان كثيرين من المسيحيين اضطروا الى اعتناق الاسلام تخلصاً من الظلم
والتعسف.

(٣٢) المسعودي، مروح الذهب، ج ٤ ص ٨٦.

وفي سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م، كان المسيحيون خصوصاً قد غلبوا على الطابع الكتابي في الدولة فامر المقتدر بان لا يبقى احد من غير المسلمين في الدواوين والوظائف الادارية عدا الطب والجهذة. ويضيف ميتز قائلاً^(٣٣) ان بطريك اليعاقبة كان لا بد له ان يذهب الى قصر الخلافة عند تنصيب كل خليفة جديد ولكن اوائل القرن الثالث الهجري مُنع البطريك ان يحضر الى قصر الخلافة او ان يتخذ بغداد مقراً له، واعتقد هذه كانت وشاية من الجاثليق النسطوري الذي كان يستأثر ان يكون وحده رأساً للكنيسة في بغداد.

الوضع الاقتصادي والاجتماعي

على الرغم من الازدهار الذي عمّ معظم اراضي الدولة العباسية وبروز حياة الترف والبذخ واللهو الى جانب الازدهار الاقتصادي العام بتوسع التجارة الخارجية، برزت ايضا الايدي العاملة. وقد كانت الحياة في مجملها العام حياة رفاية وذلك بعد استتباب الامن، فانصرف الخلفاء الى توطيد دعائم حكمهم وتنظيم ولاياتهم واداراتهم، بالاضافة الى تنظيم الجيش العباسي، فلا بد ان نعود بالذاكرة الى ان المجتمع العباسي كان يتألف من عدة طبقات، وهذا ما اجمع عليه معظم المؤرخون العرب الى جانب طبقة المسلمين. فإلى جانب هذا الازدهار الاقتصادي، لا بد ان ينشط الازدهار العمراني وترتفع معيشة حياة الفرد، ولكن هناك طبقات عاشت وارتقت ونعمت وبذخت وترفعت بلبالي الف ليلة وليلة على حساب الطبقات الاخرى.

يقول المسعودي^(٣٤): "مبيناً معالم البذخ عند الطبقة الحاكمة، قائلاً: ان زوجة الرشيد عندما افتي لها القاضي ابو يوسف^(٣٥) باحدى القضايا اهدته

(٣٣) آدم ميتز، الحضارة الاسلامية، ص ٨٠.

(٣٤) المسعودي (ابو الحسن علي) (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) مؤرخ ورحالة من اهل بغداد من ذرية الصحابي ابن مسعود. رحل الى بلاد كثيرة واقام في مصر وتوفي فيها، اشتهر بتاريخه "مروج الذهب" ومعادن الجواهر" ومن كتبه الاخرى "التنبية والاشراف".

حقاً من فضة بداخله حقان مملوءان طيباً، وباحدهم جام من ذهب مملوء دراهم، وبالثاني جام فضة مملوء ذهباً مع غلمان ويخوت من الثياب وبعض الدواب النادرة^(٣٦)."

ويتفق جميع المؤرخين العرب في تبيان موجة الترف التي كان يتمتع بها الخلفاء، وحاشيتهم ووزرائهم وولاتهم، وذلك بتفردهم بخيرات المجتمع العباسي واقتصاده، فلا يحسبون أي حساب للمستقبل ولا لحياة الرعية التي أوثمنوا على ارواحها ومعيشتها، وتحسين حياتهم، فلا ينظرون لمصير الدولة التي كان همهم البذخ وقلة الحرص على أموالها الطائلة وعدم ادراكهم بالسير نحو الهاوية.

يقول ابن خلدون^(٣٧) والطبري^(٣٨) والمسعودي بان الخليفة العباسي المأمون^(٣٩) عند زواجه ببوران أعطاها الف ياقوتة، وأوقد شموع العنبر، وبسط

(٣٥) ابو يوسف القاضي (يعقوب بن ابراهيم) (ت ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م) ولد في الكوفة درس على ابي حنيفة، وكان اكبر اصحابه. تولى قضاء بغداد ايام المهدي والهادي والرشيد. اول من دعي بقاضي القضاة. له كتاب "الخراج" و"الرد على سير الاوزاعي".

(٣٦) المسعودي، مروج الذهب ج ٣ ص ٢٠٦.

(٣٧) ابن خلدون (عبد الرحمن، ابو زيد) (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) مؤرخ وفيلسوف اجتماعي عربي من اعلام زمانه في الادارة والسياسة والقضاء والادب والعلوم. ولد في تونس وتوفي بالقاهرة. تولى أعمالاً سياسية في فاس وغرناطة وتلمسان ولقي دسائس ووشايات ثم توجه الى المشرق واستقر في مصر وتولى قضاء المالكية. ألف في التاريخ فكان فيه مؤسساً رائداً لعلم فلسفة التاريخ والاجتماع وذلك في "مقدمته" الشهيرة لكتاب العبر، وقد ارسى فيها اسس علم الاجتماع.

(٣٨) أحمد اليعقوبي (ت بعد ٢٩٠٥) جغرافي ومؤرخ بغدادي كثير الاسفار. اشتهر بكتابه "البلدان" دون فيه ملاحظاته عن البلاد التي زارها. وله كتاب "التاريخ".

(٣٩) المأمون (عبد الله بن هارون الرشيد) (١٧٠ - ٢١٨ هـ/ ٧٨٦ - ٨٣٣ م): الخليفة العباسي السابع (١٩٨ هـ/ ٨١٣ م) من كبار الخلفاء العباسيين. أمه جارية فارسية، قتل

لها حصيراً منسوجاً بالذهب مكللاً بالدرر، ونثرت جدتها عليها حين جلس المأمون اليها، ألف درّة^(٤٠).

هذه كانت الصورة الحقيقية والاكيدة التي يرسمها لنا مؤرخي ذلك العصر الذين بينوا الفروقات الضخمة بين معيشة طبقات المجتمع العباسي. ويورد الطبري أيضاً عن المنصور^(٤١) قائلاً بأنه فرض لكل شخص من آل بيته الى جانب حياتهم الفاخرة بالذهب الف الف درهم في كل عام وذلك دعماً لشراوتهم الطائلة لتكون منفذاً لمزيد من حياة اللهو والصرف^(٤٢).

والى جانب هذا البذخ وحساب الارقام الخيالية التي كانت بحوزة الخلفاء وازواجهن وولاتهم ووزرائهم. يقول الجهشيارى: انه كان لمحمد بن سليمان بن علي بن العباس والى البصرة إقطاعات لا تعد ولا تحصى تدرّ عليه يومياً مائة الف درهم ربها^(٤٣).

أخاه الامين وخلفه. عني بالآداب والعلوم وانشأ "بيت الحكمة" في بغداد فازدهرت في عهده حركة الترجمة والنقل. وناصر المعتزلة، وامتنح الناس في خلق القرآن فعرف هذا الامتحان "بالحنة" خلفه أخوه المعتصم.

(٤٠) ابن خلدون، المقدمة ص ١٢١. الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج ١٠ ص ٢٥١. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٣ ص ١٨٦. المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٣٥١.

(٤١) المنصور (ابو جعفر عبد الله) (١٥٨ هـ/ ٧٧٥ م) الخليفة العباسي الثاني، خلف اخاه السفاح ١٣٦ هـ/ ٧٥٤ م. قتل قائده ابا مسلم الخراساني، اخضع العلويين وقضى على ثورة محمد ذو النفس الزكية في المدينة، وثورة ابراهيم اخي محمد في الكوفة، قمع فتنة القمق في فارس. بنى بغداد عام ٧٦٢ ودعاها مدينة السلام وجعلها عاصمته. نظم ادارة الدولة والمالية والبريد. توفي محرماً بالحج.

(٤٢) الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج ٩ ص ٢٧٦.

(٤٣) الجهشيارى، كتاب الوزراء، ص ٢٥٠.

وابن خلدون يقول: ان اكثر دخل بيت المال في عهد الرشيد كان نحو سبعين مليوناً من الدنانير^(٤٤).

ونأخذ أيضاً من المؤرخ ابن تغري بردي^(٤٥) القائل: ان وزير المأمون عمرو بن مسعدة خلف بعد وفاته ثمانين الف الف دينار، فنقل ذلك الى المأمون، فقال المأمون: هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا^(٤٦)... ويتابع القول: أمر المأمون لابنه العباس واخيه المعتصم وعبد الله بن طاهر بخمسائة الف دينار^(٤٧).

ويقول الجهشيارى: كان البرامكة ينفقون الاموال الطائلة على الكتاب والاطباء حتى قيل انه لم يكن يُرى لجليس خالد اليرمكي داراً الاً وخالداً بناها له، ولا صنيعاً الاً وخالداً ابتاعها له ولا دابة الاً وخالداً حمله عليها^(٤٨).

ويعود ابن تغري بردي قائلاً^(٤٩) ان موارد الدولة العباسية كانت كلها بيد يحيى اليرمكي وولديه جعفر والفضل، اغدقوا على العلماء والاطباء والمترجمين والمغنيين والشعراء الاموال بل الثروات الضخمة واكثر من ذلك كان الفضل بن الربيع يتباهى بالبذخ امام الخلفاء، وبنو سهل وكبار الولاة

(٤٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٢٢.

(٤٥) ابن تغري بردي (ابو المحاسن يوسف) (١٤١١ - ١٤٦٩): مؤرخ مصري، أشهر آثاره "النجوم الزاهرة" و"مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة" و"المنهل الصافي" اتم به "الوافي بالوفيات" للصفدي. و"حوادث الدهور في مدى الايام والشهور".

(٤٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٢٢٧.

(٤٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٢٠٥.

(٤٨) الجهشيارى، كتاب الوزراء والكتاب ص ١٠٥.

(٤٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ١٩٥.

والقواد من امثال معن بن زائدة^(٥٠) وابن اخيه يزيد بن مزيد الشيباني، وابنه خالد ويزيد بن حاتم المهلبى واخيه روح ومحمد بن عبد الطوسي وابن دلف العجلي وآل طاهر^(٥١).

ويقول ابن خلدون^(٥٢) موضحاً هذه الناحية من الحياة الاجتماعية للعصر العباسي، والذي من الطبيعي ان يشيع في هذا الجو الحافل باللهو والترّف والتأنق في الملبس والذي كان صدها بارزاً في بغداد بلبس الازياء الفارسية، فكانت كل طائفة زيّها المميز عن الاخرى، فالنساء ايضاً، بالغوا في لبس الحرير وانواع العطور وبالاناقة وتحليهن بعقود الذهب والياقوت.

مكانة أهل الذمة في الدولة العباسية

برز أهل الذمة في الحياة الاجتماعية أيام الدولة العباسية، وأعلى شأنهم الخلفاء والامراء والقواد الذين قرّبهم من القصور والمسؤوليات، فتبوأ قسماً منهم اعلى المراكز الحساسة في الدولة العباسية، وانفردوا بالمكانة العظيمة فيها، مع الانفراد الكلي بثقة الخلفاء وخاصة اطباء منهم والمترجمين الذين يرفعوا في مداواة الخلفاء وامرائهم وقوادهم، فدخلوا الى قلوبهم من الباب الواسع بشكل لا يستطيع الاستغناء عنهم ولا حتى في المجالس الخاصة وموائدهم وسميرهم وافراحهم وحتى مشاركتهم لأحزانهم، إذ كانوا يعدّون من المحظيين لديهم، وبنتيجة ذلك برز منهم الولاة والقواد والوزراء حتى غدوا

(٥٠) معن بن زائدة (ت نحو عام ٧٦٩ م) من اشهر أجواد العرب، خدم الامويين والعباسيين. ولّاه المنصور اليمن، ثم سحستان وفيها اغتيل. اخباره كثيرة وللشعراء فيه مدائح ومراثٍ ومشهورة.

(٥١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ١٩٥.

(٥٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٢٣.

في بعض الاحيان يامرون وينهون دون الرجوع الى الخلفاء. ولكن في بعض العهود اضطهد البعض منهم وطردهوا من وظائفهم الحكومية، وخاصة الادارية، ورغم ذلك بقي قسما منهم يحظى باحترام وثقة اهل الدولة.

يقول الجهشيارى^(٥٣) عن جبرائيل بن بختيشوع^(٥٤) عندما كان يختلي بالخليفة المأمون مبيناً له مصدر ثروته فيقول له ان هذه النعمة التي انعم بها لم آخذها منك ولا من ابيك، بل اخذتها من يحيى بن خالد البرمكي وولده، فيقول بأن بختيشوع كان بروزه وغناه على يد البرامكة^(٥٥) ولكنه يتابع قائلاً ان المنصور كان غاضباً الى حد ما على اهل الذمة وذلك بدعواه حماد التركي بتعديل السواد وقطع يد كل من يكتب لأحد العمال المسلمين عندها قطع حماد يد ماهويه (ساهويه) جد سليمان بن وهب.

ويقول ابن ابي اصيبعة^(٥٦) ان سلمويه^(٥٧) بلغ منزلة عظيمة عند الخليفة المعتصم^(٥٨) اذ كان يشغله منصباً يضاهي منصب الوزير واكثر من ذلك ان

(٥٣) الجهشيارى، كتاب الوزراء والكتاب، ص ٢٢٦.

(٥٤) جبرائيل بن بختيشوع (ت ٨٢٨م) طبيب الرشيد والامين، سجنه المأمون ثم اعاده الى خدمته. له مؤلفات في الطب والمنطق.

(٥٥) البرامكة: اسرة فارسية من بلخ. تولى ابناءؤها الوزارة في عهد العباسيين. عظم شأنهم وقربوا الشعراء واشتهروا بالكرم. نقم عليهم هارون الرشيد ونكبهم منهم: خالد بن برمك (ت ٧٨٢) خدم السفاح. يحيى بن خالد (ت ٨٠٥) مودب هارون الرشيد ووزيره، الفضل بن يحيى، اخو الرشيد بالرضاعة، ومودب الامين، توفي سجيناً بالرقعة عام ٨٠٥. جعفر بن يحيى قرّبه الرشيد ثم انقلب عليه لاسباب غير واضحة وقتله في نكبة مشهورة تعرف بنكبة البرامكة عام ٨٠٣ م.

(٥٦) ابن ابي اصيبعة (١٢٠٣ - ١٢٧٠ م) طبيب دمشق. عاش في مصر وسورية اشتهر بكتابه "عيون الانباء في طبقات الاطباء".

(٥٧) سلمويه بن بنان طبيب المعتصم، كان نصرانياً حسن الاعتقاد في دينه، كثير الخير محمود السيرة وافر العقل جيد الرأي، عالماً بصناعة الطب، فاضلاً في وقته.

(٥٨) المعتصم بالله (محمد بن هارون الرشيد) الخليفة العباسي الثامن (٢١٨ - ٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ - ٨٤٢ م). خلف أخاه المأمون، استعان بالجنود والأتراك. قضى قائده

الوثائق الرسمية (الملكية) لا تكون نافذة الا بتوقيعه عليها^(٥٩) وعهد ايضاً لأخيه ابراهيم بحفظ خاتم الخليفة وخزانة بيت المال. والاكثر من ذلك ان المعتصم كان يزوره اثناء مرضه في منزله، واثناء وفاته اصابه غماً شديداً، وأمر في يوم تشييعه باحضار جثمانه الى القصر حيث اقيمت له الطقوس المسيحية في خشوع مهيب^(٦٠).

وابن الاثير يسرد وقائعاً تبين المكانة العظيمة التي تبوأها أهل الذمة في ادارات الدولة العباسية قائلاً ان نصر بن هارون النصراني كان كبير وزراء عضد الدولة البويهى^(٦١) (٣٣٧ - ٣٧١ هـ) فقد حكم العراق وجنوب فارس، ويقول توماس ارنولد^(٦٢) استنادا الى الباحث لامنس^(٦٣) ان دواوين الحكومة العباسية ظلت الى فترة متأخرة تعجّ بالموظفين الاداريين المسيحيين والفرس وتعتمد عليهم اعتماداً كلياً في تسيير شؤون الدولة الادارية وخاصة الخراج، اذ بقيت الادارة العباسية في مصر زمناً طويلاً تعتمد على المسيحيين

- الافشين على بابك الخرمي في اذربيجان. هزم البيزنطيين واحتلّ عمورية. بنى سامراء. ناصر المعتزلة وتابع ما بدأ به المأمون في امتحان الناس في خلق القرآن: "الحنة".
- (٥٩) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ١٦٤.
- (٦٠) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ١٦٤.
- (٦١) عضد الدولة (فناخسرو) (ت ٣٧٢ هـ/ ٩٨٣ م) اعظم ملوك بني بويه. ابن ركن الدولة. رعى العلماء والادباء، مدحه المتنبي. انشا البيمارستان العضدي في بغداد. استوزر صاحب بين عبّاد. من آثاره بند امير بشيراز.
- (٦٢) توماس ارنولد، الدعوة الى الاسلام، ص ٧٢ و ٨٣.
- (٦٣) لامنس (هنري) (١٨٦٢ - ١٩٣٧) مستشرق بلجيكي وراهب يسوعي. اشتهر بابحاثه عن عرب الجاهلية والعهد الاموي. من مؤلفاته العديدة "مهد الاسلام" "مكة قبيل الهجرة" "الطائف قبيل الهجرة" "الجزيرة العربية الغربية قبيل الهجرة" "الاسلام" "خلافة معاوية" "خلافة يزيد" "تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار" "تاريخ سورية" ادار مجلة "المشرق".

الذين احتكروا هذه المناصب احتكاراً قاطعاً لا ينازعهم عليها أحد، نظراً لاكتسابهم تقنية النقل من اللغات الاجنبية الى العربية. ولكن ارنولد يضيف قائلاً انهم جمعوا أموالاً باهظة في احترافهم لهذه الوظائف الى جانب اعتمادهم على التجارة، ولكن ثرواتهم كانت محط انظار وطمع الجشعين والمتعصبين من المسلمين وانتهازهم اقرب فرصة لاضطهادهم والايقاع بهم^(٦٤).

والجهشياري يجاري ابن الاثير في مكائهم وعظمتهم عند بعض الخلفاء اذ قال: ان عضد الدولة احدث في منصب الوزارة وزيرين معاً. وكان أحدهما هو ابن منصور نصر بن هارون النصراني، وابقاه على بلاد فارس. واصبح له نظيراً بالمشرق. وفي مصر خصوصاً، ففي سنة ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م سار على نفس الخطى الخليفة الفاطمي العزيز بالله فقلّد وزارته لعيسى بن نسطوريس^(٦٥).

ويقول ابن قيم الجوزية^(٦٦): إن بني وهب أصلهم من نصارى العراق، تقلّد عشرة منهم أرقى المناصب في الدولة العباسية^(٦٧). ويؤكد ذلك الإمام السيوطي^(٦٨) قائلاً: إن احد ابناء وهب الذي تقلّد الوزارة سنة ٣١٩

(٦٤) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٩ ص ١٦.

(٦٥) الجهشياري، كتاب الوزراء، ص ٢٣٩.

(٦٦) ابن قيم الجوزية (محمد) (ت ٧٥١ هـ/١٣٥٠ م) فقيه حنبلي دمشقي وتلميذ ابن تيمية، سجن معه، قاوم الفلاسفة. مصنفاته كثيرة منها "مدايح السالكين" "إعلام الموقعين"، "الطرق الحكمية"، "الكافية الشافية"، "شفاء الغليل"، "روحنة المحتجين"، "الفوائد"، "احكام اهل الذمة".

(٦٧) د. حسين كرنيب، الدولة العباسية، ص ١٦٩.

(٦٨) السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) (١٤٤٥ - ١٥٠٥ م)، عالم مشارك في أنواع العلوم. ولد وتوفي في القاهرة. نشأ يتيماً، رحل يطلب العلم الى جميع البلاد العربية

هـ/ ٩٣١ م، كان مبرزاً مسرفاً أثناء حكمه، فاستدان اموالاً طائلة من الاغنياء حتى طالبه بها اصحابها وقاضوه امام القاضي ليحجز على املاكه. ويتابع السيوطي قائلاً: انه كان لا ينفع لشيء أثناء حكمه لانه انسان غير مدرك ومبذر وعديم المسؤولية^(٦٩).

يقول الطبري موضحاً ان المتوكل في سنة ٢٣٥ هـ/ ٨٣٩ م، مخافة من عاقبة المسؤولية وسوء النية ولعدم ظلم المسلمين حسب اعتقاده قد نهى الاستعانة باهل الذمة في الدواوين واعمال الخلافة، التي تجري احكامها على المسلمين، ومنع ان يتعلم اولادهم في كتب المسلمين، وان لا يعلم المسلم احداً منهم، ويتابع قائلاً انه ايام المقتدر^(٧٠) والذي سار على نفس نهج سلفه الخليفة المتوكل قد خلعه من المراكز الحساسة للدولة، واثباتاً لذلك خلعه ابن دليل النصراني كاتب يوسف ابي السنج ليضع مسلماً مكانه^(٧١).

لكن ابن الاثير يبين ان الخليفة العزيز بالله^(٧٢)، كان يعتمد على اهل الذمة في تدعيم حكمه، فيعطيه المراكز المرموقة في ادارات الدولة. فقد عين

والهند. عمل بالتدريس. انقطع عن الناس في الاربعين من عمره وتفرغ للتأليف. له نحو ٦٠٠ كتاب في التفسير والحديث والفقه واللغة والتاريخ. منها "الدر المنثور في التفسير بالماثور"، "الزهر" في فلسفة اللغة، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة" "حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة".

(٦٩) السيوطي، حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة" ج ٢ ص ١٢٧.

(٧٠) المقتدر بالله (جعفر بن المعتضد) الخليفة العباسي الثامن عشر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ/ ٩٠٨ - ٩٣٢ م) خلف اخاه المكتفي. حاول القضاء على نفوذ مؤنس امير الامراء فقتل. في عهده ظهر الخلفاء الفاطميون في افريقية عام ٩٠٩، والامويون في قرطبة عام ٩٢٩ وأغار القرامطة على العراق واحتلوا مكة عام ٩٣٠ ونقلوا الحجر الاسود الى الاحساء.

(٧١) الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج ١١ ص ٣٦.

(٧٢) العزيز بالله (نزار بن المعتز) (٣٤٤ - ٣٨٦ هـ/ ٩٥٥ - ٩٩٩ م) خامس الخلفاء الفاطميين في مصر (٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م) فشل في احتلال حلب. اهتم باصلاحات ادارية.

عيسى بن نسطورس المسيحي وزيراً له. ووضع يهوديا واليا يدعى منسى، فرفع بذلك منزلتهم امام المسلمين فاستغلوا واذوا المسلمين بتصرفاتهم التعصبية، فكتب اهل مصر رقعة وصنعوا صورة وامسكوها بالرقعة ووضعوها في طريق العزيز مكتوبا عليها: "بالذي اعزّ اليهود بمنسى والنصارى بعيسى واذلّ المسلمين بك الا كشفت ظلامتي". فلما شاهدها العزيز تأثر من شدة غيظه وغضبه، وتحقق من الامر فقبض على الرجلين وصادر املاكهما بعد عزلهما من وظائفهما^(٧٣).

وفي سنة ٤٣٦ هـ/ ١٠٤٤ م و ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ م، ولّى الوزارة في مصر أبو نصر بن صدقة الفلاحي اليهودي فأسلم بعدها، وكان يدير الدولة يهودياً آخر هو ابو سعد التستري. وقد قال السيوطي، ان الشاعر المصري الحسن بن خاقان كان تأثره بالغاً: فانشد قصيدته المشهورة هي:

يهود هذا الزمان والمال قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العزّ منهم والمال عند عموا ومنهم المستشار والملك
يا اهل مصر اني نصحت لكم تهودوا قد تهودّ الفلّك^(٧٤)

فهذه الصورة التي بينها اعظم المؤرخين العرب تدلّ دلالة واضحة على ان اهل الذمّة كان لهم المكانة العظيمة لدى اركان الدولة، رغم انهم استغلوا وظائفهم ومراكزهم، حتى اغتاز عامة المسلمين من تصرفاتهم ووصفوا الزمان بمن فيه انه اصبح يهوديا، وما على المسلمين الا ان يتهودوا ليرتقوا المراكز في الدولة .

(٧٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٩ ص ٨١ و ٨٢.

(٧٤) السيوطي، حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، ج ٢ ص ١١٧.

وهنا تبرز ثقة الخلفاء باطبائهم التي لا توصف، باعلاء شأنهم، وتمييزهم عن الاطباء المسلمين في بعض الاحيان وجعلهم يأتمنون على معظم اسرارهم الشخصية. ويذكر ابن تغري بردي^(٧٥) مكانة طبيب الرشيد انه في سنة ١١٢هـ/٧٣٠م، واثناء انتقاله من الرقة الى بغداد استظل تحت شجرة كاشفا عن بطنه فاذا عليها عصابة من حرير. فقال هذه اكتمها عن اقرب الناس اليّ ولكن لا اكتمها عن طبيبي، فلكل من ولديّ الامين والمأمون رقيب، فخسرو رقيب المأمون وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الامين. فمن ذلك نستنتج مدى ترابط العلاقة والثقة والاخلاص من الخلفاء لاطبائهم والذي لا يحظى بها حتى اقرب الناس لهم، اذ كانوا في بعض الاحيان يعدّون من كائمي اسرار الخليفة ولهم المنزلة العظيمة التي لا تناقش عند رعايا بلاط الخليفة.

والرازي يقول^(٧٦): ان هذه الثقة التي ولدت عند الخلفاء والتي كانت تجري بينهما المراسلة وخاصة عندما كان اهل الذمة يتقلدون مناصب أعلى من مناصب المسلمين في الدولة العباسية، فكان المسلمون يشمئزون في مخاطبتهم بوضع اسمهم في المنزلة الاولى، فيقول: لا باس اذا كان هناك من منفعة لصاحب الرسالة، فذلك دليل قاطع لمكانتهم وفرض احترامهم على المسلمين واذا لاهم في بعض الاحيان وجعلهم يتوددون اليهم في سبيل نيل مبتغاهم او رضاهم فهذا لم يكن جائزا ايام الرسول محمد وخلفائه الراشدين.

ومما يذكر انه في نهاية القرن الثامن الميلادي، ان ابا نوح الانباري المسيحي كان كاتباً لابي موسى بن مصعب والي الموصل قد استغل وظيفته ونفوذ القوي لدى الخليفة والوالي على وجه التحديد واخذ يميل في عمله لبني دينه^(٧٧).

(٧٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص ١٠١.

(٧٦) الرازي، الاصول الكافي، ص ٢١٣.

(٧٧) توماس ارنولد، الدعوى الى الاسلام، ص ٨١.

ولكن آدم ميتز^(٧٨) يبين في كتابه ضعف بعض الولاة في الدولة العباسية استناداً لابن مسكويه^(٧٩)، انه في القرن الرابع الهجري كان ابو العباس الخصببي طوال الليل يحتسي الخمر وينام في النهار طوال عمله ويزيرا ويترك أمر الرعية وتوقيع المعاملات والرسائل لعمال الدواوين فاستغل ذلك احد عمال الدواوين ابو الفرج اسرائيل النصراني فكان يقرأ الرسائل ويوقع عليها حسب ما ترتبه لمنفعته الشخصية.

ولكن الخليفة المقتدر أمر بأن لا يستخدم احداً من اليهود والنصارى او غيرهم من بقية اهل الديانات الاخرى الا في الطب والجهنزة. ولكن امر الخليفة لم ينفذ كلياً اذ قال الجهشيارى^(٨٠) ان وزيره ابو الحسن علي بن الفرات كان لا يجلس الى مائدة الا حوله اربعة من النصارى كل يوم وهؤلاء كانوا من مجموع تسعة كتاب كان يستخدمهم.

ولكن آرنولد^(٨١) يوضح من كان لهم المكانة في العهد العباسي اذ يقول: في عهد المعتضد سنة ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ - ٩٠١ م كان عمر بن يوسف واليا على الانبار^(٨٢) وهو مسيحي بحجة ان المسيحي اذا كان مخلصا يكون انفع من المسلم والسبب الثاني ان هناك اسباب عديدة لتفضيل المسيحي على اليهودي والمجوسي عند المسلمين.

(٧٨) آدم ميتز، الحضارة الاسلامية ص ١٧٩.

(٧٩) ابن مسكويه، ج ٥ ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٨٠) الجهشيارى، كتاب الوزراء، ص ٣٤٠.

(٨١) توماس آرنولد، الدعوة الى الاسلام، ص ٨٢.

(٨٢) الانبار: اطلال مدينة في العراق على الفرات، عاصمة السفاح قبل تأسيس بغداد. وهي محافظة في غرب العراق على الحدود السورية الاردنية، قاعدتها الرمادي، اقصيتها: الرمادي، القائم، عنة، حديثة، هيث، الفلوجة، الرطبة.

ويضيف آرنولد^(٨٣) قائلاً: ان الموفق^(٨٤) عندما كان وليّ العهد لأخيه المعتمد^(٨٥) أوكل امر تنظيم الجيش الى مسيحي يدعى اسرائيل، وقد اتخذ ايضا ابنه المنصور نصرانيا كاتباً له وهو ملك ابو الوليد. وفي ايام المقتدر تولى نصرانيا آخر ديوان الجيش.

ويظهر من كل ما مرّ معنا في المكانة التي تمتع بها المسيحيون خصوصاً، وبقية اهل الذمة من اليهود والصابئة والمجوس عموماً في ارتقاء اعلى الوظائف الادارية الحكومية في العصر العباسي كان له الاثر البالغ في مسار السياسة والحياة الاجتماعية للعباسيين. ولكن كان هناك أسباب اخرى لاضطهاد بعض اهل الذمة، من قبل بعض الخلفاء وهي معاملة المسيحيين اصحاب النفوذ والوظائف لبعض المسلمين واساءتهم في استعمال سلطتهم مما أثاروا غيظ المسلمين واستياءهم القوي.

(٨٣) توماس ارنولد، الدعوة الى الاسلام، ص ٨٢.

(٨٤) الموفق بالله (طلحة بن المتوكل) (ت ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م) امير عباسي، والد الخليفة المعتضد. كان ولياً للعهد في خلافة اخيه المعتمد وكان الحاكم الفعلي بسبب ضعف اخيه. قضى على ثورة الزنج بمعاونة لؤلؤ عام ٨٨٣.

(٨٥) المعتمد على الله (احمد بن المتوكل) الخليفة العباسي الخامس عشر (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ / ٨٦٩ - ٨٩٢ م) كان اخوه الموفق الحاكم الفعلي فانتصر على الزنج، وحارب البيزنطيين. اعاد العاصمة الى بغداد، توفي مسموماً.

الفصل الثالث

حياة أهل الذمة الاجتماعية

١- أفراحهم:

الاعیاد تختلف باختلاف المذاهب والادیان وحتى في طرق تطبيقها، وهي تختلف من عصر الى آخر وباختلاف الشعوب التي تتعاقب على العصور. واختلافها أيضا يكون بين الشعب الواحد اذا تعددت بينه الديانات والمذاهب بتعدد العناصر والقوميات، حتى لو كان يعيش ضمن بيئة واحدة، لذا لا ارغب في الدخول بهذه الاعیاد ومراسيمها ووصفها^(٨٦)، انما نكتفي بافراح الزواج عند النصارى وطريقته استناداً الى الرحالة العربي ابن جبیر^(٨٧) فنقول:

اثناء حفل الزواج يجتمع جميع اهل البلدة من النصارى مع معارفهم في البلدان المجاورة بعد اعلامهم بموعد الزفاف بواسطة رسول يطوف عليهم في قراهم ومنازلهم مديعا الخبر، فيصطف يوم العرس الجميع على جانبي منزل العروس وتتقدم الجميع فرقة موسيقية عازفة احلى الالحان واجملها بواسطة الالات المتوفرة لديهم آنذاك والمعروفة في ذلك العصر، ثم تخرج العروس من منزل والدها تنهذى كالغزال بين رجلين من أقاربها ويمسكانها من اليمين واليسار وتجرّ وراءها اذيال الحرير المذهب جرّاً وعلى راسها عصابة كانها تاج الملوك، وهي تمشي بخطى قصيرة وبطيئة ويسير خلفها نظراؤها من النصرانيات يتهادين بالفخر واحسن واجمل الملابس والزينة ويستمر الموكب يشق غمام امواج البشر حتى تصل الى دار زوجها، وبعدها يقيمون الولائم طيلة يوم الزفاف^(٨٨).

(٨٦) عن الاعیاد راجع البيروني، الآثار الباقية.

(٨٧) ابن جبیر (محمد بن احمد) (١١٤٥ - ١٢١٧ هـ) رحالة اندلسي ولد في بلنسية وتوفي في الاسكندرية. زار مصر ومكة والعراق وسورية. اشتهر بكتابه المعروف برحلة ابن جبیر.

(٨٨) امينة البيطار، الحياة السياسية، في بلاد الشام، ص ٣٥٥.

٢- أتراحهم:

من العجب ان لا نرى مؤرخاً مسيحياً يصف وصفاً دقيقاً لجنازة أحد الموتى النصرى حتى نستطيع استكمال الصورة الواقعية لبحثنا، ولكن اغلب المؤرخين ركزوا في معظم كتبهم على فترة الظلم والاضطهاد التي صادفتهم لتكون في مصاف اتراحهم، ولكن اتراح الفرد وعائلته تركت جانبا لنحصل على صورة قائمة فقيرة من واقع المراسيم الجنائزية بالمعنى الصحيح، ولكن اعتمدنا في بحثنا الجانب الجماعي للاحزان أي جانب الظلم والاضطهاد الذي مرّوا به، وطبيعي إذا كانت فئة من الشعب او الامة محرومة الحقوق ومضطهدة، وممنوعة من إبراز مواهبها، ومحرم عليها وعلى بعض ابنائها من ارتقاء سلام المجد ودخول الوظائف الحكومية العالية، وحتى من التعبير بها بالكلام، تتجمع هذه الصفات لتكون فترة مآسي صعبة لهذه الفئة المعينة والتعيسة.

نرى بان الخليفة المتوكل^(٨٩) قد أمر بطرد النصرى واليهود والمجوس من الادارات العامة للدولة، ومنعهم من الاعمال في دواوين السلطان التي تجري احكامها على المسلمين، ورغم ان الدواوين وتعريبها كانت بحاجة ماسة الى اهل الملل غير الاسلامية عامة والمسيحيين والمجوس بوجه خاص نظراً لأن هاتين الفئتين يتقنون اكثر من لغة. فالمجوس هم اسيايد من نظم الدواوين والادارات قبل دخول الاسلام لبلادهم والى جانب ذلك فقد منع اولادهم من التعلم في مكاتب المسلمين وكتب الى عمّالهم يحضّهم على ذلك معللاً ذلك بانه يريد اعزاز الاسلام واذلال الكفار.

(٨٩) احمد أمين، ظهر الاسلام، ج ١ ص ٤٢ و ٤٣.

ففي سنة ١٩١ هـ / ٨٠٦ م اثر مقتل يزيد بن مخلد الهبيري على يد الروم وتولية هرثمة بن أعين الصائفة، خرج الرشيد^(٩٠) ليكون قريباً من العمليات فاصر بهدم كنائسهم ويوتهم وحاناتهم كردّ فعل، والزمهم بتغيير زيّهم وهياتهم وخاصة في بغداد ليكونوا على معرفة من الجميع^(٩١).

لكن المتوكل عام ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م، أمر بهدم بيعهم المحدثّة، وبأخذ العشر من منازلهم، وإذا كان الدار واسعاً صودر وبني مسجداً، وإن لم يصلح جعله ارضاً ممسوحة، فمن هذه الاجراءات التي نذرت عليهم بالشؤم والاضطهاد فقد أمر بوضع صور للشياطين على ابواب دورهم تفريقاً بينهم وبين المسلمين، وتأكيداً لما ذكره احمد أمين فانه امر أن لا يستعان بهم في الدواوين واعمال السلطان وإن لا يظهرُوا في اعيادهم وشعائنيهم^(٩٢) صلباناً، وإن لا يحملوا الشموع في الطريق. وإلى جانب ذلك امر تسوية قبورهم مع الارض^(٩٣).

وعندما تولى الجيش التركي زمام الامور وبدأ الاضطهاد والتعسف ومصادرة اموال الاغنياء من النصارى مع امتعتهم، ويظهر لنا هذا التعسف

(٩٠) هارون الرشيد: الخليفة العباسي الخامس (١٧٠ - ١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) من اشهر الخلفاء العباسيين ابن المهدي والخيزران ولد بالري. تولى بعد اغتيال اخيه الهادي. حارب البيزنطيين وهو لا يزال حاكماً على المقاطعات الغربية وبلغ ابواب القسطنطينية. اقرّ الامن في المقاطعات الفارسية وولّى الاغالبية. في شمالي افريقية. قامت علاقات بينه وبين شارلمان ملك الفرنج. ازدهرت في عهده التجارة والادب والعلوم ولعب البرامكة دوراً هاماً قبل ان ينكبهم. قبره في طوس.

(٩١) ابن كثير، البداية والنهاية، ص ٢٠٦.

(٩٢) الشعاني (السعاني) عيد الاحد الذي قبل الفصح (القيامة) واللفظة عبرانية مأخوذة من "هوشعيه نا" أي خلصنا. وكان يسمى بالعربية بعيد السبابس أي الاغصان، وذلك لما كان المسيحيون يرقعون به بأيديهم من اغصان الزيتون وسعف النخيل.

(٩٣) الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج ١١ ص ٣٦.

جليا حينما وصل ذلك الى أحد كتاب ديوان الخليفة المعتز^(٩٤) سنة ٢٥٢ هـ/ ٨٦٦ م و ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م عيسى بن فرخشاه، فاشبعوه ضرباً. وغضبوا على بختيشوع بن يحيى المتطبب فاخذوا مدخراته، واعتدوا على ابراهيم بن الجنيد حتى أقرّ ما بحوزته وكانت سبعين الف دينار فصادروا المبلغ، بالاضافة الى مصادرة اموال علي بن زرعة الوافرة، ووقعوه في محن حتى اصيب بالفالج. كذلك ان العمال المحليون بدأوا يشاركون الجيش التركي في ظلم الانسان، فانتشرت الاضطرابات الداخلية فكان للمسيحيين الحظ الاوفر اذ عانوا الامرين ولا سيما في عهد الجاثليق يوحنا بن نازوك^(٩٥) المتوفي عام ١٠٢٢. وطال ذلك اغلاق مدارسهم ونهب ديارهم وكنائسهم^(٩٦).

(٩٤) المعتز بالله (محمد بن المتوكل، الخليفة العباسي الثالث عشر (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ/ ٨٦٦ - ٨٦٩ م). تولى بعد عزل المستعين، عزله القادة الاتراك.

(٩٥) يوحنا بن نازوك، من اهل شرز المقيمين بمعلتاي، أسامه ابن طوبى اسقفا على الحيرة. ولما مات يوانيس سيم فطريكا بدير المداين في خلافة القادر يوم الاربعاء ١٩ تشرين الثاني سنة ٤٠٢ هـ، وهي سنة ١٣٢٤ يونانية / ١٠١٤ م. كان كاتبه الفيلسوف الماهر والقسيس الشيخ ابو الفرج ابن الطيب. ومات يوم السبت ٢٨ تموز سنة ١٣٣٣ ي/ ١٠٢٣ م ودفن بدار الروم (راجع عمرو بن متى، اخبار فطاركة كرسي المشرق، ص ٩٦ - ٩٧).

(٩٦) روفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٧١. لويس شيخو، شعراء النصرانية بعد الاسلام، ص ٢٦.

٣- سكنهم:

مرّ اهل الذمة سيما المسيحيون منهم - كما ذكرنا - بفترات عصبية خاصة ايام المتوكل والحاكم بأمر الله^(٩٧)، فقد لاقوا احكاماً جائرة في حقهم، وظلما متعمداً لهم حتى ان هذه الاحكام تعدّت الى سكنهم ولباسهم. فيقول الماوردي: انه في القرن الرابع الهجري / التاسع الميلادي، أمر المتوكل ان يكون بيوتهم اقلّ علواً من بيوت المسلمين، وان صودفوا وملكوا بيوتاً عالية منعوا من الاشراف على مساكن المسلمين^(٩٨).

ويقول الطبري: رغم ان المتوكل حارب النصارى بشكل جائر بعد ان أمرهم كما مرّ معنا بوضع صور للشياطين على مداخل بيوتهم فمن ناحية ثانية استعان بهم في بناء قصره في سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م المسمى بالجعفري بعد ان أجرى اليه نهراً، فكان ذلك من تصميم دليل بن يعقوب النصراني^(٩٩).

٤- لباسهم:

وهنا يطالعنا الطبري بوصف دقيق وحس للنظام الذي اتبعه الخليفة المتوكل في فرض اللباس على اهل الذمة - لتمييزهم عن بقية المسلمين بالاضافة الى تمييز بيوتهم فيقول انه في ٢٣٥ هـ/ ٨٤٩ م: أمر الخليفة المتوكل بان يلبسوا كلهم طيالس عسلية ويشدوا في وسطهم الزنانير ويركبوا السروج بركب من خشب وفي مؤخرتهم كرتين، ومن يلبس قلنسوة شبيهة بقلنسوة

(٩٧) الحاكم بأمر الله (منصور) (٩٥٨ - ١٠٢١ م) الخليفة الفاطمي السادس. خلف اباه العزيز (٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م) اشتهر بالظلم والاستبداد. قام بالدعوة له الدرزي وحمزة بن علي مؤسس المذهب الدرزي - اغتيل واختفى أثره.

(٩٨) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ١٤٦.

(٩٩) الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج ١١ ص ٥٦.

المسلمين يجعل عليها زرين كعلامة فارقة، واجبرهم يجعل رقعتين على ثياب مماليكهم بخلاف لون الثوبين، وان احدى الرقعتين مكانها على الصدر والاخرى خلف الظهر، وكل واحدة بمقدار اربع اصابع لونها عسليا. وللمرأة منهم تلبس ازرار عسلية، وامر ايضا بهدم بيوتهم وكنائسهم المحدثّة^(١٠٠).

ولكن الطبري^(١٠١) يضيف ان هذه الاجراءات التي اتخذها المتوكل بدأت تخف تدريجيا خاصة عندما صمم وبنى له دليل بن يعقوب النصراني قصره المسمى الجعفري، لكنه يقول انه في العام ٢٣٩ هـ / ٨٥٣ م، امر المتوكل ان يقتصر اهل الذمة في مراكبهم على البغال والحمير دون الخيل البراذين^(١٠٢).

وابن تغري بردي يقول موضحا: انه في القرن الثالث للهجرة، كثر استخدام اهل الذمة وخاصة المسيحيين واليهود في الكتابة وفي امور المسلمين. وفي سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م، أمر الخليفة المعتز بان لا يستخدم احداً منهم الا في الطب والجهذة - كما مرّ معنا سابقا - وان يعودوا الى نظام اللباس الذي فرضه الخليفة المتوكل عليهم سابقا^(١٠٣).

ويعود الطبري موضحاً: انه في سنة ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م، عاد استخدامهم في الدواوين بكثرة حتى ثار المسلمين عليهم وعمّت الفوضى البلاد^(١٠٤).

(١٠٠) الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج ١١ ص ٣٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١ ص ٣١٣.

(١٠١) الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج ١١ ص ٥٦. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ٢٣٥.

(١٠٢) الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج ١١ ص ٣٨.

(١٠٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٦٥. ابن الاثير، الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٧١.

(١٠٤) الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج ١١ ص ٣٣.

وتعلّل الدكتورّة امينة البيطار^(١٠٥) اجراءات الخليفة هارون الرشيد ضد أهل الذمّة بانها ناتجة عن نصيحة القاضي ابو يوسف^(١٠٦) بسبب تجسّسهم في الثغور لحساب البيزنطيين اثناء القتال معهم. وقد ذكرت اجراءات اخرى وهي منع نسائهم من ركوب الرحائل وعدم اظهار صلبانهم في الامصار الاسلامية، ومنع عليهم بيع الخمر او الخنزير، وكانت قرارات المتوكل ايضا مشابهة لقرارات الرشيد.

ويقول الكندي^(١٠٧) ان عامل الرشيد على القضاء محمد بن مسروق قد تحامل على أهل مصر المسيحيين حتى انه كان لا يطيق ان يسمع منهم كلاماً. وقال انه في سنة ٢٣٥ هـ/٨٤٩م مؤكداً ما جاء على لسان الطبري من فرض احكام اللباس^(١٠٨).

ويضيف الطبري قائلاً: ان المتوكل اجبر أهل الذمّة بلبس ذراعين عسليتين على الاقبية والدراريع في المحرم، ثم في صفر بالاقنصار في مراكبهم على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين، وان النصراني عندما خالفوا هذا النظام جعل شغب مع المسلمين وهدمت كنيسة اكليل يشوع عام ٢٧٢ هـ/٨٨٥م، نتيجة ذلك^(١٠٩).

(١٠٥) امينة البيطار، الحياة السياسية في بلاد الشام، ص ٣٥٣.

(١٠٦) ابو يوسف القاضي (يعقوب بن ابراهيم) (ت ١٨٢ هـ/٧٩٨م) ولد في الكوفة، درس على ابي حنيفة وكان اكبر اصحابه. تولى قضاء بغداد ايام المهدي والهادي والرشيد. اول من دعي بقاضي القضاة له كتاب "الخراج" و"الرد على سير الاوزاعي".

(١٠٧) الكندي (ابو عمر) (ت بعد عام ٩٦٦م)، مؤرخ ومحدّث مصري. من آثاره كتاب "الولاية والقضاة".

(١٠٨) الكندي، الولاية والقضاة، ص ٤٢٢.

(١٠٩) الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج ١١ ص ٣٣ و ٤٦.

وكان لساقى الخمر نصيب من هذه الاجراءات التعسفية، لانه كان غير مسلم ففرض عليه نظام لباس خاص به بالاضافة الى اسم مميز فدعي باذين او مازيادا او ازرانفاذا وغيرها ويكون ارقط الثياب مختوم العنق^(١١٠).

وفي سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م صدر مرسوم الخليفة القائم^(١١١) بالزام اهل الذمة اعادة الملابس مثل ايام الرشيد والمتوكل كي يميزوا عند المشاهدة واستدعي لذلك جاثليق النصارى ايليا الاول^(١١٢) ورأس الجالوت اليهودي وجمع حافل من الاشراف ليكونوا على بينة من تطبيق هذه الاجراءات^(١١٣).

وفي القرن الثاني للهجرة الثامن الميلادي كان اليهود يلبسون براطيل شبهها بعض الشعراء بالأميال الطوال او المقاعيد على رؤوس القروء. والنصارى يلبسون في ذلك الوقت البرانس بعد ان صارت قديمة عند المسلمين^(١١٤).

(١١٠) الجاحظ، البيان والتبيين، ص ٤١.

(١١١) القائم بأمر الله (عبد الله بن القادر) الخليفة العباسي السادس والعشرون (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ / ١٠٣١ - ١٠٧٥ م) في ايامه كانت فتنة البساسيري، فاستنجد بطغرل بك حمايته من البرهيين.

(١١٢) الجاثليق ايليا الاول، كان سيدا في علماء زمانه من اهل كرخ جذان، وكان اسقفا على الطيرهان. في ايامه نهبت دار الروم والقلاية وذلك سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣١ م. فلما استقام امر المملكة، ودخل جلال الدين الى بغداد وملك العراق، وكان ابو الطيب في اعلى منزلة جمع الآباء الى بيعة الروم في يوم الاحد الرابع من عيد القيامة وجرى انتخاب ايليا الاول بايام القادر الخليفة سادس عشر حزيران سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م وانحدر الى دير مار ماري الرسول، واصعد الى بغداد واقام بقلاية دار الروم ولقد مات ليلة السبت ٦ ايار ١٣٦٠ يونانية / ١٠٥٠ م ودفن بدار الروم في بيعة السيدة. (عمرو بن متى، اخبار فطاركة كرسى المشرق، ص ٩٨ - ٩٩).

(١١٣) ابن قيم، المنتظم، ص ١٩٢.

(١١٤) الكندي، تاريخ الولاة والقضاة، ص ٤٢٤.

وفي سنة ١٩١ هـ/ ٨٠٦ م أمر الخليفة العباسي هارون الرشيد السندي بن شاهك ان يخالف اهل الذمة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم، وركوبهم وخاصة في مدينة بغداد وكان ذلك نتيجة سوء العلاقات مع البيزنطيين واختص اهل بغداد عن سائر الاقطار في التمييز. ومن هذه الاجراءات ايضا ان لا يركب يهودي او مسيحي على سرج، ومنع نسائهم من ركوب الرحائل^(١١٥).

وهنا يعطينا الابشيهي^(١١٦) صورة واضحة ودقيقة عن الزي الذي فرض على الديانات الاخرى مجاريا في ذلك الطيري وابن تغري بردي والماوردي وان كان في وصفه بعض الزيادات يوضحها اكثر اذ قال نقلاً عن الامام الشافعي^(١١٧) الزم اهل الذمة تمييز قلائستهم بالحرمة عن قلائسة المسلمين. وان يضعوا في رقابهم خاتم من قماش او رصاص او جرس يدخلون بها الحمام، وأحد خفيه اسود والاخر ابيض. ومنعهم ان يتصوروا او يتصدروا في المجالس وبالبدء بالسلام، وان يلجأوا الى اضيق الطرق للسير فيها، وان لا يتطاولوا او يرتفع على المسلمين في البناء، ومنعوا من اظهار المنكر والجهر بالتوراة والانجيل، ومنعوا من المقام في ارض وهي مكة والمدينة واليمامة^(١١٨).

(١١٥) الابشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ج ١ ص ٢٠٠.

(١١٦) الابشيهي (بهاء الدين محمد) (١٣٨٨ - ١٤٤٦ م) اديب مصري له كتاب "المستطرف في كل فن مستظرف" في الادب والحكم واخبار العرب.

(١١٧) الشافعي (محمد بن ادريس) (١٥٠ - ٢٠٤ هـ/ ٧٦٧ - ٨٢٠ م) امام، مؤسس احد المذاهب السنية الاربعة، ولد في غزوة ونشأ في مكة ولازم الامام مالك في المدينة ودرس عليه. توفي بمصر وقبره معروف في القاهرة بسفح جبل المقطم. له تصانيف كثيرة، اشهرها كتاب "الام" في الفروع، جمعه البويطي وبوّه الربيع بين سليمان وله "المسند" في الحديث، و"السنن" و"الرسالة" في الاصول.

(١١٨) الابشيهي، المستطرف، ج ١ ص ١١٢. الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج ١١ ص ١٠٠ (ومجموعة كتاب الخراج لابي يوسف، ص ١٢٧).

ولكن بعد مدة طويلة من فرض هذه الاجراءات عن نظام الزي واللباس، وفي منتصف القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، اعاد الحاكم بأمر الله المسيحيين واليهود جميع الاجراءات التي كانت متبعة من قبله، وقد زاد عليها بان ألبس العمائم السود لليهود وامرهم بان لا يركبوا مع المسلمين جماعة. وجعل لهم حمامات خاصة على حدة. ولم يبق في ولايته دوراً ولا كنيسة الا هدمها وامر بتعليق الصليبان في اعناق المسيحيين طولها ذراع وزنتها خمسة ارطال بالمصري^(١١٩) وقد امر اليهود بان يعلقوا في اعناقهم قرامة من خشب في زنة الصليبان، كما منعهم من استخدام المسلم كعامل لديهم ومن شراء العبيد، وبنتيجة هذه الاجراءات والقيود التي لا تطاق اسلم الكثير منهم، ولكن بقي منهم في قصره بالتحديد كتاباً واطباء من المسيحيين^(١٢٠).

ولكن هذه الاجراءات الصارمة المفروضة تبعثها احكاماً اشدّ لتنفيذها وفرض عقوبات صارمة لمن خالف ذلك وكانت قاسية على اصحابها بلغت حدّ الصلب والقتل فيورد المؤرخ الجهشيارى حادثة عن لسان محمد بن الحصين الأهوازي ادت بصاحبها الى الصلب قال:

اثناء جلوسنا مع جعفر بن يحيى أحضر صاحب الشرطة رجلاً خالف نظام اللباس ووضعه بين يديه. فقال له هل انت الحرياني؟ اجابه بنعم. فدارت المناقشة حول مخالفة اللباس والتفت جعفر الى صاحب الشرطة وأمره بصلبه بعدها بالنيابة عن أمير المؤمنين على أطول عود، واثناء المسير التفت الحرياني الى صاحب الشرطة وقال له ان شاء الله لا احد يركب هذا العمود من بعدي غيره (اي جعفر) ومضت الايام والسنين فاذا بنكبة البرامكة تحلّ بأهلها

(١١٩) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ٢٥٥.

(١٢٠) د. حسين كرنيب، الدولة العباسية، ص ١٨٢.

ويصلب جعفر على الجسرين في بغداد الى قطعتين وبعدها مرّ الرشيد وسأل عن جثة الحرياني وامر بانزالها ووضع مكانها جثة انيس بن ابي شيخ الذي اصدر الحكم عليه بصلبه على اطول عمود، وعندما رايت انيساً على هذه الحال تعجبت من قول الحرياني ونقلته الى الرشيد^(١٢١).

ولكن ابن قَيِّم الجوزية^(١٢٢) ولو من باب الموافقة القليلة على الاجراءات التي برزت، بانها اجراءات تعسفية كانت مفروضة ايام الرسول محمد، الا انه يتابع مدافعاً ومعللاً السبب في فرض هذا النظام، ويقول انني اكد بان القرآن لم يتطرق الى هذه الامور ولا الحديث الشريف، وان هذه الاجراءات ليس لها اساس ديني بل اجتماعي وسياسي وزماني مؤقت، وضع في بعض الازمنة لغايات في نفس بعض الخلفاء وكاد ان يصبح عرفاً. وبعد استنتاجات طويلة، ان هذا الحكم كان لصالح اهل الذمة وليس ضدهم ولا لاذلالهم^(١٢٣).

٥ - أعيادهم:

كانت الاعياد في الدولة العباسية تختلف باختلاف شعوبها، فكل مذهب او طائفة لها تقاليدها في الاحتفال باعيادها وتوقيتها، وان كانوا يشاركون بعضهم في كثير من الاحيان خاصة بين المسلمين والمسيحيين نظراً لتقاربهم في السكن والمعيشة والبيئة المشتركة.

(١٢١) الجهشيارى، كتاب الوزراء والكتاب، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

(١٢٢) ابن قَيِّم الجوزية (محمد) (ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م) فقيه حنبلي دمشقي. تلميذ ابن تيمية. سجن معه. قاوم الفلاسفة. مصنفاته كثيرة منها "مدارج السالكين واعلام الموقعين" "الطرق الحكمية"، "الكافية الشافية" "شفاء الغليل"، "روضة المحبين" "الفوائد".

(١٢٣) ابن قَيِّم الجوزية، المنتظم، ص ٩٤ - ٩٥.

ولكن ابن الاثير يقول: اعياد النصارى كانت تقريباً مختلفة حسب الاديرة فكل دير له تقاليده واعياده مختلفة عن الاخر، ففيها يخرج الناس للهو والهزل والمجون ولكن اعيادهم العامة المتفق عليها عند الجميع هو عيد الميلاد، ففيه يكثرون من اضاءة الشموع والنيران، وايضا عيد الشعانين، وعيد الزيتونه^(١٢٤) فهو يصادف يوم الاحد الذي يسبق عيد الفصح المجيد في كل سنة. فالنصارى لهم عادات حلوة في هذا العيد، يحملون الصلبان ويتوشحون بالمناديل المنقوشة، ويحملون اغصان الزيتون مما يجعل روعة المنظر عند المسير وكأنها ضمن احتفالات الف ليلة وليلة. فالدير الاعلى^(١٢٥) في الموصل كان يفاخر ويتباهى بالزينة. وروعة احتفاله. فيبدو هذا الدير وكأنه جنائن معلقة تسبح فيه الملائكة ، ولا ننسى ايضا عيد الفصح ففيه يعتقدون بقيام السيد المسيح بعد صلبه بثلاثة ايام.

أما دير سمالو شرقي بغداد فيخصص لهذا الاحتفال، اذ لا يبقى أحداً من الناس الا ويتزين بابهى الزينة وافخر الملابس ويتوجهون للاحتفال بهذا العيد. ويقول ابن الاثير: ان الشاعر محمد بن عبد الملك الهاشمي يتمجد بشعره لهذا العيد ويتفاخر بهذا الدير قائلاً^(١٢٦):

ولرب يوم في سمالو ثم لي	منه سرور وغيت أحزانه
فتلاعبت بعقولنا نسوانه	وتوقدت بحدودنا نيرانه
حتى حسبت لنا البساط سقيته	والدير ترقص حولنا حيطانه

(١٢٤) ربما يقصد عيد الشعانين حيث كانوا يحملون بايدهم اغصان الزيتون اشارة للسلام ودخول السيد المسيح الى اورشليم.

(١٢٥) الدير الاعلى (دير مار جبرائيل - كبريل) يقع شمال الموصل القديمة قرب قلعة الموصل (باشطابيا) حضر فيه الخليفة المأمون احتفال الشعانين واستانس به. طالع التفاصيل في كتاب الديارات للشابشتي.

(١٢٦) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٨ ص ٢٢٣.

ويتابع انه في شهر تشرين الاول موعد عيد القديسة اشموني في قطربل، وهي قرية في شمال بغداد كان لها ميزة خاصة في احتفال هذا العيد رغم صغرها^(١٢٧).

والى جانب ذلك كانت الاعياد تجري ضمن حرية مطلقة في ممارسة الشعائر الدينية وتكون علناً دون حسيب، لذلك قال توماس آرنولد^(١٢٨) ان المسلمين لم يتعرضوا بتاتا للنصارى عند احتفالهم باعيادهم الدينية، بل العكس كانوا في معظم الاحيان يشاركونهم ذلك، ويتابع بأن المسيحيين كانوا يقدمون القرايين بين دقّ الناقوس واحراق البخور وغير ذلك من الطقوس الدينية، وترقيم المزامير، والغناء المواعيد على النسق الذين كانوا يحتفلون به قبل الفتح الاسلامي.

ومن جراء ذلك التخالط والتعايش المتقارب بين المسيحية والاسلام خاصة في ايام الدولة الاموية والعباسية نشأ تقارب في العادات والتقاليد وحتى في مشاركة بعضهم بالاحتفالات الدينية لكلا الديانتين في العصر العباسي خاصة، فكان فخراً بأن يشترك المسلم النصراني وبالعكس في جميع اعياده.

يقول أحمد امين^(١٢٩) ان بعض العادات المسيحية واليهودية تسرّبت الى المسلمين، بالاضافة الى عادات من المجوس الذين ادخلوها بدخولهم في الدين

(١٢٧) ولكن الدكتورة امينة البيطار في كتابها (الحياة السياسية في بلاد الشام) ص ٣٥٥ تقول جازمة بان اعياد الشعانين في فلسطين كانت من أبهى الاعياد المسيحية اذ ان النصارى في القرن الرابع الهجري يحتفلون بهذا العيد في مدينة القدس والعجيب في ذلك انهم يحملون شجرة الزيتون وينتقلون بها من الكنيسة الموجودة بالعازارية الى كنيسة القيامة، والمسافة بينهما كبيرة.

(١٢٨) توماس آرنولد، الدعوة الى الاسلام، ص ١٥٨.

(١٢٩) أحمد امين، منحنى الاسلام، ج ١ ص ٣٤٦.

الاسلامي، وقد اتخذ بعض المسلمين اعياد المسيحيين اعياداً لهم كعيد الشعانين الذي يصادف قبل عيد الفصح بأسبوع واحد، وقد عرف ذلك في العصر العباسي وما بعده.

ولكن المؤرخ الشابشتي^(١٣٠) يؤكد هذا التقارب بين الديانتين المسيحية والاسلامية ومشاركة بعضهم في اعيادهم الدينية قائلاً: ان تقدير المسلمين للاعياد المسيحية ما يحيط بالحياة العامة جعلت الاعياد مظهراً من مظاهر الحب والتعايش بين الديانتين. فالمسلمون يحتفلون بجميع الاعياد النصرانية طوال العام وكانت معظم اعياد النصارى هي تطبيقاً للعادات والتقاليد القديمة المتوارثة من قبل وكانت اغلب الاماكن في مصر والعراق يحج اليها في بعض الاعياد^(١٣١).

ويتابع الشابشتي قائلاً^(١٣٢): ان الذين دخلوا الاسلام، أدخلوا معهم بعض عاداتهم وتقاليدهم التي كانت تمارس قبل دخولهم الاسلام، فكانوا يحنون الى تطبيقها واعادة ذكرياتها فشاركوا النصارى هذه الاعياد ونعموا بخيرات أيامها، ويقول ان اعياد اهل بغداد تكاد تكون نصرانية بالوجه الخالص، وكانت اعياد القديسين في مختلف الاديرة حتى الذين لا تربطهم بالدين المسيحي اية صلة اذ شاركوا بهذه الاعياد دون معارضة اصحابها. فكانت الاديرة ببساتينها الفسيحة وقاعاتها مرتعاً للشراب البارد ومقصداً لطلاب اللذة البغداديين. وكثيراً ما ارتبط اسم الدير باسم شرابه.

(١٣٠) الشابشتي (علي) (ت ٩٩٨م) اديب مصري، ولآه العزيز الفاطمي خزانة كتبه. من كتبه (الديارات) ذكر فيه اديار العراق والجزيرة والشام ومصر.

(١٣١) الشابشتي، الديارات، ص ٨.

(١٣٢) الشابشتي، الديارات، ص ٩.

ويقول المقرئزي^(١٣٣) في خططه ان يوم الخميس في مصر عند القبط يدعى يوم العدس لأن عامة الناس يأكلون العدس، فهو يعتبر طعام الحداد. ولكن أهل مصر يأكلون منه كل يوم جمعة، وأهل الاسكندرية يخرجون كل يوم خميس الى المنارة بماكلهم. فمنهم من يصلي لله ومنهم من يلهو ويقون حتى منتصف النهار. وفي الشام يسمى الخميس الازرق او خميس البيض. وكان يباع في الاسواق البيض الملوّن المصبوع فيقامر به العبيد والصبيان^(١٣٤). يتابع الشاشيتي^(١٣٥) واصفاً الاديرة في أيام الاعياد والصوم الكبير قائلاً: انه في اليوم الاحد الرابع هو عيد دير درمالس^(١٣٦) يقصدونه أهل بغداد اذ لا يبقى احد يحب اللهو الا قصده وقيمون اياماً فيه، ولكنه يقول ان عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة هو اصلاً عيداً للنصارى واخذه المسلمون. والعادة فيه أن يطوّق العامة قبل الخروج من السجن الاسواق بالطبول والبوقات ليجمعوا من التجار ما ينفقونه في خروجهم. ولكن في سنة ٤١٥ هـ/ ١٠٢٤ م وبسبب الغلاء امتنع التجار عن الدفع، فامر الخليفة الظاهر الفاطمي^(١٣٧) التجار ان يدفعوا، وجرت العادة على ذلك. ويؤكد المقرئزي

(١٣٣) المقرئزي (تقي الدين) (١٣٦٤ - ١٤٤١) مؤرخ مصري، بعلبكي الاصل. ولد بالقاهرة وتولى القضاء فيها. من كتبه "السلوك لمعرفة دول الملوك" و"المواظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" ويعرف بخطط المقرئزي. و"النقود بالاسلامية القديمة".

(١٣٤) المقرئزي، الخطط، ج ١ ص ١٥٧ و ٢٦٦.

(١٣٥) الشاشيتي، الديارات، ص ٢١.

(١٣٦) دير درمالس: كان يقع بباب الشماسية في بغداد بأحسن موقع، كثير البساتين والأشجار وهو كبير. أهل برهانه وقسانه المتبلين. (انظر الشاشيتي، ص ٣-١٣).

(١٣٧) الظاهر، علي، ابن الحاكم: الخليفة الفاطمي السابع (٤١١ - ٤٢٧ هـ/ ١٠٢١ - ١٠٣٦ م) كان صغيراً عند وفاة أبيه فقامت بالوصاية عليه عمته ست الملك (١٠٢١ - ١٠٢٤) ضعفت في عهده سيادة الدولة.

ذاكراً^(١٣٨) ان الخليفة الظاهر خرج من الجيزة ومكث بها يومين حتى رأى العامة فضحك منهم واستظرفهم، ويتابع قائلاً^(١٣٩) انه في نفس السنة ثالث الفتح اجتمع خلق عظيم عند كنيسة المعش في خليج الخور من النصارى والمسلمين وكثر في ذلك اليوم المجون والشرب واللهو وبعض العادات المشينة بين النساء والرجال نخجل عن ذكرها حسب قول المقرئ.

ولكن الطبري^(١٤٠) يبين في كتابه انه في سنة ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م منع الخليفة المتوكل النصارى في عيد شعانينهم ان يظهروا الصلبان، وان يحملوا الشموع في الطريق الى جانب منعهم الاحتفال باعيادهم بكل حرية وكان يكثر من تقييدهم والضغط عليهم، وذهب الى ابعد من ذلك فأمر تسوية قبورهم مع الارض لئلا تسوى مع قبور المسلمين.

والظاهر ان لدير سمالو شرقي بغداد تقديس خاص عند المسيحيين خاصة والمسلمين عامة وذلك اثناء عيد الفصح المجيد. إذ ان الشابشتي يصفه مجارياً ابن الاثير بوصفه انه مكان مقدس ويقع على نهر المهدي وهو مقصود من أهل الطرب واللهو والشراب. ويذكر الشاعر محمد بن عبد الملك الهاشمي بعضاً من أبياته:

فتلاعبت بعقولنا نسوانه وتوقدت حدودنا نيرانه
ويتابع الشابشتي قائلاً^(١٤١)، بان عيد دير الثعالب في شهر أيلول، والذي يقع غربي بغداد وبياب الحديد ويقصده المسلمون والنصارى على السواء ولا

(١٣٨) المقرئ، الخطط، ج ١ ص ٢٢٧.

(١٣٩) المقرئ، الخطط، ج ٢ ص ٩٦.

(١٤٠) الطبري، تاريخ الامم والملوك ج ١١ ص ٣٦.

(١٤١) الشابشتي، الديارات، ص ١٤.

يختلف عنه احدى نظراً لموقعه الخلّاب، وبساتينه الغناء، ولتوسطه البلد في آن معاً، وله سهرات عامرة، واللهو فيه ينسي الانسان نفسه تحت وطأة ليليه الساحرة.

ومن الاعياد الفخمة ببغداد ايضاً، عيد القديسة اشموني والذي كان يحتفل فيه بدير اشموني بقطر ابل غربي دجلة^(١٤٢) ويجتمع به جميع الناس وقاصدي اللهو والطرب ويشارك كل حسب قدرته فمنهم من يركب التيارات ويتنافسون في زيّهم ويتباهون بما يعدّون. ويعدّون ديره وحاناته بضرب لذوي الجاه الخيام فيظل كل انسان مكباً على لهوه فيكون بذلك اعظم مشهد^(١٤٢).

لكن المقدسي^(١٤٣) يقول ان الغريب الذي ينزل بغداد قاصداً اعجب وابهى ما تراه عينه من تسلية ومرح هو دير اشموني، ويتابع المقدسي قائلاً: ان هناك عيداً آخر هو عيد البربارة^(١٤٤) كان معروفاً عند المسلمين، يحتفل به في فصل الشتاء، وفيه تقديراً للفصول وبشرى بحلول فصل الشتاء ومعرفة هطول الامطار، فهو نموذج لالتقاء المسلمين والنصارى، ويفخر المقدسي بشخصه لانه كان يحضره سنوياً دون تخلف^(١٤٥).

ويجتمع بالرأي كل من ابن الاثير والمسعودي والمقريزي والشابشتي في وصف عيد الغطاس^(١٤٦) واصفين جماله ورونقه.

(١٤٢) راجع كتابنا "سيرة الشهيدة شموني وكنيستها في قره قوش" بغداد ١٩٨٠.

(١٤٢) يصادف العيد يوم ١٥ تشرين الاول من كل عام.

(١٤٣) المقدسي (شمس الدين) (ت نحو ٩٩٠م) جغرافي، ورحالة عربي، له كتاب "احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم".

(١٤٤) يقع عيد الشهيدة بربرة في اليوم الرابع من كانون الاول من كل عام.

(١٤٥) المقريزي، الخطط، ج ٢ ص ٩٦. الشابشتي، الديارات، ص ٣٧.

(١٤٦) يصادف في اليوم السادس من كانون الثاني من كل عام.

فيقول ابن الاثير^(١٤٧) انه في القرن الرابع للهجرة كان الرسامين ورجال الدولة يفرّق عليهم الحلاوة القاهرية والحلاب والزلاية وماء الورد والسمك البوري، وتضاء الحوانيت والشوارع بالنواقيس ويتقاضى الفقير درهما عن كل ناقوس يحمله ويحتفل بعيد الغطاس بمصر احتفالاً عظيماً، وسمي بهذا الاسم تيمناً بغطس الناس في مياه النيل^(١٤٨)، ومن العادات القديمة ان يركب متولي الشرطة ليلة الغطاس في موكب مهيب ويحمل بين يديه الشموع الموكبية والمشاعل ويطوف بالشوارع.

ويقول المسعودي^(١٤٩) عن عيد الغطاس، ان ليلة بها منزلة عظيمة لا أحد يعرف النوم ويباهي بنفسه واصفا ليلة حضرها بنفسه في مصر مع الاخشيد محمد بن طفح في داره المختارة في الجزيرة الراكبية للنيل . فأمر بسرج ألف مشعل من جانب الجزيرة الى الفسطاط. غير ما أسرج في مصر. وحضر في تلك الليلة مئات الالوف من المسيحيين والمسلمين، وتباكروا أي تسابقوا في الحضور باكراً، لتبدأ المنافسة بينهم بالزّي والمأكّل والمشرب وبآلات الذهب والفضة، فيقول بانها كانت أحسن ليلة في مصر إذ ان اكثر الناس يغطسون في النيل تيمناً وتبركا لاعتقادهم انه في هذه الليلة يذهب عنهم المرض.

ولكن المقرئ والمقريزي والشابشتي^(١٥٠)، يتفقا في وصف ذلك الدير والعبيد معاً قائلين انه في عام ٤١٥هـ/ ١٠٥٨م أمر أمير المؤمنين الظاهر حضور عيد الغطاس. فنزل ومعه الحرم وضرب متولي الشرطة بدر الدولة خيمة للخليفة وحرّمه. وأمر الخليفة ان توقد النار والمشاعل في الليل.

(١٤٧) د. شوقي منيف، تاريخ الأدب العربي، ج ٢ ص ٩٥. آدم ميتز، الحضارة الاسلامية، ج ٢ ص ٢٨٨.

(١٤٨) هذا غير صحيح انما تيمناً بمعمودية السيد المسيح من يد يوحنا المعمدان.

(١٤٩) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ١٤٩.

(١٥٠) المقرئ، الخطط، ج ٢ ص ٩٦. الشابشتي، الديارات، ص ٣٧.

ويقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه تاريخ الادب العربي^(١٥١)، ان أيام السنة في سامراء وبغداد تشهد اعياداً يلهو فيها النساء بالجون، وهذه الاعياد هي للمسلمين والفرس والنصارى واليهود. أما اعياد النصارى فهي بمثابة كرنفالاً فيه المباح وغير المباح. وأما اعياد الاسلام فهي رأس السنة الهجرية وعيد الفطر وعيد الاضحى. واعياد الفرس عيد النيروز في أول الربيع^(١٥٢) وهو أول السنة الفارسية ويفخر الشعراء بذكره.

لكن آدم مitzer^(١٥٣) يقول: ان ليلة عيد الميلاد تقع في ٢٥ كانون الاول، واما اسباب وقد النيران في هذه الليلة واللعب بالجوز، هي انه عندما كانت السيدة العذراء الى جانب شجرة وصاحبها المخاض ارتجفت من البرد فعمد يوسف النجار الى اشعال النار لتدفئتها وكسر لها سبع جوزات واطعمها اياها، من اجل ذلك يوقد النصارى النار ليلة الميلاد ويلعبون بالجوز^(١٥٤)، فالمسلمون ايضا كانوا يحتفلون بليلة الوقود.

ويقول ابن الجوزية^(١٥٥)، انه في عام ٤٢٩هـ/١٠٣٧م مستنداً الى أهل عكبره^(١٥٦) انهم اجتمعوا ليلة عيد الميلاد حسب العادة وبدأوا بالتبخير لرفع

(١٥١) د. شوقي ضيف، تاريخ الادب العربي، ج ٢ ص ٩٥.

(١٥٢) سمي عيد النيروز بذلك عندما امر الخليفة المعتضد في سنة ٢٨٢هـ/٨٩٥م على اثر الحوادث بان يترك امر افتتاح الخراج الى نيروز العجم. ولكنه تأخر الى اليوم الحادي عشر من حزيران فسمي بالنيروز العضدي. ويذكر ابن الجوزية ان المتوكل اثناء احدى رحلاته رأى ان الغلال لم تحصد فاستفسر عن ذلك فاجيب بان النيروز قد تعطل بسبب السنة الكبيسة، فامر بتعيين منجم لتولي أمره، فقتل قبل اتمام ذلك فحلفه المعتضد الذي حدد بالنيروز في الحادي عشر من حزيران.

(١٥٣) آدم مitzer، الحضارة الاسلامية، ص ٢٨٧.

(١٥٤) هذا امر باطل فان ايقاد النيران علامة مولد النور الذي هو المسيح نور العالم.

(١٥٥) ابن قيم الجوزية، المنتظم، ج ٥ ص ١٩٢.

المضرة عنهم حتى صارت عرفا متعارف عليه عند الملوك الذين يكثرون من تاجيج لها لارسال الوحوش اليها وتطير الطيور فيها والشرب والتلهي من حولها^(١٥٧).

بقي ان نذكر كخلاصة لموضوع الاعياد ما أورده ابو الريحان البيروني^(١٥٨) في كتابه "الآثار الباقية عن القرون الخالية"^(١٥٩) فيقول تحت عنوان (القول على ما يستعمله النصارى الملكائية في الشهور السريانية) ما يلي:

والنصارى مفترقون فرقا، فالاولى منهم الملكائية وهم الروم، والثانية النسطورية، والثالثة اليعقوبية. ويبدأ بذكر اعياد الملكائية فيقول:

في شهر تشرين الاول: في اليوم الاول تذاكر حُنين الاسقف الشهيد تلميذ بولس. وفي اليوم الثاني تذاكر حارث النجراني الشهيد مع الشهداء. وفي اليوم الثالث تذاكر مارية الراهبة التي لبست ثياب الرجال وترهبت واخفت انوثتها عن الرهبان ثم رميت بالزناء مع امرأة فاحتملت الاذى ولم تظهر انوثتها حتى ماتت وعرفت حالها وبراءتها حين ارادوا غسلها^(١٦٠) وفي

(١٥٦) عكبره: من قرى بغداد الجنوبية اشتهرت بموقعها وكثرة الديارات حولها.

(١٥٧) التبخير قديم بقدم عبادة الانسان ومعرفته الدين ومعناه رفع الصلوات والدعوات على عرف البخور...

(١٥٨) البيروني (ابو الريحان) (ت ١٠٤٨م) مؤرخ ورياضي من علماء الاسلام المشهورين فارسي الاصل. صديق ابن سينا. من مؤلفاته "الآثار الباقية عن القرون الخالية" "تاريخ الهند"، "القانون المسعودي" في الهيئة والنجوم.

(١٥٩) البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٨٨ وما بعدها من الصفحات.

(١٦٠) هي المشهورة بقصتها وباسم "القديس مارينوس" او "القديسة مارينا" وقد ذكرت في عدة مواقع.

اليوم الرابع تذكّار ديونسيوس الاسقف المنجم تلميذ مار بولس. وفي الخامس تذكّار اصحاب الكهف بمدينة افسس وهو المذكور في القرآن. وقد وجّه المعتصم مع رسوله الى ملك الروم من شاهد موضعهم ولمسهم بيده والخبر معروف^(١٦١) وفي اليوم السابع تذكّار سرجيس وباكوس الشهيدين. وفي العاشر تذكّار زكريا النبي وهو بشاراة الملائكة اياه بابنه يوحنا. وفي الحادي عشر تذكّار قبريانوس الاسقف الشهيد وفي الرابع عشر تذكّار غريغوريوس النوسي الاسقف. وفي السابع عشر تذكّار قوزما ودميانى الطبيين الشهيدين. وفي الثامن عشر تذكّار لوقا صاحب الانجيل. وفي الثالث والعشرين تذكّار انسطاسيا الشهيدة. وفي السادس والعشرين تذكّار وضع راس يوحنا بن زكريا في القبر^(١٦٢).

في شهر تشرين الثاني: في اليوم الاول تذكّار قرنوتس الشهيد. وفي الحادي عشر تذكّار مينا الشهيد. وفي الخامس عشر تذكّار سمونا وغريا^(١٦٣) وحبیب الشهداء. وفي السادس عشر او الصوم لميلاد يسوع المسيح وهو اربعون يوماً متوالية تصام قبله. وفي السابع عشر تذكّار غريغوريوس صاحب الاعاجيب المعجزة. وفي الثامن عشر تذكّار ارمانوس الشهيد. وفي العشرين تذكّار اسحق وتلميذه ابراهيم الشهيدين. وفي الخامس والعشرين تذكّار بطرس الاسقف بالاسكندرية. وفي السابع والعشرين تذكّار يعقوب المقطّع. وفي الثلاثين تذكّار اندريوس الشهيد واندراوس الرسول^(١٦٤).

(١٦١) قصة اهل الكهف قصة سريانية مشهورة ترجمها ونشرها البطيرك زكا الاول عيواز عام ١٩٨٠ في حلب.

(١٦٢) البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٨٨ - ٢٩١.

(١٦٣) هما الشهيدان المشهوران باسم سمونا وغوريا.

(١٦٤) البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩١.

شهر كانون الاول: في اليوم الاول تذكّار يعقوب الاسقف الاول باورشليم واليوم الثالث تذكّار يوانيس الأب مؤلف رسوم النصرانية. وفي اليوم الرابع تذكّار بربارة ويولياني الشهيدتين. وفي الخامس تذكّار سابا رئيس الدير ببيت المقدس. وفي السادس تذكّار نيقولاوس البطريك الانطاكي. وفي الثالث عشر تذكّار الشهداء الخمسة. وفي السابع عشر تذكّار مونسطوا البطريك باورشليم. وفي الثامن عشر تذكّار سيسين الجاثليق الخراساني. وفي العشرين تذكّار اغناطيوس البطريك الثالث بانطاكية. وفي الثاني والعشرين تذكّار يوسف الرامثاني البولوطائي الذي دفن جسد المسيح. وفي اليوم الثالث والعشرين تذكّار جيلاسيوس الشهيد. وفي الخامس والعشرين ميلاد السيد المسيح. وفي السادس والعشرين داود النبي ويعقوب الاسقف باورشليم. وفي السابع والعشرين تذكّار اسطيφανوس رئيس الشماسة. وفي الثامن والعشرين قتل هيردّوس اطفال بيت لحم وفي التاسع والعشرين تذكّار انطونيوس الشهيد (زعموا انه ابو روح ابن عم هارون الرشيد)^(١٦٥).

شهر كانون الثاني: اليوم الاول منه ذكران باسيليوس وهو أيضاً عيد القلنداس^(١٦٦) وفي اليوم الثاني تذكّار سيلبيستروس المطران الذي تنصّر اهل القسطنطينية على يده. وفي الخامس صوم عيد الدنح، وفي السادس دنحاً وهو عيد الدنح نفسه ويوم المعمودية الذي عمّد فيه يوحنا المسيح بنهر الاردن. وفي اليوم الحادي عشر ذكران ثاونسيوس الراهب المعذب نفسه. وفي الثالث عشر تمام عيد الدنح وقتل الصلحاء القديسين بطورسينا. وفي اليوم الخامس عشر تذكّار بطرس بطريق دمشق وفي اليوم السابع عشر ذكران انطونيوس اول الرهبان ورئيسهم. وفي العشرين تذكّار اوثيميوس الراهب المعلم. وفي الحادي

(١٦٥) البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩٢.

(١٦٦) تفاصيل هذا العيد راجعها لدى البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩٢.

والعشرين تذكّار مكسيموس الراهب الفريد، وفي الثاني والعشرين تذكّار قوزما الذي استنبط قوانين النصارى. وفي الخامس والعشرين تذكّار بوليقارفوس الاسقف الشهيد. وفي السابع والعشرين ذكرى يونس الملقب بقم الذهب ويوانيس لفظة رومية لاسم يوحنا. وفي الحادي والثلاثين ذكرى يوانيس وقورس الشهيدان^(١٦٧)

شهر شباط: في اليوم الاول تذكّار أفریم المعلم. وفي الثاني عيد الشمع وهو إتيان مريم هيكل بيت المقدس مع يسوع. وفي اليوم الثالث تذكّار بلاسيوس الشهيد وقد قتله الجحوس. وفي الخامس تذكّار سيس الجاثليق أول من اورد المسيحية الى خراسان. وفي الرابع والعشرين تذكّار وجود رأس يوحنا المعمدان^(١٦٨).

شهر آذار: في التاسع منه تذكّار الشهداء الاربعين المعذّبين بالنار والبرد والجليد. وفي اليوم الحادي عشر تذكّار سوفرنيوس البطريرك باورشليم وفي الخامس والعشرين عيد السّبار وهو دخول جبرائيل الملاك على مريم مبشراً بالمسيح^(١٦٩).

شهر نيسان: في اليوم الاول تذكّار مريم الاغبطية الصائمة اربعين يوماً متوالية. وفي اليوم الخامس عشر تذكّار الشهداء المائة والخمسين. وفي الحادي والعشرين تذكّار السنودسات الستة^(١٧٠). وفي الثالث والعشرين تذكّار مار جيورجيس الشهيد. وفي الرابع والعشرين تذكّار مرقس صاحب الانجيل. وفي

(١٦٧) البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩٢ - ٢٩٣.

(١٦٨) البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩٣.

(١٦٩) البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(١٧٠) السنودسات هي: مجمع نيقية، مجمع القسطنطينية، مجمع افسس، مجمع خلقيدونية، مجمع اسطيتان، مجمع القسطنطينية الثاني.

الخامس والعشرين تذكّار ايليا الجاثليق بخراسان. وفي السابع والعشرين تذكّار خريسطفورس. وفي الثلاثين تذكّار شمعون بن صبّاعي الجاثليق المقتول بخوزستان مع من كان معه من المسيحيين^(١٧١).

شهر أيار: في اليوم الاول تذكّار ارميا النبي. وفي الثاني تذكّار ايثاناسيوس البطريك. وفي الرابع عيد الورد^(١٧٢) وفي السادس تذكّار ايوب النبي وفي السابع عيد ظهور الصليب على المساء في زمن قسطنطين. وفي اليوم الثامن من هذا الشهر تذكّار يوحنا صاحب الانجيل الرابع وتذكّار أرسنيوس الراهب. وفي اليوم التاسع تذكّار اشعيا النبي. وفي العاشر تذكّار ديونسيوس الاسقف. وفي الثاني عشر تذكّار افيفانيوس رئيس الاساقفة. وفي الثالث عشر تذكّار يوليانس الشهيد. وفي الخامس عشر عيد الورد. وفي السادس عشر تذكّار زكريا النبي. وفي العشرين تذكّار قريقوس الراهب. وفي الثاني والعشرين تذكّار قسطنطينوس المظفر. وفي الرابع والعشرين تذكّار شمعون الراهب الذي عمل اعجوبة كبيرة.

شهر حزيران: في اليوم الاول عيد السنابل. وفيه تذكّار يوحنا المعمدان. وفي اليوم الثالث تذكّار احراق بختنصر الصبيان وهم عزريا وحننيا وميشائيل. وفي هذا اليوم ايضا احداث الهيكل. وفي اليوم الخامس تذكّار اثناسيوس البطريك. وفي الثامن تذكّار قيورلوس البطريك الذي حرم نسطور. وفي الثامن عشر تذكّار متى ومرقس ولوقا ويوحنا اصحاب الاناجيل الاربعة. وفي الثامن عشر تذكّار ليونطيوس الشهيد. وفي الحادي والعشرين تذكّار برشيا القس الذي بشر مرو بالمسيحية حوالي عام ٢٠٠م. وفي الثامن والعشرين تذكّار جبرائيل وميخائيل رؤساء الملائكة. وفي الخامس والعشرين تذكّار مولد

(١٧١) البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

(١٧٢) التفاصيل لدى البيروني في كتابه الآثار الباقية، ص ٢٩٦.

يوحنا المعمدان. وفي السادس والعشرين تذكّار فيرونيا الشهيدة. وفي التاسع والعشرين تذكّار بطرس شمعون الصفا رئيس الرسل.

شهر تموز: في اليوم الاول تذكّار الرسل الاثني عشر. وفي الثالث تذكّار توما الرسول. وفي الخامس تذكّار ذوميطيوس الشهيد. وفي السابع تذكّار بروقوبيوس الشهيد. وفي الثامن تذكّار مارتا والدّة شمعون ذي الاعاجيب. وفي التاسع تذكّار احراق مختنصر الصبيان الثلاثة. وفي العاشر تذكّار الشهداء الخمسة والاربعين، وفي الحادي عشر تذكّار فوقا الشهيد. وفي الثالث عشر تذكّار ثوثايل الشهيد. وفي الرابع عشر تذكّار يوحنا المروزي الحديث. وفي الخامس عشر تذكّار قوريقوس واميّة يوليطا. وفي اليوم العشرين عيد العنّب. وفي الحادي والعشرين تذكّار بغنوطيوس الشهيد. وفي السادس والعشرين تذكّار فنطليمون الطيب الشهيد. وفي السابع والعشرين تذكّار شمعون الراهب صاحب العماد. وفي الثلاثين تذكّار تلاميذ المسيح وهم اثنان وسبعون^(١٧٥).

شهر آب: في اليوم الاول منه صوم مرض مريم والدّة المسيح وهو خمسة عشر يوماً آخرها يوم انتقالها. وفي اليوم الاول ايضاً تذكّار شموني مقبايا (المقايبة) وسبعة اولادها. وفي الخامس تذكّار موسى النبي. وفي السادس عيد طور تابور (عيد التجلي). وفي السابع تذكّار الياس الحّي. وفي الثامن تذكّار اليسع النبي تلميذ الياس. وفي التاسع تذكّار ربولا الاسقف. وفي العاشر تذكّار ماما الشهيد. وفي الخامس عشر عيد انتقال مريم العذراء الى السماء. وفي السادس عشر تذكّار اشعيا وارميا وزكرياء وحزقيال الانبياء. وفي السابع عشر تذكّار سيلاقوس وخطيبته اسطراطا نيقي الشهيدين. وفي العشرين تذكّار شمويل النبي. وفي الحادي والعشرين تذكّار لوقوس الشهيد وفي السادس

(١٧٥) البيروني، الآثار الباقية، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

والعشرين تذكّار سابا الراهب الشيخ الهرم. وفي التاسع والعشرين تذكّار مقتل يوحنا المعمدان. وفي الثلاثين تذكّار الانبياء كلهم^(١٧٦).

شهر ايلول: في اليوم الاول عيد اكليل السنة. وفي الثالث تذكّار الشهداء السبعة المقتولين بنيسابور. وفي الثامن تذكّار حنة والدة مريم ويواقيم والدها. وفي الثالث عشر عيد مُحَدَّث الهيكل بالصلاة وهو تجديد البيع. وفي الرابع عشر وجود قسطنطين الملك وهلاني والدته الصليب. وفي الخامس عشر تذكّار السنودسات الستة. وفي السادس عشر تذكّار اوفيميا الشهيدة. وفي العشرين تذكّار اوسطاثيوس وزوجته ووالدته الشهداء. وفي الثالث والعشرين تذكّار اويطليوس الشهيد. وفي الرابع والعشرين تذكّار تيقلا الشهيدة وفيه عيد كنيسة القمامة التي باورشليم. وفي الخامس والعشرين تذكّار سبنيانوس وبولس الشهيدين وطاطيس الشهيدة. وفي الثامن والعشرين تذكّار خاريطونوس الراهب. وفي التاسع والعشرين تذكّار غريغوريوس الاسقف الذي نصرّ ارمينية^(١٧٧).

أما اعياد النساطرة وتذكّاراتهم الدينية فقد بيّنها البيروني كما يلي:

الاعیاد التي وافقت فيها الملكائبة فالميلاد والدنح وعید الشمع واول الصوم والسعائین وغسل ارجل الحواریین وفصح المسيح وجمعة الصلیبوت والقیامة والفطر والاحد الحديت والسُّلّاقا والبنطيقسطي وصوم مارت مريم.

ومقتل یوحنا المعمدان عند النسطورية في اليوم الرابع والعشرين من آب.

وتذكّار شمعون بن صباعي في السابع عشر من آب. وعید الصليب عندهم الثالث عشر من ايلول.

(١٧٦) البيروني، الآثار الباقية، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(١٧٧) البيروني، الآثار الباقية، ص ٣٠١.

وأما التي تستعملها الملكائية، وقد قُيِّدَتْ بما تستعمله فمثل تذكار يوحنا
 للشكرانيّ فانه في أول يوم من تشرين الاول وتذكار مار فثيون في الخامس
 والعشرين منه وعيد دير يوحنا في اليوم السادس من كانون الاول. وعيد
 كنيسة مريم بيت المقدس في اليوم السابع من كانون الثاني. وتذكار مار فونيا
 في الخامس والعشرين من حزيران. وأول عيد التجلي في السادس من آب،
 وفيه عيد دير الناس وآخر عيد التجلي السادس عشر من آب. وعيد مر ماري
 في اليوم الثاني عشر من آب. وتذكار كرسين وكرساس في اليوم الثالث من
 ايلول.

وأما التي قيدها بايام الاسابيع من غير ان يكون بينهم فيها اشتراك او
 وُصْلَةٌ مثل تذكار قوطا الراهب وهو ما سرجس فانه في اليوم السابع من
 تشرين الاول ان كان اوله يوم الاحد، وان لم يكن آخر الى الاحد الذي يتلو
 السابع ومثل تذكار اشموني فانه في الاحد الذي يتلوه على مذهب نصارى
 بغداد وكعيد دير ابي خالد فانه في الجمعة الاولى من تشرين الثاني .

وعيد دير القادسية في الجمعة الثالثة من هذا الشهر وعيد دير الكحال في
 الجمعة الرابعة منه. وتذكار برسفا فانه آخر احد من ايلول وكعيد دير
 الثعالب فانه آخر سبت في ايلول الا ان كان اول تشرين الاول من السنة
 الآتية يوم الاحد فيتأخر العيد اليه ويخرج من ايلول فتتعى تلك السنة ويتكرر
 في الآتية مرتين في اولها وآخرها.

وأما التي قيدها بالايام المشتركة. فيما بينهم فقد تنقسم ثلاثة أقسام:

الاول منها ما وُصِّل بالصوم الكبير او بفطره.

والثاني ما وُصِّل بالميلاد.

والثالث ما وُصِّل بالدنح.

فالتى وصلت بالصوم الكبير او بأوله او بآخره فكمجعة آحادر وهو الثاني عشر من الصوم الكبير وكالفاروقة وتفسيرها النجاة وهو يوم الخميس الرابع والعشرون من اول الصوم. وتذكار مار ترسيا وتذكار مار قرياقوس الطفل الذي قُتل ولم يرجع عن النصرانية، فانه يوم الجمعة، العشرون من الفطر وتذكار سورين ودوران الارمنيين المقتولين على يد سابور الملك. وتذكار مر عبدا تلميذ مر ماري فانه يوم الخميس الرابع عشر من فطر السليحين. وتذكار مار ماري فانه يوم الجمعة الخامس عشر من فطر السليحين^(١٧٨).

٦- عاداتهم

اختلفت العادات باختلاف الشعوب التي كانت قبل الدولة الاسلامية وبقيت تسكن بين ظهرانيها عدة قرون، فكان لا بد لهذه الشعوب ان يكون لها عادات وتقاليد في طرق معيشتها وعملها وحياتها الاجتماعية وذلك بسبب تمتع هذه الشعوب بحرية المحافظة على تراثها التقليدي في الاسلام وخاصة في الدولة العباسية. ونظراً لكثرة الاديان آنذاك فان العادات كانت تختلف طبقاً لبيئة الشخص مع الارتباط الكلي بمجتمعه الديني وتقليده وعاداته التي كانت سائدة قبل الاسلام.

تقول الدكتورة امينة البيطار^(١٧٩) موضحة بعض العادات انه سادت بلاد الشام أنواع معينة من الخبز والاطعمة التي كانت تعدّ بواسطة التنور الذي هو عبارة عن حفرة في الارض تفرش بالحصى ويوقد الزبل حولها حتى تخمر فتطرح الارغفة على الحصى حتى تنتفخ فترفع، وكان الفول النيئ يقلى

(١٧٨) البيروني، الآثار الباقية، ص ٣٠٩ - ٣١١.

(١٧٩) د امينة البيطار، الحياة السياسية، في بلاد الشام ص ٣٥٤.

بالزيت بعد سلقه ويباع مع الزيتون. وقد أكثر اهل الشام من أكل الترمس بعد تملّحه وصنعوا نوعين من الناطق احدهما من الخرنوب يسمونه القبيط والآخر في السكر، وتميزت مدينة قبيع بصناعة الزبيب المعمول بالجوز والفسق والسمسم، ولكن ما يصنع في بخارى يزيد عليه حلاوة وفي الشتاء كانوا يصنعون الزلاية.

أما القلقاس كان من المأكولات الشائعة في فلسطين وكان يقشّر ويطبخ ويقلّى بالزيت وهو من المأكولات الشتوية. وألذ ما يؤكل المصنوع باللحم الضأن. ففي قرية صيرون بفلسطين كان هناك وقت لتميم الداري يقدم فيه كل يوم عدس بالزيت، لكل من يحضر من الفقراء، فإذا أراد الاغنياء تناولوه وكان مخصص للإشراف على الطبخ طبّاخ وخباز وخدام ومرمتون يقدمون الطعام.

٧- حرياتهم:

منذ توغل الجيش الاسلامي خارج الجزيرة العربية ووصله الى أفريقيا مع المحافظة على كرامة سكان البلاد المنفتحة، وتوصيات صدرت عن اكبر قواد المسلمين استنادا الى قول محمد من ظلم ذمي كنت حججه يوم القيامة، فقد حافظ على ذلك خلفاء الراشدون من بعده. فبعد ذلك نرى اهل الملل مروا بفترات عصيبة نسبيا ولكنهم تمتعوا بنوع من الحرية دون قيد او شرط لقاء دفع جزية تكون عربونا لحمايتهم الامنية المعيشية ضمن اخوانهم المسلمين فلا عجب اذا ادى الذمي في السنة ١٢ درهما، بل العجب ان يعدّ هذا المبلغ الضئيل هو امتصاص لحرياتهم الحياتية، ويطالعا ترتون^(١٨٠) مؤكدا ما ورد معنا سابقا وعلى لسان المؤرخين العرب المسلمين من ان حرية اهل الديانات

(١٨٠) ترتون، اهل الذمة، في الاسلام، ص ١٠٩.

التي تعيش في كنف الدولة الاسلامية، وخاصة العباسية هي من حرية المسلم لانها لم تكن مرتكزة على الشريعة والعقيدة الاسلامية، فكان لهم حرية إبداء الرأي والمناقشة فيما يختص بشؤونهم ولكن بالمقابل ليس لهم أي دخل في الأمور الاسلامية وذلك في حدود النظام والقانون المتبع للدولة.

ويقول روفائيل بابو اسحق^(١٨١) في كتابه مؤكداً مدى الحرية التي تتمتع بها أهل الديانات الاخرى وخاصة النصارى منهم والذي قال عنهم انهم اخذوها منذ قيام الدولة الاسلامية وحتى عصر المأمون، فقد عاشوا بكل اطمئنان وتسامح وحرية مع اخوانهم المسلمين وتقاسموا غيف العيش ومرّة. ولكن يقول بموت المأمون بدأت حالتهم تسيء بتغيير الحكام والولاة والعمال. ويعلّل السبب الى الخلافات الداخلية التي كانت تحصل بين الحكام والولاة، الى سوء ادارتهم مما ادى الى هذه الحالة التي لا تطاق في بعض الاحيان ولكنه يقول ان ذلك لم يكن معتمداً من قبل الجميع بل حسب تغيير الظروف السياسية للدولة العباسية التي كانت تحتوي تقريباً على جميع الديانات السماوية بما فيها الوثنية.

لكن ترتون يعود^(١٨٢) مفسراً معنى الحرية التي تمتع بها أهل الديانات غير الاسلامية ملتقياً مع روفائيل بابو اسحق بانهم اخذوا الكفاية منها متمتعين بحرية التعليم الخاص وفق مناهجهم وعقائدهم الدينية، وكان لهم تنظيم اجتماعي خاص بهم لإدارة شؤونهم الحياتية والمالية الى جانب تنظيم الميراث والمحاكم الشرعية المستقلة لكل ديانة حسب شريعته شرط عدم المساس بالشريعة الاسلامية. اذ كان لهم الحق الكامل بالتصرف بارزاقهم واموالهم وتخزينها ونقلها اينما شاءوا، ودون حسيب ولا رقيب، فملكيتها كانت حق لهم مصانة، ولا يجوز التعرّض لها.

(١٨١) روفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٧١.

(١٨٢) ترتون، اهل الذمة، في الاسلام، ص ١٠٩.

ويطالعنا الدكتور شوقي ضيف^(١٨٣)، محلاً ومبيناً معنى الحرية التي تمتع بها اهل الذمة - قائلاً: ان زيادتها تولد الفوضى وعدم تحمل المسؤولية لذلك يجب ان يكون للحرية حدود ترتكز عليها المبادئ الاساسية للفرد او المجتمع، مضيفاً ان هذه الحرية التي اعطيت لاهل الذمة ادت الى انتشار المجون والخلاعة، بشكل واضح وواسع وخاصة في سامراء وبغداد، فكل واحد مارس طريقة حياته على مزاجه من المجون والخمر واقتناء الجواني، وكان من نتيجة ذلك ان عمّ الشعر الاباحي والمفرط في التعبير عن الغرائز الجنسية ولكن مقابل هذه الموجة العارمة كانت هناك طبقة النساك التي لم تخرج عن عاداتها في المحافظة وحمت نفسها من السقوط بالهاوية.

ويقول الشابشي^(١٨٤) في كتابه الديارات: ان المسيحيين واليهود ترك لهم الحرية المطلقة في تطبيق وتصريف امورهم الدينية وخاصة في احتفالاتهم بالاعیاد من غير تدخل ليشاركوا في تلك الاعیاد كما فعل آباءهم واجدادهم قبل الفتح الاسلامي.

٨ - كنائسهم ومعابدهم

بمخرج المسلمين من الجزيرة العربية إبان الفتوحات الاسلامية، كان لا بد لهم ان يصطدموا بشعوب متعددة الاديان والافكار، وأكثر هذه الشعوب هي المسيحية واليهودية، ويواجهوا شعوباً متعلقة بديانتهما التي اتقنوها قبل الاسلام بعدة قرون، فكان من الصعب عليهم ان يقنعوا هذه الشعوب وخاصة الديانات السماوية باعتناق الاسلام نظراً لقربها من عبادة الله الواحد والتي نادت به الديانات السابقة للاسلام. ولكن الصعوبة الكبرى والمعارك الضارية التي خاضها المسلمون هي مع الديانات الوثنية.

(١٨٣) د. شوقي ضيف، تاريخ الادب العربي، ص ٩٧.

(١٨٤) الشابشي، الديارات، ص ٨.

وازاء هذا الخليط كان لا بد من بدء حملات عسكرية منظمة وعسيرة لمواجهة المواقف الناتجة بشكل حاسم وحازم حيناً وباللين حيناً. وهنا نستطيع ان نذكر انه لم تجر معارك في بداية انتشار الدين الاسلامي مع الديانة المسيحية عكس بقية الديانات التي خاض المسلمون ضدهم اشنع واغوى المعارك ليثبت أقدامه، ويكون فخراً ان الاسلام لم يتعرض للمسيحيين عند بدء الفتوحات ولم يجبرهم على اعتناق الاسلام بل حاججهم بالاقناع والحجج.

يقول الكندي^(١٨٥): ان الاسلام إتبع سياسة متتابعة المواقف، اذ كان اكثر جدية، مع الفرس ومع تعصب الرومان البيزنطيين، فكان يسمح للمسيحيين احياناً باصلاح كنائسهم وترميمها. لكن عندما استتب الامن للاسلام اصدروا في الاماكن والمقاطعات قرارات لا تسمح ببناء كنائس جديدة لتظل الكنائس القديمة على حالها.

فالعرب المسلمون عندما استولوا على دمشق قسموا الكنائس مناصفة بينهم وبين المسيحيين فقال آرنولد^(١٨٦) ان كاتدرائية ماري يوحنا الكبير، لا يمكن ان تكون مكاناً للمسلمين وعبادتهم الى جانب المسيحيين. وقد ناقض المؤرخون المسلمون ذلك، اذ قال ان مجرد بقائها ثمانين عاماً دليل على ما اعطي للمسيحيين من وقت مبكر باقامة شعائرهم الدينية.

ولكنه يوضح من خلال مراجعته للمصادر العربية القديمة وما استنتج منها قائلاً: ان الاختلاف كان واضحاً بين فقهاء المسلمين بالنسبة لبناء الكنائس او ترميمها او هدمها ولكن الاختلاف بينهم كان اشد بالنسبة لبقية الديانات الاخرى كالوثنية والزرداشتية والصائبة لان المسلمين لم يسمحوا لهم قط ببناء معابدهم ولا ترميمها بل كانت تهدم عمداً^(١٨٧).

(١٨٥) الكندي، تاريخ الولاة والقضاة، ص ١٣١.

(١٨٦) توماس آرنولد، الدعوى الى الاسلام، ص ٨٣.

(١٨٧) توماس آرنولد، الدعوى الى الاسلام، ص ٨٣.

ويضيف آرنولد: ان المذهب الحنفي اكثر المذاهب الاسلامية تسامحاً بالنسبة للفتاوي التي تتعلق باهل الديانات غير الاسلامية، وانه بالرغم من ان بناء الكنائس ومعابد اليهود في الديار الاسلامية العصرية مخالف للشرع الاسلامي، إلا انه يمكن إصلاح الأعطال فيها. كما انه يجوز بناء كنائس ومعابد في الاماكن التي لا يوجد فيها مسلمين ولا تقام فيها الشعائر الدينية الاسلامية. ويتابع أيضاً بأن المذهب الحنبلي جزم انه لا يجوز بناء او اصلاح ما تهدم من المعابد التي تعود لغير المسلمين^(١٨٨).

ويذكر الابشيهي^(١٨٩) ما ورد على لسان الخليفة عمر بن الخطاب حين صالح أهل الشام واعطاهم الامان بعد احتلالها من قبل المسلمين. وهنا نورد بعضاً مما جاء في المعاهدة والذي نصّ حرفياً، وقدّمت للخليفة فوافق عليها قائلاً^(١٩٠): "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من نصارى مدينة (كذا) الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب، انكم قدمتم علينا سألناكم الامان لانفسنا وذرائنا اموالنا واهل ملتنا وشرطتنا لكم على انفسنا ان لا نحدث في مدائننا ولا فيما حوالينا كنيسة ولا ديراً، ولا صومعة راهب ولا تجديد ما ضرب منها ولا مكان مخططاً منها من خطط المسلمين في ليل ولا نهار، وان توسع ابوابها للماء وابن السبيل وأن ننزل ما مرّ بنا من المسلمين ثلاث ليالٍ نطعمهم ولا نأوي في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوساً".

هذا مقتطف ما ورد في رسالة أهل الشام الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب^(١٩١)، هم حدّدوا الشروط التي سيسيرون عليها لقاء الامان لهم وعدم

(١٨٨) توماس آرنولد، الدعوى الى الاسلام، ص ٨٣ - ٨٤.

(١٨٩) الابشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ج ١ ص ١١٠ - ١١١.

(١٩٠) نقلاً عن د. حسين كرنيب، الدولة العباسية، ص ١٩٤.

(١٩١) عمر بن الخطاب (٢٧هـ/٦٤٤م) ثاني الخلفاء الراشدين (١٣هـ/٦٣٤م) اول من لقب بامير المؤمنين. خلف ابا بكر الصديق. اشتهر بعدله. في ايامه فتحت الجيوش

التعرض لمعتقداتهم واملاكهم فوافق الخليفة على ذلك واعطاهم ما أرادوا، ولكن توالى الازمان ومرّت العهود وتغيّر الخلفاء، ويأت كل خليفة يطبق القانون الذي يراه مناسباً لزمانه، منهم من سار على نهج الخليفة عمر بن الخطاب ومنهم من رسم طريقاً يسير عليه بشأن الكنائس والاديرة وترميمها او هدمها. فنرى ابن تغري بردي^(١٩٢) يقول ان والي مصر من قبل الخليفة هارون الرشيد، علي بن سليمان رغم عدالته وترأفه بالرعية منعت في ايامه إقامة الملاهي، وهدمت الكنائس ما بين عامي ١٦٩-١٧١هـ/٧٨٥-٧٨٧م، فاشتكى القبط وعرضوا عليه المال لقاء بقائها فامتنع عن ذلك. وهناك والي آخر لهارون الرشيد هو ابو عيسى العباسي الهاشمي كان والياً على مصر أذن للمسيحيين في بناء كنائسهم التي هدمها علي بن سليمان، وبنيت بعد اخذ موافقة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة حيث قالوا: هي عبادة البلاد بنيت زمن الصحابة^(١٩٣).

وفي زمن الخليفة الفاروق^(١٩٤) هدمت الكنائس المستحدثة بعد الاسلام وأمر بالآ تجنّد، وان لا تظهر عليها خارجة ولا صليب إلا كسر على رأس صاحبه. يقول الابشيهي^(١٩٥): إن عمرو بن محمد هدم كنائس صنعاء باليمن

الاسلامية الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية بقيادة عمرو بن العاص وابو عبيدة الجراح ويزيد بن ابي سفيان وخالد بن الوليد وسعد بن ابي وقاص. انشأ "الديوان" لدفع رواتب الجيش. و"الامصار" لادارة الجند والمدن. اغتاله ابو لؤلؤة الفارسي في المسجد.

(١٩٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص ٦٢ والكندي، تاريخ الولاة والقضاة ص ١٣١.

(١٩٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص ٦٦.

(١٩٤) الفاروق لقب اطلقه السريان على عمر بن الخطاب وهو لفظة سريانية ويعني المنقذ، المخلص (باروقا).

(١٩٥) الابشيهي، المستطرف، ص ١١٢.

مضيفاً حسب قوله بأن الخليفة عمر بن عبد العزيز^(١٩٦) أمر بأن لا يترك في دار الاسلام بيعة ولا كنيسة قديمة وحديثة الا هدمت. ولكن يظهر لنا من خلال استغفاره لربه انه نقل هذه الاخبار بالتواتر ولم يذكر اسم المصدر قائلاً: الله تعالى اعلم بالصواب واليه المرجع وحسبي الله ونعم الوكيل.

فهذا الدعاء والاستغفار من رب العالمين هو في نظري دليل على ان ما ذكره هو نقلاً عن احد المصادر، او الرواة إذ لم يكن اكيداً من خبره لانه لم يلمسه أو يشاهده، بل سمعه ونقله وهذا دليل قاطع على سيرته الحسنة وثقة نقله وعدم تحميله المسؤولية فيما ينقل عن لسان غيره اذا لم يكن متأكداً منه.

ولكن قاضي القضاة^(١٩٧) زمن الخليفة هارون الرشيد، أظهر فتواه استناداً الى قول الخليفة عمر بن الخطاب بأهل الديانات الاخرى بانهم يجب ان يمنعوا من إحداث بيعة او كنيسة او معبداً الا ما كان صولحوا عليه زمنه، والا هدمت، وقد شمل أيضاً بيوت النيران واسواقهم على ان لا يبيعوا خمرأً ولا خنزيراً، ولا يظهرون الصلبان في الامصار ولتكن قلائستهم طوالاً مضرية، فقال للرشيد هكذا يجب ان يطبق ويعم على جميع عمال الامصار الاسلامية.

فالقاضي أبو يوسف كان حاد الذكاء في اصدار الاحكام والفتاوي الشرعية، وكان شديد البأس والعزيمة ضد من خالف قرارات الخلفاء الراشدين من اهل الديانات الاخرى، اذ كان يراجع مصادرهم ويقرأها بامعان ويحلل كل كلام صادر عن أي خليفة ليستند اليه لتكون حجته قوية في منع استخدام أي معبد ديني لأي مذهب كان من غير الديانة الاسلامية.

(١٩٦) عمر بن عبد العزيز بن مروان (٦١-١٠١هـ/٦٨١-٧٢٠م) الخليفة الاموي الثامن (٩٩هـ/٧١٧م) اهتم بالاصلاح الاداري والمالي.

(١٩٧) ابو يوسف، الخراج، ص١٢٧.

فالماوردي^(١٩٨) يؤيد ويؤكد ما ورد على لسان ابو يوسف^(١٩٩) من الفتاوي والاحكام بشأن المعابد وبنائها وترميمها واعطاء حقوق اهل الديانات واخذ الاسلام حقه منهم، ولكنه يقول، اذا نقض اهل الذمة عهدهم وجب إخراجهم من بلاد الاسلام طوعاً او كرهاً.

وفي معجم ياقوت الحموي^(٢٠٠) والذي يعدّ من اشهر ما ذكر عن البلدان في البناء والازدهار ومن عمران للمعابد الدينية وخاصة الكنائس والاديرة التابعة للديانة المسيحية ويقول: رغم ابرام المعاهدات مع الصحابة بعدم استحداث اية بيعة او كنيسة نرى ان المهدي^(٢٠١) ما بين سنة ١٥٨ - ١٦٩هـ/ ٧٧٤-٧٨٥م بنى في عهده وفي بغداد بالذات كنيسة للذين أسروا ايام الحروب البيزنطية. وفي عهد الخليفة هارون الرشيد بني^(٢٠٢) ببغداد على يد اهل سمالوا كنيسة بعد اخذهم البصرة، رغم ان المسلمين اسسوها في عهد عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م^(٢٠٣).

(١٩٨) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ١٤٦.

(١٩٩) ابو يوسف القاضي (يعقوب بن ابراهيم) (ت ١٨٢هـ/ ٧٩٨م) ولد في الكوفة درس على ابي حنيفة وكان اكبر اصحابه. تولى قضاء بغداد ايام المهدي والهادي والرشيد. أول من دعي بقاضي القضاة. له كتاب "الخراج" و"الردّ على سير الازاعي".

(٢٠٠) ياقوت الحموي (١١٧٩ - ١٢٢٩) مؤرخ وجغرافي عربي، رومي الاصل. اشتراه تاجر من حماة. عاش في حلب. من آثاره "معجم البلدان" و"معجم الادباء" او "ارشاد الأريب الى معرفة الاديب" في التراجم.

(٢٠١) المهدي (محمد بن المنصور) ثالث الخلفاء العباسيين (١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٥-٧٨٥م) اشتهر بحروبه ضد البيزنطيين. انشأ الطرق العامة وحسّن جهاز البريد فازدهرت التجارة في عهده.

(٢٠٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢ ص ٥١٦.

(٢٠٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢ ص ٤٣٤ و ٤٣٥.

ولكن توماس آرنولد^(٢٠٤) يبين لنا نقلاً عن سعيد بن البطريق^(٢٠٥) انه في عهد الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م) وفي مصر، اعطى الاذن ببناء كنيسة على جبل المقطع القريب من القاهرة. كما سمح لاحد المسيحيين ويدعى بكام ببناء عدة كنائس في بلدة بورة في مصر. وان البطريق النسطوري ويدعى ثاوس^(٢٠٦) المتوفي سنة ٨٢٠ م بنى كنيسة ابن سبقيين القبطية الجميلة.

وأيضاً في عهد الظاهر السابع^(٢٠٧) الفاطمي بنيت في جدّة كنيسة، وفي عهد المستضي^(٢٠٨) شيدت كنائس واديرة جديدة. وفي سنة ١١٧٨م شيدت كنيسة الفسطاط.

فهذا المسلسل في بناء الكنائس يدحض مزاعم بعض الباحثين من ان معظم الكنائس في الديار الاسلامية قد هدمت ولم يبق منها شيء. ولكن ياقوت الحموي يؤكد ذلك فيما مرّ معنا على بقاء عدة اديرة وكنائس محدثة وقديمة، ولكن اذا هدمت بعضها منها في فترات من الفوضى والمزاجية

(٢٠٤) توماس آرنولد، الدعوة الى الاسلام، ص ٨٦.

(٢٠٥) سعيد بن البطريق، نظم الجوهري، ج ٢ ص ٥٨. وسعيد بن البطريق (٨٧٧ - ٩٤٠) هو اوطيخيوس بطريرك الاسكندرية الملكي (٩٣٣م) كان طبيباً ومؤرخاً. له تاريخ (نظم الجوهري).

(٢٠٦) ربما يكون اسمه اذثاوس وهذا لا يتفق وتاريخه مع ما هو مذكور.

(٢٠٧) الظاهر (عليّ، ابن الحاكم): الخليفة الفاطمي السابع (٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-

١٠٣٥م) كان صغيراً عند وفاة ابيه فقامت بالوصاية عليه عمته سِتّ الملك (١٠٢١-

١٠٢٤م) ضعفت في عهده سيادة الدولة.

(٢٠٨) المستضي بالله (الحسن بن المستنجد) الخليفة العباسي الثالث والثلاثين (٥٦٦-

٥٧٥هـ/١١٧٠-١١٨٠م) في عهده زالت الخلافة الفاطمية في مصر. اشتهر بالجلود

والعدل.

الشخصية لبعض الولاة والخلفاء فليس معنى ذلك ان وراءها خطط متعمدة لتهديم جميع الكنائس كما صرّح ويصرّح البعض.

ويطالعنا الطبري^(٢٠٩) مبينا تهديم بعض الكنائس انه حصل بعد فوضى أصابت البلاد ايام الخليفة هارون الرشيد سنة ١٩١هـ/ ٨٠٦م، عندما أمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور، نظراً لما كانوا يعطونه من ولاء للبيزنطيين على حساب العباسيين، اذ نصبوا انفسهم العين الساهرة لهم ومدّهم بشتى الاخبار عن تحركات الجيش الاسلامي وتحصيناته.

ويقول المقرئزي^(٢١٠) ان اسباب تهديم الكنائس يعود الى شغب حدث بين أهل الملك والمسلمين، وهذا ما اكده الطبري اعلاه، فانه في سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م ثار المسلمون بدمشق وهدموا كنيسة واخذوا ما فيها ونهبوا بعدها عدة ديارات. وحصل شغب ايضا في الرملة فهدم المسلمون كنيستين للملكية وكنيسة قيسارية، فاشتكى النصارى للمقتدر^(٢١١) فامر لهم بعد ذلك ببناء ما تهدّم.

وكذلك ثار المسلمون بعسقلان، وهدموا كنائس، ولكن اليهود هناك كانوا يضرمون النار في سقف الكنائس سرّاً، ليزيدوا من الخلاف بين المسلمين

(٢٠٩) الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج ١١ ص ١٠٠ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص ١٣٦.

(٢١٠) المقرئزي، الخطط، ج ١ ص ٤٩١.

(٢١١) المقتدر بالله (جعفر بن المعتضد) الخليفة العباسي الثامن عشر (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٨-٩٣٢م) خلف اخاه المكتفي. حاول القضاء على نفوذ مؤنس امير الامراء فقتل. في عهده ظهر الخلفاء الفاطميون في افريقيا عام ٩٠٩م والامويون في قرطبة عام ٩٢٩. واغار القرامطة على العراق واحتلوا مكه، عام ٩٣٠ ونقلوا الحجر الاسود الى الاحساء.

والمسيحيين، ولكن اسقف المدينة ذهب الى مدينة السلام (بغداد) وطلب بوقف تلك الاعمال المشاغبة.

وفي سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م ثار المسلمون وحصل شغب في بيت المقدم ونهبت بعض الكنائس.

وفي سنة ٣٨١هـ/٩٩١م ثار المسلمون بعد ان وجدوا رأس خنزير أمام احد المساجد ظناً منهم ان النصارى وضعوه^(٢١٢).

ويقول ميتز^(٢١٣) نقلاً عن دي ساسي بان الحاكم بأمر الله الفاطمي المتعصب دينياً قد ترك العنان لعامة المسلمين في تهديم الكنائس ليبنى مكانها المساجد، ومن هذه المساجد الازهر المشهور. وان الوف الكنائس غير هذه هدمت في عهده المشؤوم بالاضافة الى عدة أديرة، ولكن سلم الدير القديم المجاور لمدينة الاسكندرية وهدم دير طورسينا.

ولكن ايام المتوكل على الله العباسي هدمت ايضاً البيع وبعض الكنائس واخذ العشر من منازل اهل الذمة، وبنى المساجد على انقاضها^(٢١٤).

وفي سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م ثار المسلمون وهدموا كنيسة بناها المسيحيون في تنيس فأعان السلطان المسيحيين على بنائها.

وفي سنة ٣٢٦هـ/٩٣٧م. تهدم قسماً من كنيسة أبي (الانبا) شنوده في مصر وبذل المسيحيون جهداً لاعادة ما تهدم، ولكن الاخشيدي^(٢١٥) قال لهم خذوا فتوى الفقهاء، ولكنها لم تعمّر وبقيت كما هي^(٢١٦).

(٢١٢) المقرئزي، الخطط، ج ١ ص ٤٩١.

(٢١٣) آدم ميتز، الحضارة الاسلامية، ص ١١٦.

(٢١٤) أحمد أمين، ظهر الاسلام، ص ٤٢.

(٢١٥) الاخشيديون دولة خلفت الطولونيين في حكم مصر وسورية (٣٢٣-٣٥٨هـ/٩٣٥-

٩٦٩م) اسسها محمد بن طغج، اشهرهم الوصي كافر قسى عليهم الفاطميون.

(٢١٦) آدم ميتز، الحضارة الاسلامية، ج ٢ ص ٩١.

الفصل الرابع

أهل الذمة والنهضة العلمية في الدولة الاسلامية

أثناء نقل العباسيين (٧٥٠-١٢٥٨م) مركز الخلافة من دمشق الى بغداد، اعتنوا بصناعة الطب، ووجهوا أنظارهم الى تطويرها وصرف الاموال الطائلة في سبيل ذلك. فاعتنوا وساعدوا مدرسة جنديسابور^(١) بالاموال، وبجميع المعذات التي تحتاجها بعد ان اسسها كسرى الاول عام ٣٥٠م.

كانت الحركة العلمية بشكل عام وعلى وجه التحديد متقدمة ومتطورة في العصر العباسي الذي كان رائداً للعلوم في جميع المجالات العلمية، اذ اعتنت الدولة وبشكل لم يسبق له مثيل بهذه النهضة، ورصدت الاموال الباهظة في سبيل الاعلاء من شأنها، بالاضافة الى التشجيع المستمر لاطباء ذلك العصر مما سبب بازدهار الترجمة والنقل وكثرة المؤلفات الطبية والعلمية والفلسفية، فنبغ كثير من اطباء أهل الذمة ولا سيما النصارى منهم ونالوا بفضل بروزهم المراكز العالية في الادارات العامة، وبلاط الخلافة وقصور الامراء والوزراء، فخدموا هذه الصناعة والعلم خير خدمة بتفننهم بمعالجة المرضى ووصف الادوية المناسبة، وبناء طبهم على مبادئ الطب اليوناني والسرياني (العراقي القديم) والفارسي والهندي لامتزاج هذه المعارف في مدرسة جنديسابور فاصبحوا صلة الوصل بين الطب اليوناني والسرياني القديم بوجه خاص، وبين من اتبع طب

(١) جنديسابور، مدينة ايرانية في خوزستان، اسسها شاپور الاول. فتحها ابو موسى الاشعري عام ٦٣٨م. عاصمة يعقوب بن الليث الصفار، اشتهرت بمدرستها الطبية ولغتها الآرامية (السريانية).

ابقراط^(٢) وجالينوس^(٣) وقدماء العرب، فغدت هذه الصناعة مفخرة العصر العباسي. بعد ان ميز العباسيون اطباء اهل الذمة بسبب اتقانهم مهنة الطب والصيدلة وهذا التمييز نال منه النصارى حصّة الاسد.

روي ان صالح بن بهلة الهندي، وعبدوس بن يزيد، وموسى بن اسرائيل الكوفي، والطبري اليهودي، نالوا المنزلة عند الخلفاء بفضل مهارتهم ومعارفهم فطبهم سار دائماً في طريق التجديد والتفنن فتمسكوا بصنعتهم وابدعوا في تطويرها^(٤).

ان معظم الاطباء في العصر العباسي اعطوا اجتهادات في الطب، وبرعوا بالتأليف والتعريب، واكتشفوا الجديد وصححوه من الاخطاء واهم ما اشتغلوا به الطب البشري والنظري والعلمي والجراحة والتشريح والكيمياء وعلم الطبيعيات وعلم النجوم لاعتقادهم بعلم تفسير الاحلام، وعلم البيطرة في الخيل والطيور وعلم النبات والزراع مع اوقاته ووضعوا لها الكتب والتصانيف وعربوا المؤلفات القديمة.

ولكن لتقدّم الطب في العصر العباسي الاول أثر بالغ في العصر الثاني، إذ نبغ في عهد الخلفاء الواثق والمتوكل كثيراً من الاطباء، مثل يحيى بن ماسويه المتوفي سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م^(٥) وبختيشوع الذي عمل في خدمة الخلفاء هارون الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، ووثقوا به ثقة عمياء

(٢) أبقراط (نحو ٤٦٠-٣٧٧م): طبيب يوناني. اكبر الاطباء الاقدمين واشهرهم يتقيد الاطباء في قسمهم بالتقيد بنهجه الاخلاقي المعروف بقسم ابقراط.

(٣) جالينوس (نحو ١٣١-٢٠١م) طبيب يوناني اشتهر باكتشافاته في التشريح اخذ عنه الاطباء العرب.

(٤) عيسى اسكندر المعلوف، محاضرة في تاريخ الطب عند العرب، ص ١٣.

(٥) ابن النديم، الفهرست، ص ٤١١ و ٤٢٣.

بالإضافة الى اولاده، لكن المتوكل نفاه الى البحرين في سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م وصادر امواله لاسباب لم تعرف بالتحديد^(٦).

وذكر ان بلاد المشرق^(٧)، حفلت بكوكبة من الاطباء الذين تفننوا بصناعة الطب حتى أبدعوا. وفي المغرب برز ايضا اطباء غدوا من اشهر اطباء ذلك العصر. منهم سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون^(٨) الخاص، كان مسيحيا. وفي ذات مرة شكا ابن طولون من إسهال اصابه فنصح به طبيبه بحماية نفسه لمدة يومين ولكنه خالف تعليماته، فساءت حالته وعلم طبيبه بذلك، ويحذره ثانية مغبة فعله واصفاً مرضه^(٩) بما معناه "ضعف قوته الناهضة يقهر الغذاء وستحرك حركة منكرة" فصدق طبيبه ومات ابن طولون بعد يومين. وقبل موته اتخذ اطباء غير بن توفيل منهم ابراهيم بن عيسى مات سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م والحسن بن زيرك مات قبل ابن طولون بيوم واحد.

وهنا لا بد ان نذكر مدرسة جنديسابور ولو بشكل موجز. هذه المدرسة التي ما برحت تخرج الاطباء تلو الاطباء، والذي كان لهم الدور الفعال في تقوية هذه الصناعة حتى غدا العصر العباسي عصر الطب يزخر ويفتخر بأشهر الأطباء وأقواهم على الاطلاق من مسيحيين وغيرهم. ولذلك وجب علينا وقفة قصيرة وبسيطة لتاريخ هذه المدرسة حسب ما رواه القفطي^(١٠): ان

(٦) روفائيل بابو اسحق، احوال نصارى بغداد، ١٩٦٠.

(٧) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٨٣.

(٨) ابن طولون (أحمد) (ت ٢٧٠هـ/٨٨٤م) مؤسس الدولة الطولونية بمصر وسورية قرّبه المستعين. والي مصر عام ٨٦٨. استقل بالحكم وانشأ "القطاع" عاصمة جديدة له بالقرب من الفسطاط. مدّ سلطانه على مصر وسورية والثغور والموصل. بنى الجامع المعروف باسمه في القاهرة. خلفه ابنه خمارويه.

(٩) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٨٥.

(١٠) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٣٣.

مدرسة جنديسابور التي أسسها سابور الاول نسبت اليه بعد ان اتخذها موطناً لاسرى حرب الروم على أثر اندلاع الحروب الفارسية الرومانية. وكان من بين هؤلاء الاسرى أشهر المهندسين والاطباء والحرفيين والصناعيين الذين كانوا ضمن الجيش البيزنطي وجعلهم سابور فيما بعد مهدياً للعلوم اليونانية والسريانية، وعندما جاء المسلمون وفتحوها في سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م زمن الخليفة عمر بن الخطاب بعد احتلال فارس، بقيت المدرسة الى العصر العباسي تعطي دون توقف زحماً قوياً لاشهر الاطباء والفنانين والصناعيين. ويقول ياقوت الحموي^(١١) في معجمه انه لم يبق منها عين ولا اثر الا ما يدلّ على شيء من آثار بائدة لا تعرف صنائعها الا باخبار المتواترة، ولم يبق منها ايضاً إلا اطلال شاه آباد.

ويتابع القفطي قائلاً^(١٢): ان كسرى قد أسس فيها البيمارستانات التي تعالج المرضى وتدرّس الطب على يد أطباء رومان، وقد باشرُوا بتعليم شباب أهلها، وبدأ امرهم يقوى ويتزايد، ويتفنون في العلاج ويرتبونه حسب امزجة بلادهم. وفي سنة عشرين جمع كسرى اطبائها بامر الملك ودارت بينه مناقشات وأسئلة وأجوبة تدلّ على غزارة علمهم فمن البديهي ان اطباء جنديسابور لم يعلّموا الا أهل جنسهم بصناعة الطب.

ويقول أحمد امين^(١٣) ان مدرسة جنديسابور كانت تدرّس الثقافة اليونانية والهندية ويشترك بعض الاطباء الهنود في التدريس باللغة الفهلوية وظلت هذه المدرسة تؤدي عملها في الاسلام، حيث زاد اتصالها خاصة في

(١١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١ ص ١٧٠.

(١٢) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٣٤.

(١٣) أحمد أمين، ضحى الاسلام، ص ٢٥٦. وكارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٢٠٢.

العصر العباسي حتى برز أشهر أطبائها وهو جورجيس بن بختيشوع طبيب المنصور وابنه وأحفاده وكلهم نصارى.

ويقول ابن أبي أصيبعة^(١٤)، أن هؤلاء الاطباء بنوا دوراً للمرضى وعزّزوا صناعة الطب، وتفننوا في التدريس لاصولها والاستنباط والاكتشاف. وتنافسوا في التصنيف والتأليف وتعاونوا مع الاطباء المسلمين في تشخيص بعض الامراض كالجدري والحصبة والحمى القرمزية وزادوا في الصيدلية على ما تلقوه من كتب اليونان، فهم أول من استقطر الماء والزيتون وأول من استخدم مركبات الزئبق في امراض الجلد والبرص، ومعالجة القلب والاهليلج والمن والتمر الهندي والروندو والكافور.

هذا فضلاً عن مؤلفاتهم وتصنيفاتهم التي كانت نهراً غزيراً من العلوم الطبية البشرية والذي بشر به كثيراً من العلماء والاطباء ليومنا هذا.

واتفق ابن النديم والقفطي وابن أبي أصيبعة^(١٥) في نهضة العلوم الطبية التي شملت الصيدلة والكيمياء، وخاصة في العصر العباسي الذي خرج أكبر كيميائي في تلك الحقبة وهو جابر بن حيان الكوفي، والذي ظل المترجمون يحاولون ترجمة ما سبقهم. فالكثير منهم شجعوا الترجمة. وصنفوها باسمهم، فهم ينفقون الاموال الطائلة في سبيل ذلك، منهم بختيشوع الذي قال عنه القفطي^(١٦)، انه كان يضاهي الخليفة المتوكل في الزينة والفرش والمآكل والمشرب ويقال انه أخذ ٣٠٠ ألف درهم لقاء إحدى مداواته من علة المثانة. ونقل الكثير من كتب جالينوس، وانه عاصر سابور بن سهل المسيحي

(١٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٣٢.

(١٥) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٧٤/٣٩٤ ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٣٠.

(١٦) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٧٠/١٩٠.

صاحب بمارستان جنديسابور المتوفي سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م. وله كتاب في الصيدلة. مؤلف من ٢٢ باباً، وقد اعتمد عليه حتى القرن السادس الهجري/الثالث عشر الميلادي حيث ظهر كتاب ابن التلميذ.

ويقول ابن تغري بردي^(١٧) ان ثابت بن قرّة الذي أسلم على يد الخليفة القاهر بالله العباسي (٣٢٠ هـ - ٩٣٢ م) وعاش حتى عام (٣٣١ هـ - ٩٤٢ م)، وتقلد مارستانات بغداد الخمس عام ٣٠٤ هـ/٩١٦ م، وبنى عام ٣٠٦ هـ/٩١٨ م مارستانين كبيرين أحدهما للخليفة المقتدر العباسي (ت ٩٠٨ م) وخصص له مائتي دينار شهرياً، والثاني ستمائة دينار شهرياً، واقام مارستاناً ثالثاً للوزير ابن الفرات ببغداد عام ٣١١ هـ/٩٢٣ م وخصص له مائتي دينار شهرياً. وبنى مارستاناً رابعاً عام ٣٢٩ هـ/٩٤٠ م.

وخصص الخليفة المقتدر للسجناء اطباء يزورونهم في سجنهم، يتفقدون حالتهم الصحية ويعطونهم الادوية، وقد أرسل أطباء للفلاحين في سواد العراق وقال ابن ابي أصيبعة^(١٨) ان عدد المتطبيين بلغ سنة ٣١٩ هـ/٩٣١ م (٨٥٠) رجلاً.

وهنا لا بد من الذكر انه بفضل الخلفاء وبذخهم المال الوفير وتشجيعهم للأطباء وخاصة النصارى واليهود والصابئة الذي برز منهم اشهر الاطباء واقواهم ليس على صعيد الطب فحسب بل على صعيد تشجيع العلوم ككل. فيقول المسعودي^(١٩) ان الخليفة الواثق^(٢٠) جمع الفلاسفة والمطبيين، وجرت

(١٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٣ ص ١٩٣.

(١٨) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٣٠٠، القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٧٤.

(١٩) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٧٧.

(٢٠) الواثق بالله: تاسع الخلفاء العباسيين (٨٤٢-٨٤٧ م) ابن المعتصم (٨٣٣-٨٤٢ م) واخو المتوكل (٨٤٧-٨٦١ م) اخذ بمبدأ المعتزلة في خلق القرآن، كاييه، وعمه الخليفة المأمون.

المنافرة بحضرته وسألهم هل ان صناعتهم هي من الحسن ام القياس، والسنة ام العقل. أم كما يذهب اليه حكام الشريعة، وقد حضر هذا المجلس اشهر الاطباء النصارى ابن بختيشوع وابن ماسويه وميخائيل وحنين بن اسحق وسلمويه، وان حنينا اجاب على عدة اسئلة، ووضع في كل اجابة كتاباً سماه المسائل الطبيعية، وقد تعجب الوراق من اجابته ومن بعض هذه الاسئلة، فما الاشياء الصغيرة للهواء قال حنين: خميس وهي أوقات السنة، وطلوع الكواكب وغروبها والرياح والبلدان والبحار. واجاب ان أوقات السنة هي الربيع والصيف والخريف والشتاء.

وان الخليفة المأمون لعب دوراً بارزاً في هذا المضمار من التشجيع وامتحان مختلف الاطباء والعلماء والمترجمون وكل يعد هو شخصياً. من اقوامهم على الاطلاق، اذ كان عالماً بكل شيء تقريباً ومشجعاً لكل ما يتصل بالعلم فقد قال عبد الرحمن بدوي^(٢١): انه انشأ مكتبان للمترجمين من اليونانية والسريانية والعربية في سنة ٢١٥هـ/٨٣٠م، وانه كان هناك جماعة حرة من المترجمين يعملون في طليطلة في نفس المكتبات ونفس الطريقة ونفس المنهج العلمي الغربي.

فالخليفة المأمون استطاع ان يخدم الثقافة الاسلامية، خدمة عظيمة خلال ربع قرن من إقامته في بغداد، وباهتمامه الشخصي لعلوم اليونان وان هذه الدراسات لن تنقطع عن الاديعة السريانية، في أيامه، ويقول كارل بروكلمان^(٢٢) ان تادرس (تيودوروس) المصيصي الذي أثر على تفسير الكتاب المقدس لم يكن لينال منزلته العظيمة لولا الرجوع الى مصطلحات الفلسفة

(٢١) عبد الرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي، ص ٥٤.

(٢٢) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ٢٠١ و ٢٠٢.

الارسطوطاليسية، وعلى الرغم من ان المسائل الفكرية كانت في يد رجال الدين السريان والرهبان، فقد لاقت العلوم الرياضية والطبية اهتماماً بالغاً في ذلك العصر، وان اكثر المؤرخين طالعونا بدرر وافية وعظيمة من الاطباء الذين نبغوا في العصر العباسي وخاصة من المسيحيين منهم نالوا منزلة العظيمة الى جانب المسلمين وقد تفوقوا في بعض الاحيان بطبهم ومهارة صناعتهم وعملهم مع تصانيفهم لاكثر الادوية.

يقول ابن ابي اصيبعة^(٢٣) إنهم نالوا اكبر العطايا والهدايا الثمينة والنادرة، وأعلى المراكز في القصور فغدوا كأنهم من اهل القصور الاصلين، وان زعيم هذه الاسرة هو جيورجيس بن بختيشوع أمهر اطباء العائلة واذكاهم على الاطلاق.

قال القفطي^(٢٤) ان المنصور عندما أصابه المرض أحضر اليه جيورجيس، وكان رئيس أطباء جنديسابور، فاعجب به الخليفة. وقد خلفه ابنه بختيشوع بن جيورجيس واصبح طبيباً للخليفة هارون الرشيد، وشفى المنصور على يديه ووضعه رئيساً لأطبائه.

وقال عنه ابن النديم^(٢٥): ان شهرته فاقت الوصف، وميزت الخلفاء، والملوك. وبرع الى جانبه جبرائيل بن بختيشوع بعد خدمته للأمين والمأمون وبراعته في صناعة الطب. نال المنزلة العظيمة لديهما اذ كان راتبه يزيد على ٧٠٤ ألف مليون درهم سنوياً، ويجاريه القفطي في ذلك مزيداً على ذلك انه ربح من الرشيد ما يزيد على ٨٨٠ الف مليوناً ما عدا الاملاك غير المنقولة بعد ان شيد مارستان شبيه بمارستان جنديسابور الطبي.

(٢٣) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ١٦١.

(٢٤) القفطي، أخبار الحكماء، ص ٧١-٧٢.

(٢٥) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٩٨. القفطي، أخبار الحكماء، ص ٧٣.

ويتابع القفطي^(٢٦) واصفا مهنة الطب بأنها صناعة تغني صاحبها مذكراً باصول آل بختيشوع على مرّ العهود في الدولة العباسية ومكانتهم العظيمة لدى الخلفاء وبين الاطباء المسلمين. وقال ان جبرائيل بن بختيشوع كانت ثروته تفوق الخيال إذ بلغت ٨٨٠ مليوناً و ٨٠٠ الف درهم. لقاء زيارة الرشيد مرتين في السنة للاضطلاع على صحته كان يتقاضى ١٠٠ الف درهم سنوياً ومثله لاعطاءه المسهل.

ويقول ابن كثير^(٢٧) في كتابه انه لعظمة الاطباء عند الرشيد وعدم استغنائه خصوصاً عن طبيبه جبرائيل بن بختيشوع كان يفرض عليه مرافقته في معظم أسفاره ورحلاته وحتى في مواسم الحج حتى انه كان لا يفارقه لحظة واحدة وهو الذي تنبأ بموته بعد ان عرض عليه حلمه في احدى رحلاته.

وقال حسن ابراهيم حسن^(٢٨) ان المعاهد العلمية او البيمارستانات إعتمدت على النظام الاجني للمعاهد ولا سيما السريانية لانها كان بها الغلبة في ذلك العصر وان المسلمين هم الذين اقتبسوا فكرة بيمارستان، واذا كان وزير البيمارستان سريانيا يسمى بالساعور ومعناها بالسريانية متفقد المرضى واذا كان مسلماً سمي "رئيس الاطباء".

وهنا لا بد لنا من القول بان كثيراً من المترجمين كانوا بالاضافة الى ذلك أطباء ونقله كيميائيين فاشتهر كثيراً منهم بهذه الصنعة الذي ازدهر بها العصر العباسي، والتي كانت قد اوصلته الى أرقى العصور بفضل الاهتمام البالغ من قبل الدولة وتشجيعها إذ ان معظمهم كانت لهم الميول في السير بهذه الطريقة والذين جنوا من ورائها الاموال الباهظة، بالاضافة الى الحصانة الشخصية

(٢٦) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٤٣.

(٢٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢١٣.

(٢٨) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام، ص ٣٨٨.

ونيلهم أعلى المراكز والمكانة المرموقة ضمن عظماء الدولة العباسية، فكان من أبرز هؤلاء يوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحق الاول كان طبيباً وتلميذاً لجبرائيل بن بختيشوع، وقال ابن ابي اصيبعة^(٢٩) انه عندما احتاج الى جثث الاموات لتشريحها - والشرع الاسلامي يمنع ذلك - عمد الى تشريح القردة، من التي أهداها ملك النوبة للمعتصم سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م، ويؤكد ذلك المنزلة العظيمة وخاصة التي نالها يوحنا بن ماسويه. وقال عنه فيليب دي طرازي^(٣٠) في كتابه "عصر السريان الذهبي"^(٣١) والذي وصفه باعظم رئيس مدرسة في بغداد والتي استقطبت عدداً هائلاً من الطلاب، ووصف ايضاً "حنين بن اسحق" بانه شيخ تراجمة الاسلام ورئيس الفلاسفة والاطباء.

ويؤكد ما قاله طرازي القفطي^(٣٢) انه نال المنزلة العظيمة والشأن القدير، اذ قلده الرشيد ادارة اكبر مدرسة في عاصمة الخلافة، كما انه اوكل له تعريب الكتب الطبية، وكان جليس كل مجلس علمي يجادل ويجمع بأفضل الالفاظ وادق المعاني، فقد اغدق عليه اكثر الخلفاء العباسيين الاموال الباهضة ووضعوه في المكانة التي كان يستحقها ويعود ابن ابي اصيبعة^(٣٣) قائلاً: له اعداد كبيرة من المؤلفات الطبية، اذ كان له عدة مصنفات جليلة أشهرها (كتاب في اسباب السويداء وكيفية علاجها)، و(كتاب في الحمى) وهي خلاصة مذاهب الطب لدى الاطباء المسلمين والمسيحيين. وكتاب الجذام والجراحة.

(٢٩) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ١٧٨.

(٣٠) فيليب دي طرازي (١٨٦٥-١٩٥٦) اديب سرياني كاثوليكي - مؤسس المكتبة الوطنية في بيروت. له "تاريخ الصحافة العربية" و"السلاسل التاريخية" و"اصدق ما كان في تاريخ لبنان" وغيرها من المؤلفات التاريخية.

(٣١) فيليب طرازي، عصر السريان الذهبي، ص ١٥-١٦.

(٣٢) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٤٨.

(٣٣) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ١٧٥ و ٢٢٢.

والطبيب سابور بن سهل وضع أيضاً رئيساً لأطباء جنديسابور نظراً لمكانته العلمية والطبية في ذلك العصر، إذ كان له مصنفات علمية بارزة اعتمد عليها في التدريس اعتماداً بالغاً منها "الاقرباذين" اعتمد عليه كثيراً من الأطباء في مزاولتهم لهذه الصناعة.

ومن يحمل مراجعاتنا لا ننسى بأن ثابت بن قرة وعلي بن عيسى نالا المرتبة العظيمة أيضاً في بلاط الخلافة، فالاول وضع لامتحان الأطباء وانتقاء الافضل منهم سنة ٣١٥هـ/٩٢٧م وطرده من يرسب في ذلك الامتحان، فأجيز ٨٦٠ بالعمل كأطباء وطرده الباقي وتخلصت البلاد من الأطباء الدجالين^(٣٤).

والثاني هو اكبر كحالي العرب على الاطلاق، إذ كان له المنزلة المرموقة عند المعتمد رغم انه كان من اطباء المركز الثاني وله ٣٢ كتاباً بالعربية، في علم الرمد أفضلها (تذكره الكجالين)، والذي قال عنه فيليب حتى انه ما زال محفوظاً بنسخته الاصلية ولم يسبقه سوى رسالة ابن ماسوية، ورسالة حنين بن اسحق، والتي نقلت من العربية الى العبرانية مرة واحدة الى اللاتينية مرتين ولا تزال مستعملة في الشرق ولكن من يحمل هذه الصناعة وتصنيفاتها وتعداد مرضها يطالعنا المؤرخ اسكندر معلوف بمعلومات موضحاً في كتابه نوع هذه الامراض ومن اشتهر بها في تلك الحقبة ومن ترجمها^(٣٥).

الحميات:

إشتهر بها كثير من الأطباء، وترجم كتبها حنين بن اسحق وهي لجالينوس ويوحنا بن حبرائيل وللرازي ولاسحق بن سليمان الاسرائيلي وليحيى بن ماسويه ولعلي بن يحيى الوالي ولابن هبة الله.

(٣٤) فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ٤٣٩.

(٣٥) اسكندر معلوف، تاريخ الطب عند العرب، ص ٢٤ و ٥١.

طب الاسنان

اشتهر بعضهم في معالجتها وشدّها بالذهب، وكان ابن بطلان قد ذكر في كتابه حفر الاسنان، ووصف دواء لتنظيفها، وقال أن مضارها يأتي اذا اخذ ماء بارداً بعد شيء رطبٍ وخاصة السكر، وان الحلوة اكثر المضار للاسنان.

التشريح والجراحة

لم تشتهر في عهد المسلمين، اذ كانت محظورة وابدلوها بمص الدم بالفم على الطريقة اليونانية استعملوا الرصاص الذائب والسكين المحمية بالنار في بتر الاعصاب، ومن هؤلاء الجراحين جبرائيل بن بختيشوع، وابي الحسن بن نفاخ الذي كان زمن عضد الدولة^(٣٦)، وابو الخير بن ابي الفرج بن ابي الخير الطبيب النصراني سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م.

(٣٦) عضد الدولة: سلطان بويهى، ابن الحسن ابن بويه وأحد الاخوة الثلاثة الذين لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الامبراطورية الاسلامية العباسية. ضمّ العراق وفارس في دولة موحدة انحلت بعد وفاته بسبب الخلافات بين ابنائه عام ٩٨٣م.

الاطباء وعلاقتهم بالخلفاء العباسيين

لا بد لنا من التوضيح ولو ببندة موجزة عن الاطباء النصارى، وعن بروزهم الطبي وقدرتهم في هذه الصناعة وما كان لهؤلاء من أثر بالغ في تخريج جيل ماهر من الاطباء المسلمين والمسيحيين على حدّ سواء. وحتى لا يطول الكلام نورد بعضاً من اشهر ما برز منهم وكان له علاقة بالخلفاء، وممارسة مهنتهم في المعاهد والبيمارستان، فمن الحقيقة القول ان الطب في ذلك العصر اشتهر ووصل الى المرتبة العليا التي مرّ ذكرها معنا. ومن اشهر اولئك الاطباء:

جيورجيس بن جبرائيل:

كان ذا مكانة مرموقة بالطب ومعرفة بالمداداة وانواع العلاج، خدم المنصور واصبح من اكبر ندمائه، له منزلة عنده، نال من جراء ذلك اموالاً باهظة بالاضافة الى هذا، كان من اشهر النقلة، اذ نقل كثيراً من الكتب الى اللغة العربية من اللغة اليونانية، تعرّف عليه المنصور اثناء مرضه الذي أصاب معدته^(٣٧). وفشل الاطباء في مداواته فأرشد اليه، وفي وقتها كان رئيس اطباء جنديسابور، وكان من أمهر اطبائها على الاطلاق، قدم الى المنصور قسراً (اي عنوة) في بادئ الامر واصطحب معه تلميذه ابراهيم بن شهلا^(٣٨).

في سنة ١٥٢هـ/ ٧٦٩م مرضى جيورجيس مرضاً فاهتم به الخليفة اهتماماً بالغاً، وكان يرسل اليه كل يوم من يخدمه، ولما اشتد به المرض طلب من الخليفة ان يذهب الى اهله ويدفن هناك فاقرّ له ذلك بعد ان اوصى ان يدفن بين اهله اذا توفي في الطريق، ولجورجيس كتاب في الكناشة، نقله حنين بن اسحق من السريانية الى العربية^(٣٩).

(٣٧) كان قد استقدم اشهر اطباء الهند الذي تنبأ بموته لشراسته في الطعام.

(٣٨) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ١٨٣ و ١٨٤.

(٣٩) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ١٨٥ و ١٨٦.

ويقول ابن النديم^(٤٠) انه ظل محافظاً على نصرانيته رغم الحاح الخليفة ابو جعفر المنصور وتشجيعه له على اعتناق الاسلام قائلاً للخليفة (اني رضى حيث آبائي في الجنة او النار).

وقال الطبري^(٤١) عن جيورجيس انه لما قدم من السوس الى المنصور جلس الى مائدته، وقال: لا أكل قبل ان اشرب الخمر فليل له لا تشرب على مائدة الخليفة، فاخبر الخليفة بذلك فقال دعوه، وكان ذلك في قصره بباب الذهب ببغداد، فهذه الحادثة تدل دلالة واضحة على مكانته وثقته التي يتمتع بها امام الخليفة^(٤٢).

بختيشوع بن جيورجيس

كان يضاهي والده في معرفة الطب، خدم الخليفة هارون الرشيد وبرع في خدمته، ولما مرض موسى الهادي طلب ببختيشوع فمات قبل قدومه، وقبل موته جمع أطباء وهم ابو قريش وعيسى وعبد الله الطيفوري وداود بن سراييون وقال لهم تاخذون اموالي وفي وقت الشدة لا تنفعون. قال ابو قريش علينا الاجتهاد، فأمر الهادي بضرب اعناق جميع اطبائه ولكن الربيع لم ينفذ ذلك لعلمه باختلال عقله. وعندما أتى ببختيشوع ورأى حاله طمأن الاطباء انه لا يعيش ليومه وصحّ تنبؤه فمات وتخلص منه الاطباء^(٤٣).

(٤٠) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٩٦.

(٤١) الطبري، تاريخ، ج ٩ ص ٣٠٩. أحمد شلي، موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٣ ص ٧٩.

(٤٢) كثيرون كتبوا عن هذه الشخصية الطبية راجع: روفائيل بابو اسحق، احوال نصارى العراق، وأحوال نصارى بغداد.

(٤٣) ابن ابي أصيبعة، عيون الانباء، ص ١٨٦. اسكندر معلوف، تاريخ الطب، ص ١٤.

وفي سنة (١٧هـ/٧٨٧م)، أثناء مرض الخليفة الرشيد قد رجع الى بلده فداواه ابو قريش ولكنه لم يشف، فارشده الى بختيشوع فارسل بطلبه اذا كان حياً واحضر بين يديه واعجب به الرشيد، وجرى بختيشوع امتحاناً بحضور جميع اطباء الخلافة، واحضر بول بهيمة لاختباره، فلما شاهده قال هذا ليس بول انسان، فقال ابو قريش كذبت انه بول محظية الرشيد فاجابه بكل ادب ولطف يجوز ان تكون المحظية بهيمة، فقال الرشيد كيف عرفت ذلك، قال من اللون والرائحة فاجزل له العطاء^(٤٤).

توفي بختيشوع في عهد الرشيد وهو برئاسة أطباء بيمارستان بغداد، فغدا ابنه من بعده طبيب الخليفة الخاص. وقد حلت وفاته عام ٢٠٥هـ/٨٢٠م^(٤٥) ويقول ابن الاثير^(٤٦)، عن لسان بختيشوع قائلاً: دخلت ذات يوم على الرشيد وهو في قصر الخلد بمدينة السلام، فنظر الرشيد ليرى كثرة الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد البرمكي، فقال الرشيد جزى يحيى خيراً، حمل همّ الناس عني. وفي المرة الثانية رأى نفس المنظر الاول فقال الرشيد والفضل بين الربيع بين يديه، استبدّ يحيى بالامور فالخلافة له بفعلها ولي باسمها عندها علمت انه سيبيضش بهم.

ولكن رغم العلاقة الطيبة بين الخلفاء واطبائهم والتي كانت محور الحياة الاجتماعية بينهم، كان هناك ظروف تكون قاسية في بعض الاحيان وتكون مميتة في حين آخر. وتصرف على حساب الاطباء ومكانتهم ومنزلتهم في الدولة حتى ولو كان الخطأ بسيطاً في المعالجة.

(٤٤) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ١٨٧. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٠١.

(٤٥) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٠٠.

(٤٦) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٦ ص ٥٨.

جبرائيل بين بختيشوع بن جيورجيس

كان عالي الهمة والمنزلة، محظياً عند الخلفاء، حصل على أموال لم يحصل عليها طبيباً قبله، ففي سنة ١٧٥هـ/ ٧٩١م، مرض جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي^(٤٧) وزير الرشيد ومؤدب المأمون مرضاً شديداً، فأرسل له الرشيد بختيشوع ليعالجه، ولكن جعفرأ طلب منه طبيباً ماهراً يشهد عليه فاجابه بختيشوع ابني جبرائيل امهر مني وليس له مثيل بين الاطباء، فاحضر وعالج جعفرأ وشفي بين يديه، فاعجب به ووضع في خدمته. ومن المميزات التي تمتع بها انه كان يدخل على الرشيد دون إذن، وهذا لم يحصل حتى لأقرب المقرين للخليفة غير يحيى بن خالد البرمكي^(٤٨).

يقول ابن أبي اصيبعة^(٤٩) موضحاً العلاقة القوية التي كانت تنتج وتجمع الاطباء بالخلفاء وتكون لهم الركيزة لديهم، وذلك بما كانوا يؤدونه من براعة التطبيب وصنع المعجزات الطبية فكان ذلك نوعاً من جسر التقارب والاعجاب والعلاقة المميزة، فما دام الطبيب يخدم ويرع ويتفنن في صناعة الطب كان الخليفة يرفع من مكانته ويحسن العلاقة معه ويجعله محظياً مشفوعاً من كل تردد في أي مطلب يطلبه او وساطة يتقدم بها مبيناً كيف ان محظية الرشيد تسمرت أعصاب يديها بعد الجامعة فشخص هذا المرض جبرائيل بعد فشل جميع الاطباء بتشخيصه ومداواته، فاحضر جبرائيل وتحايل على المرض ليس بواسطة الدواء ولكنه برع في اخذ الحياء من الجارية، إذ عرف بان الجارية لم تكن تظهر جسمها الا على الخليفة فعمد جبرائيل الى الكشف عن

(٤٧) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٣٤.

(٤٨) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٦ ص ٥٨.

(٤٩) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ١٨٨.

عورتها بعد ان اخذ الامان من الخليفة نفسه، ومن شدة الحياء إرتخت اعضاءها واعصابها برأت من مرضها، فكان ذلك معجزة طيبة وليس سحراً. وبعد هذه الحادثة عمد الرشيد الى تعيينه رئيساً لاطباء الخلافة، ويرفع مكانته فلم يطبق البعاد عنه^(٥٠).

كل ذلك أوصل جبرائيل الى المكانة المرموقة بين القواد والوزراء إذ اصبحوا يقصدونه بكل مطلب ينوونه من الخليفة.

واثناء مرض الرشيد الذي قضى نحبه بسبب عدم الاذعان لنصائح جبرائيل في عدم التخليط بالطعام والمجاعة، وبعد ان اتخذ راهب لمداواته، كان يحرضه على جبرائيل، عمد الرشيد الى قتله، لكن الفضل انقذه باعجوبة فمات الرشيد بعد مدة وجيزة واتخذ الفضل طبيبه الخاص بعد ان شفاه من مرض خطير.

ويوضح ابن ابي اصبعة^(٥١) ان جبرائيل قدّم للامين خدمات جليلة ولكن عندما تولى المأمون الخلافة أمر الحسن بن سهل وزيره بحبسه ولكن عند مرض هذا الوزير وعجز الاطباء عن شفائه اخرج جبرائيل من السجن وبرا الحسن على يديه، فزادت منزلته ومكانته العظيمة عند المأمون خاصة عندما شفى المأمون من مرض اصابه، فكانت هذه المكانة نفسها التي منحه إياها الرشيد.

لكن ابن تغري بردي^(٥٢) يزيد توضيحاً في تلك العلاقة والمكانة بين جبرائيل والرشيد وابنائهم في انه بجميع جلساته ومقابلاته كان يذكر اسمه ويرفع من منزلته، ففي سنة ١٩٢ هـ/ ٨٠٨ م أثناء مسير الرشيد من الرقة الى بغداد

(٥٠) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٣٤-١٣٥.

(٥١) ابن ابي اصبعة، عيون الانباء، ص ١٨٩-١٩٠.

(٥٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص ١٠١.

قاصداً خراسان لحرب رافع بن الليث، استظل بشجرة وابتعد مرافقيه عنه وكشف عن بطنه فاذا بعصابة (ربطة) حرير، قال هذه اكنمها عن الناس وعلى كل واحد الا عن جبرائيل رقيب ولدي الامين.

وفي سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٩م غلط جبرائيل بمداواة الرشيد من العلة التي مات بها الرشيد فطلب ضرب عنقه، ولكن الطبيب طلب إمهاله للغد، ولكن المنية عاجلت الرشيد ونجا الطبيب من الموت.

ولكن جرائيل اثناء خدمته للأمين واطلاعه على اموره تنبأ له بالموت والانهار على يد المأمون واخذ الخلافة منه، وكان قد جمع ثروة عظيمة طيلة خدمته للرشيد مدة ثلاث وعشرين سنة الى وفاته قدّرت بما يوازي (الفان وثلاثمائة وثمانون الف درهم) ومن الخاصة (الف الف ومائة وخمسون الف درهم) ومن الثياب (الف الف ومائة وخمسون الف درهم)^(٥٣)، ومن غلّة ضياعه بجنديسابور والسوس والبصرة والسواد (ثمانية عشر ألفاً ومائة ألف درهم) ويصرّ اليه البرامكة (واحد وثلاثين الف الف ومائتي الف درهم).

فهذه الارقام الجسيمة من العملة التي كانت بحوزته بعد وفاته هي دليل واضح على تلك المنزلة والعلاقة الطيبة الرفيعة المستوى مع الخلفاء العباسيين وخاصة الرشيد والامين والمأمون فكيف يفسر ذلك وشخص يداوي الخلفاء يتمتع بهذه الثروة التي ضاهت ثروة الخليفة بالذات وحياة البرامكة بالتحديد كيف تفسّر هذه العلاقة الوثيقة التي تحكمتم بمجريات امور الخلافة على جميع الاصعدة، اذ كان لها التأثير البالغ في مجريات الامور الحياتية.

(٥٣) ابن ابي أصيبعة، عيون الانباء، ص ١٩٨-١٩٩.

بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع

كان نبيل القدر عظيم المنزلة، له الوفرة العظيمة من المال، ضاهى بها المتوكل من اللباس والفرش، ونقل له حنين بن اسحق كتباً كثيرة من كتب جالينوس الى اللغة السريانية. وحسده على هذه المنزلة محمد بن عبد الملك الزيات وزير العباسيين وابن ابي داود^(٥٤). فقلبوا الوثائق عليه فاضطهده وصادر املاكه ولكن عندما مرض الوثائق ارسل بطلبه فمات قبل ان يحضر. ويقول ابن تغري بردي^(٥٥) ان المتوكل نفاه الى البحرين حسداً من غناه ولكن بعد مرضه وشفائه على يده افرج عنه وعلا مقامه، وبدأت المؤامرات تحاك ضده فنجحت ايام الخليفة المنتصر^(٥٦) باتهامه بمقتل المتوكل ولكنه اعيد الى الخدمة في زمن المستعين^(٥٧) والخليفة المهدي^(٥٨) ارجع له كل ما صودر منه زمن المتوكل. وأمر المهدي ان يدخل بختيشوع الى خزائن بيت المال ويأخذ كل شيء يتعرف عليه بأنه له^(٥٩).

(٥٤) ابن ابي أصيبعة، عيون الانباء، ص ٢١١، القفطي، تاريخ الحكماء ص ١٠٢-١٠٣.

(٥٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ١٤٤ وابن الاثير، الكامل، ج ٧ ص ٨٥.

(٥٦) المنتصر بالله (٨٦١-٨٦٢) الخليفة العباسي الحادي عشر. تأمر مع وصيف على قتل أبيه المتوكل في القصر الجعفري في سامراء لأنه قدّم عليه اخاه المعتز في ولاية العهد (٩ كانون الاول ٨٦١) قتله الاتراك بالسّم بعد ستة اشهر.

(٥٧) المستعين بالله (ابو العباس احمد) ابن المعتصم، خليفة عباسي (٨٦٢-٨٦٦) أثار اعلانه خليفة ثورة دموية قضى عليها الجند الاتراك. انتقل الى بغداد عام ٨٦٥م. تنازل عن العرش على اثر ثورة عنيفة قام بها اعوان المعتز في سامراء. قتل في واسط.

(٥٨) المهدي بالله (٨٦٩-٨٧٠) ولد في سامراء. الخليفة العباسي الرابع عشر سعى عبثاً الى اصلاح اخلاق البلاد الفاسدة، عجز عن دفع رواتب الجند فقتل.

(٥٩) ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٠٦-٢٠٧.

ولبختيشوع خدمات جليلة للخليفة المتوكل وابنائيه وخاصة عند مرض ابنه المعتز وفشل الاطباء في مداواته وشفاه فحظي بعدها بمكانة عند المتوكل وخاصة عندما سمح له بأكل الخردل بعد ان منعه عنه الاطباء، فاطعمه إياه بختيشوع دون أي ضرر، بعد استخراج مائه وتقشيره ولم يصب بأي اذى، وفي اليوم التالي اكرمه بثلاثمائة الف درهم وثلاثين تحتاً من اصناف الثياب. مات بختيشوع عام ٢٥٦هـ / ٨٧٠م، وخلف عبد الله وثلاث بنات.

ومن نصائحه في الطب الشرب على الجوع ردئ والاكل على الشبع اردأ، واكل القليل مما يضر، أصلح من اكل الكثير مما ينفع. وله من الكتب (كتاب الحجامه على طريق السؤال والجواب)^(٦٠).

جبرائيل بن عبد الله بن بختيشوع بن جبرائيل:

خدم المقتدر، ولما مات خلفه ابنه جبرائيل واختين صغيرتين. كان فاضلاً، متقناً لصناعة الطب، جيد في أعمالها، له تصانيف جليلة في صناعة الطب، واجداده كانوا اساتذة عصرهم. لاقى الصعوبات الجمة في حياته بعد ان دخل الى بغداد مع اختيه، وكان فقيراً واخواله لا يعترفون ولا يتعرفون عليه ويلومونه دائماً مستهزئين به ومن مغامراته بلحاظه بركب اجداده في صناعة الطب^(٦١) وجبرائيل جولات طبية لها مكانة مرموقة على صعيد الخلافة، فهو تقرب من عضد الدولة^(٦٢) فاكرمه، وكان يرسله لتطبيب اقربائه وخاصة زوج خالته والي كورة جورق، فاجزل له العطاء، وكان ياخذ رزقين رسم خاص و ٣٠٠ درهم رسم البيمارستان و ٣٠٠ درهم لقاء نوبته في الاسبوع يومين وليلتين.

(٦٠) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٠٩.

(٦١) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٤٧. ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢١٠.

(٦٢) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢١٢.

وجبرائيل كان عالماً باللغة الفارسية^(٦٣) فاجزل عضد الدولة له المال الوفير، واثناء امتحانه في اجمع العلمي رتب لمناظرته خصيصاً بدأ بتعليل التعليقات واورد شكوكاً فآكرمه لذلك حتى انتهى من كتابه "الكناش" ورفع هذه الى عضد الدولة فوضعه بمنزلة تليق به. وعندما مرض ملك الديلم أرسل اليه فشفاه بعد عجز أطبائه عن ذلك. وبعد هذا غدا كأنه الطبيب الاوحد في ذلك العصر دون منازع لبراعته وقوته وتشخيصه السريع للأمراض ومعالجتها بوصف الادوية المناسبة لها.

عبيد الله بن جبرائيل بن عبد الله بن بختيشوع

هو شبل ابيه الطبيب جبرائيل بن عبد الله المار ذكره. فكان يكنى بأبي سعيد. ويعد من الأفاضل في صناعة الطب ومن اربابها المتميزين البارزين. وقد عالج عدداً عديداً من رجال الدولة وعلية القوم. وسكن في ميافرقين وعاصر الطبيب ابن بطلان.

جاء في عيون الانباء: "هو ابو سعيد عبيد الله بن جبرائيل بن عبد الله ابن بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع بن جيورجيس بن جبرائيل. وكان فاضلاً في صناعة الطب مشهوراً بجودة الاعمال فيها متقناً لاصولها وفروعها، من جملة المتميزين من أهلها العريقين من اربابها وكان جيد المعرفة بعلوم النصارى ومذاهبهم، وله عناية بالغة بصناعة الطب^(٦٤).

وجاء في معجم الاطباء: "كان ابو سعيد عبيد الله بن جبرائيل بن عبد الله بن بختيشوع بن جبرائيل، فاضلاً في صناعة الطب، مشهوراً بالجودة والاعمال فيها، متقناً لأصولها وفروعها. وكان جيد المعرفة بعلم النصارى^(٦٥)".

(٦٣) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٥٠.

(٦٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء، ١: ١٤٨.

(٦٥) معجم الاطباء، ص ٩٣-٩٤.

هذا، واشتهر عبيد الله بن جبرائيل اشتهاً لا مثيل له في التأليف، والتصنيف. ومن كتبه الكثيرة: كتاب مناقب الاطباء ذكر بين دفتيه نخبة من أحوالهم ومآثرهم. ومقالة في الاختلاف بين الألباب ألفها لبعض اصدقائه. ورسالة في بيان وجوب حركة النفس. وكتاب نواذر المسائل مقتضية من علم الاوائل في الطب. وكتاب تذكرة الحاضر وزاد المسافر. وكتاب الخاص في علم الخواص. وكتاب طبائع الحيوان وخواصها ومنافع اعضائها، ألفه للامير نصير الدولة. وكتاب الروضة الطبية في خمسين فصلاً قدمه الى الخليفة، المتقي بالله^(٦٦) وهو غريب الوضع على طريقة المنطقيين في حدوده ومباحثه، وقد قال في مقدمته انه اختصره من كتابه تذكرة الحاضر وزاد المسافر وطبعه الاب بولس سباط الحلي في مصر عام ١٩٢٧. وكتاب المطابقة بين قول الانبياء والفلاسفة على صحة الدين المسيحي ردّ فيها على اليهود^(٦٧).

جبرائيل الكحال

استخفّ به المؤمنون في بادئ الامر، الا أنه اعترف في وقت لاحق بأنه لم يرَ يوماً أخفّ من يده^(٦٨) في تطبيب العين، فقد اتخذ مراداً ومكاحلاً، ورفع من منزلته، فهو الوحيد الذي يدخل عليه بعد الصلاة دون إذن، فيغسل اجفانه ويكحل عينيه.

(٦٦) المتقي بالله العباسي (ابو اسحق) الخليفة العباسي الحادي والعشرين (٩٤٠-٩٤٤م) تولى الخلافة بعد الخليفة الراضي بالله، فرّأمام هجمات البريدي ولجأ الى الموصل مع امير الامراء ابن رائق عام ٩٤١م. كان لعبة بايدي الحمدانيين من جهة والبريدي من جهة اخرى. اعتقله توزون التركي وسمل عينيه.

(٦٧) الاسر العربية المشتهرة بالطب العربي، ص ٩٥. وكتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية للاب لويس شيخو، عدد ١٠٥.

(٦٨) ابن ابي اصبعة، عيون الانباء، ص ٢٤٢.

يقول اقفطي^(٦٩) ان بعد هذه الشهرة قلّت منزلته بسبب قوله لياسر ان المأمون يغطّ بنوم عميق، وكان لديه موعد لمقابلته، فتخلّف عنه، وعاد الحسن خادمه بسبب مرضه. فلما سأله المأمون عن غيابه قال: اخبرت بأن امير المؤمنين نائم، فقال، من اخبرك بذلك. قال جبرائيل، فطلب احضاره وقال له: اني استخدمتك كحالاً وليس عاملاً للاخبار عليّ. اخرج من داري. وخصص له مئة وخميسن درهماً شهرياً، ولم يسمح له بالدخول على المأمون حتى توفي.

إسرائيل بن زكريا الطيفوري

كان والده وجده طبيبان مشهوران وكان جدّه متقدماً قوياً في صناعة الطب حاذقاً، يكنى بعبد الله ولقب الطيفوري لانه كان طبيباً لطيفور مولى الخيزران أم الهادي والرشيد، فقد كان أعلى مكانة عند الهادي، فاعجب به لصمته وطلعته البهية. أما اسحق بن حنين فقد نقل له عدة كتب^(٧٠).

اشتغل إسرائيل طبيباً عند الفتح بن خاقان بعد ان كان في خدمة الافشين إذ برع وتقدم في صناعة الطب واصبح ذو مركز مرموق عند الخلفاء والملوك واعتمد عليه المتوكل اعتماداً كلياً، وقال عنه اسحق الرهاوي: استحم المتوكل دون إذنه فغضب وافتدى المتوكل غضبه بثلاثة آلاف دينار وضيعة تعطيه سنوياً خمسين الف درهم، وبالحاج الفتح المستمر على المتوكل لرفع منزلته جعله في منزلة بختيشوع فعظم قدره، وكان يسير وراءه القواد بمواكبهم لزيادة تعظيمه، وقد أهدها الخليفة قطعة ارض بسرّ من رأى^(٧١).

(٦٩) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٥٢.

(٧٠) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢١٨-٢١٩. ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٢٠ و ٢٢٤.

(٧١) القفطي، تاريخ الحكماء ص ١٨٩. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٥. ابن ابي اصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٢٥.

سلمويه بن بنان:

طبيب المعتصم والافضل حفظاً، والمفضل في حياته. ومن كثرة تعلقه به قال لما مات سلمويه قال إني سألته به لانه كان حياتي وحيويتي ومدبر جسمي، ولما اعتلى الخلافة اختار سلمويه طبيباً خاصاً له^(٧٢) وذلك سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م.

يقول ابن ابي اصيبعة^(٧٣) انه من كثرة اعجابه به كان يرُدّ الدواوين التي لم توقع من سلمويه، كما ان جميع رسائل المعتصم كانت بخطّ يده. وزيادة على ذلك ولّى اخا سلمويه ابراهيم بن بنان خزن بيوت المال في البلاد. وخاتمه مع خاتم امير المؤمنين. بقي على نصرانيته وظلّ مواظباً على دينه ليحتسي الخمر بكثرة، ولكن سيرته حسنة فهو يميل الى الرأي والمجادلة في اعطاء الحق.

قال المعتصم ذات يوم ليوحنا بن ماسويه، ان لسلمويه اكبر منزلة عندي من قاضي القضاة فهو حاكم نفسي.

وقال عنه اسحق بن حنين، انه اعظم وأعلم زمانه في صناعة الطب. ناداه المعتصم (بأبي). ولما مات^(٧٤) بكى المعتصم بكاء شديداً، واوصى من بعده للمعتصم الطبيب يوحنا بن ماسويه، وأمر المعتصم باحضار جنازته الى داره ليصلّى عليها على الطريقة النصرانية بالبخور والشموع. وتوفي المعتصم بعده بعشرين شهراً.

(٧٢) القفطي، تاريخ الحكماء ص ١٩٦. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٥.

(٧٣) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٣٤.

(٧٤) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٠٧.

يوحنا بن ماسويه:

كان له من الذكاء ما يحسد عليه بصناعة الطب، له عدة تصانيف طبية مشهورة، ومحظياً عند الخلفاء والملوك. مسيحي المذهب، خدم الرشيد فولاً ترجمه الكتب الطبية القديمة^(٧٥)، ودراستها عندما وجدها بانقرة، وعمورية وسائر بلاد الروم، ووضع بين يديه كتاباً لمعاونته كما وضعه أميناً على الترجمة وطالت خدمته للأمين والمأمون الى أيام المتوكل، وارتقى المنزلة العظيمة عند بني هاشم وعظم قدره ببغداد.

قال عنه ابن النديم^(٧٦): هو أبو زكريا يحيى بن ماسويه، كان عالماً مصنفاً خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل. له من الكتب (الكمال والتمام) (الكمال) (الحمام) (رفع ضرر الاغذية) (الاسهال) و(علاج الصداغ) (السدر والدرار) (لم امتنع الاطباء عن علاج الحوامل في بعض شهور حملهن) (محنة الطبيب) (محبسة الورق) (الصوت واليمه) (علاج النساء اللاتي لا يجبلن) (السواك والسنونات) (اصلاح الادوية المسهلة) (القولنج).

اكتسب يوحنا بن ماسويه من صناعة الطب الف الف درهم وقد كان مجلس يوحنا أعمر المجالس بمدينة السلام يحضره جميع الاهل من العلم والمعرفة. وكان حاد الطبع، ضيق الصدر، اراد المتوكل ذات مرة اختياره فاحضر قارورة فيها بول بغل واعطاها للخادم ليقدمها ليوحنا ليعطي رأيه، ففحصها يوحنا وقال فوراً "هذا بول بغل" فسأله المتوكل كيف عرفت ذلك؟ قال ماسويه، احضر صاحبه حتى تعرف كذبي من صدقي، فاحضر الغلام صاحب البول، سأله ماسويه عما اكل البارحة، قال خبز وشعير وماء قراح فقال ابن ماسويه، والله هذا اكل بعيري اليوم^(٧٧).

(٧٥) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٨٠.

(٧٦) ابن النديم، الفهرست ص ٣٥٤. ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٥٥.

(٧٧) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٥٣.

قال المسعودي^(٧٨): ان المعتصم كان دائم المشورة له لذلك كان يحتفظ ببنية قوية ولكنه عندما خالف مشورته، ضعفت صحته، فقال ابن ماسويه انه اكل السمك بعد ان اتخذ صباغاً في الخل والكرابيا والكمون والسذاب والكرمس والخردل، وكان في اغلب الاحيان يعطيه اكلأ ملطفاً خالياً من الحماويات حفاظاً على صحته ولكن المعتصم عندما يأكل شيئاً حامياً يقول هذا بغير علم ابن ماسويه.

ميخائيل بن ماسويه:

هو أخو يوحنا بن ماسويه^(٧٩) كان طبيباً للخليفة المأمون، قوي المزاج لا يؤمن باحد من المتطبيين ولا يوافقهم على شيء وكان تطبيبه مخالفاً لمعظم الاطباء، لا يستعمل السكنجين والورد الحربي الا بالعسل، ولا يستعمل الجلاب المتخذ بماء الورد، ويأخذه من الورد المسلوق بالماء الحار فلا يضع عليه السكر.

قال القفطي^(٨٠) كان لا يقرأ حرفاً بلسان غيره ولكنه عرف الامراض وعلاجها بالرؤية والمباشرة وخبرته في الادوية. فآخذه جبرائيل بن بختيشوع واحسن اليه فكان المأمون لا يشرب دواء الا من تركيته بعد ان اكرمه غاية الاكرام. الى جانب ذلك كان المتطبيين في مدينة السلام يعلون من شأنه زيادة عن اللزوم لم تكن لغيره من الاطباء.

(٧٨) المسعودي، فروج الذهب، ج ٢ ص ٣٦٦.

(٧٩) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٥٥.

(٨٠) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٢٩.

حنين بن اسحق:

هو أبو زيد حنين بن اسحق العبادي الطبيب المسيحي. كان تلميذاً ليوحنا بن ماسويه، وطبيباً حسن التصرف في التأليف والعلاج ماهراً في صناعة الكحل. قال عنه ابن خلكان^(٨١) انه ممن برز في صناعة الطب، كل وقته كان يصرفه بتقوية هذه الصناعة، ونقل كثيراً من الكتب اليونانية الطبية الى العربية وترجم كتب أفليدس ونقحها من بعده ثابت بن قره.

قال عنه القفطي^(٨٢) انه فصيح اللسان في العربية واليونانية، فهو من جملة المترجمين لكتب الحكمة واستخراجها من السريانية الى العربية، وازافة الى ذلك كان طبيباً جعله المتوكل اميناً للترجمة ادخل كتاب العين الى بغداد وكان يراجع ما كتبه وترجمه المترجمين ويتفحصه بدقة لتصحيحه، استخدمه يوحنا بن ماسويه^(٨٣) قبل ان يلمع نجمه مترجماً لمصنفاته الطبية وكان عضواً في مجلسه العلمي، اذ كان يقرأ على يوحنا بن ماسويه كتاب فرق الطب المكتوب باللسان الرومي، وكان حنين كثير الاسئلة، في مجلس يوحنا نظراً لهدفه البعيد في حب الاطلاع على أدق المعلومات الطبية. وكان في بعض الاحيان يعطي ليوحنا الاجابة المسبقة، وعند سؤاله ليوحنا عن شيء يجيبه بانه سيعرف لاحقاً ويتضايق من كثرة اسئلته قائلاً له ما لأهل الحيرة ولتعلم صناعة الطب. فهذا دليل واضح على نباهته عندما كان تلميذاً في مجلسه يحب الطب وصناعته بالازافة الى الترجمة والتي برع فيها الى حد كبير. ويقول ابن النديم^(٨٤): انه كان كثير التجول في البلدان بحثاً عن الكتب ليترجمها فهو من نصارى الحيرة،

(٨١) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ١ ص ١٦٧.

(٨٢) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٧١.

(٨٣) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٥٧.

(٨٤) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٢. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٧٣.

اذ وصفه بالفصاحة، باللغة اليونانية والسريانية والعربية واكثر نقله لبني موسى. توفي سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م.

له عدة كتب ترجمها منها^(٨٥): (احكام الاعراب على مذاهب اليونانيين) و(المسائل في الطب للمتعلمين)، وزاد فيها تلميذه الاعسم. (كتاب الحمام) و(كتاب اللبن) و(كتاب الاغذية) ثلاث مقالات و(علاج العين) و(تقاسيم على العين) و(اختبار ادوية العين) و(علاج امراض العين بالحديد) و(آلات الغذاء) و(الاسنان والثثة) و(المياه) و(تدبير الناقة) و(معرفة اوجاع المعدة وعلاجها) و(المدّ والجزر) و(كيف صارت مياه البحر مالحة) و(الالوان) و(في الميول على طريق المسألة والجواب) و(المولدين لثمانية اشهر) و(الزئبق) و(القيء على طريق المسألة والجواب) و(قاطيفورياس على راي مسطيوس) و(رسالة الى الطيفوري في قرص الورد) و(القروح) و(الآجال) و(تولد النار بين الحجرين) و(تولد الحصاة) و(اختبار الادوية الحجرية) و(الى ابن المنجم في استخراج كتبه) و(كتب جالينوس).

وبالنسبة لقوة ترجمته ولصحة ما يورده من معلومات دقيقة وصحيحة نقلاً عن اغلب الكتب الاجنبية نال المنزلة والمركز المرموق لدى الخلفاء العباسيين حتى قيل ان المامون كان يعطيه من الذهب مقدار ما ينقله من الكتب لذلك كان خطه كبيراً لأخذ الذهب بدلاً من الورق، وكان يساعده جماعة من النقلة، وكان لحنين ولدان داود واسحق، فقد صنف لهما كتباً طبية في التعليم ونقل لهما كثيراً من كتب جالينوس^(٨٦).

ويقول القفطي^(٨٧) ان حادثة اودت بحياته عندما خرج المتوكل يوماً برفقة حنين والطيفوري ودار الجدل بينهما حول الخمار، وان الشمس لا

(٨٥) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٣.

(٨٦) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٦٠-٢٦١.

(٨٧) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٧٢.

تضر به، وبعد المجادلة، تدخل المتوكل واعطى الحق لحنين، فغمّ الطيفوري، وبعد مدة وجد بين كتب حنين صورة للمسيح مصلوباً وحوله أناس فقال له الطيفوري ابصق على هؤلاء فامتنع بحجة انها صورة فعلم المتوكل بذلك مع الجاثليق والاساقفة فسلخوا عن ذلك واوجبوا لعن حنين فلعن واصبح المتوكل لا يقبل دواء من حنين الا بعد اشراف الطيفوري عليه، فعاد الى داره ومات غمّاً من ليلته وقيل انه شرب سمّاً للتخلص من حياته التي باتت صعبة^(٨٨).

ولكن المسعودي^(٨٩) يورد في كتابه انه اشتهر في علم المواد السامة، وان المتوكل أراد امتحانه في بعض الاوقات طالباً منه دسّ السمّ لأحد أعدائه فامتنع عن ذلك فحبسه، عندها قال للمتوكل مستنداً الى القرآن الكريم بأنه يأمر بعمل الخير حتى الاعداء^(٩٠)، مضيفاً بان صناعته الشريفة تأبى عليه ذلك، وقد اعجب الواثق يوحنا لشفاء الفم والاسنان وانواعها وعددها ووظيفة كل منها. فطلب منه ان يصنّف كتاباً بذلك فكان له كما اراد وجعله ثلاث مقالات يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل والالاد والجسد.

(٨٨) لكن القصة تأتي مغايرة تماماً عما ورد اعلاه اذ ان الطيفوري يوشي بحنين عند المتوكل بحيلة ذّبرها للايقاع بحنين الذي يجلب غضب الجاثليق فيقطع زناره ويطرده من الشماسية ويسجن الا ان رؤيا يراها الخليفة تكشف الحقيقة فينقلب السحر على الساحر فيعاقب الطيفوري ويعتق حنين.

(٨٩) المسعودي، مروج الذهب، ص ٣٦٤-٣٦٦.

(٩٠) الرواية الصحيحة تقول غير ذلك اذ تروي انه بعد سجن حنين لمدة عام كامل لامتناعه عن صنع السمّ، اوقفه المتوكل بين السيف والنطع وطلب منه صنع السمّ، عندئذ هش له الخليفة موضحاً له انه كان يرغب باختباره، وعندما سأله عن سبب امتناعه قال حنين انهما امران الدين والصنعة، الدين يأمرنا بمحبة الاعداء - بحسب قول السيد المسيح احبوا عداكم - والصنعة توصينا بمعالجة الاجساد وليس بقتل النفوس عندئذ فرح الخليفة وكافاه وجعله رئيساً لاطباء بغداد.

حَبِيش بن الحسن الأعسم:

مسيحي الديانة، نسطوري المذهب، يُكنّى حبّيش بن الحسن الدمشقي، وهو ابن اخت حنين بن اسحق الأنف الذكر، ومن تلاميذه المتفوقين والمجلّين في صناعة الطب.

قال ابن النديم^(٩١): انه كان من ابرع تلاميذ حنين في النقل من اللغة السريانية الى العربية، نال المركز المرموق والعظمة العالية، فكان يرضى عنه في عمله ونقله وحسن لغته، ويضيف قائلاً انه ليس له من الكتب سوى ما نقل وبزيادة كتاب واحد "الزيادة في المسائل لحنين".

ولكن ابن ابي اصبيعة^(٩٢) يضيف قائلاً: انه كان بارعاً على يد حنين في صناعة الطب وكان يسلك نفس طريقة حنين في النقل والترجمة وفي نفس الكلام والاموال، ولكنه قصر عنه في بعض الاحيان ويتابع ذاكرة انه ذكي مطيع غير انه لا يجتهد بحسب ذكائه.

إسحق بن حنين:

يكنّى بابي يعقوب اسحق بن حنين بن اسحق العبادي، سار مسار ابيه في النقل والمعرفة باللغات وفصاحة اللسان، وقد تقدّم على ابيه في المنزلة عند الخلفاء وفي النقل من اليونانية والسريانية الى العربية، كما انه افصح من والده، وقد خدم من خدم ابوه من الخلفاء، ولكن آخر أيامه انقطع للقاسم بن عبيد الله وزير المعتضد ليصبح من اقرب المقربين اليه^(٩٣)، ويصير كاتم أسرار^(٩٤). واختلف في سنة موته، فمنهم من قال ٢٩٨ هـ أو ٩١٠ م أو ٩١١ م.

(٩١) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٥.

(٩٢) ابن ابي اصبيعة، عيون الانباء، ص ٢٧٦.

(٩٣) ابن خلكان، وفيات الاعيان ج ١ ص ٦٦-٦٧. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٧.

له مصنفات كثيرة في ميدان الطب^(٩٥) نقلها من السريانية واليونانية الى العربية، اذ كانت ترجمته بلغة عربية صحيحة وذلك لأقدم الكتب الطبية. ومن مؤلفاته: (الأدوية المسهلة) و(اختصار كتاب أقليدس)، و(المقولات) و(ايساغوجي) و(اصلاح جوامع الاسكندرانيين) و(في النبض) و(كتاب آداب الفلاسفة، ونوادرهم في التوحيد)^(٩٦).

سعد بن توفيل:

مسيحي الديانة، وطبيب أحمد بن طولون^(٩٧) الخاص^(٩٨)، كان يكثر من اكل لبن الجاموس فسأله طبيبه (اي سأل احمد بن طولون) مرة ما الرأي الصواب في ذلك، اجابه لا تقرب الطعام اليوم وغداً، فلم يسمع كلام طبيبه فاكل خردلاً بشهية فعاوده الاسهال وضعفت بنيته، وعندما عاد الى مصر من انطاكية استدعى الاطباء منهم الحسن ابن زيرك فقال لهم مهدداً بالقتل، فخرج النصراني واليهود بالتوراة والانجيل والمسلمون بالقرآن يدعون الى المساجد، ولما أيس من نفسه قال: يا رب ارحم من جهل مقدار نفسه وابطره حلمك عنه، ثم تشهد ومات بمصر سنة ٢٧٠هـ/٨٨٠م. وكان ذلك من نتيجة عدم مبالاته بنصائح طبيبه النصراني الذي رافقه الى انطاكية والذي

(٩٤) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٨٠.

(٩٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١١ ص ١١٦.

(٩٦) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٧٤. ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٦.

(٩٧) احمد بن طولون (ت ٢٧٠هـ/٨٨٤م) مؤسس الدولة الطولونية بمصر وسورية. قرّبه المستعين والي مصر عام ٨٦٨م. استقلّ بالحكم وانشأ "القضاء" عاصمة جديدة له بالقرب من القسطة. مدّ سلطانه على مصر وسورية والشغور والموصل بنى الجامع المعروف باسمه في القاهرة. خلفه ابنه حمويه.

(٩٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢ ص ١٤.

ضاق منه ذرعاً متوعدا انه لم يعد يرافقه في أسفاره لأنه يلاقي منه دائماً عدم المبالاة اثناء مداواته واعطائه الوصفات الطبية وحمايته عن المضرات، مات نتيجة عدم الاكتراث فكان تعب سعد بن توفيل ونصائحه تذهب أدراج الرياح ودون جدوى او فائدة.

قسطا بن لوقا البعلبكي:

فيلسوف وطبيب بعلبكي، مسيحي الديانة، دخل بلاد الروم وحصل على كثير من تصانيفهم وعاد الى الشام، ليترجم الكتب ويستخرجها من اليونانية الى العربية فكان بارعاً بعلم العدد والهندسة والنجوم والمنطق والعلوم الطبيعية الى جانب مهارته بالطب^(٩٩).

لكن ميخائيل البعلبكي وفيليب حتي^(١٠٠) يصفان مهارته وذكاءه الى جانب حذاقته بالطب انه كان يتقن عدة لغات إغريقية وسريانية وعربية، وكان بالاضافة الى ذلك فيلسوفاً بالفلك والرياضيات، فقد نقل عدة كتب اغريقية الى العربية، وترجم ١٧ كتاباً وألف ٦٩ كتاباً إثنان منهما شرح وتعليق لاقليدس، ومؤلف عن الاسطرلاب. ويقال انه توفي سنة ٩١٢م في أرمينية بعد ان تلقى دعوة من ملكها الذي اكرمه ورفع من مكانته العلمية^(١٠١).

ولكن ابن النديم^(١٠٢) يزيد من علوه واکرام شأنه ومكانته بين الاطباء والمترجمين قائلاً: يجب ان يفضل على حنين بن اسحق نظراً لفضله وبذله

(٩٩) القفطي، تاريخ الحكماء. ص ٢٦٢.

(١٠٠) ميخائيل البعلبكي، تاريخ بعلبك، ص ١٢٢. فيليب حتي، تاريخ لبنان ص ٣٢٩.

(١٠١) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٣٢٩-٣٣٠.

(١٠٢) ابن النديم، الفهرست ص ٣٥٣. القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٦٣.

وتقدمه في صناعة الطب وفصاحته باللغة العربية واليونانية، اذ كان عالماً بالطب والفلسفة والهندسة وابعاد الموسيقى.

وكان أيام المقتدر بالله العباسي قد عمل كتاب الفردوس في التاريخ، وله كتب كثيرة في صناعة الطب بعبارة متقنة وحسنة اللغة وله عدة مؤلفات اتفق على ذكرها كل من ابن ابي اصيبعة، والقفطي وابن النديم وهي:

- ١- في اوجاع النقرس.
- ٢- في الروائح وعللها.
- ٣- في الغذاء.
- ٤- جامع في الدخول الى علم الطب.
- ٥- في الاستقصات.
- ٦- في السهر.
- ٧- في النبيذ.
- ٨- في العطش.
- ٩- في القوة والضعف.
- ١٠- في الاغذية.
- ١١- في النبض والحميات واليمرنات.
- ١٢- في نخله موت النجاة.
- ١٣- في الجزء الذي لا ينجز.
- ١٤- في الحذر وانواعه.
- ١٥- ايام البحرات.
- ١٦- في الاخلاط الاربعة.

١٧- في الكبد.

١٨- في اسباب الريح.

١٩- في مراتب قراءة الكتب الطبية.

٢٠- في تدبير الابدان.

٢١- في رفع ضرر السموم.

٢٢- في المدخل الى علم الهندسة.

٢٣- في آداب الفلاسفة.

٢٤- الفرق بين النفس والروح.

٢٥- في الحيوان الناطق.

بختيشوع بن يوحنا:

هو ابن الطبيب يوحنا بن بختيشوع، وقد درس الطب على أبيه، واتقن أساليبه فاضحى لدى الخلفاء وغيرهم. واختصّ بخدمة الخليفة المقتدر بالله.

لقد نال الطبيب بختيشوع بن يوحنا من المقتدر الهبات الواسعة والنعم الوافرة والاقطاعات الكثيرة. وخدم بعد ذلك الراضي بالله (ت٣٢٩هـ/٩٤٠م) فآكرمه الاكرام كله، ووهبه العطايا الجزيلة. قال ابن العربي^(١٠٣): "ومن الاطباء الذين للمقتدر بختيشوع بن يحيى (يوحنا) وسان بن

(١٠٣) ابو الفرج غريغوريوس (١٢٢٦-١٢٨٦م) ولد في ملطية وتوفي في مراغه. من المع رجالات الادب والعلم لدى السريان. درس الطب والفلسفة في طرابلس (لبنان). اسقف حلب على اليعاقبة (١٢٤٦) ثم مفران المشرق (١٢٦٤). كتب في النحو والشعر والفلسفة واللاهوت. اشهر مؤلفاته بالعربية "تاريخ مختصر الدول" وبالسرانية "التاريخ الكنسي" و"منارة الاقداس".

ثابت بن قرّة الصائبى والد ثابت بن سنان صاحب التاريخ. ولم يكن من اطبائه اخص من هذين^(١٠٤).

وقال القفطى: "بختيشوع بن يحيى من بني بختيشوع كان طبيباً حاذقاً خدم المقتدر واختص به وارتفعت منزلته لديه واشترك في طبه هو وسنان بن ثابت بن قرّة الصائبى والد ثابت بن سنان صاحب التاريخ. ولم يكن في اطباء المقتدر اخص من هذين"^(١٠٥).

وقال ابن أبي أصيبعة: "كان عالماً بصناعة الطب حظياً من الخلفاء وغيرهم. واختص بخدمة المقتدر بالله. وكان له من المقتدر الانعام الكثيرة والاقطاعات من الضياع. وخدم بعد ذلك الراضى بالله فآكرمه واجراه على ما كان اسمه في أيام أبيه المقتدر"^(١٠٦).

ماسويه أبو يوحنا:

كان ماسويه أبو يوحنا دقاق أدوية في بيمارستان جنديسابور، وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة. غير انه كان خبيراً بمعرفة الامراض وعلاجهاء، وبانتقاء الادوية ومراهمها. وقد اتخذه جبرائيل بن بختيشوع عاملاً لديه. ولما دعي جبرائيل الى بغداد قال ماسويه: "أن أبا عيسى قد بلغ السها ونحن في البيمارستان لا نتجاوزه". فسمع ذلك جبرائيل وامر باخراجه منه.

سار ماسويه الى مدينة السلام ليطلب العفو من أبي عيسى وبقي على بابه زمناً طويلاً. بيد انه لم يصفح عنه ولم يتجاف عن ذنبه. ولما ضاق الامر بماسويه سار الى دار الروم والتمس من كاهن الكنيسة ان يزوده باجور السفر

(١٠٤) تاريخ مختصر الدول، ص ٢٧٥.

(١٠٥) اخبار العلماء، ص ٧٣.

(١٠٦) عيون الانباء، ج ١ ص ٢٠٢.

لينصرف الى بلده. فقال له الكاهن: "انت في اليمارستان منذ ثلاثين عاماً ولا تحسن شيئاً من الطب". فقال: "بلى والله أطبّ واكحلّ واعالج الجراحات" فاعطاه الكاهن صندوقاً في داخله أدوية وعقاقير واجلسه بباب الحرم عند قصر وزير الرشيد الفضل بن الربيع.

واتفق ان خادم وزير الرشيد اشتكى عينه. فارسل اليه جبرائيل بن بختيشوع كحالين فلم ينجحوا بمداواته. واخذ يشد ألمه ويزداد أرقه حتى خرج من مخدعه هائماً على وجهه من شدة الضجر والقلق. فرأى ماسويه وقال له: "يا شيخ ماذا تصنع؟ ان كنت تحسن شيئاً فعالجني والا فقم من هنا". فأجابه ماسويه: "اني احسن المعالجة واجيد في عملي" فقال له الخادم: "هلم معي". ثم دخل القصر وقلب جفنه وكحله وسكب على رأسه وسعطه. فقام الخادم وهدأ في فراشه. وفي الصباح انفذ الى ماسويه خبزاً وسميداً وحلوى ودراهم ودنانير. فجذّ ماسويه في معالجة الخادم وبرئ على يديه.

ولم يمض سوى أيام قليلة حتى اشتكت عين الفضل. فعالجه الكحالون فلم ينتفع بهم. فادخل الخادم ماسويه اليه ليلاً ولم يزل يكحله الى ثلث الليل ثم سقاه دواءً مسهلاً صلحت به حاله وهدأ باله. فعجب الفضل منه واجرى عليه في كل شهر ستمائة درهم.

وما مضت الا أيام قلائل حتى اشتكت عين الخليفة الرشيد فاخبره الفضل بماسويه واعلمه حذقه بالكحل، وقصّ عليه قصّة الخادم وما كان من أمره فاحضره الرشيد وادناه منه فنظر عينيه وقال: "الحجام الساعة". فحجمه على ساقيه وقطّر في عينه فبرئ بعد يومين. فامر بأن يجرى عليه الف درهم في الشهر.

ويذكر ان اخت الرشيد قد إعتلت فعالجها جبرائيل بانواع الادوية فلم تتعاف. فطلب الرشيد ان يحضر جبرائيل وماسويه معاً. وبعدما تلا جبرائيل

على ماسويه اعراض مرضها قال ماسويه: "التدبير صالح والعلاج مستقيم ولكنني أحتاج ان أراها". فاذن له برؤيتها. فتأملها وجس نبضها أمام الرشيد وخرجوا من عندها. فقال ماسويه للخليفة: "يا امير المؤمنين أطال الله عمرك وابقائك أبد الدهر. ان اختك تقضي بعد غد ما بين ثلاث ساعات الى منتصف الليل". فامر الرشيد ان يحبس ببعض دوره في القصر. ولما حضر الوقت المعين الذي حدّده ماسويه فاضت روحها. فلم يكن الرشيد همّه بعد دفنها إلا ان احضره، ووسع نفقته فبلغ المرتبة العالية والمنزلة السامية^(١٠٧). وكان لماسويه ولدان يوحنا وميخائيل.

ابو الفرج يحيى بن التلميذ:

كان أبو الفرج يحيى بن التلميذ جدّ هبة الله المعروف بابن التلميذ. وهو يلقب بمعتمد الملك ويستشار بقوله ويعمل برأيه هذا فضلاً عن علو شأنه في العلوم والشعر. وقد حظي بالمنزلة العالية عند الخلفاء وكبار الدولة. وقام بخدمة الادباء كابن الهباريّة وغيره. ومكث مدة في اصفهان حيث عرف بفضائله وتضلعه من صناعة الطب^(١٠٨).

قال ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الانباء: "كان معتنياً في العلوم الحكيمة متقناً للصناعة الطبية متحلياً بالادب بالغاً فيه أعلى الرتب. وكذلك كان لامين الدولة بن التلميذ جماعة من الانساب كل منهم متعلق بالفضائل والآداب. وقد رأيت بخط الاجل معتمد الملك يحيى بن التلميذ ما يدلّ على فضله وعلو قدره ونبله. وكان من المشايخ المشهورين في صناعة الطب وله تلاميذ عدة"^(١٠٩).

(١٠٧) عيون الانباء، ج ١ ص ١٧١-١٧٥.

(١٠٨) شعراء النصرانية، بعد الاسلام، ٣: ٣١٤.

(١٠٩) عيون الانباء، ج ١ ص ٢٧٦-٢٧٧.

وقال جمال الدين القفطي: كان يحيى بن التلميذ الحكيم معتمد الملك النصراني طبيب الدولة العباسية في زمانه ويستشار برأيه. وله الفضل الوافر والادب الغزير والمعرفة الكاملة واتفقت له سعادة جد حتى كسب الاموال وعاش الى آخر عهد المستظهر بالله^(١١٠).

عرف يحيى بن التلميذ بتضلعه من الطب كما عرف بتضلعه من الشعر فكان طبيباً نطاسياً وشاعراً مجيداً يتلاعب بفنون القريض ويتصرف بمعانيه المتنوعة. فمن شوقياته قوله:

اللّٰه ابقاك للدنيا وللدين ولا يخليك من عزّ وتمكين
روحي بروحك ممزوج ومتصل كل عارضة تؤذيك تؤذيني
ومما قاله في دار جديدة بناها سيف الدولة وقعت فيها النار يوم فراغه من بنائها:

يا بانيها دار العلى متلها لتزيدها شرفا على الكيوان
علمت بانك انما شيدتها للمجد والافضال والاحسان
ففاقت عوائدك الكرام وسابقت تستقبل الاضياف بالنيران^(١١١)

(١١٠) أخبار العلماء، ص ٢٣٨-٢٣٩. والمستظهر بالله (أحمد بن المقتدي) الخليفة العباسي الثامن والعشرين (٤٨٧-٥١٢هـ/١٠٩٤-١١١٨م) بدأت في عهده الحملات الصليبية وسقط بيت المقدس. كان كريم الاخلاق فاضلاً عارفاً بالآداب وباسمه ألف الغزالي كتابه "فضائح المعتزلة" ويعرف بالمستظهري.

(١١١) شعراء النصرانية، بعد الاسلام، ج ٣ ص ٣١١-٣٩٤.

هبة الله بن التلميذ

هو موفق الملك أمين الدولة هبة الله بن صاعد بن التلميذ البغدادي، وقد قرأ الطب على أهله وغيرهم من أطباء زمانه فاضحى مرجعا في صناعة المعالجة وفي مباشرة اعمالها. وسافر في اول امره الى بلاد العجم وبقي فيها سنوات عديدة. ثم رجع الى بغداد. ولما توفي جده أبو الفرج يحيى بن التلميذ المار ذكره قام مقامه^(١١٢) بخدمة الخلفاء والملوك واتخذ الخليفة المقتفي^(١١٣) طبيبه الخاص، ووهبه الهدايا، وجعل دار القوارير مجرة في اقطاعه. وبعد موته خدم ابنه الخليفة المستنجد^(١١٤).

كان ابن التلميذ ذكي الفؤاد، ثاقب الفكر، حلو الشائل، خبيراً بانواع الامراض ماهراً في تدبيرها. وقد اقيم ساعور المارستان العضدي الى حين موته مفوضاً من لدن الخليفة رئاسة أطباء بغداد ينظر في امورهم ويستقصي ما عند كل منهم من الصناعة وهم يقرون له بالفضل ويشهدون له بالعلم^(١١٥).

وكان هبة الله يحضر الخليفة المقتفي كل اسبوع مرة واحدة فيجلسه لكبر سنّه. وكانت دار القوارير قد اخذت منه في ولاية الوزير يحيى بن هبيرة.

(١١٢) شعراء النصرانية بعد الاسلام، ٣: ٣١٦.

(١١٣) المقتفي لأمر الله (محمد بن المستظهر) الخليفة العباسي الحادي والثلاثين (٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦٠م) خلف أخاه الراشد فاستقلّ باعمال الدولة وادارة شؤون الخلافة بعد ان قضى على نفوذ السلاجقة الذين كانوا يستبدّون بالسلطة منذ امد طويل.

(١١٤) المستنجد بالله (يوسف بن المقتفي) الخليفة العباسي الثاني والثلاثين (٣٣٣-٣٣٤هـ/٩٤٤-٩٤٥م) عزله معز الدولة البويهى عينيه. مات سجيناً.

(١١٥) اخبار العلماء ص ٢٢٣-٢٢٤ - وتاريخ مختصر الدول، ص ٣٦٤. ومعجم الادباء ١٩: ٢٨٦، وعيون الانباء، ج ١ ص ٢٦٠.

فحضر ابن التلميذ يوماً عند الخليفة على عادته. فلما أراد الانصراف عجز عن القيام من الكبر. فقال له الخليفة المقتفي: "كبرت يا حكيم". قال: "نعم كبراً وتكسرت قواريري" وهذا مثل يتماجن به اهل بغداد لمن عجز وبطل. ففطن الخليفة وقال: رجل عمّر في خدمتنا ما تماجن قط بحضرتنا ولهذا التماجن سرّ ثم فكّر ساعة وسأل عن دار القوارير فقليل له: قد حلّها الوزير ابن هبيرة عنه واحذها منه. فانكر المقتفي على ذلك إنكاراً شديداً وردّها اليه وزاده اقطاعاً آخر^(١١٦).

لقد بلغ ابن التلميذ مكانة رفيعة لدى الجميع واكتسب منزلة عالية عند القاصي والداني ورويت عنه أخبار ونوادر تنبئ عن حسن عشرته وكرم اخلاقه ومعالجته الطبية المشهورة. منها انه احضرت اليه امرأة محمولة لا يعرف اهلها في الحياة هي ام في الممات. وكان الزمان شتاء فامر بتجريدها وصب الماء المبرّد عليها صبّاً متتابعاً كثيراً ثم امر بنقلها الى مجلس دفن قد بخر بالعود والندّ وثمرت باصناف الفراء ساعة فغطست وتحركت وقعدت وخرجت ماشية مع اهلها الى منزلها^(١١٧).

ومن مزايا مروءته انه كان يزهد في الاجرة ويذل الاموال الكثيرة للمرضى والمعوزين الذين يزورونه. وكان يلي ظهر داره المدرسة النظامية فاذا مرض فقيه نقله اليه وقام بعلاجه وخدمته فاذا بلّ صرفه^(١١٨).

وتوفي هبة الله بن التلميذ وله من العمر اربع وتسعون سنة. وقد مات في عيد النصرى ولم يبق ببغداد من لم يحضر البيعة ويشهد جنازته.

(١١٦) وفيات الاعيان، ج ٥ ص ١٢٤-١٢٥.

(١١٧) عيون الانباء، ج ١ ص ٢٦٠.

(١١٨) وفيات الاعيان، ج ٥ ص ١٢٦.

قال عمرو بن متى في ترجمة الجاثليق يشوعيا^(١١٩) : "وفي أيامه توفي امين الدولة بن التلميذ رضي الله عنه، ودفن في الصحن الداخلي ببيعة العتيقة"^(١٢٠).

وقال ابن الازرق الفارقي في تاريخه: "مات ابن التلميذ في عيد النصرى، وكان قد جمع من سائر العلوم ما لم يجتمع من غيره. ولم يبق ببغداد من الجانبين من لم يحضر البيعة وشهد جنازته"^(١٢١).

ولأمين الدولة تلاميذ عديدون وقد بلغ عددهم زهاء الخمسين. ومن مصنفاته الطبية الاقرباذين الكبير الذي كان يحتوي على عشرين فصلاً. وبقي كتاب تدريس في البلدان العربية عدة قرون". وألف الاقرباذين الصغير المحتوي على ثلاثة عشر فصلاً، وهو موجز للاقرباذين الكبير وضع لاستعمال المستشفيات وله مختصر الحواشي على كتاب القانون للرئيس ابن سينا واختيار كتاب الحاوي للرازي وشرح جالينوس لكتاب الفصول، واختصار كتاب مسكويه في الاشربة وشرح مسائل حنين بن اسحق وغيرها. ومن كتبه الباقية الاقرباذين، والمجريات وكتاب الاقناع والمقالة الامينية في الفصد والمقطوعات من ديوانه^(١٢٢).

وكان ابن التلميذ جيد الكتابة يكتب خطأ منسوباً. وقد قال ابن ابي أصيبعة: "رأيت كثيراً من خطه وهو في نهاية الحسن والصحة"^(١٢٣). وقد

(١١٩) الجاثليق يشوعيا: راجع عنه كتاب المجدل لعمرو بن متى وماري بن سليمان.

(١٢٠) كتاب المجدل، ص ١٠٦.

(١٢١) وفيات الاعيان، ج ٥ ص ١٢٥.

(١٢٢) الطب العربي ص ١٧٦ و ٢٥٢. وكتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية عدد ١٧.

(١٢٣) عيون الانباء، ج ١ ص ٢٥٩.

خلف كتباً لا نظير في الجودة فورث جميعها ولده. وغير انه خنق في دهليز داره واخذ ماله ونقلت كتبه على اثني عشر جملاً الى دار المجد ابن الصاحب. ثم آلت هذه الخزانة. الى الطبيب ابي الخير بن المسيحي الآتي ذكره يوم كان في خدمة الخليفة الناصر لدين الله^(١٢٤).

ومن نوادره التي اوردها ابن أبي اصيبعة: "ان الخليفة كان قد فوّض اليه رئاسة الطب في بغداد. ولما اجتمع اليه سائر الاطباء، ليرى ما عند كل واحد منهم من هذه الصناعة. كان من جملة من حضره شيخ له هيئة ووقار وعنده سكنية. فاکرمه امين الدولة. وكانت لذلك الشيخ دربة ما بالمعالجة. ولم يكن عنده من علم صناعة الطب الا التظاهر بها. فلما انتهى الامر اليه قال له امين الدولة: ما السبب في كون الشيخ لم يشارك الجماعة فيما يبحثون فيه حتى نعلم ما عنده من هذه الصناعة؟ فقال: يا سيدنا وهل شيء مما تكلموا فيه الا وأنا اعلمه. وقد سبق الى فهمي اضعاف ذلك مرات كثيرة؟ فقال له امين الدولة: فعلى من كنت قد قرأت هذه الصناعة؟ فقال الشيخ: يا سيدنا (إذا صار الانسان الى هذه السنّ ما يبقى يليق به الا ان يُسال كم له من التلاميذ، ومن هو المتميّز فيهم. وامام المشايخ الذين قرأت عليهم فقد ماتوا من زمان طويل. فقال له امين الدولة: يا شيخ هذا شيء قد جرت العادة به ولا يضّرّ ذكره. ومع هذا فما علينا، أخبرني أي شيء قد قرأته من الكتب الطبية. وكان قصد أمين الدولة ان يتحقق ما عنده. فقال: سبحان الله العظيم صرنا الى حدّ ما يُسأل عنه الصبيان، واي شيء قد قرأته من الكتب. يا سيدنا لمثلي ما يقال الا أي شيء صنفته في صناعة الطب. وكم لك من الكتب والمقالات. ولا بدّ

(١٢٤) الناصر لدين الله (احمد بن المستضي) الخليفة العباسي الرابع والثلاثين، (٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م) قضى على نفوذ قادة الجيش ووضع حداً للتسلط السلجوقي. اشتهر بالحزم. وعبون الانباء، ج ١ ص ٢٥٩. وخزائن الكتب القديمة في العراق ص ٢٥٠-٢٥٢.

أن أعرفك بنفسي. ثم انه نهض الى أمين الدولة ودنا منه وقعد عنده وقال له فيما بينهما: يا سيدي اعلم انني قد شخت وأنا أوسم بهذه الصناعة وما عندي منها الا معرفة اصطلاحات مشهورة في المداواة. وعمري كله اتكسب بها. وعندني عائلة، فسألتك بالله يا سيدنا مش حالي ولا تفضحني بين هؤلاء الجماعة. فقال له امين الدولة: على شريطة وهي انك لا تهجم على مريض بما لا تعلمه، ولا تشير بفصد ولا بدواء مسهل الا لما قرب من الامراض. فقال الشيخ: هذا مذهبي منذ كنت ما تعديت السكنجيين والجلاب.

ثم ان امين الدولة قال معلنا والجماعة تسمع: يا شيخ اعذرنا فاننا ما كنا نعرفك. والآن قد عرفناك، استمر فيما انت فيه. فان احدا ما يعارضك. ثم انه عاد بعد ذلك فيما هو فيه مع الجماعة. وقال لبعضهم: على من قرأت هذه الصناعة؟ وشرع في امتحانه. فقال له: يا سيدنا انا من تلامذة هذا الشيخ الذي قد عرفته. وعليه كنت قد قرأت صناعة الطب. ففطن امين الدولة. بما أراد من التعريض بقوله وتبسم ثم امتحنه بعد ذلك^(١٢٥).

لقد اثنى الكتبة على هبة الله بن التلميذ كل الثناء وأطروا على أخلاقه كل الاطراء واطنبوا على فضله كل الاطناب، فقد دعاه عمرو بن متى في كتابه المجلد "الطبيب الغياتي"^(١٢٦). وقال ابن العبري: "أما ابن التلميذ الطبيب النصراني البغدادي ففاضل زمانه وعالم اوانه. خدم الخلفاء من بني العباس وتقدم في خدمتهم وارتفعت مكانته لديهم. وكان موفقاً في المباشرة والمعالجة عالماً بقوانين هذه الصناعة. عمر طويلاً وعاش نبياً جليلاً. وكان شيخاً بهي المنظر، حسن الرداء عذب المجتبي والمجتني لطيف الروح، ظريف الشخص بعيد الهم عالي الهمة ذكي الخاطر مصيب الفكر حازم الرأي"^(١٢٧).

(١٢٥) عيون الانباء، ج ١ ص ٢٦١-٢٦٢.

(١٢٦) كتاب المجلد، ص ١٠٣.

(١٢٧) تاريخ مختصر الدولة، ص ٣٦٤.

وقال ابن أبي اصيبعة: "هو الاجل موفق الملك أمين الدولة ابو الحسن هبة الله بن ابي العلاء صاعد بن ابراهيم بن التلميذ. أوجد زمانه في صناعة الطب وفي مباشرة اعمالها. وكان ساعور البيمارستان العضدي ببغداد الى حين وفاته" (١٢٨).

وحكى القفطي: "هبة الله بن صاعد بن التلميذ الطبيب النصراني البغدادي طبيب وقته وفاضل زمانه وعالم اوانه. خدم الخلفاء من بني العباس وتقدم في خدمتهم وارتفعت مكانته لديهم. وكان موفقاً في المباشرة والمعالجة، عالماً بقوانين هذه الصناعة، وصنف فيها عدة مصنفات" (١٢٩).

وقال ياقوت الحموي: "هو موفق الملك أمين الدولة ابو الحسن ابن أبي العلاء المعروف بابن التلميذ البغدادي الطب الحكيم الاديب. كان واحد عصره في صناعة الطب، متفنناً في علوم كثيرة، حكيماً، أديباً، شاعراً مجيداً. وكان عارفاً بالفارسية واليونانية والسريانية، ومتضلعا من العربية. وله النظم الرائقة والنثر الفائق، ونثره اجود من شعره. وكان ساعور البيمارستان العضدي، تولاه الى ان توفي. وكان حازماً في المباشرة والمعالجة، موفقاً في صناعته. خدم الخلفاء من بني العباس، وتقدم عندهم وعلت مكانته لديهم. وكان نبيه الذكر جليل القدر مرموق المكانة. وكان مقدم النصارى في بغداد، ورأسهم ورئيسهم وقسيسهم. وكان حسن العشرة، كريم الاخلاق، ذا مروءة وسخاء حلو الشمائل كثير النادرة" (١٣٠).

(١٢٨) عيون الانباء، ج ١ ص ٢٥٩.

(١٢٩) اخبار العلماء، ص ٢٢٢.

(١٣٠) معجم الادباء، ج ١٩ ص ٢٧٦-٢٧٧.

وذكره عماد الدين الاصفهاني^(١٣١) قال: "هو مقصد العالم في علم الطب، بقراط عصره، وجالينوس زمانه. ختم به العلم ولم يكن في الماضين من بلغ مداه في الطب عمر طويلاً وعاش نبياً جليلاً ورأيته هو شيخ بهي المنظر حسن الرداء، عذب المجتبي والمحتنى، لطيف الروح ظريف الشخص بعيد الهم عالي الهمة، ذكي الخاطر، مصيب الفكر، حازم الرأي شيخ النصارى وقسيسهم ورأسهم ورئيسهم"^(١٣٢).

كان ابن التلميذ خبيراً بالسريانية والفارسية واليونانية متبحراً في العربية وله شعر شائق يعرب عن لطافة طبعه. جاء في وفيات الاعيان: "وله في النظم كلمات رائعة وحلاوة جنية وغزارة بهية". وورد في عيون الانباء: "لأمين الدولة شعر مستطرق، حسن المعاني الا ان اكثر ما يوحد له البيتان او الثلاثة. وأما القصائد فلم اجد فيها الا القليل"^(١٣٣).

ومن شعره في التواضع:

تواضع كالبدر استنار لناظر على صفحات الماء وهو رفيع
ومن دونه يسمو الى المجد صاعداً سمو دخان النار وهو وضع

وقال في تأثير العلم في العاقل وفي الجاهل:

العلم للرجل اللبيب زيادة ونقيصه للاحمق الطيش
مثل النهار يزيد ابصار الورى نوراً ويفشي اعين الخفاش

(١٣١) عماد الدين الكاتب (ابو عبد الله الاصفهاني) (١١٢٥-١٢٠٠): مؤرخ من اكابر الكتاب. خدم صلاح الدين. من كتبه: "الفتح القسسي في الفتح القدسي". "فريدة القصر"، "ديوان رسائل"، "ديوان الشعر"، "البرق الشافي"، في اخبار صلاح الدين وحروبه. و"نصرة الفترة وغصرة الفطرة" في تاريخ السلجوقيين، وقد اختصره البنداري.

(١٣٢) اطلب وفيات الاعيان ٥: ١١٩.

(١٣٣) وفيات الاعيان ٥: ١١٩. عيون الانباء ١: ٢٥٩.

وقال يشكر مستوفي الممالك العزيز ابا نصر بن حامد:

لعمري ابيك الخير ليس بواحدٍ
كانهم دانوا الاله بشكرهم
هم خبروا عنه فاثنوا بصالح
وعندي بما اثبت خير المشاهد
ومن قوله في شرب الخمرة:

كاس تطفئ لهيب الأوام
وللسرور ثالث المدام
ثان بعين هاضم الطعام
والعقل ينفيه مزيد جام

وقال في ولده كان في سائر أحواله بعيداً عما عليه والده:

اشكو الى الله صاحباً شكساً
فنحن كالشمس والهلل معا
تسغه النفس وهو يعسفها
تكسبه النور وهو يكسفها

وقال وهو يتشوق الى أصحابه في بغداد:

على ساكني بغداد مني تحية
تخبرهم اني صحبت معاشرنا
تحملها ريح الشمال اليهم
سواهم فأبكاني الزمان عليهم

وقال في العزم والجد:

واظب على الجد ولا تنخدع
ولا تقل ان له موضعاً
بالهزل ان ساعدك الجد
فالهزل في موضعه جد^(١٣٤)

(١٣٤) إذا رغبت في المزيد من الايات الشعرية فراجع: شعراء النصرانية، بعد الاسلام ٣:

٣١٩-٣٣٤. وفيات الاعيان ٥: ١١٩-١٢٤. وعيون الانباء ج ١ ص ٢٦٢-٢٧٦.

صاعد بن توما:

هو أبو الكرم صاعد بن يحيى بن هبة الله بن توما البغدادي. فكان من ذوي المروءة والامانة حسن العلاج كثير الاصابة. وقد تقدم في أيام الخليفة الناصر لدين الله وحظي عنده وشارك من يحضر من أطبائه في اثناء أمراضه. ثم انزله منزلة الوزراء يستوثقه على حفظ أموال خواصه ويرسله في أمور خفية الى وزرائه. وكان كثير الوساطة جميل المحضر قضيت على يده حاجات واستكفيت شرور (١٣٥).

قال القفطي: "كان صاعد بن يحيى بن هبة الله بن توما النصراني طبيباً حسن العلاج كثير الاصابة ميمون المعانة في الاكثر له سعادة في هذا الشأن" (١٣٦).

ومدحه الدكتور ترتون المستشرق في كتابه "اهل الذمة في الاسلام" قائلاً: وقد برع امين الدولة ابو الكرم صاعد بن توما، في التضميد، وكان ثقة في اعماله حكيماً باراً، خبيراً عطوفاً على الفقراء حسن الوساطة تقضي على يده حاجاتهم. كان هذا الطبيب مقرباً من الخليفة الناصر يجعله ويوقره ويوكل اليه معالجة اهل قصره وحريمه" (١٣٧).

وقد سطر المؤرخون خبر مقتله فنقله عن تاريخ مختصر الدول لابن العبري: "وكان الامام الناصر في آخر أيامه قد ضعف بصره وادركه سهو في اكثر اوقاته. ولما عجز عن النظر في القصص استحضر امرأة من النساء

(١٣٥) فوات الوفيات لمحمد بن شاكر بن أحمد الكتي (مصر ١٩٥١) ص ٣٩٠. عيون الانباء ٣٠٢-٣٠٣.

(١٣٦) اخبار العلماء ص ١٤٤.

(١٣٧) اهل الذمة، في الاسلام ص ١٧٢-١٧٣.

البغداديات تعرف بست نسيم وقرّبها. وكانت تكتب خطأ قريباً من خطه وجعلها بين يديه تكتب الاجوبة. وشاركها في ذلك خادم اسمه تاج الدين رشيق. فصارت المرأة تكتب الاجوبة ما تريد فمرة تصيب ومراراً تخطئ. واتفق ان كتب الوزير القمي المدعو بالمؤيد مطالعة وعاد جوابها وفيه اخلال بين فتوقف الوزير وانكر ثم استدعى الحكيم صاعد بن توما وسأله عن ذلك سرّاً، فعرفه ما الخليفة عليه من عدم البصر والسهو الطارئ في اكثر الاوقات وما تعتمده المرأة والخادم من الاجوبة. فتوقف الوزير عن العمل باكثر الامور الواردة عليه. وتحقق الخادم والمرأة ذلك حدساً ان الحكيم هو الذي دلّه على ذلك. فقرر رشيق مع رجلين من الجند ان يغتالا الحكيم ويقتلاه وهما رجلان يعرفان بولدي قمر الدين من الاجناد الواسطية فرصدا الحكيم في بعض الليالي الى ان خرج من دار الوزير عائداً الى دار الخليفة فتبعاه الى باب الغلّة المظلمة ووثبا عليه بسكينهما وجرحاه وانهزما. فبصر بهما وصاح: خذوهما. فعادا اليه وقتلاه وجرحا النفط^(١٣٨) الذي بين يديه. وحمل الحكيم ابن توما الى منزله ودفن بداره في ليلته. وبعد تسعة اشهر نقل الى تربة آبائه في البيعة بباب محول. وبحث الخليفة والوزير عن القاتلين فعرفا وامر بالقبض عليهما. وفي بكره تلك الليلة أخرجا الى موضع القتل وشق بطناهما وصلبا على باب المذبح المحاذي كباب الغلّة التي جرح في بابها^(١٣٩).

(١٣٨) النفط: حامل فانوس النفط للسير في الليل.

(١٣٩) تاريخ مختصر الدول، ص ٤٢١-٤٢٢.

يوحنا بن بختيشوع:

هو من أطباء أسرة بختيشوع المار ذكرهم. وكان ابنه بختيشوع (ت ٩٤٠م) من الأطباء الذين خدموا الخلفاء العباسيين. أما يوحنا فقد خدم الموفق بالله^(١٤٠)، واهتم بمعالجته اهتماماً لا مزيد عليه فاسماه "مفرج كربى". ووهبه كل ما يحتاج اليه من الضياع والاملاك حتى لا يستزيد في شيء من اموره.

قال ابن ابي أصبغة: "وكان طبيباً متميزاً خبيراً باللغة اليونانية والسريانية. ونقل من اليوناني الى السرياني كتباً كثيرة وخدم بصناعة الطب الموفق بالله طلحة بن جعفر المتوكل. وكان يعتمد عليه كثيراً ويسميه مفرج كربى"^(١٤١). وحدث ابراهيم بن العباسي بن طومار الهاشمي قال: "كان الموفق اذا جلس للشراب يقدم بين يديه صينية ذهب ومغسل ذهب وحزداذي بلور وكوز بلور. ويجلس يوحنا بن بختيشوع عن يمينه ويقدم اليه مثل ذلك"^(١٤٢). لقد نقل يوحنا بن بختيشوع عده اسفار من اللغة اليونانية الى اللغة السريانية. وله من الكتب: كتاب فيما يحتاج اليه الطبيب من علم النجوم.

ابن الطيّب:

هو أبو الفرج عبد الله بن الطيّب. رأى نور الحياة في بغداد وهو من أشرافها واعيانها، كريم النسب عريق الحسب. وقد امتاز بجنوحه الى الدين فصار كاهناً. ثم انتخبه الجاثليق ايليا الاول (١٠٤٩م) كاتماً لاسراره فقام باعباء وظيفته خير مقام.

(١٤٠) الموفق بالله (طلحة بن المتوكل) (ت ٥٢٧٨/٨٩١م) امير عباسي والد الخليفة المعتضد. كان ولياً للعهد في خلافة اخيه المعتمد وكان الحاكم الفعلي بسبب ضعف اخيه. قضى على ثورة الزنج بمعاونه لولوى عام ٨٨٣م.

(١٤١) عيون الانباء، ج ١ ص ٢٠٢.

(١٤٢) عيون الانباء، ١: ٢٠٢.

ومما يُروى عن تقواه: ان رجلين من بلاد العجم قصدها للقراءة عليه والعمل عنده. ولما وصلا بغداد كان ابو الفرج في الكنيسة. فدخلها فشاهدها لابساً ثوب صوف وهو مكشوف الرأس ويده مبخرة بسلاسل يدور بها في نواحي الكنيسة ويخير فاخذ العجب منهما ماخذه إذ رأياه على هذه الهيئة ويقوم بهذا الفعل وهو من أجل الحكماء المعروفين في أقاصي البلاد بالفلسفة والطب^(١٤٣) ففهم منهما ما هما فيه. ولما فرغ وقت الصلاة وترك الناس الكنيسة خرج ابو الفرج بن الطيّب ولبس ثيابه. ثم قدّمت له البغلة فركبها والغلمان حوله والرجلان يتبعانه. ولما دخلا في جملة المشتغلين عليه جعل يماطلهما بالقبول ريثما يحين اوان الحج. فقال لهما حينئذ: "هل حججتما قط" قالوا: "لا". فقال: "ان كنتما تريدان ان تقرأ عليّ وان اكون شيخكما فحجا. واذا جئتما بالسلامة - ان شاء الله - يكون كل ما تشتهيان مني". فلما عادا من الحج اذ هما أقرعان وقد غلب عليهما الشحوب. فسألهما عن مناسك الحج وما فعلا فيها. فذكرا صورة الحال، فقال بهما: "لما رميتما الجمار^(١٤٤) بقيتما عريانين موشحين وبايديكما الحجارة وانما تهرولان وترميان بها؟" قالوا "نعم" فقال: "هكذا الواجب. ان الامور الشرعية تؤخذ نقلاً لا عقلاً" فادركا السرّ من امرهما بالحج^(١٤٥).

كان ابي الطيّب طبيباً ماهراً عظيم الشأن جليل القدر واسع العلم. فقد أقامه الخليفة القائم بأمر الله^(١٤٦) رئيساً على المستشفى العضدي وعالج يجد

(١٤٣) لم يكن يعلم انه كاهن وعليه واجب التبخير اثناء الصلاة لان ذلك من واجباته.

(١٤٤) الجمار جمع جمرة بالفتح وهي الحصاة.

(١٤٥) عيون الانباء، ١: ٢٣٩-٢٤١.

(١٤٦) القائم بأمر الله (عبد الله بن القادر) الخليفة العباسي السادس والعشرين (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣١-١٠٧٥م). في ايامه كانت فتنة الباسيري فاستنجد بطفرل بك

لحمانيته من البويهيين.

واخلاص مرضاه ودرّس فيه سنين عديدة علوم الطب. هذا فضلاً انه كان فيلسوفاً خبيراً مطلعاً على كتب الاوائل. واما شروحه وتعليقاته على الكتب القديمة فمعروفة ولا سيما في كتب المنطق واسفار ارسطو ومؤلفات جالينوس^(١٤٧). ويظهر انه عربّ من السريانية كتاب الديايطسرون^(١٤٨) من نسخة بخط عيسى بن علي المتطبب تلميذ حنين بن اسحق.

ولابن الطيب جماعة من التلاميذ سادوا وأفادوا منهم: المختار بن الحسن ابن عبدون المعروف بابن بطلان. فقد قال: "شيخنا ابو الفرج ابن الطيب بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه كاد ان يلفظ انفاسه فيه، وهذا يدلنا على شدة حرصه واجتهاده وطلب العلم لعينه"^(١٤٩).

ولابي فرج بن الطيب كتب عديدة منها:

تفسير كتاب جالينوس لحيلة البرء، وكتاب تدبير الصحة، وتفسير مقالات ارسطو، ومقالات مهمة في الولادة والنبات والعطور والشعر، وكتاب فردوس البيعة يتضمن شروحا في العهد القديم والجديد ومقدمة على المزامير في أحد عشر بابا. وتفسير المزامير، وتفسير تسايح موسى واشعيا، ومقدمة على الانجيل وتفسير الاناجيل الاربعة، ومقالات لاهوتية في التثليث والاقنوم والطبيعة، كتاب في التوحيد، وكتاب فقه النصرانية^(١٥٠).

جاء في تاريخ مختصر الدول لابن العبري: "وفي سنة خمس وثلاثين واربعمئة توفي ابو الفرج عبد الله بن الطيّب وهو عراقي، فيلسوف فاضل مطلع على كتب الاوائل واقاويلهم وعنى بشروح الكتب القديمة، في المنطق

(١٤٧) بطرس نصري، ذخيرة الازهان، ج ١ ص ٤٦٣.

(١٤٨) الديايطسرون: كلمة يونانية مركبة بمعنى من خلال اربعة.

(١٤٩) تاريخ مختصر الدول، ص ١٣٣.

(١٥٠) بطرس نصري، ذخيرة الازهان، ج ١ ص ٤٦٣. وكتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية عدد ٦٧.

وانواع الحكمة. من تأليف ارسطوطاليس ومن الطب كتب جالينوس وبسط القول في الشروح بسطا سافيا قصد به التعليم والتفهيم^(١٥١).

ووافى في كتاب اخبار العلماء للقاضي جمال الدين القفطي: "لقد رأيت من ينتحل هذه الصناعة يذمّ أبا الفرج ابن الطيب بالتطويل وكان هذا العائب يهوديا ضيق الفطنة قد وقف على عبارة ابن سينا. فاما انا وكل منصف فلا نقول الا ان ابا فرج بن الطيب قد احيى من هذه العلوم ما دثر وابان منها ما خفي^(١٥٢)".

ابن بطلان:

هو الحكيم أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون المعروف بابن بطلان. قرأ الطب من علماء زمانه من نصارى الكرخ وتلمذ لابى الفرج عبد الله بن الطيب. وزاول امور المعالجة لدى الطبيب ابي الحسن ثابت بن ابراهيم بن زهرون الحرّاني.

كان ابن بطلان مشوّ الخلقه غير صبيحها. وقد سافر الى الجزيرة الموصل وديار بكر، ثم دخل حلب واقام فيها وهناك اجتمع بطبيب نصراني يعرف بالحكمي ابي الخير بن شرارة. ثم توجه من حلب الى مصر حيث التقى بالفيلسوف ابن رضوان المصري وجرت بينهما منافرة. ثم ذهب الى انطاكية ونزل بعض ديرتها وترهب وانقطع الى العبادة حتى توفي.

لقد جادل الطبيب ابن بطلان من جادله وناقش من ناقشه. فكتب الى الفيلسوف ابن رضوان^(١٥٣) رسالة يقطعه فيها ويذكر معاييه ويشير الى جهله بما يدعيه من علم الاوائل. ورتبها على سبعة فصول، ختمها بقوله:

(١٥١) تاريخ مختصر الدول، ص ٣٣٠.

(١٥٢) اخبار العلماء، ص ١٥٠.

(١٥٣) ابن رضوان، (عليه) (توفي عام ١٠٦١): طبيب مصري خدم الحاكم بأمر الله. له "كفاية الطبيب فيما صحّ لديّ من التجارب".

"وليتحقق ان اللذة بمضغ الكلام لا تفي بغصة الجواب. فان لنا موقف حساب ومجمع ثواب وعقاب. يتظلم فيه المرضى الى خالقهم. ويطالبون الأطباء بالاغلاظ القاضية في هلاكهم. وانهم لا يسامحون الشيخ كما سامحته بسببي ولا يغضون عنه كما أغضيت عن ثلب عرضي. فليكن من لقائهم على يقين ويتحقق انهم لا يرضون منه الا بالحق المبين" (١٥٤).

قال القفطي: "المختار بن الحسن بن عبدون الحكيم ابو الحسن الطيب البغدادي المعروف بابن بطلان طبيب منطقي نصراني من أهل بغداد، قرأ على علماء زمانه من نصارى الكرخ" (١٥٥).

وقال ابن العبري: "وان بطلان هذا فهو طبيب نصراني بغدادي، وكان مشوّ الخلقة غير صبيحها كما شاء الله منه وفضل في علم الاوائل، وكان يرتزق بصناعة الطب. وخرج من بغداد الى الموصل وديار بكر، ودخل حلب وأقام بها مدة وما حمدها. وخرج عنها الى مصر فاقام بها مدة قريبة واجتمع بابن رضوان المصري الفيلسوف في وقته وجرت بينهما منافرة احدثتها المغالبة في المناظرة. وخرج ابن بطلان عن مصر مغضباً على ابن رضوان وورد انطاكية واقام بها. وقد سئم كثرة الاسفار وضاق عيشه عن معاشرة الاغمار فغلب على خاطره الانقطاع فنزل بعض الاديرة بانطاكية وترهب وانقطع الى العبادة" (١٥٦).

وقال ابن ابي اصيبعة: "وكان ابن بطلان اعذب الفاظاً واكثر ظرفاً وأميز في الادب وما يتعلق به. ومما يدل على ذلك ما ذكره في رسالته التي رسمها

(١٥٤) روفائيل بابو اسحق، أحوال نصارى بغداد، ص ١٩٢.

(١٥٥) اخبار العلماء، ص ١٩٢.

(١٥٦) مختصر تاريخ الدول ص ٣٣١.

بدعوة الاطباء. وكان ابن رضوان أظب وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها^(١٥٧).

كان ابن بطلان من صدور الأطباء المعدودين عارفا بفنون المعالجة وقد قضى معظم عمره متنقلاً في عدة مدن مستنهضاً على السير الحثيث في سبيل الكمال فافاد واستفاد على الرغم من العقبات التي اعترضت طريقه والاضطهادات التي اثار زوابعها اعداؤه.

ومن كتبه: تقويم الصحة، وكتاب الامراض العارضة للرهبان. وكتاب شراء الرقيق وتقليب العبيد. ورسالة ادبية كتب فيها رحلته الى الشام وجهها الى بغداد الى ابي الحسن هلال بن الحسن الصائبي سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٩م. نقل معظمها القفطي في كتابه أخبار العلماء^(١٥٨).

سابور بن سهل:

كان فاضلاً، عالماً بقوى الادوية المفردة لبیمارستان جنديسابور ومعالجة المرضى فيه. وقد تقدم عند الخليفة المتوكل (ت ٨٦١) وعند من تولى بعده من الخلفاء. وله مؤلفات منها:

كتاب الاقرباذين الكبير المشهور، جعله سبعة عشر باباً وهو المعول عليه في البیمارستانات ودكاكين الصيدلة ولا سيما انه ظهر قبل ظهور الاقرباذين الذين آلفه هبة الله بن التلميذ المار ذكره.

وكتاب قوى الاطعمة، مضارها ومنافعها وكتاب الرد على حنين بن اسحق في الفرق بين الغذاء والدواء المسهل. وكتاب القوم في النوم واليقظة. وكتاب ابدال الادوية^(١٥٩) وتوفي عام ٨٦٨م.

(١٥٧) عيون الانباء، ج ١ ص ٢٤٢.

(١٥٨) كتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية، عدد ١٣.

(١٥٩) عيون الانباء، ج ١ ص ١٦١. وتاريخ مختصر الدول، ص ٢٥٥.

أبو الحسن بن المسيحي:

وقيل هو أبو الحسين أو أبو نصر صاعد بن هبة الله بن المؤمل (المتوفي سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م) وأخوه الأركيذ ياقون أبو الخير بن المسيحي وهما أخوا الجاثليق سبريشوع المعروف بابن المسيحي^(١٦٠).

كان مولد أبي الحسن في الحظيرة، ثم نزل بغداد واسمه اذ ذاك ماري. وقد قرأ الأدب على أبي الحسن علي ابن عبد الرحيم العصار وعلى أبي محمد عبد الله بن أحمد بن الخشاب النحوي وعلى أشرف الكتاب بن حيا وغيرهم. خدم الخليفة الناصر لدين الله (المتوفي سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م) وتقرّب تقرباً كثيراً وكسب بخدمته وصحبته الاموال وله معرفة تامة بالمنطق والفلسفة وانواع الحكمة.

صنف كتاباً صغير الحجم سمّاه الصفوة، جمع فيه أجزاء الطب علميها وعمليها وألحق في آخر الفن الاول من الجزء الثاني ثلاثة فصول في الختانة. قال ابن أبي اصبيعة: "وكان أبو الحسن هذا طبيباً فاضلاً وخدم بالدار العزيزة الناصرية الامامية وتقرّب تقرباً كثيراً وكسب بخدمته وصحبته الاموال وكانت له الحرمة الوافرة والجاه العظيم"^(١٦١).

(١٦٠) الجاثليق سبريشوع (ت ١٢٥٧م) من أهالي بغداد. زهد في الدنيا وانخرط في سلك الرهبانية، اقيم مطرانا على باجرمي ثم نصب جاثليقا سنة ١٢٢٦م. شاد مدارس عديدة وانفق الاموال الطائلة على مدرسيها وتلامذتها. وساعد المحتاجين حريصا على إقامة شعائر الدين. إزدادت القلاقل على ايامه وفشت الاعتداءات في أطراف البلاد التي جلت سنة ١٢٣٦م. أقام في مدة رئاسته ٧٥ مطرانا واسقفا.

(١٦١) عيون الانباء ١: ٣٠٣. اخبار العلماء، ص ١٤٥. تاريخ مختصر الدول، ص ٤١٦. ذخيرة الاذهان، ١: ٥٠١.

الاركيذياقون أبو الخير بن المسيحي:

كان كأخيه من أطباء الدار الامامية الناصرية (ال خليفة الناصر لدين الله العباسي). وقد وضع كتاباً لخص فيه مباحث كتاب الكليات من القانون سماه الاقتضاب واختصره ودعا المختصر انتخاب الاقتضاب.

جاء في تاريخ مختصر الدول: "وحكى لي بعض الاطباء ببغداد، ان أباه حمله وهو مترعرع الى ابن التلميذ ليشغله فقال: هذا ابنك صغير جداً. فقال غرضي التبرك منك. فاقرأه المسألة الاولى من مسائل حنين بن اسحق".

وورد في عيون الانباء: "وصرف ابو الخير من الخدمة (خدمة الخليفة الناصر) وقد كانت منزلته قبل هذا جليلة عنده ومحلّه مرتفع ووصله هبات وصلات عظيمة، فمن جملة ما انه اعطاه خزانة كتب الاجل امين الدولة (هبة الله بن التلميذ)" (١٦٢).

ابن ديلم:

عاش في حدود سنة ٣٠٠ للهجرة ٩٠٠م. وكان طبيباً في دار السلطان في الايام المعتضدية. وله علو قدر، وسمو ذكر، وجودة معانة ونال بصناعته دنيا واسعة، واطهر التحمل العظيم والرفاهية الزائدة (١٦٣).

(١٦٢) معجم الاطباء لاحمد عيسى بك (مصر ١٩٢٤) ص ٩٠ وتاريخ مختصر الدول، ص ٤١٦. وذخيرة الازهار، ج ١ ص ٥٠١.

(١٦٣) اخبار العلماء، ص ٢٨٥.

أبو مخلد بن بختيشوع:

هو من احفاد أسرة بختيشوع الشهيرة بالطب وقد تصرّف في صناعة الطب وعرف بها "وكان مبارك المباشرة، وعمر طويلاً وهو محمود الطريقة، سالم الجانب" (١٦٤). توفي عام ٤١٧هـ/١٠٢٦م.

أبو الخير بن أبي الفرج:

يُعدّ من الجراحين الماهرين. وقد نال ممن راجعه الاستحسان والثناء. قال القفطي: "انه طبيب جرائحي عالم بصناعة الجراحة مشهور من أهل بغداد المقيمين بها المباشرين لاهلها" (١٦٥). توفي عام ٤٤٣هـ/١٠٥١ ميلادية.

أبو الخير بن أبي البقاء:

إشتهر بفنون الطب من النصارى في بغداد المسيحي بن أبي البقاء، وكنيته ابو الخير ويعرف بابن العطار (المتوفي عام ٦٠٨هـ/١٢١١م) فكان خبيراً باصول المعالجة مقرّباً من دار الخلافة يطيب النساء والحواضي، وقد ربح اموالاً كثيرة وعاش عمراً مديداً (١٦٦).

ومما قاله القفطي عنه: "انه خبير بالعلاج، قيّم به، له ذكر وقرب من دار الخلافة، يطيب النساء والحواضي (الحواشي) ويطأ بساط الخليفة لاجل ذلك. وكان الإمام الناصر لدين الله ابو العباس يقدّمه على أمثاله" (١٦٧).

(١٦٤) اخبار العلماء، ص ٢٨٣.

(١٦٥) اخبار العلماء، ص ٢٦٥.

(١٦٦) تاريخ مختصر الدول، ص ٤١٩.

(١٦٧) أخبار العلماء، ص ٢١٨.

أبو علي بن أبي الخير:

درس الطب على والده المسيحي المار ذكره أعلاه. وتقدم في أساليب الطب حتى اقيم ساعوراً في البيمارستان. وكان يرسل الى اماكن نائية ليتفقد المرضى من الامراء والاعيان. بيد انه بعد وفاة ابيه زال ما كان يحترم لأجله اذ لم يعد رشيداً ولا محموداً الطريقة فانفق أمواله وبذر ذخائره^(١٦٨).

الطبيب كثيفات:

خدم البساسيري^(١٦٩) خدمة صادقة. ثم لحق به يوم خرج من بغداد مغاضباً للقائم بالله الخليفة ولوزيره ابن مسلمة. وكان: "معروفاً بالعمل غير موصوف بعلم ارتفع بصائب معالجته"^(١٧٠).

هذه الكوكبة من الاطباء الذين اشتهروا في العباسي وبرعوا ليس بالطب فحسب بل بالعلوم الكيميائية والفلكية والتنجيم وكانوا باقية الى جانب الاطباء المسلمين التي لا ينازعهم احد في صناعتهم كابن سينا وابن رشد والرازي وابن جبير وابن جابر الكوفي. وكان من نتيجة هذا الازدهار العلمي الباهر الذي امتاز به العصر العباسي ان ظهر الى الملاء التأثير الطبي ليس في الجزيرة والبلاد المفتوحة ولكن رأينا التأثير واضحاً في أوروبا.

(١٦٨) تاريخ مختصر الدول، ص٤١٩، اخبار العلماء، ص٢١٨.

(١٦٩) البساسيري (ت٤٥١هـ/١٠٦٠م) قائد تركي ثار على الخليفة القائم بامر الله العباسي. قضى على فتنة طغرل بك.

(١٧٠) اخبار العلماء ص١٧٦. تاريخ مختصر الدول. ص٢٣٤.

يحيى بن اسحق:

اشتهر في العصر العباسي وبرع في صناعة الطب, قال عنه ابن حجة الحموي^(١٧١): انه نصراني المذهب، حاذقاً في صناعة الطب، استوزره عبد الرحمن الناصر لدين الله في الاندلس.

(١٧١) ابن حجة الحموي، ثمرات الاعراق، ص ٥١.

الفصل السادس

الأطباء المسيحيون في المجتمع العباسي الاسلامي

لما كان الطب أحد الاركان التي ترتكز عليها الخلافة العباسية، فقد اهتم الخلفاء العباسيون بهذه الصناعة، واغدقوا على الاطباء الاموال الطائلة، واجزلوا لهم العطايا والمنح والهبات، وقلدوهم المناصب العالية في ادارة الدولة، واصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال بلاط الخلافة، وكان الجميع يرغبونهم بالبذل والاكرام، بقطع النظر عن طوائفهم وشيعهم او انسابهم. فقد كان فيهم المسيحي واليهودي والصابئي والمجوس والسامري، وقد شهد جميع هؤلاء على اختلاف مللهم ونحلهم عهداً عظيماً من الحرية والثقة والامن. وكان الخلفاء المسلمون يتخذون منهم أحياناً وزراء ويعاملونهم كافة بالرفق والاكرام، وظل السريان يتمتعون بكل معاني الحرية الدينية والسياسية والفكرية طول هذا العهد (٧٥٠-١٢٥٨م) ولذلك كثر الاقبال عليهم واستقدمهم الى مواطن المرض طمعاً في الشفاء.

وقد بلغ من اكرام الخليفة ابو جعفر المنصور لطبيبه جورجيس بن بختيشوع انه أمر ان يحضروا له الشراب - وهو كما نعلم محرّم في الاسلام - وذلك انه رأى وجهه يتغير على أثر إقامته في بغداد، فقال المنصور للربيع: "أرى هذا الرجل قد تغيّر وجهه، لا يكون قد منعته مما يشربه على عادته؟ قال له الربيع: لم نأذن ان يدخل هذا الدار مشروباً. فأجابه بقبيح العبارة وقال له: لا بد ان تمضي بنفسك حتى تحضره من المشروب كل ما يريده. فمضى الربيع الى قطربل^(١) وحمل منها ما امكنه من الشراب الجيد^(٢).

(١) قطربل: موضع في العراق جنوب بغداد قريب منها، اشتهر بجودة الخمر (عيون الانباء في طبقات الاطباء، هامش ص ١٨٤).

وفي سنة ١٥٢هـ/٧٦٩م مرض جورجيس مرضاً صعباً، وكان الخليفة يرسل اليه في كل يوم من يستعلم عن صحته. ولما اشتد مرضه، أمر الخليفة فحمل على سرير الى دار العامة، وخرج ماشياً وراءه^(٣)، وسأل عن أحواله^(٤).

وقد بلغ من شدة احترام الخلفاء لأطبائهم انهم اطلقوا يدهم في دورهم وسمحوا لهم بالتدخل في امورهم الخاصة. فبختيشوع بن جيورجيس نظراً لشهرته الواسعة، أصبح مقدماً عند الملوك فخدم الخليفة هارون الرشيد والامين (١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٩-٨١٣م) والمأمون والمعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م) والواثق (٢٢٧-٢٣٢/٨٤٢-٨٤٧م) والمتوكل (٢٣٢-٢٣٧هـ/٨٤٧-٨٦١م) وكسب مالاً وافراً وكان الخلفاء يأتمنونه ويثقون به في معالجة نسايتهم^(٥).

وقد حدث أحمد عيسى في كتابه "معجم الاطباء" ان مسعود البغدادي المعروف بابن القس، خدم الخليفة المعتصم، واختص به وطب حرمه وأولاده وخواصه، وارتفعت منزلته عنده^(٦).

وقد لعبت ثقافة الطبيب ومهارته واخلاصه دوراً أساسياً في ترسيخ هذه الثقة ومن ذلك انه عندما تمكن جبرائيل بن بختيشوع بن جيورجيس بن بختيشوع بن جيورجيس من شفاء حظية الرشيد أمر له بخمسمائة ألف درهم وازدادت منزلته سموا عنده، فجعله رئيساً على جميع الاطباء. وكان نفوذ

(٢) عيون الانباء، ص ١٨٤.

(٣) تاريخ الحكماء، ص ١٥٩ (خرج ماشياً اليه).

(٤) تاريخ الحكماء، ص ١٥٩-١٦٠. عيون الانباء، ص ١٨٥. تاريخ مختصر الدول ص ١٤٢.

(٥) ابن النديم، الفهرست، ص ٤١٣. تاريخ الحكماء، ص ١٠٠-١٠١.

(٦) احمد عيسى، معجم الاطباء، ص ٤٩٠-٤٩١.

جبرائيل يزداد قوة حتى ان الرشيد قال لاصحابه: "كل من كانت له حاجة فليخاطب بها جبرائيل، لاني افعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني". فكان القواد يقصدونه في كل أمورهم^(٧). وعندما اراد جبرائيل زيارة منزل جالينوس امر الرشيد ان يضم اليه الف فارس ووافاه من الخبز والطعام ما يفيض عمن يرافقه^(٨).

وقال اسحق علي الرهاوي في كتاب "ادب الطبيب"، عن عيسى بن ماسه، "ان يوحنا بن ماسويه اخبره ان الرشيد قال لجبرائيل بن بختيشوع وهو حاج، بمكة دعون لك واللّه في الموقف دعاء كثيراً، ثم التفت الى بني هاشم فقال: عسى انكرتم قولي له؟ فقالوا: يا سيدنا ذمي: فقال: ولكن صلاح بدني وقوامه به، وصلاح المسلمين بي، فصلاحهم بصلاحي وبقائي. فقالوا: صدقت يا أمير المؤمنين"^(٩).

ولما ملك محمد الامين ووافى اليه جبرائيل بن بختيشوع بن جيورجيس أحسن استقباله واكرمه، ووهب له اموالاً جليلة. اكثر مما كان ابوه يهبه. وكان لا ياكل ولا يشرب الا برايه ومشورته^(١٠).

وقد زاد المأمون في اكرامه واجلاله حتى انتهى به الامر الى ان كل من تقلد عملاً لا يخرج الى عمله الا بعد ان يلقي جبرائيل ويكرمه، وكان عند المأمون مثل ابيه، وصار اذا خاطبه كناه بابي عيسى جبرائيل^(١١). وللمأمون شعر فيه:

(٧) عيون الانباء، ص ١٨٨.

(٨) تاريخ الحكماء، ص ١٣٦-١٣٧، عيون الانباء، ص ١١٨-١١٩.

(٩) عيون الانباء، ص ١٨٩.

(١٠) تاريخ الحكماء، ص ١٤١. عيون الانباء، ص ١٨٩.

(١١) عيون الانباء، ص ١٩٠.

أني طبك يا جبريل بل ما يشفي ذوي العلة
غزال قد سبى عقلي بلا جم ولا زلة^(١٢)
وجبرائيل بن بختيشوع هو الذي يعنيه أبو نواس في قوله:

سألت اخي ابا عيسى وجبرائيل له عقل
فقلت الراح تعجبني فقال كثيره قتل
فقلت له: فقدري فقال وقوله فصل
وجدت طبائع الانسا ان اربعة هي الاصل
فأربعة لأربعة لكل طبيعة رطل^(١٣)

وقد ورد عند القفطي ان جبرائيل بن بختيشوع بن جيورجيس قال:
"ولقد افضل عليّ الخلفاء، ورفعوني من خدمة الطب الى المعاشرة والمسامرة،
وانه ليس لأمر المؤمنين اخ ولا قرابة، ولا قائد ولا عامل الا وهو يداريني، ان
لم يكن مائلاً بمحبته لي وشاكراً لعلاج عاجلته به، ومحضر جميل حضرته له
ووصفته حسناً عند الخليفة فنفعه، وكل واحد من هؤلاء يفضل عليّ ويحسن
اليّ"^(١٤).

وكان تقدير بعض الخلفاء لأطبائهم يفوق تقديرهم لكبار موظفي الدولة
عندهم. فقد اخبر يوحنا بن ماسويه عن المعتصم انه قال: "سلموية طيبي اكبر
عندي من قاضي القضاة، لان هذا يحكم في نفسي، ونفسي اشرف عندي من
مالي وملكلي"^(١٥).

(١٢) عيون الانباء، ص ٢١٠.

(١٣) دعوة الاطباء، ص ٣٩. عيون الانباء، ص ٢٠٠-٢٠٥.

(١٤) تاريخ الحكماء، ص ١٣٩.

(١٥) عيون الانباء، ص ٢٣٤.

وبلغ من اكرام المعتصم له، انه اذا ورد له كتاب يقتضي توقيعاً، وكان سلموية حاضراً فأمره ان يوقع عنه بخطه، وكان كل ما يرد على الامراء والقواد من صدور أمر او توقيع من الخليفة فبخط سلمويه^(١٦).

وكان الخليفة المعتصم ايضاً يأمر بتلاوة رسائله على سلموية ومناظرته فيها، فان استصوب رأيه، أمر الخليفة بختمها وايصالها^(١٧).

وكانت توقيعات المعتصم في السجلات ترد الى الدواوين بخط سلمويه.

ومن أدلة اكرام الخليفة المعتصم لطبيبه سلمويه، انه ولّى اخاه ابراهيم بن بنان خزن بيوت المال في البلاد، وخاتمه مع خاتم الخليفة، وكان يتولى ايصال رسائل الخليفة في جميع الاوقات^(١٨).

ولما مرض سلمويه، أمر المعتصم ولده ان يعود، فعاده^(١٩). ثم قال: "أنا اعلم واتيقن اني لا اعيش بعده، لانه كان يراعي حياتي ويدبر جسمي"^(٢٠).

قال حنين بن اسحق نقلاً عن أبيه: "ان سلمويه كان اعلم اهل زمانه بصناعة الطب، وكان المعتصم يسميه أبي. فلما اعتلّ سلموية عادته المعتصم وبكى عنده وقال: "تشير عليّ بعدك بما يصلحني فقال سلمويه: "لا يعزّ عليّ بك سيدي. ولكن عليك بهذا الفضولي يوحنا بن ماسويه، واذا شكوت اليه شيئاً فقد يصف فيه اوصافاً فاذا وصف فخذ أقلها أخلاطاً. فلما مات سلمويه امتنع المعتصم عن الطعام يوم موته، وأمر ان تحضر جنازته الدار، ويصلى عليه

(١٦) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ج ٣ ص ١٨١. خير الله، الطب العربي، ص ٥١.

(١٧) عيون الانباء، ص ٢٣٧.

(١٨) عيون الانباء، ص ٢٣٤-١٣٥.

(١٩) عيون الانباء، ص ٢٣٤.

(٢٠) الفهرست، ص ٤١٢-٤١٣، تاريخ الحكماء، ص ٢٠٧. عيون الانباء، ص ٢٣٤.

بالشمع والبخور على زي النصراري الكامل ففعل بحيث يصبرهم ويباهي في كرامته. وحزن عليه حزناً شديداً. وكان المعتصم قوي الجسم، وكان سلمويه يقصده في السنة مرتين، ويسقيه بعد كل مرة دواء مسهلاً، ويعالجه بالحمية في اوقات فاراد يوحنا ان يريه غير ما عهد فسقاه دواء قبل الفصد فلما شرب الدواء حمي دمه وحم. واخذ جسمه يهزل حتى مات، وذلك بعد عشرين شهراً من وفاة سلمويه^(٢١).

وكان المعتصم يقول دائماً: "لي خادمان يصل كل واحد منهما اليّ في مجالس جدي وهزلي، بل يصل الى مرقيدي ومتوضئي، وهما مسرور سمانه الخادم، وسلمويه بن بنان"^(٢٢).

وكان الخليفة يفرض احترام طبيبه على سكان قصره، ويعمل على مُراضاته اذا ما اغضبه احد: "كان الواصل مشغولاً بيوحنا بن ماسويه حينما به، فشرّب يوماً عنده فسقاه الساقى شراراً غير صافي ولا لذيقاً، على ما جرت به العادة، وهذا من عادة السقاة اذا قصر في برّهم، فلما شرب القدح الاول قال يا أمير المؤمنين، أما المذاقات فقد عرفتها، وأعتدتها، ومذاقة هذا الشراب خارجة عن طبع المذاقات كلها، فوجد أمير المؤمنين على السقاة وقال: يسقون اطبائي في مجلسي مثل هذا الشراب، وأمر ليوحنا، بهذا السبب، وفي ذلك الوقت بمائة الف درهم، ودعا بسمانة الخادم، فقال له احمّل اليه المال الساعة فلما كان وقت العصر سأل سمانة هل حمل مال الطبيب ام لا؟ فقال: لا بعد، فقال: يحمل اليه مائتا الف درهم الساعة. فلما وصلوا العشاء سأل عن حمل المال فقبل له لم يحمل بعد، فدعا بسمانه وقال: احمّل اليه ثلاثمائة الف درهم. فقال سمانة لخازن بيت المال، احمّلوا مال يوحنا والا لم يبق في بيت المال شيئاً، فحمل اليه من ساعته"^(٢٣).

(٢١) تاريخ الحكماء، ص ٢٠٧-٢٠٨. عيون الانباء، ص ٢٣٤-٢٣٥. تاريخ مختصر الدول.

(٢٢) عيون الانباء، ص ٢٣٥.

(٢٣) عيون الانباء، ص ٢٤٦.

وكانت المنادمة بين الخليفة واطبائه تجري بمنتهى الصراحة والجرأة، فقد حدث بمصر أحمد بن هرون: "ان المتوكل على الله حدثه في خلافة الواثق، ان يوحنا بن ماسوية كان مع الواثق على دكان للواثق في دجلة، ومع الواثق قسبة فيها شص وقد القاها في دجلة ليصيد بها السمك، فحرم الصيد، فالتفت الى يوحنا وكان على يمينه، فقال: "قم يا مشؤوم عن يميني. فقال له يوحنا: يا امير المؤمنين لا تتكلم بمحال يوحنا بن ماسوية الخوزي وامه الصقلية المتباعدة بمثمانمائة درهم، اقبلت به السعادة الى ان صار نديم الخلفاء، وسميرهم وعشيرهم، وحتى غمرته الدنيا فنال منها ما لم يبلغه أمله. فيمن اعظم محال ان يكون هذا مشؤوما ولكن ان احب امير المؤمنين ان اخبره بالمشؤوم ومن هو، اخبرته. فقال: من هو؟ فقال: من ولدته اربع خلفاء ثم ساق الله اليه الخلافة، فترك خلافته وقصورها وبساتينها وقعد في دكان مقدار عشرين ذراعاً في مثلها في وسط دجلة، لا يأمن عصف الرياح عليه فيغرقه. ثم تشبه بافقر قوم في الدنيا وشرهم، وهم صيادوا السمك قال المتوكل: "فرايت الكلام قد انجح فيه الا انه امسك لمكاني" (٢٤).

وقال الواثق عقب هذا القول ليوحنا وهو على الدكان: "يا يوحنا الا اعجبك من حيلة؟ قال: وما هي؟ قال: ان الصياد ليطلب السمك مقدار ساعة فيصيد من السمك ما تساوي الدينار او ما اشبه ذلك. وأنا أقعد مذ غدوة الى الليل فلا أصيد ما يساوي درهماً. فقال له يوحنا: وضع أمير المؤمنين التعجب في غير موضعه، ان رزق الصياد من صيد السمك، فرزقه يأتيه لانه قوته وقوت عياله، ورزق امير المؤمنين بالخلافة فهو غني عن ان يرزق بشيء من السمك، ولو كان رزقه جعل من الصيد لوفاه مثل ما يوافي الصياد" (٢٥).

(٢٤) تاريخ الحكماء، ص ٣٧٨-٣٨٨. عيون الانباء، ص ٢٤٩. تاريخ مختصر الدول ص ١٤٢.

(٢٥) تاريخ الحكماء، ص ٣٨٧-٣٨٨. عيون الانباء، ص ٢٤٩. تاريخ مختصر الدول ص ١٤٢.

وكان من مظاهر اكرام الاطباء، إذا حضروا مجلس الخليفة جلسوا معه على السدة. وفي ذلك قال عبيد الله بن جبرائيل بن بختيشوع: "ما يدل على منزلة بختيشوع عند المتوكل، وانبساطه معه قال من ذلك ما حدثنا به بعض شيوخنا انه دخل بختيشوع^(٢٦)، يوماً الى المتوكل وهو حالس على السدة في وسط دار الخاصة، فجلس بختيشوع على عادته معه على السدة، وكان عليه دراعة ديباج رومي، وقد انفتق ذيلها، فجعل المتوكل يحدث بختيشوع ويعبث بذلك الفتق حتى بلغ حد النيفق^(٢٧) ودار بينهما كلام اقتضى ان يسأل المتوكل بختيشوع: بماذا تعلم ان المشوش^(٢٨) يحتاج الى الشد والقيادة قال: اذا بلغ فتق دراعة طبيبه الى حد النيفق شددناه. فضحك المتوكل حتى استلقى على ظهره، وامر له في الحال بخلع سنية ومال جزيل^(٢٩).

وروى اسحق بن علي الرهاوي، عن عيسى بن ماسة قال: "رأيت بختيشوع بن جبرائيل وقد اعتلّ، فامر امير المؤمنين المتوكل، المعتر ان يعود، وهو اذ ذاك ولي العهد، فعاده.. امر المتوكل الوزير شفاها وقال له: اكتب في ضياع بختيشوع فانها في ضياعي وملكي فان محلّه منا محلّ ارواحنا في ابداننا"^(٣٠).

وفضلاً عما لاقاه الاطباء من رعاية بالغة شملهم بها الخلفاء، فقد أمر الخليفة المتوكل بحبس الشاعر علي بن الجهم ونفيه الى خراسان عندما هجا طبيبه بختيشوع^(٣١).

(٢٦) بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع.

(٢٧) الموضوع المتسع من القميص او السروال.

(٢٨) تاريخ الحكماء، ص ٢١٠. تاريخ مختصر الدول، ص ١٤٤. (الموسوس).

(٢٩) تاريخ الحكماء، ص ١٠٣. عيون الانباء، ص ٢٠٧. تاريخ مختصر الدول، ص ١٤٤.

(٣٠) عيون الانباء، ص ٢٠٧.

(٣١) تاريخ الطب العراقي، ص ٣٥.

وكانت مواكب الاطباء اذا ركبوا مثل مواكب الامراء والوزراء، ونقل عن بعض التواريخ: "ان الفتح بن خاقان^(٣٢) كان كثير العناية باسرائيل الطيفوري، فقدمه عند المتوكل، ولم يزل حتى أنس به المتوكل وجعله في مرتبة بختيشوع، وعظم قدره، وكان متى ركب الى دار المتوكل يكون موكبه مثل موكب الامراء واجلاء القواد، وبين يديه اصحاب المقارع، واقطعه المتوكل قطيعة بسرّ من رأى - اختارها الطيفوري بنفسه - ودفع اليه ثلثمائة الف درهم للنفقة عليه. وحكي عن عيسى بن ماسة انه قال: "رأيت المتوكل، وقد غشي عليه، فصيرّ يده تحت رأسه مخدة، ثم قال للوزير: يا عبد الله حياتي معلقة بحياته ان عدمته لا اعيش. ثم اعتلّ فوجه سعيد بن صالح حاجبه وموسى بن عبد الملك كاتبه يعودانه"^(٣٣).

ومن المستطرف ان يكون لفخامة ثياب الاطباء اثرها في عيون الناس، فالمبالغة في اكرامهم والسخاء عليهم، جعلهم يرتدون ثيابا تتمناها الخلفاء. من ذلك ان الخليفة المعتز (٢٥٢-٢٥٥هـ/٨٦٦-٨٦٩م) كان قد اعتلّ في ايام المتوكل علة من حرارة امتنع معها من تناول الاطعمة والادوية، فشقّ ذلك على المتوكل كثيراً واغتمّ، وصار اليه بختيشوع والاطباء عنده، وهو على حاله من الامتناع، فمازحه بختيشوع وحادثه، فادخل المعتز يده في جبة كانت على بختيشوع وقال: ما احسن هذا الثوب، فقال بختيشوع: يا سيدي ما له والله نظير في الحسن، وثمنه عليّ الف دينار، فكل تفاحتين وخذ الجبة، فدعا بتفاحتين، فاكل اثنتين. ثم قال له: تحتاج الجبة يا سيدي الى ثوب يكون معها، وعندي ثوب هو اخ لها، فاشرب لي شربة سكنجبين^(٣٤) وخذه فشربه،

(٣٢) الفتح بن خاقان، وزير الخليفة المتوكل. قتل معه بسرّ من رأى عام ٢٤٧هـ/٨٦١م (وفيات الاعيان، ج ٢ ص ٣٥٠).

(٣٣) وفيات الاعيان، ج ٢ ص ٣٢٥.

(٣٤) السكنجين: شراب مكوّن من خلّ وعسل. (القانون ج ٣ ص ٣٦٤).

ووافق ذلك اندفاع طبيعته فبرأ المعتز، واخذ الجبة والثوب وشفى، فحفظ المتوكل هذا العمل لبختيشوع، وزاد في اكرامه^(٣٥).

وكان الخليفة لا يتناول دواء الا بإذن طبيبه^(٣٦) فاذا فعل ولم يستأذنه غضب عليه، فيضطر الخليفة الى استرضائه وقيل ان اسرائيل بن زكريا اليطفوري غضب على المتوكل لما احتجم بغير اذنه، فافتدى الخليفة غضبه بثلاثة آلاف دينار، وضيعة تغلّ له في السنة خمسين الف درهم وهبها له^(٣٧).

وكان الاطباء أول من يدخل على الخليفة للنظر فيما يحتاجونه اليه وما يصلح أبدانهم^(٣٨) فيختارون لهم الاطعمة المناسبة ويشرفون عليهم اثناء تناولهم^(٣٩) ويسهرون على راحتهم. قال جبرائيل بن بختيشوع: "كنت مع الرشيد بالرقّة وكنت اول من يدخل عليه في كل غداة اتعرّف حاله في ليلته ثم يحدثني وينبسط الى ان يسألني عن اخبار العامة، فدخلت عليه يوماً فسلمت عليه فلم يكذ يرفع طرفه ورأيت مفعراً عابساً مهموماً... فلما طال ذلك أقدمت فسألته عن حال وما سببه فقال: ان فكري وهمي لرؤيا رأيتها في ليلتي هذه قد افزعني وملأت صدري. فقلت: فرجت عني يا امير المؤمنين الرؤيا انما تكون لخاطر او بخارات رديئة وتهاويل السوداء وهي اضغات احلام... فأمرته باللهو والانبساط ففعل ونسينا الرؤيا وطالت الايام^(٤٠).

(٣٥) تاريخ الحكماء، ص ١٠٢. عيون الانباء، ص ٢٠٦.

(٣٦) عيون الانباء، ص ٢٣٤-٢٣٥.

(٣٧) عيون الانباء، ص ٢٢٥.

(٣٨) تاريخ الحكماء، ص ٢٤١. عيون الانباء، ص ٢٤١-٢٤٢.

(٣٩) عيون الانباء، ص ١٩٠-١٩١. كتاب العير وديوان المبتدا والخبر، ج ١ ص ٢٩-٣٠.

(٤٠) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٥ ص ١٢٩.

وكان يشتكي دوماً من احاطته بالجواسيس، فقال "وكل واحد من ولديّ علي رقيب، فمسرور رقيب المامون وجبرائيل بن بختيشوع رقيب الامين وما منهم احد الا وهو يحصي انفاسي ويستطيل دهري" (٤١).

وعندما كان الخليفة هرون الرشيد يجتمع بطبيبه بن بختيشوع يرفض ان يدخل عليهما أحد من دون اذن ويسري هذا التدبير حتى على وزيره يحيى بن خالد الذي كان قد سمح له فيما مضى ان يدخل عليه ساعة يشاء من دون اذن فلفت نظره الى هذا الامر بحضور طبيبه جبرائيل (٤٢).

وكان جبرائيل الكحال اول من يدخل على المامون بعد الصلاة فيغسل اجفانه، ويكحل عينيه، فاذا انتبه من قائلته فعل مثل ذلك (٤٣).

وكثيراً ما كان الخلفاء يمازحون اطباءهم ويماجنونهم (٤٤)، وكذلك فعل وزراؤهم فقد ذكر ابن بطلان ان القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد بالله كان يحب مداعبة حنين بن اسحق، وكان حنين بعد ان خدم الخلفاء والرؤساء قد انقطع الى القاسم بن عبيد الله واختص به حتى ان الوزير المذكور، كان يطلعه على أسرارهِ ويفضي اليه بما يكتمه عن غيره (٤٥).

بلغ القاسم بن عبد الله، ان حنين بن اسحق، شرب دواء مسهلاً، فأحبّ مداعبته وكان صديقاً له فكتب اليه:

(٤١) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٥ ص ١٢٧.

(٤٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٥ ص ١١٥.

(٤٣) تاريخ الحكماء، ص ١٥٢. عيون الانباء، ص ٢٤١-٢٤٢.

(٤٤) تاريخ الحكماء، ص ١١٥-١١٦ و ٣٢٩-٣٣٠. عيون الانباء ص ٢٠٧ و ٢٤٩، مختصر الدول ص ١٥٣.

(٤٥) وفيات الاعيان، ج ١ ص ٢٠٥-٢٠٦.

أبن لي كيف أمسيت وكم كان من الحال
وكم سارت بك الناقة نحو المنزل الخالي
فردّ عليه حنين بن اسحق:

بخير كنت مسرورا رضي الحال والبال
فإما السير والناقة والمرتع الخالي
فاجلالك انسانية يا غاية آمالي^(٤٦)

وخدم يوحنا بن بختيشوع بصناعة الطب الموفق بالله طلحة بن جعفر المتوكل وكان يعتمد عليه كثيرا ويسميه مفرج كربى، ومما يدلّ على رفعة منزله ما حدث به ابراهيم بن العباس بن طومار الهاشمي فقال:

"كان الموفق اذا جلس للشراب يقدم بين يديه صينية ذهب، ومغسل ذهب، وخرداذي^(٤٧) بلور، ويجلس يوحنا بن بختيشوع عن يمينه، ويقدم اليه مثل ذلك، وكذلك بين يدي غالب الطبيب. ثم يقدم الى جميع الجلساء صواني مدهون، وقناني زجاج ونارنج، قال: وسمعت قد شكى الى الموفق ما يجري عليه في صناعته، فتقدم الموفق الى صاعد بأن يكتب له جميع ما يريد. ثم ان يوحنا حضر بعد مدة مديدة فعدد على الموفق احسانه اليه، ومعروفه عنده، وان صاعداً يكدّر احسانه اليه، ويكتب الى العمال كتباً فيما يبطل عليه ضياعه واملاكه، فتقدم اليه الموفق بالانصراف الى مضربه، واعلمه بكيفية الفكر في هذا. ووجه الموفق الى صاعد فاحضره ووجه اليه وقال له: انت تعلم انه ليس في هذه الدنيا من استريح اليه، واعلم ما في سويداء قلبي، وهو مفرج كربى، غير يوحنا. وأنت دائب الحيلة على تنغيص عيشي بشغل قلبه عن

(٤٦) دعوة الاطباء، ص ٦٥-٦٦.

(٤٧) جاء في هامش ص ٢٢٦ من عيون الانباء: ان الصحيح الخروازي وهي الخمر، وهنا جاءت بمعنى الوعاء الذي يوضع فيه الخمر.

خدمتي، فعل الله بك وفعل. فلم يزل صاعد يحلف له حتى حل سيفه ومنطقته، وقال له: "امض الساعة مع راشد الى مضرب يوحنا، ولا تدع جهداً في ان تتوصل الى جميع ما يحبه وتوثق له، وخذ خطة بانك قد بلغت له كل ما أراد وانفذه اليّ مع راشد". ثم دعا بمنديل وجعله في حجره.. وجعل يكتب ويخرط الخرائط، حتى بلغ ما أراده يوحنا.. وما احتاج يوحنا بعد ذلك ان يستزيد في شيء من أموره" (٤٨).

ولما ولي المقتدر الخلافة استكتب عبيد الله بن بجيتشوع لمدة طويلة، فعظمت منزلته عنده حتى صار رئيساً للأطباء (٤٩).

واشتهر من بين اطباء القاهرة (٥٠) عيسى بن يوسف، المعروف بابن العطار، فقد جعله القاهرة موضع ثقته، ومشيره وسفيره الى وزرائه. وتقدم في وقته تقدماً كبيراً. وشاركه سنان بن ثابت بن قرّة الطب. وكان مختصاً بالقاهرة، ولشدة اغتباط القاهرة بسنان أراده على الاسلام فهرب، ثم اسلم، وخاف من القاهرة فمضى الى خراسان. ثم عاد وتوفي في بغداد مسلماً (٥٢).

وكان الطبيب يقوم احياناً بدور الوسيط لحلّ بعض الامور السياسية العالقة. فقد روي ان مازيار، أحد ابناء ملوك طبرستان ووالي جبال طبرستان من من قبل الخليفة المأمون لما اخفق في حروبه على الخليفة، أشار الى كاتبه الطبيب علي بن ربن الطبري (٥٣)، ان يستعطف قائد الخليفة ويطلب الأمان

(٤٨) عيون الانباء، ص ٢٧٦.

(٤٩) تاريخ الحكماء، ص ١٩١.

(٥٠) القاهرة بالله (محمد) (٩٣٢-٩٣٤) الخليفة العباسي التاسع عشر أساء سياسة الرعاية فأُسّر وسملت عيناه. سجن ١١ عاماً وعاش متسولاً.

(٥٢) تاريخ مختصر الدول ص ١٦٢.

(٥٣) الفهرست، ص ٤٢١، تاريخ الحكماء، ص ١٩٠، عيون الانباء، ص ٣٠٠-٣٠١.

منه. وبعد نجاحه في مسعاه عاد الى الري يمارس مهنة الطب ثانية، بعد ان كان قد تركها عندما دخل في خدمة مازيار، ثم ما لبث ان تولى الكتابة في ديوان المعتصم^(٥٤).

واشتهر في اواسط القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي الطبيب هبة الله بن صاعد بن التلميذ، الذي خدم الخلفاء من بني العباس، وارتفعت مكانته عندهم. ويُروى انه كان يحضر عند المقتفي (٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦٠) كل اسبوع مرة، فيجلسه بنفسه لكبر سنّه. وكانت دار القوارير ضيعة مجرة في اقطاعه فحلّها الوزير بن هبيرة في ولايته. حضر ابن التلميذ يوماً عند الخليفة على عادته، فلما أراد الانصراف عجز عن القيام لضعف الكبر، فنهض متوكئاً على ركبتيه. فقال له المقتفي يا حكيم كبرت^(٥٥). قال: نعم، وتكسّرت قواريري وهذا ما يتماجن به اهل بغداد لمن عجز وعطل، ففطن الخليفة الى ما رمى اليه وقال: رجل عمّر في خدمتنا، وما تماجن قط، ولهذا التماجن سرّ، وسال عن دار القوارير، ف قيل له: حلّها الوزير عنه، من مدة ثلاث سنين، فتعجب الخليفة من حسن أدب امين الدولة، وانه لم ينه امرها اليه، ولا طالب بها. وانكر الخليفة تصرف الوزير، وأمر بردها اليه وان لا يعارض في شيء من ملكه، وزاده اقطاعاً^(٥٦).

وقد تقدم أبو الفرج صاعد^(٥٧) بن هبة الله بن توما في أيام الناصر بالله (٥٧٥-٦٢٢هـ/١٨٠-١٢٢٥م)، فاصبح بمنزلة الوزراء، واستوثقه الناصر على حفظ أمواله وخططه وكان يودعها عنده ويرسله في أمور خفية إلى

(٥٤) فردوس الحكمة، المقدمة، ص ٩.

(٥٥) عيون الانباء، ص ٣٥١. (كبرت يا امين الدولة).

(٥٦) تاريخ الحكماء، ص ٣٤١-٣٤٢. عيون الانباء، ص ٣٥١. وفيات الاعيان ج ٦ ص ٧٥-٧٦.

(٥٧) ورد اسمه في تاريخ الحكماء، ص ٢١٢ (صاعد بن يحيى بن هبة الله بن توما ابو الكرم).

وزرائه، ويظهر له في كل وقت، وكان حسن الوساطة، جميل المحضر، قضيت على يديه حاجات واستكفيت بواسطته شرور^(٥٨)، وكان صاعد قبل ذلك طبيب نجم الدولة أبي اليمن الشرايبي، وارتفعت به الحال الى ان صار وزيره وكتابه، ثم دخل على الخليفة الناصر وكان يشارك من يحضر من اطبائه أوقات مرضه^(٥٩).

ويذكر القفطي ان المسيحي ابن أبي البقاء المعروف بابن العطار، وكان له ذكر وقرب من دار الخلافة، يطب للنساء، وللحواشي ويطأ بساط الخليفة لاجل ذلك، وتيمن الناس بعلاجه وتباركوا بمباشرته^(٦٠).

وتوصل الاطباء في ايام الايوبيين (ضمن الدولة العباسية) الى مراكز الدولة. الكبرى، وكانوا يستشيرونهم في امور دولتهم: فقد خدم موفق الدين بن المطران بصناعة الطب، الملك الناصر صلاح الدين الايوبي^(٦١)، وحظى في أيامه، وكان عنده رفيع المنزلة عظيم الجاه، وكان يتحجب عنده ويقضي اشغال الناس، ونال منه اموالاً كثيرة. وكان صلاح الدين حسن الاعتقاد به لا يفارقه في سفر او حضر، ولهذا غمره باحسانه. وكان يغلب على ابن المطران الزهو بنفسه والتكبر حتى على الملوك، ورغم ذلك كان صلاح الدين يحترمه ويحمله، لما قد تحققه من علمه. ومما يذكر عن عجب ابن المطران وادلاله على

(٥٨) تاريخ الحكماء، ص ٢١٢، عيون الانباء، ص ٤٠٥. تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤١.

(٥٩) عيون الانباء، ص ٤٠٥. تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤١. قوات الوفيات، ج ٢ ص ١١٥.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٣٣٢.

(٦١) صلاح الدين الايوبي (١١٣٨-١١٩٣) ولد في تكريت (العراق) وتوفي في دمشق. مؤسس الدولة الايوبية. اكبر ملوك المسلمين على ايام الصليبيين. عزل الخليفة الفاطمي واعترف بسلطة الخليفة العباسي في بغداد (١١٧١) انتصر على الزنكيين قرب حمص واحتل سورية والموصل، استولى على طبرية وهزم الافرنج قرب حطّين عام ١١٨٧ اسر ملك القدس غي دي لوزينيان وفتح بيت المقدس.

صلاح الدين، انه كان معه في بعض غزواته، وكانت عادة صلاح الدين اثناء حروبه ان ينصب خيمة حمراء، وكذلك دهليزها وشقتها. وبينما صلاح الدين يتنقل على حصانه لاحت له خيمة حمراء وكذلك شقتها ومستراحها. فتأملها ملياً، ثم سأل لمن هي؟ فاخبر انها لابن المطران الطيب. فقال: واللّه لقد عرفت ان هذا من حماقة ابن المطران، وضحك ثم قال: ما بنا ألاّ يعبر بنا أحد من الرسل، فيعتقد انها لاحد الملوك، واذا كان لا بد فليتغير مستراحها. فأمر برميّه. ولما رُمي صعب ذلك على ابن المطران، وبقي يومين لا يقرب الخدمة. فاسترضاه السلطان ووهب له مالاً.

وفي رواية ثانية عن ادلال ابن المطران ورفضه ان يقاسمه أحد محبة السلطان واکرامه له. فقد روي أنه كان في خدمة صلاح الدين طيب يقال له ابو الفرج النصراني، وكان يتردد الى دوره، طلب ابو الفرج من السلطان ان يساعده في تجهيز بناته. فقال له صلاح الدين: اكتب في ورقة ما تحتاج اليه من تجهيزهن. دَوَّن أبو الفرج ما يحتاج اليه من المصاغ والقماش والآلات وغيرها بنحو ثلاثين ألف درهم، فأمر صلاح الدين الخازن دار بان يشتري لابي الفرج جميع ما ذكره. ولما بلغ ذلك ابن المطران قصّر في ملازمته الخدمة، ولاحظ صلاح الدين تغيير في وجهه، فعرف السبب، ثم أمر الخازن ان يحسب جملة ما وصل الى ابي الفرج، ومهما بلغ من المال، يدفع لابن المطران مثله سواء ففعل^(٦٢).

وعلى الرغم من مظاهر الاكرام والجاه التي نعيم بها الاطباء، فان بعضهم رفض الدخول في الخدمة لاسباب. فقد رفض عيسى بن صهاربخت الذهاب الى بغداد لخدمة المنصور، وفضل البقاء في البيمارستان في جنديسابور^(٦٣).

(٦٢) عيون الانباء، ص ٦٥٢-٦٥٣.

(٦٣) تاريخ الحكماء، ص ١٤٨.

ومما حكى عن أمين الدولة ابن التلميذ: "انه كان لا يقبل عطية لا من خليفة او سلطان ، فعرض لبعض الملوك النائية. داره مرض مزمن فقيل له: ليس لك الا ابن التلميذ، وهو لا يقصد أحداً، فقال: انا اتوجه إليه فلما وصل أفرد له ولغلمانه دوراً أفاض عليه من الجرايات قدر الكفاية، ولبث مدة فبرئ الملك وتوجه الى بلاده وأرسل اليه مع بعض التجار أربعة آلاف دينار وأربعة تحوت عتابي واربعة ممالك واربعة أفراس، فامتنع من قبولها وقال: عليّ يمينا ان لا أقبل من أحد شيئا، فقال التاجر: هذا مقدار كثير. قال: لما حلفت ما استثنيت واقام شهراً يراوده ولا يزداد إلا اباء فقال له عند الوداع: ها أنا اسافر ولا ارجع الى صاحبي واتمتع بالمال فتتقلد منته، وتفوتك منفعتي، ولا يعلم احد بأنك رددته. فقال: اعلم في نفسي اني لم اقبله، فنفسي تشرف بذلك، علم الناس او جهلوا" (٦٤).

وكثيراً ما كان الطامعون بالحكم يسعون الى تكليف طيبب الخليفة للقضاء عليه. وقد حدث الصولي (٦٥) في كتاب الاوراق فقال: "ظهرت في رقة الخليفة المأمون نفخة، كانت تعتاده ويراعيها الطيبب الى ان تنضج وتفتح وتبرأ. فقال المعتصم للطيبب وهو ابن ماسوية، ما اطرف ما نحن فيه تكون الطيبب المفرد المتوحد في صناعتك وهذه النفخة تعتاد أمير المؤمنين أفلا نزيلها عنه وتتلطف في جسم مادتها حتى لا ترجع اليه. والله لئن عادت هذه العلة لاضررين عنقك. فاستطرد ابن ماسويه لقول المعتصم. فحدث بعض من يثق به (ابن ماسويه) ويأنس اليه، فقال له: تدري ما قصد المعتصم؟ قال لا. قال: قد

(٦٤) عيون الانباء، ص ٣٥٠.

(٦٥) الصولي (ابو بكر محمد): تعلم العربية على أئمة اللغة واشتهر بلعب الشطرنج فتقرب به الى الخلفاء، توفي في البصرة عام ٩٤٦م له كتاب "الاوراق" في اخبار آل عباس واشعارهم. وعدة دواوين.

امرك بقتله حتى لا تعود النفخة اليه، وإلا فهو يعلم ان الطبيب لا يقدر على دفع الامراض عن الاجسام. وانما قال لك لا تدعه يعيش ليعود المرض اليه. فتعال ابن ماسويه وأمر تلميذاً له بمشاهدة النفخة والتردد الى المأمون نيابة عنه، والتلميذ يجيئه كل يوم ويعرفه حال المأمون... فأمر بفتح النفخة، فقال له: اعيذك بالله، ما احمرّت ولا بلغت الى حد الجرح. فقال له امض وافتحها كما اقول لك، ولا تراجعني، فمضى وفتحها ومات المأمون" (٦٦).

ولكن شرف المهنة كان يحول دون بعض الاطباء والتأمر على أولياء نعمتهم مهما بذل لهم من المال. وقد رُوي انه حضر السلطان محمد بن محمود خوارزمشاه السلجوقي الى ظاهر بغداد وتغلّب على جيش الخليفة المقتفي، وحاصر بغداد. وكان امين الدولة بن التلميذ الطبيب النصراني يدوي كليهما متنقلاً من بغداد وظاهرها. فسأله وزير السلطان يوماً قائلاً: أيها الرئيس إنني قد كنت عند السلطان، وذكرت له من فضلك وادبك ورئاستك، وقد أمر لك بعشرة آلاف دينار. فقال له: يا مولانا، قد امر لي من بغداد باثني عشر الف دينار، أفياذن لي في قبولها السلطان؟ يا مولانا انا رجل طبيب لا اجتاوز وظائف الاطباء وما يلزمهم، ولا اعرف الا ماء الشعير والنقوع والشراب والبنفسج النيلوفر^(٦٧)، ومتى اخرجت عن هذا لا اعرف شيئاً، وكان الوزير قد عرض له في حديثه انه يسعى الى قتل الخليفة. وبعد مرة ما لبث ان وقع الصلح بين الخليفة والسلطان. كان أمين الدولة يحذّر دائماً الاطباء من التدخل

(٦٦) عيون الانباء، ص ٤٥٤.

(٦٧) النيلوفر: قال ابن سينا: "قال جالينوس: هو كرنب الماء ويسمى حب العروس، اقواه الابيض الاصل، فهو اقوى من الاسود الاصل، شرابه ملطف (القانون ج ١ ص ٣٥٧) وقد جاء في عيون الانباء هامش ص ٣٤٨، ان النيلوفر نوع من الرياحين، ينبت في المياه الراكدة. وجاء في قطر المحيط للمعلم بطرس البستاني، م ٢٢، ص ٢٢٦٤: النيلوفر ضرب من الرياحين.

في أمور اسيادهم الخاصة فيقول: لا ينبغي للطبيب ان يداخل الملوك في أسرارهم، ولا يتجاوز كما تقدم ذكره ماء الشعير والنقوع والشراب. فمن جاوز هذا تلف وكان سبب هلاكه وينشد:

واذا أنبت المهيمن للنمل جناحاً اطارها التردى
ولكل امرئ من الناس حدٌ وهلاك الفتى جواز الحد^(٦٨)

وقد يستغل الطبيب ثقة الخليفة به، فيتمادى في سوء تصرفه طمعاً بكسب مادي، ويلجأ أحياناً الى التهديد. فعندما كان عيسى بن شهلا في خدمة الخليفة المنصور، اخذ ييسط يده في الاذية، خصوصاً على الاساقفة والمطارنة ومطالبتهم بالرشى واخذ أموالهم. ولما خرج المنصور في بعض سفراته كتب عيسى الى مطران نصيبين^(٦٩) يتهدده ويتوعده ان منع عنه ما التمس منه من آلات البيعة، وهي أشياء ثمينة، وكتب في كتابه الى المطران:

(٦٨) وهذا ما جرى لابن صفية الطبيب المسلم، لغدره وخيانتة، فقد سعى بالاتفاق مع قطب الدين قايمار الى مقتل الخليفة المستنجد بالله العباسي واستخلاف ابنه المستضي (عيون الانباء، ص ٣٤٧) وكان الخليفة يعلم ما جرى لوالده على يديه ومن استمراره في سوء الامانة، فاستحضره ليلاً وقال له يا حكيم عندي من اكراه رؤيته واريد إبعاده بوجه لطيف غير شفيق. فقال له: نرتب له شربة قوية بالغة يشربها، وقد حصل الخلاص منه كما تؤثر، فمضى وركب شربة كا وصف واحضرها ليلاً ودخل الى الخليفة، ففتحها ونظر اليها وقال: يا حكيم استف هذه الشربة حتى نجرب فعلها. فتلوى من ذلك وقال: الله الله يا مولانا في؟ فقال له: الطبيب متى تعدى حده وتجاوز طوره وقع في مثل هذا وليس لك من هذا خلاص الا السيف. فاشتف الحكيم الشربة. التي ركبها. ثم خرج من دار الخليفة وكتب الى الامير قطب الدين يعلمه بالحال ويقول له: والانتقال من امري الى امركم، ثم مات. أما قطب الدين فقد نهبت امواله وهرب من بغداد ومضى الى الشام ليتقرب من الملك صلاح الدين فرفضه. وفي طريق عودته الى الموصل مرض، ثم دخل الموصل ومات فيها (عيون الانباء، ص ٣٤٧-٣٤٨).

(٦٩) نصيبين: مدينة على طريق القوافل بين الموصل والشام. (معجم البلدان ٥ : ٢٨٨).

"اليس تعلم ان أمر الملك بيدي، وان اردت امرضته، وان اردت شفيته". فلما وقف المطران على الكتاب أطلع عليه الربيع واخبره بتصرفات الطبيب. فلما اطلع الخليفة على حقيقة الامر امر بنفي عيسى بن شهلا مصادرة جميع أملاكه^(٧٠).

نواذر الاطباء وطرائفهم

كان بعض الاطباء مدينين بنجاحهم الى الطرائف. فسهل بن الكوسج، غلب عليه هزله على جدّه وقد جعلته دعاياته محبا الى قلوب معاشريه. وقد اجتمع مع يوحنا بن ماسويه، وجيورجيس بن بختيشوع، وعيسى بن حكم وعيسى بن خالد، وزكريا الطيفوري، ويعقوب صاحب البيمارستان، والحسن بن قریش وعيسى المسلم وسهل بن جبیر، وكان كل من هذه الطبقة من المتطبيين يخاف لسانه لبداءته وكانت دعاياته احيانا تلحق الالهانة بالآخرين خصوصاً اذا كان الدافع لها هو الحسد. من ذلك انه خرج في يوم الشعانين يريد دير الجاثليق^(٧١). والموضع التي تخرج اليها النصارى في يوم الشعانين، فرأى يوحنا بن ماسويه في هيئة خير من هيئته وعلى دابة أفره من دابته، ومعه غلمان فحسده على الظاهر من نعمته فصار الى صاحب مسلحة^(٧٢) الناحية فقال له: "ان ابني يعقني وقد عجبته نفسه، وربما اخرجته العجب بنفسه، وينعمته الى جحود أبوتي، وان انت بطحته وضربته عشرين درّة^(٧٣) موجعة

(٧٠) تاريخ الحكماء، ص ٢٤٨. عيون الانباء، ص ١٨٥.

(٧١) الجاثليق، كلمة يونانية (كاثوليکوس) وتعني العام، الجامع، وهو مقدّم الاساقفة عند النصارى ورئيسهم. ودير الجاثليق يقع جنوب بغداد قريبا منها.

(٧٢) مسلحة: هي كالثغر والمرقب، يكون فيها أقوام يرقبون العدو ويكون لديهم سلاح (لسان العرب ٢: ١٧٩-١٨٠).

(٧٣) درّة: السوط. (عيون الانباء، هامش ص ٢٢٩).

اعطيتك عشرين ديناراً، ثم اعتزل ناحية الى ان بلغ يوحنا الى الموضع الذي هو فيه، فقدمه الى صاحب المسلحة وقال: هذا ابني يعقني ويستخف بي، فجحد ان يكون ابنه، فلم يكلمه صاحب المسلحة، حتى بطح يوحنا وضربه عشرين درّة ضرباً موجعاً" (٧٤).

وقيل: "كان مجلس يوحنا بن ماسويه أعمر مجلس مدينة السلام لتطبيب او متكلم او متفلسف، لانه كان يجتمع فيه كل صنف من اصناف أهل الادب. وكان في يوحنا دعاية شديدة، يحضر بعض من يحضر من أجلها. وكان من ضيق الصدر، وشدة الحدة على اكثر مما كان عليه جبرائيل بن بختيشوع وكانت الحدة تخرج منه الفاظاً مضحكة، وكان اطيب ما يكون مجلسه في وقت نظره قوارير البول. ومما حفظ من نوادره في وقت نظره القوارير: ان امرأة اتته فقالت له: ان فلانة وفلانة وفلانة يقرأن عليك السلام، فقال لها: انا بأسماء اهل قسطنطينية وعمورية اعلم فيّ بأسماء هؤلاء الذين سميتهن، فاطهري بولك حتى انظر فيه" (٧٥).

ومن نوادره هذه في مجلس المتوكل، ان الخليفة قال لخدام له: "خذ بول فلان في قارورة وائت به الى ابن ماسويه، فاتى به فلما نظر اليه قال: هذا بول بغل لا محالة. فقال له المتوكل: كيف علمت انه بول بغل قال ابن ماسويه: احضرني صاحبه حتى أراه ويتبين كذبي من صدقي فقال المتوكل: هاتو الغلام، فلما مثل بين يديه قال له ابن ماسويه، ايش اكلت البارحة؟ قال: خبز شعير، وماء قراح. فقال ابن ماسويه: هذا واللّه طعام حماري اليوم" (٧٦).

(٧٤) تاريخ الحكماء، ص ١٩٦-١٩٧. عيون الانباء، ص ٢٢٩.

(٧٥) تاريخ الحكماء، ص ٣٨٥، عيون الانباء، ص ٢٤٧.

(٧٦) تاريخ الحكماء، ص ٣٨٤، عيون الانباء، ص ٢٤٧.

ويبدو ان حدة لسانه وحضور نكته، أوجد له كثيراً من المبغضين بين زملائه ومرضاه، وحتى بين رجال الدين. فقد شكّا اليه يوماً رجل جرباً. وكان كلما ذكر له يوحنا دواء يجيبه بأنه استعمله من دون فائدة. فقال له يوحنا: "لم يبق شيء مما امر المتطببون الا وقد ذكرت انك فعلته، وبقي شيء، مما لم يذكره ابقراط ولا جالينوس. وقد رأيناه يعمل على التجربة كثيراً، فاستعمله فاني ارجو ان ينجح علاجك ان شاء الله. فسأله: ما هو؟ فقال إبتع زوجي قراطيس وقطععهما رقاعاً صغيراً واكتب في كل رقعة: رحم الله من دعا لمبتلي بالعافية. والى نصفها في المسجد الشرقي بمدينة السلام، والنصف الآخر في المسجد الغربي، وفرقهما في المجالس يوم الجمعة، فاني ارجو ان ينفعلك الله بالدعاء اذا لم ينفعلك العلاج" (٧٧).

وشكّا اليه رجل آخر جرباً اصابه في أيام الشتاء فقال: "ليست هذه من أيام علاج ما تجدد، وانما علاج دائم هذا في أيام الربيع. فتنكب اكل المعفونات كلها، وطري السمك، ومالحه صغار ذلك وكباره، وكل حريف من الابرار والبقول، ومما يخرج من الضرع. فقال له الرجل: هذه اشياء لست اعطي صبراً على تركها. فقال له يوحنا: فان كان الامر على ما ذكرت فادمن اكلها وحك بدنك، فلو نزل المسيح لك خاصة لما انتفعت بدعائه، لما تصف به نفسك من الشره" (٧٨).

ومن نوادره مع رجال الدين، انه اشتدت عليه علة حتى يؤس منه أهله "ومن عادة النصارى إحضار من يؤس منه أهله جماعة من الرهبان والقسيسين والشمامسة يقرأون حوله، ففعل مثل ذلك بيوحنا، فجلس الرهبان حوله يقرأون، فقال لهم: يا أولاد الفسق ما تصنعون في بيتي؟ فقالوا له: كنا ندعو

(٧٧) تاريخ الحكماء، ص ٣٨٦، عيون الانباء، ص ٢٤٧.

(٧٨) عيون الانباء، ص ٢٤٨.

ربنا في التفضل عليك بالعافية. فقال لهم: قرص ورد افضل من صلوات جميع اهل النصرانية منذ كانت الى يوم القيامة، اخرجوا من منزلي فخرجوا" (٧٩).

وصار اليه يوماً قسيس الكنيسة التي يتقرب منها يوحنا وقال له: "قد فسدت عليّ معدتي. فقال له استعمل جوارشن" (٨٠) الخوزي. قال: قد فعلت. فقال يوحنا: فاستعمل السمقونيا" (٨١). قال: قد اكلت منها ارطالاً، فأمره باستعمال المقداذيقون" (٨٢)، فقال: قد شربت منه جرّة. قال له: فاستعمل المروسيا" (٨٣)، فقال، قد فعلت واكثر. فغضب وقال له ان أنت أردت ان تبرأ فاسلم، فإن الاسلام يصلح المعدة" (٨٤).

(٧٩) عيون الانباء، ص ٢٤٨.

(٨٠) جوارشن الخوزي، قال عنه ابن سينا، "نافع من ضعف الكبد والمعدة وهو جيد للطحال مدرر للبول (اخلاطه) يؤخذ قسط وقرنفل وحب البلسان، وسيلخة وجوزبوا والقافلة والقرنفل والانيسون.. الخ كلها تسحق كالكحل وتعجن بعسل الطبرزد" (القانون ج ١ ص ٢٨١ و ٤١٧ وج ٣ ص ٣٥٠).

(٨١) السمقونيا: عرفها ابن سينا بما يلي: "وهو نبات له ثلاثة اغصان كبيرة مخرجها من اصل واحد، وله ورق شبيه بورق اللبلاب الا انه ألين منه وله ثلاث زوايا. زهره ابيض مستديراً أجوف، ثقيل الرائحة له اصل طويل غليظ ممتلئ لبناً. ويؤخذ لبنه من رأسه الاعلى من اصله. (القانون، ج ١ ص ٣٨٥-٣٨٦).

(٨٢) المقداذيقون، لم أجد هذه اللفظة لا في كتاب القانون ولا في كتاب الجامع لمفردات الادوية والاغذية، وقد وردت عند القفطي، ص ٣٨٦.

(٨٣) المروسيا، لم أجد هذه اللفظة في أي مصدر من المصادر والقواميس، ولكن ورد لفظة مرو، وهو نوع من الرياحين (القانون ج ١ ص ٣٦٢. وورد عند ابن سينا وابن البيطار لفظة أمروسيا، وهي نافعة من ضعف الكبد والطحال وصلاتهما. وتفتت الحصاه في الكلي ومنفعتها في ابتداء الاستسقاء (القانون، ج ٣ ص ٣٢٧). وعند ابن البيطار تنفع المعدة (الجامع لمفردات الادوية والاغذية ج ١ ص ٥٥).

(٨٤) تاريخ الحكماء، ص ٣٨٦-٣٨٧. عيون الانباء، ص ٢٤٧-٢٤٨.

ولم يكن ابن ماسويه موفقا دائما في تعليقاته، ومداعباته، فقد قال له مرة ابن بتختيشوع مازحا وهم في مجلس أبي اسحق ابراهيم بن المهدي في معسكر المعتصم بالمدائن، وكان يداعبه كثيراً: "انت يا ابا زكريا أخي لابي، فقال يوحنا لابي اسحق: اشهد ايها الامير على إقراره فوالله لأقاسمته ميراثه من ابيه. فقال له بتختيشوع: ان اولاد الزنا لا يرثون وقد حكم الاسلام للعاهر بالحجر والحجر. فانقطع يوحنا ولم يجر جواباً" (٨٥).

وقد تهادى يوحنا بن ماسويه بجرأته الى درجة إظهار عيوب مريضه مهما علّت منزلته، فقد اعتل محمد بن سليمان بن الهادي، المعروف بابن مشغوف علّة تناولت به. وكان ابن مشغوف ربما يزيد في الحديث اشياء لا تنطلي على سامعها... فاستشار يوماً يوحنا بن ماسويه فيما يأخذ. فقال يوحنا: قد كنت اشير عليك بما تأخذ في كل يوم وانا احسبك تحب الصحة والعافية فاما اذا صح عندي انك تكره العافية، وتحبّ العلة فلست استحلّ أن اشير عليك بشيء. فقال له ابن مشغوف: يا جاهل من يكره العافية ويحبّ العلة؟ فقال له يوحنا: أنت، والبرهان على ذلك ان العافية في العالم تشبه الحق والسقم يشبه الكذب، وانت تتكلم اكثر دهرك بالكذب، فيكون كذبك مادة لسقمك، فمتى تبرا أنت من علّة متطاوله، وانت تمدها اكثر دهرك بالكذب الزائد فيها. فالزم الصدق ثلاثة ايام ولا تكذب فيها، فيوحنا برئ من دم المسيح، ان لم تخرج من هذه العلة قبل انقضاء هذه الثلاثة أيام (٨٦).

وكانت الكتابة متبادلة بين الطبييين ابن رضوان وابن بطلان وكلاهما أديب طريف. وقد خرجت بينهما وقائع كثيرة ونوادير ظريفة لا تخلو من فائدة، وقد تضمن كثيراً من هذه الاشياء كتاب ألفه ابن بطلان بعد خروجه

(٨٥) تاريخ الحكماء، ص ٣٨٧. عيون الانباء، ص ٢٤٨.

(٨٦) عيون الانباء، ص ٢٥١.

من مصر واجتماعه بابن رضوان. ولابن رضوان كتاب في الردّ عليه. وكان ابن بطلان اعذب إلفاظا واكثر ظرفاً واميز في الادب وما يتعلق به. وكان ابن رضوان أطب واعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق به وكان ابن رضوان أسود اللون، قبيح الصورة، وله مقالة في ذلك يردّ فيها على من عيّره بقبح الخلقة. وقد بين فيها بزعمه ان الفاضل يجب ألا يكون وجهه جميلاً. وكان ابن بطلان اكثر ما يقع في علي بن رضوان من هذا القبيل واشباهه.

وفي ذلك يقول فيه:

فلما تبدى للقوايل وجهه نكصن على اعقابهن من الندم
وقلن واخفين الكلام تستراً ألا ليتنا كنا تركناه في الرحم
وكان يلقيه بتمساح الجن^(٨٧).

وقد جرت مناظرة قوية بين ابن التلميذ عميد أطباء بغداد وأبي البركات هبة الله الطبيب اليهودي، وكانت بينهما عداوة، وكان ابو البركات لما اسلم يتنصل كثيراً من اليهود ويلعنهم ويسبهم. فقد حضر يوماً مجلس احد الزعماء، وجرى ذكر اليهود. وقال ابو البركات اليهودي الاصل: لعن الله اليهود. فقال امين الدولة المسيحي، نعم وأبناء اليهود. فوجم ابو البركات وعرف انه عناه بالاشارة ولم يتكلم^(٨٨).

نكبات الاطباء

لم تخل حياة الاطباء، بالرغم من المجد الذي عاشوا فيه، من نكبات وكوارث. فمهنة الطبيب كانت محفوفة بالاحطار، لان الخلفاء كلفوا الاطباء المحافظة على حياتهم، فقرّبوا كل من برع في شفائهم من الامراض التي

(٨٧) عيون الانباء، ص ٣٢٦.

(٨٨) عيون الانباء، ص ٣٧٦.

انتابتهم او ألت بأسرهم وخاصتهم. فويل للطبيب الذي كان يخفق في معالجة الخلفاء والوزراء والامراء والسلاطين او انسبائهم وبطانتهم. فانه يورد نفسه موارد التهلكة، ويذهب ضحية صناعته. وهنيئاً لمن ينجح في معالجتهم، فانه ينال خيرهم الوافر، وصلاتهم الغزيرة وعلو المنزلة لديهم.

لما مرض الخليفة الهادي (٧٨٥-٧٨٦م) أمر بقتل جميع الاطباء وهم (ابو قريش عيسى، وعبد الله الطيفوري، وداود بن سراييون) الذين أخفقوا بمعالجته. ولكن موت الخليفة حال دون تنفيذ القتل^(٨٩).

ومثل ذلك جرى للطبيب جبرائيل بن بختيشوع مع هارون الرشيد فانه حكم عليه بالقتل لانه نسب انتكاساته الى جهل طبيبه نفسه. ولم ينقذه من القتل الا موت الرشيد^(٩٠).

وتجدر الاشارة الى ان الوزراء كانوا يحولون دون تنفيذ حكم الاعدام الفوري، ففي المرة الاولى لعلم الربيع باختلال عقل الخليفة من شدة المرض. وفي الحالة الثانية لان الفضل بين الربيع يثس من حياة الرشيد فاستبقى جبرائيل.

قال فثيون التزجمان: لما ملك الواثق.. كان محمد بن عبد الملك الزيات وابن ابي داود يعاديان بختيشوع، ويحسدانه على فضله، وبرّه ومعروفه وصدقاته وكمال مروءته. فكانا يغريان الواثق^(٩١) عليه... فسخط عليه الواثق وقبض على املاكه وضياعه، ونفاه الى جنديسابور^(٩٢).

(٨٩) عيون الانباء، ص ١٧٦. تاريخ الطب عند العرب، ص ١٥.

(٩٠) عيون الانباء، ص ١٨٩. تاريخ الطب عند العرب، ص ١٥.

(٩١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٠ ص ٨٧. (كان القاضي بن ابي داود والوزير الزيات يعملان ضده عند المتوكل).

(٩٢) عيون الانباء، ص ٢٠١-٢٠٢.

وكانت نكبات الاطباء تحدث في بعض الاحيان على سبيل الردع للحد من نفوذهم، اذ ان الخلفاء لم يلبثو بعد نفيهم لأطبائهم ان يستدعوهم لتطبيبهم (ويغدقون عليهم الرتب والاموال، فنرى بختيشوع بن جبرائيل، بعد ان نُكِبَ في زمن الواصل، قد حسنت احواله ايام الخليفة المتوكل، حتى بلغ من الجلالة والرقعة وعظم المنزلة وحسن الحال وكثرة المال وكمال المروءة ومباراة الخلافة في الزي واللباس والطيب والفرش والصناعات والتفسيخ والبذخ في النفقات، مبلغاً يفوق الوصف فحسده المتوكل وقبض على املاكه ونفاه^(٩٣)).

وتحكي لنا المصادر هذه الحادثة كما يلي:

... قال المتوكل يوماً لبختيشوع "ادعني" قال: "عم وكرامة".

فأضافه وأبدى له من الاعتزاز والكرم ما أعجب الخليفة والحاضرين. فاستكثر اذ ذاك المتوكل ما شاهده من نعمة وغناء. فحقد عليه ونكبه بعد ايام سيرة. ولما ملك المهدي^(٩٤) عام (٢٥٥هـ/٨٦٩م) أذن له بالعودة الى وطنه وردّ عليه ما إبتزّه المتوكل منه واكرمه كثيراً^(٩٥).

ويعدّ بختيشوع اول من استعمل طريقة تكييف الهواء والحرارة كما حدّث جدّ ابي محمد بدر اذ قال:

"دخلت الى بختيشوع في يوم شديد الحر وهو جالس في مجلس مخيش بعدة طاقات وعليه جبة يمانى سعيدي مثقلة ومطرف من التحف، فعجبت من زيّه. فحين حصلت معه في القبة، نالني من البرد أمر عظيم فضحك وأمر لي

(٩٣) عيون الانباء، ص ٢٠١ الوافي بالوفيات، ج ١٠ ص ٨٧.

(٩٤) المهدي بالله (٨٦٩-٨٧٠م) ولد في سامراء. الخليفة العباسي الرابع عشر. سعى عبثاً الى اصلاح اخلاق البلاط الفاسدة. عجز عن دفع مرتبات الجند فقتل.

(٩٥) تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤٩-٢٥٠. تاريخ الامم والملوك للطبري، ١١: ٥٦ و ٦٠.

بجبة ومطرف وقال: "يا غلام اكشف جوانب القبة. فكشفت واذا ابواب مفتوحة من جوانب الايوان الى مواضع مكبوسة بالثلج وغلمان يروحون ذلك الثلج فيخرج منه البرد الذي لحقني... ولما كان في صلب الشتاء دخلت عليه يوماً والبرد شديد وعليه جبة محشوة وكساء وهو جالس في طارحة من الدار على بستان في غاية الحسن. وبين يديه كانون فضة مذهب مخرق وخادم يوقد العود الهندي وعليه غلالة قصب في نهاية الرفعة. فلما حصلت معه في الطارحة وجدت من الحرّ امرأً عظيماً فضحك وأمر لي بغلالة قصب وتقدم يكشف جوانب الطارحة فاذا مواضع لها شبايك خشب بعد شبايك حديد وكوانين فيها فحم الغضا وغلمان ينفخون ذلك الفحم بالزقاق كما تكون للحدادين" (٩٦).

وكان من عادته يجلس في عربة من الابنوس ويخرج من القصر وبين يديه الف من الرجال. ويمضي الوقت من المساء حتى منتصف الليل بكل ضرب من ضروب المتعة. ثم يقوم للصلاة ومن حوله خصيانه السود الذين كان شديد الولع بهم. وبعد الفراغ من الصلاة يجلس للحديث. ويظل يقرأ الانجيل حتى يتنفس الصباح (٩٧).

ولما عرض للمتوكل بعد مصادرة املاك بختيشوع القولنج، فاستحضره المتوكل واعتذر اليه، وعالجه وأبرأه. فأنعم عليه ورضي عنه واعاد ما كان له (٩٨).

وقد يكتفي الحكام أحياناً بحبس الطبيب، او ابعاده عن الخدمة مع تخفيض راتبه، وهذا ما جرى لبعض اطباء المأمون، فعند تسلّمه الخلافة أمر

(٩٦) عيون الانباء ١: ١٣٩-١٤٠. الطب العربي ص ٥٩-٦٠.

(٩٧) اهل الذمة، في الاسلام ص ١٧١.

(٩٨) عيون الانباء، ص ٢٠١-٢٠٢.

بحبس جبرائيل بن بختيشوع لانه التحق في خدمة اخيه الامين^(٩٩)... وكفّ يد طبيبه جبرائيل الكحالي، لانه أعلن عن نومه من دون اذنه. فعندما علم المأمون بتصرف كحّاله غضب عليه وقال: "يا جبرائيل اتخذتك كحّالاً لي أو عاملاً على الاخبار عني؟، أردد عليّ مكاحلي واخرج من داري" ثم قال: "انه له حرمة، فليقتصر على اجراء مائة وخمسين درهما في كل شهر ولا يؤذن له في الدخول". وكان راتبه قبل ذلك الف درهم في كل شهر^(١٠٠).

وكثيراً ما كان اخلاص الطبيب لولي نعمته يجرّ عليه ويلات المتأمرين على الخلافة، من ذلك ما جرى لبختيشوع بن جبرائيل، فبعد ان رضي الخليفة، واعتذر اليه، أوغرّ المتأمرون صدر المتوكل عليه فنكبه بمصادره جميع أملاكه ونفيه الى البصرة. وكان سبب ذلك: إن عبد الله استكتب ابا العباس الحصيني وكان رديثاً، فاتفقا على قتل المتوكل واستخلاف المنتصر. وقال بختيشوع للوزير: كيف استكتبت المنتصر الحصيني وانت تعرف رداءته؟ فظن عبد الله ان بختيشوع قد وقف على التدبير، وكان يعمل مقدار محبته للخليفة المتوكل. فسعى مع المنتصر^(١٠١) (٢٤٧-٢٤٨هـ/٨٦١-٨٦٢م) الى نكبته هذه حيث أبعد عن بغداد، وقتل المتوكل^(١٠٢).

وحدث، مثل ذلك فيما بعد في أيام الناصر، وكان في آخر أيامه قد ضعف بصره وأدركه سهو، فاستحضر امرأة بغدادية، تعرف (بست نسيم)

(٩٩) عيون الانباء، ص ١٨٩.

(١٠٠) تاريخ الحكماء، ص ١٥٢. عيون الانباء، ص ٢٤١-٢٤٢.

(١٠١) المنتصر بالله (٨٦١-٨٦٢) الخليفة العباسي الحادي عشر. تأمر مع وصيف على قتل أبيه المتوكل في القصر "الجعفري" في سامراء لانه قدّم عليه اخاه المعتز في ولاية العهد (٩ ك ١ ٨٦١) قتله الاتراك بالسّم بعد ستة اشهر.

(١٠٢) عيون الانباء، ص ٢٠٢.

وجعلها بين يديه تكتب الاجوبة والرقاع، وشاركها في ذلك خادماً اسمه تاج الدين رشيق. وصارت المرأة تكتب الاجوبة بما تراه ويشاركها الخادماً في مثل ذلك. وعندما اطلع وزير الناصر القمي المدعو بالمؤيد على ما يجري، استدعى طبيب الخليفة صاعد بن توما واخبره بذلك. فعرفه الطبيب ما عليه الخليفة من ضعف البصر والسهو الطارئ في اكثر الاوقات. وما تعتمد المرأة والخادماً من الاجوبة. وعندما علم هذان الاخيران بموقف الطبيب تربصا له وهو في طريقه الى دار الخلافة ووثبا اليه بسكينيهما وقتلاه^(١٠٣).

وكثيراً ما أدى غلط العلماء وسوء تصرفهم في حضرة الملوك الى هلاكهم فقد دخل دانيال المتطرب يوماً الى معز الدولة. فقال له يا دانيال. فقال لبيك ايها الأمير. قال: ليس عندكم ان السفرجل إذا أُكِلَ قبل الطعام امسك الطبع، واذا اكل بعد الطعام أسهل؟ قال: بلى. قال: فأنا اكلته بعد الطعام وعصمني. قال دانيال: ليس هذا الطبع للناس، فلكم معز الدولة بيده في صدره وقال له: قم تعلم أدب خدمة الملوك وتعال. فخرج من بين يديه ونفث الدم ولم يزل كذلك مدة حتى مات^(١٠٤).

وقد ذكر في كتاب محنة الاطباء انه قد أصاب معز الدولة فالج فعالجه دانيال وشفى. وبعد مدة أصابه سرسام^(١٠٥)، حاد فقال له الحمقى من

(١٠٣) تاريخ الحكماء، ص ٢١٣-٢١٤. عيون الانباء، ص ٤٠٥-٤٠٦. فوات الوفيات، ص ١١٥-١١٦.

(١٠٤) عيون الانباء، ص ٣٢٠.

(١٠٥) السراسم: قال ابن سينا: "أما علاماته المشتركة لاصنافه الحقيقية فحمى لازمة تشتد في الظواهر على الأكثر وهذيان يفرط او ينقطع اخرى كراهة للكلام وكسل عنه ويختلط العقل... وعث الاطراف ونفس مضطرب غير منتظم... وربما كان معه نوم مضطرب ويتبهن عنه فيصبحون وتارة ينامون وتارة يسهرون ويكون نومهم... مع خيالات واحلام فاسدة وانتباه مشوش مع صياح ويكون هناك وقاحة وجسارة وغضب فوق المعهود. (القانون لابن سينا، ج ٢، ص ٤٥-٤٦).

الاطباء، هذه تأثيرات الادوية التي عالج بها دانيال دفعاً للفالج، فقبل المعز ذلك الكلام وغضب على دانيال ونكبه. فقال: من خدم السلطان قاس في ساعة واحدة، من الاذى والخوف، ما لا يقاسيه في زمن طويل^(١٠٦).

تنافس الاطباء

لما إتسع نطاق التأليف في الطب، وأصبحت الطبابة صناعة نبيلة، جرت بين الاطباء مناقسة، افضت في بعض وجوهها الى الجدل الحاد تارة، والى التهاجي والتلاحي تارة أخرى.

قال الطبيب سلمويه متهمكاً على الطبيب يوحنا بن ماسويه:

"يوحنا آفة من آفات من إتخذة لنفسه طبيباً، واتكل على علاجه وكثرة حفظه للكتب، وهو اجهل خلق الله بمقدار الداء والدواء معا... فصاحبه أبدا عليل إما من حرارة واما من برودة، والابدان تضعف عن احتمال هذا التدبير. وانما الغرض من اتخاذ الناس المتطبيين لحفظ صحتهم في أيام الصحة وللخدمة طبائهم في أيام العلة. ويوحنا لجهله بمقادير العلل والعلاج غير قائم بهذين البابين ومن لم يقيم بهما فليس بمطبيب"^(١٠٧).

ومن المستغرب حقا ان يكون هذا رأي سلمويه بيوحنا بن ماسويه، ثم ينصح المعتصم، بان يتخذة طبيبا خاصا له بعد وفاته (اي وفاة سلمويه) ولعدم ثقة سلمويه بيوحنا، يعود ويحذر المعتصم منه قائلا: "اذا شكوت اليه شيئا، فقد يصف فيه أوصافاً، فاذا وصف، فخذ أقلها اخلاطاً" وما لبث المعتصم ان ذهب ضحية جهل يوحنا بن ماسويه في العلاج، وذل بعد عشرين شهراً من وفاة سلمويه.

(١٠٦) تاريخ حكماء الاسلام، ص ٨١-٨٢.

(١٠٧) تاريخ الحكماء، ص ٣٨٥. عيون الانباء، ص ٢٣٧.

ويبدو من خلال كتابي القفطي وابن أبي أصيبعة، ان يوحنا بن ماسويه قد تسبب في مقتل خليفتين، الاول، المامون، وذلك باشارة من المعتصم، ثم المعتصم بحجة سوء تدبير العلاج. ثم نرى ان أبي اصيبعة ينعتة بأوصاف تتنافى وقدسية مهنة الطب، فيقول فيه بعد مقتل المأمون: "إنما فعل ابن ماسويه ذلك لكونه عديم المروءة والدين، والامانة، فكان على غير ملّة الاسلام، ولا تمسك بدينه أيضاً. ومن ليس له ديناً يتمسك به، ويعتقد فيه بالواجب، ان لا يداينه عاقل ولا يركن اليه حازم" (١٠٩).

ويشترك المصدران السابقان باتهام يوحنا بن ماسويه بقتل ابنه عمداً. فقد اعتل ماسويه ابنه يوماً، فرأى يوحنا فصدّه فعارضه الطيفوري جدّه لأمه وابناه زكريا ودانيال. لم يقتنع يوحنا وقصد ابنه وخرج الى الشام تلبية لدعوة المعتصم له. وتوفي ماسويه بعد خروج ابيه بثلاثة ايام، فكان الطيفوري جدّه وولده يحلفون بالله في جنازته ان يوحنا تعمّد قتله ويستدلون بما صرح به يوحنا سابقاً. فقد كان ماسويه بن يوحنا بليداً أبلهاً وكان يوحنا يريد التخلص منه فقال: "لولا كثرة فضول السلطان ودخوله فيما لا يعنيه لشرّحت ابني هذا مثل ما كان جالينوس يشرّح الناس والقروء فكنت اعرف بتشريجه الاسباب التي كانت لها بلادته واريح الدنيا من خلقة واكسب اهلها بما اضع في كتابي من صفة تركيب بدنه ومجاري عروقه وأوراده واعصابه علماً ولكن السلطان يمنع من ذلك" (١١٠).

فكل هذه الامور باعتقادي تثير الشكوك والتساؤلات حول شخصية هذا الطبيب ودوره، على الصعيدين الاجتماعي السياسي. فهل يعقل ان يجحد

(١٠٨)؟؟؟ أين هي في النص؟ تاريخ الحكماء، ص ٣٨٥. عيون الانباء، ص ٢٣٧.

(١٠٩) عيون الانباء، ص ٢٥٤-٢٥٥.

(١١٠) تاريخ الحكماء، ص ٣٩٠-٣٩١، عيون الانباء، ص ٢٥٢.

طبيب كابن ماسوية فضل خلفاء انعموا عليه ومنحوه الثقة والاحترام والاكرام، أم ان هذه الامور تدخل في باب المنافسة بين الاطباء.

قد نجد بعضاً من جواب عند هاشم الورتري في كتابه "تاريخ الطب في العراق" وهو ينفي هذه التهم عن يوحنا بن ماسويه قائلاً: "ونحن نعتقد ان في ذلك تحاملاً كبيراً على رجل خدم الطب العربي بذكاء وخبرة، وقد كان ابن ماسويه فاضلاً مبجلاً وله تصانيف وتراجم مشهورة"^(١١١).

وقد جلب نجاح حنين بن اسحق الفريد له عداوة الكثيرين ولا سيما بين زملائه الاطباء الذين كانوا يضطهدونه ويتآمرون على حياته، فقال متألماً:

"انه لحفني من اعدائي ومضطهدي الكافرين بنعمتي، الجاحدين لحقي، الظالمين لي، المتعدين عليّ من الخن والمصائب والشورور وما منعي من النوم وأسهر عيني واشغلي عن مهماتي وذلك من الحسد لي على علمي وما وهبه الله عزّ وجل لي من علو المرتبة على أهل زمانني، واكثر اولئك اهلي واقربائي، فانهم اول شروري، وابتداء محنتي، ثم من بعدهم الذي علمتهم وأقرأتهم وأحسنتم اليهم وأرقدتهم وفضلتهم على جماعة أهل البلد من أهل الصناعة، وقربت اليهم علوم الفاضل جالينوس، فكافأوني عوض المحاسن مساوئ بحسب ما اوجبه طباعهم. وبلغوا بي الى أقبح ما يكون من إذاعة أوحش الاخبار، وكتمان جليل الاسرار، حتى ساءت بي الظنون، وامتدت اليّ العيون، ووضع عليّ الرصد حتى انه كان يُحصى عليّ الفاضي، ويكثر اتهامي... فوقعوا بغضي في نفوس سائر اهل الملاء فضلاً عن اهل مذهبي، وعملت لي المجالس بالتاويلات الرذلة، فآلت القضية بي الى ان بقيت بأسوأ ما يكون من الحال من الاضاقة والضّر، محبوساً مُضيّقاً عليّ مدة من الزمان لا تصل يدي الى شيء من ذهب ولا فضة ولا كتاب. وبالجملّة ولا ورقة أنظر

(١١١) تاريخ الطب، في العراق، ص ١٩.

فيها... اما هؤلاء الاطباء النصارى الذين اكثرهم تعلموا بين يديّ، ونشأوا قدامي هم الذين يرومون سفك دمي، على أنهم لا بد لهم مني... فان الحسد لم يزل بين الناس... وما لم يزل قديماً فليس بعجب ان اكون أنا ايضاً احد من يؤذى بسببه. وقد يقال كفى بالحاسد حسده، ان الحاسد يقتل نفسه قبل عدوه... وقد اكثر العرب ذكر الحسد في الشعر ونظموا فيه الابيات، منها قول بعضهم:

إن يحسدوني فاني غير لائمهم قبلي من الناس اهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم ما بي وما بهم ومات اكثرنا غيظاً بما يجد
أنا الذي يجدوني في صدورهم لا ارتقي صعداً منها ولا أرد^(١١٢)

محنة حنين ونكبته

أرى توضيحاً لأمر الرسالة التي ذكرنا ملخصاً لها هنا ان نبين سبب كتابتها بقلم حنين نفسه، أسبابها ونتائجها فتقول:

ان اكبر مأساة تعرض لها حنين بن اسحق هي تلك التي وقعت له إبان خلافة المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦-٨٦١م) وكتب التراث على اختلافها، قديمة وحديثة، تروي لنا واقعتين لحنين مع المتوكل.

الواقعة الاولى فيذكرون فيها ان المتوكل حين قرّبه أراد امتحانه حتى يتأكد انه ليس من بين أعدائه، واما الواقعة الثانية والتي ذكرها حنين نفسه في رسالة له دونها، ومما يرويه ابن جُلجل وابن ابي اصيبعة، فهي تشير الى نكبته الحقيقية، على يد المتوكل، ولكنه صبر عليها، حتى كشف الله الغمة وزالت الشدة. وسوف نذكر الواقعتين وما جرى لحنين حتى يتبين القارئ أي محنة حاقت بهذا الرجل.

(١١٢) تاريخ الحكماء، ص ١٧٢، عيون الانباء، ص ٢٦٤-٢٧١.

المنحة الاولى

يقول مؤرخنا السرياني المفريان بن العبري:

"... ولم يزل امر حنين يقوى وعلمه يتزايد وعجائبه تظهر في النقل والتفاسير حتى صار ينبوعا للعلوم ومعدنا للفضائل" (١١٣).

واتصل خبره بالخليفة المتوكل، فامر باحضاره، فلما حضر أقطع اقطاعات حسنة، وقرر له جار جيد، وكان يشعره بزبور الروم. وكان الخليفة يسمع بعلمه ولا يأخذ بقوله دواء يصفه حتى شاور به غيره، وأحب امتحانه حتى يزول ما في نفسه عليه ظنا منه ان ملك الروم ربما كان عمل شيئا من الحيلة به. فاستدعاه يوماً بأن يخلع عليه، واحضر توقيعاً فيه إقطاع يشتمل على خمسين الف درهم، فشكر له حنين هذا الفعل، ثم قال بعد اشياء جرت اريد ان تصف لي دواء يقتل عدوا نريد قتله، ولم يمكن اشهاره ونريده سراً. فقال حنين: يا امير المؤمنين، اني لم اتعلم الا الادوية النافعة وما علمت ان امير المؤمنين يطلب مني غيرها، فان احب ان امضي واتعلم فعلت ذلك. فقال هذا شيء يطول، ورغبه وهدده وهو لا يزيد على ما قاله الى ان امر بحبسه في بعض القلاع ووكل به من يوصل خبره اليه وقتاً بوقت ويوماً بيوم. فمكث سنة في حبسه. دأبه النقل والتفسير والتصنيف، وهو غير مكترث بما هو فيه. فلما كان بعد سنة أمر الخليفة باحضاره، واحضار أموال يرغب فيها، واحضر سيفاً ونطعاً وسائر آلات العقوبات. فلما حضر قال هذا شيء قد كان، ولا بد مما قلته لك فان انت فعلت فقد فزت بهذا المال، وكان لك عندي أضعافه. وان امتنعت قابلتك بشرّ مقابلة وقتلتك شر قتلة.

فقال حنين: قد قلت لأمير المؤمنين اني لم احسن الا الشيء النافع ولم أتعلم غيره. فقال الخليفة فاني اقتلك. قال حنين: لي رب يأخذ حقّي غداً في

(١١٣) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١٤٤.

الموقف الاعظم. فان اختار أمير المؤمنين ان يظلم نفسه فليفعل. فتبسّم الخليفة وقال له: يا حنين طب نفسا وثق الينا. فهذا الفعل كان منا لامتحانك، لانا حذرنا من كيد الملوك، واعجبنا بك، فاردنا الطمأنينة اليك والثقة بك لنتتفع بعلمك.

فقبل حنين الارض وشكر له.

فقال الخليفة: يا حنين، ما الذي منعك من الاجابة مع ما رأيته من صدق عزيمتنا في الحالين؟ فقال حنين: شيان يا امير المؤمنين. قال وما هما؟ قال الدين والصناعة قال فكيف؟ قال الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع اعدائنا فكيف اصحابنا واصدقائنا، ويعد ويحرم من لم يكن كذا. والصناعة تمنعنا من الاضرار ببناء الجنس لانها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم. ومع هذا فقد جعل الله في رقاب الاطباء عهداً مؤكداً بإيمان مغلظة ان لا يعطوا دواء قتالاً، ولا ما يؤذي فلم اود ان اخالف هذين الامرين من الشريعتين. ووطنت نفسي على القتل فان الله ما كان يضيع من بذل نفسه في طاعته وكان يثني. فقال الخليفة انهما لشريعتان جليلتان وأمر بالخلع فخلعت عليه، وحمل المال بين يديه، وخرج من عنده وهو احسن الناس حالاً وجاهاً^(١١٤).

نكبة حنين

يذكر مؤرخنا ابن العبري في كتابه تاريخ مختصر الدول قوله: "وكان الطيفوري النصراني الكاتب يحسد حنينا ويعاديه. واجتمعوا يوماً في دار لبعض النصاري ببغداد وهناك صورة المسيح والتلاميذ وقنديل يشتعل بين يدي الصورة. فقال حنين لصاحب البيت، لم تضع الزيت فليس هذا المسيح ولا هؤلاء التلاميذ وانما هي صور. فقال الطيفوري: ان لم يستحقوا الاكرام

(١١٤) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٦١.

فابصق عليهم فبصق فاشهد عليه الطيفوري ورفعته الى المتوكل فسأله إباحة الحكم عليه لديانة النصرانية فبعث الى الجاثليق والاساقفه وسئلوا عن ذلك فاجبوا حَرَم حنين فحرم وقطع زناره وانصرف حنين الى داره ومات من ليلته فجأة وقيل انه سقى نفسه سما".

هذا هو ما يذكره ابن العبري عن نكية حنين، وهي رواية تتفق مع ما أورده ابن ابي أصيبعة^(١١٥)، نقلاً عن ابن جلدل.

وقال سليمان بن حسان المعروف بابن جلدل: ان حنين بن اسحق مات بالغم ليلته في أيام المتوكل. قال حدثني بذلك وزير أمير المؤمنين الحكم المنتصر بالله قال، قال كنت مع أمير المؤمنين المستنصر فجرى الحديث فقال اتعلمون كيف كان موت حنين بن اسحق؟ قلنا لا يا أمير المؤمنين. قال خرج المتوكل على الله يوماً وبه خمّار فقعد مقعده فاخذته الشمس، وكان بين يديه الطيفوري النصراني الطبيب وحنين بن اسحق، فقال له الطيفوري يا أمير المؤمنين الشمس تعز بالخمار، فقال المتوكل لحنين ما عندك فيما قال؟ فقال حنين يا أمير المؤمنين الشمس لا تضر بالخمار. فلما تناقضا بين يديه كشفهما عن صحة أحد القولين. فقال حنين: يا أمير المؤمنين الخمار حال للمخمور، والشمس لا تضر بالخمار انما تضر بالمخمور. فقال المتوكل لقد أحرز من طبائع الالفاظ وتحديد المعاني ما فاق به نظرائه فوجم لها الطيفوري. فلما كان في غد ذلك اليوم أخرج الطيفوري من كمّه كتاباً فيه صورة المسيح مصلوباً، وصور ناس حوله.

فقال له الطيفوري: يا حنين هؤلاء صلبوا المسيح؟ قال: نعم، فقال له ابصق عليهم، قال حنين: لا أفعل، قال الطيفوري: ولم؟ قال لانهم ليسوا

(١١٥) ابي أبي أصيبعة، عيون الانباء، ص ٤٦-٤٧.

الذين صلبوا المسيح إنما هي صور،^(١١٦) فاشتد ذلك على الطيفوري ورفعته الى المتوكل يسأله إباحة الحكم على بديانة النصرانية.

فبعث الى الجاثليق والاساقفة وسئلوا عن ذلك فاجبوا اللعنة لحنين فلعن سبعين لعنة بحضرة الملائكة من النصارى، وقطع زناره، وأمر المتوكل ان لا يصل اليه دواء من قبل حنين حتى يستشرف على عمله الطيفوري. وانصرف حنين الى داره فمات في ليلته. فيقال مات غماً واسفاً.

ويذكر ابن ابي اصبيعة ان هذه الرواية تتفق مع ما ذكره أحمد بن يوسف بن ابراهيم في رسالة في المكافأة، لكن يبدو ان ابن ابي اصبيعة لم يقتنع بهذه الرواية، فعقب عليها بقوله:

"والاصح في ذلك ان يختيشوع بن جبرائيل كان يعادي حنين بن اسحق، ويحسده على علمه وفضله، وما هو عليه من جودة النقل وعلو المنزلة. فاحتال عليه بخديعة عند المتوكل وتمّ مكره عليه حتى أوقع المتوكل به وحبسه. ثم ان الله تعالى فرج عنه وظهر ما كان احتال به عليه بختيشوع بن جبرائيل، وصار حنين حظياً عند المتوكل وفضله على بختيشوع وعلى غيره من سائر المتطبيين، ولم يزل على ذلك في أيام المتوكل الى ان مرض حنين فيما بعد المرض الذي توفي فيه، وذلك في سنة اربع وستين ومائتين هجرية (٨٧٧م) وتبين لي جملة ما يحكى عن حنين من ذلك. وصح عندي من رسالة، وجدت حنين بن اسحق قد ألفها فيما اصابه من المحن والشدائد من الذين ناصبوه العداوة من اشرار اطباء زمانه المشهورين"^(١١٧).

(١١٦) يقول ماكس مايرهوف في تحقيقه لكتاب العشر مقالات في العين "والظاهر أن حنين من انصار الحركة التي اتسع نطاقها في ذلك الوقت ونعني بها حركة مانعي الاكرام للصور ومحاربتها" ص ٢٩.

(١١٧) عيون الانباء، ص ٢٦٤.

نكبة حنين من خلال رسالته

قال حنين بن اسحق^(١١٨) ... وهذه قصة المحنة الاخيرة القرية وهي: "ان بختيشوع بن جبرائيل المتطبيب عمل عليّ حيلة تمت له عليّ وأمكنته مني، إرادته فيّ. وذلك انه استعمل قونة (أيقونة) عليها صورة السيدة مار مريم، وفي حجرها سيدنا المسيح والملائكة قد احتاطوا بها، وعملها في غاية ما يكون من الحسن وصحة الصورة، بعد ان غرم عليها من المال شيئا كثيراً. ثم حملها الى أمير المؤمنين المتوكل، وكان هو المستقبل لها من يد الخادم الحامل لها، وهو الذي وضعها بين يدي المتوكل، فاستحسنها المتوكل جداً، وجعل بختيشوع يقبلها بين يديه مراراً كثيرة. فقال له المتوكل: لم تقبلها؟ فقال له يا مولانا اذا لم أقبل صورة سيدة العالمين فمن أقبل؟ فقال له المتوكل: وكل النصارى هكذا يفعلون؟ فقال نعم يا امير المؤمنين، وافضل مني، لأنني انا قصّرت حيث انا بين يديك.

ومع تفضيلنا معشر النصارى فاني اعرف رجلاً في خدمتك، وافضالك وارزاقك جارية عليه من النصارى يتهاون بها ويصق عليها، وهو زنديق ملحد، لا يقرّ بالوحدانية ولا يعرف آخره، يستتر بالنصرانية وهو معطل مكذب الرسل.

فقال له المتوكل: من هذا الذي هذه صفته؟

فقال له حنين المترجم.

فقال المتوكل أوجه احضره، فإن كان الامر على ما وصفت نكلت به وجلدته واودعته المطبق (السجن) مع ما تقدم به في أمره من التضييق عليه وتحديد العذاب.

(١١٨) عيون الانباء. ص ٢٦٤ وما بعدها.

فقال: أنا أحبّ ان يؤخر مولاي امير المؤمنين الى ان اخرج واقيم ساعة ثم تأمر باحضاره.

فقال اني افعل ذلك.

فخرج بختيشوع من الدار وجاءني فقال يا أبا زيد، أعزّك الله ينبغي ان تعلم انه قد أهدي الى امير المؤمنين قونة قد عظم عجبها بها، واحسبها من صور الشام، وقد استحسنها جدا، وان نحن تركناها عنده ومدحناها بين يديه تولع بنا بها في كل وقت، وقال هذا ربكم وامه مصورين وقد قال لي امير المؤمنين انظر الى هذه الصورة ما احسنها وايش تقول فيها؟ فقلت له صورة مثلها يكون في الحمامات وفي البيع وفي المواضع المصورة، وهذا مما لا نبالي به ولا نلتفت اليه. فقال وليس هي عندك شيء؟ قلت لا. قال فإن تكن صادقا فابصق عليها فبصقت وخرجت من عنده وهو يضحك وعطعط بي. وانما فعلت ذلك ليرمي بها ولا يكثر الولع بنا بسببها، ويعيّرنا دائماً، ولا سيما ان حرد أحد من ذلك فان الولع يكون أزيد. والصواب ان دعا بك وسألك عن مثل ما سألتني ان تفعل كما فعلت انا، فاني قد عملت على لقاء سائر من يدخل اليه من اصحابنا، واتقدّم اليهم ان يفعلوا، مثل ذلك.

فقبلت ما وصّاني به وجازت عليّ سحرته وانصرف.

فما كان الا ساعة حتى جاءني رسول أمير المؤمنين فأخذني اليه، فلما دخلت عليه إذ القونة موضوعة بين يديه، فقال لي يا حنين ترى ما احسن هذه الصورة واعجبها. فقلت: والله انه لكما ذكر أمير المؤمنين. فقال: فايش تقول فيها؟ فقلت مثلها مصور في الحمامات وفي الكنائس وفي سائر المواضع المصورة كثيراً، فقال أوليس هي صورة بكم وامه؟ فقلت معاذ الله يا امير المؤمنين ان لله تعالى صورة او يصوّر. ولكن هذا مثال في سائر المواضع التي فيها الصور. فقال فهذه إذن لا تنفع ولا تضر. فقلت هو كذلك يا امير المؤمنين. فقال إن كان الامر على ما ذكرت فابصق عليها، فبصقت عليها.

فللوقت أمر بجبسي، ووجه الى ثوذسيس الجاثليق^(١١٩) فأحضره، فلما دخل عليه ورأى القونة موضوعة بين يديه وقع عليها قبل ان يدعو له فاعتنقها، ولم يزل يقبلها ويكي طويلاً، فذهب الخدم ليمنعوه فأمر بتركه. فلما قبلها طويلاً على تيك الحالة اخذها بيده وقام قائماً فدعا لامير المؤمنين واطنب في دعائه، فردّ عليه وأمره بالجلوس. فجلس وترك القونة في حجره.

فقال له المتوكل: أي فعل هذا، تاخذ شيئاً كان بين يدي وتتركه في حجرك عن غير إذني.

فقال له الجاثليق: نعم يا امير المؤمنين أنا أحق بهذه التي بين يديك، وان كان لامير المؤمنين اطلال الله بقاءه افضل الحقوق. غير ان ديانتي لم تدعني ان ادع صورة ساداتي مرمية على الارض، وفي موضع لا يعرف مقدارها، بل لعله ان يعرف لها قدر، لان هذه حقها ان تكون في موضع يعرف فيه حقها، ويسرج بين يديها افضل الادهان من حيث لا تطفأ قناديلها مع ما تبخر به بين يديها من اطاييب البخور في اكثر الاوقات.

فقال امير المؤمنين فدعها في حجرك الآن.

فقال الجاثليق إني أسأل مولاي امير المؤمنين ان يجود عليّ بها، ويعمل على أنه يقطعني ما مقدار قيمة مائة الف دينار في كل سنة حتى اقضي من حقها ما يجب عليّ. ثم يسألن امير المؤمنين ما احبّ بعد ذلك فيما أرسل اليّ بسببه.

فقال له قد وهبتها لك، وانا أريد ان تعرّفني ما جزاء من بصق عليها عندك؟

(١١٩) ثوذسيس (ثاذاسيس): كان أسقفاً لمدينة الانبار ثم مطراناً على جنديسابور. ولما توفي سلفه ابراهيم نصب جاثليقا عام ٨٣٥م وتوفي عام ٨٦٠م.

نقال له الجاثليق: إن كان مسلماً فلا شيء عليه لانه لا يعرف مقدارها أما إذا كان يعرف ذلك فيلام ويوبّخ على مقدار ما فعل، حتى لا يعود الى مثل ذلك مرة اخرى. وان كان نصرانيا وكان جاهلاً لا يفهم ولا معرفة عنده فيلام ويزجر بين الناس، ويتهدد بالجروم العظيمة ويُعذّب حتى يتوب وبالجملة ان هذا فعل لا يقدم عليه الا جاهل لا يعرف مقدار الديانة . فان كان عاقلاً وقد بصق عليها فقد بصق على مريم أم سيدنا وعلى سيدنا المسيح.

فقال له امير المؤمنين فما الذي يجب على من فعل ذلك عندك؟

فقال ما عندي يا امير المؤمنين اذ كنت لا سلطان لي ان اعاقبه بسوط او عصا، ولا لي حبس ضنك، بل أحرمه وامنعه من الدخول الى البيع، ومن القربان، وامنع النصرارى من ملامسته وكلامه، وأضيق عليه ولا يزال مرفوضا عندنا الى ان يتوب ويقلع عما كان عليه وينتقل ويتصدّق ببعض ما له على المساكين والفقراء مع لزوم الصوم والصلاة، فحينئذ نرجع الى ما قال كتابنا وهو ان لم تعفوا للخطاين لم يغفر لكم خطاياكم. فنحلّ حرم الجاني ونرجع الى ما كنا عليه.

ثم ان امير المؤمنين أمر الجاثليق بأن ياخذ القونة، وقال له إفعل بها ما تريد. وأمر له معها بيدرة دراهم، وقال له انفق ما تاخذه على قونتك. فلما خرج الجاثليق لبث قليلاً يتعجب منه ومن محبته لمعبوده وتعظيمه اياه. ثم قال ان هذا الامر عجيب.

ثم أمر بإحضاري فأحضرت اليه، واحضر السوط والحبال وأمر بي فشددت مجرداً من يدي، وضربت مائة سوط، وأمر باعتقالي والتضييق علي. ووجه فحمل جميع ما كان لي من رحل وأثاث وكتب وما شاكل ذلك. وأمر بنقض منازلتي الى الماء، وأقمت في داخل داره معتقلاً ستة اشهر في أسوأ ما يكون من الحال، حتى صرت رحمة لمن رآني. وكان أيضاً في كل يسير من الايام يوجه يضربني ويجدد لي العذاب.

فلم أزل على ما شرحته الى ان اعتلّ أمير المؤمنين، وذلك في اليوم الخامس من الشهر الرابع من يوم حبسي، وكانت علته صعبة جداً فاقعد ولم تمكنه الحركة وأيس هو أيضاً من نفسه. ومع ذلك فان أعدائي الاطباء عنده ليلاً ونهاراً، ولا يزايلونه ساعة واحدة، وهم يعالجونه ويداوونه ويسألونه في كل وقت في أمري ويقولون له، لو أراحنا مولانا أمير المؤمنين من ذلك الزنديق الملحد لراح الدنيا، وانكشف عن الدين منه محنة عظيمة.

فلما طالت مسئلتهم له في أمري وكثر ذكرهم لي بين يديه بكل سوء قال لهم فما الذي يسرّكم ان افعل به؟ قالوا تريخ العالم منه وكان مع ذلك كل من سال في أمري او تشفع فيّ من اصدقائي، يقول بختيشوع يا أمير المؤمنين هذا بعض تلاميذه وهو يعتقد اعتقادهم. فيقل المعين لي ويكثر المحرّك علي، وايسست من الحياة فقال لهم: أمير المؤمنين وقد لجوا عليه في السؤال فاني اقلته في غد يومنا هذا واريحكم منه، فسرّ بذلك الجماعة وانصرفوا على ما يحبون.

فجائني بعض الخدم وقال لي انه جرى في أمرك العشية كذا وكذا فسألت الله عزّ وجلّ التفضل بما لم تزل اياديه اليّ بأمثاله، ومع ما أنا فيه من كثرة الاهتمام وشغل القلب مما اخاف نزوله بي في غد بغير جرم استوجبه، ولا جناية جنيتها، بل بحيلة من احتال عليّ وطاعتي من اغتالي وقلت اللهم انك عالم براءتي فانت اولى بنصرتي وطال بي الفكر الى ان حملني النوم، فإذا بهاتف يحركني ويقول لي قم فاحمد الله واثن عليه فقد خلصك من ايدي اعدائك، وجعل عافية أمير المؤمنين فطب نفساً.

فانتبهت مرعوباً، ثم قلت كلما كثر ذكره في اليقظة لم تنكر رؤيته عند النوم. فلم أزل احمد الله واثن عليه الى ان جاء وجه الصبح، فجاءني الخادم ففتح عليّ الباب ولم يكن وقته الذي كان يجيئني فيه فقلت هذا وقت منكر،

جاءني ما وعدت به البارحة. فقد جاء وقت رضا أعدائي وشماتهم بي. واستعنت بالله.

فما جلس الخادم الا هنيهة إذ جاء غلامه ومعه مزين، ثم قال تقدم يا مبارك ليؤخذ من شعرك، فتقدمت فاخذ من شعري ثم مضى بي الى الحمام، فأمر بغسلي وتنظيفي، والقيام عليّ بالطيب كما امره مولاي امير المؤمنين، ثم خرجت من الحمام فطرح عليّ ثيابا فاخرة، وردني الى مقصورته الى ان حضر سائر الاطباء عند امير المؤمنين واخذ كل واحد منهم موضعه، فدعاني امير المؤمنين وقال هاتوا حنيئاً فلم تشك الجماعة انه انما دعاني لقتلي فادخلت اليه فنظر اليّ ولم يزل يدين الى ان أجلسني بين يديه وقال لي:

قد غفرت لك ذنبك، واجبت السائل فيك، فاحمد الله على حياتك، وخذ مجسيتي واشر عليّ بما ترى، فقد طالت عليّ، فأخذت مجسته، واشرت باخذ خيار شنبر منقى من قصبه وترنجبين، لانه شكا اعتقلاً مع ما كان يوجهه الصورة من استعمال هذا الدواء.

فقال الاطباء الاعداء نعوذ بالله يا أمير المؤمنين من استعمال هذا الدواء إذ كان غائلة ردية. فقال لهم امسكوا فقد امرت ان آخذ ما يصفه لي ثم انه أمر باصلاحه، فاصلح واخذ لوقته. ثم قال لي يا حنين اجعلني من كل ما فعلته بك في حلّ فشفيحك اليّ قوي. فقلت له مولاي أمير المؤمنين في حلّ من دمي فكيف وقد منّ عليّ بالحياة. ثم قال تسمع الجماعة ما ا قوله فنصتوا اليه، فقال اعلّموا انكم انصرفتم البارحة مساء على ان ابكر قتل حنيئاً كما ضمنت لكم فلم أزل اقلق الى نصف من الليل متوجعاً. فلما كان ذلك الوقت أغفيت فرأيت كأني جالس في موضع ضيق وانتم معشر الاطباء بعيدون عني بعداً كثيراً مع سائر خدمني وحاشيتي، وأنا أقول لكم ويحكم ما تنظرون اليّ في أي موضع انا هذا يصلح لمثلي، وانتم سكوت لا تجيبوني عما اخاطبكم به. فاذا

انا كذلك حتى اشرق عليّ في ذلك الموضع ضياء عظيم مهول حتى رعبت منه.

واذا أنا برجل قد وافى جميل الوجه ومعه آخر خلفه عليه ثياب حسنة فقال السلام عليك فرددت عليه فقال لي تعرفني؟ فقلت لا. فقال أنا المسيح فقلت وتزعزعت وقلت من هذا الذي معك؟ فقال حنين بن اسحق. فقلت: اعذروني فلست اقدر ان أقوم اصفحك. فقال اعف عن حنين واغفر ذنبه فقد غفر الله له، واقبل ما يشير به عليك فانك تبرأ من علتك.

فانتبهت وأنا مغموماً بما جرى على حنين مني ومفكر في قوة شفيعه اليّ وان حقه الآن عليّ واجب. فانصرفوا ليلزمي كما أمرت وليحمل اليّ كل واحد منكم عشرة آلاف درهم لتكون دية من سأل على قتله. وهذا المال يلزم من حضر المجلس البارحة وسأل في قتله ومن لم يكن حاضراً فلا شيء عليه. ومن لم يحمل ما أمرت به بحمله من هذا المال لا ضربن عنقه.

ثم قال لي اجلس انت والزم ربتك. وخرج الجماعة فحمل كل واحد منهم عشرة آلاف درهم. فلما اجتمع سائر ما حملوه أمر بان يضاف اليه مثله من خزائنه فكان زائداً عن مائتي الف درهم وان يسلم اليّ ففعل ذلك. فلما كان آخر النهار وقد أقامه الدواء ثلاثة مجالس أحسنّ بصلاح وخفّ ما كان يجدد، فقال يا حنين أبشر بكل ما تحب فقد عظمت ربتك عندي وزادت طبقتك أضعاف ما كنت عليه فسأعوضك أضعاف ما كان لك، وأحوج ادائك اليك، وارفعك على سائر أهل صنعتك.

ثم انه أمر باصلاح ثلاث دور من دوره التي لم أسكن قط منذ نشأت في مثلها ولا رأيت لأحد من أهل صناعتي مثلها، وحمل اليها سائر ما كنت محتاجاً من الأواني والفرش والآلة والكتب وما يشاكل ذلك بعد ان أشهد لي بالدور وتوثق لي بشهادات العدول، لانها كانت خطيرة في قيمتها، لانها تقوم

بالوف دنانير، فمحبته لي وميله اليّ يجب ان تكون لي ولعقبى ولا تكون عليّ حجة لمعترض.

فلما فرغ مما أمر به من الحمل الى الدور، وجميع ما ذكر وتعليقها بانواع الستور، ولم يبق غير المضي اليها امر بحمل المال الضعف الكثير بين يدي، وحملني على خمسة رؤوس من خيار بغلاته الخاصة بمواكبها، ووهب لي ثلاثة خدم روم، وأمر لي في كل شهر بخمسة عشر الف درهم، واطلق لي الفئات من رزقي وفي وقت حبسي، فكان شيئاً كثيراً وحمل من جهة الخدم والحرم وسائر الحاشية والاهل ما لا يمكن ان يحصى من الاموال والخلع والاقطاع وحصلت وظائفني التي كنت آخذها خارج الدار من سائر الناس آخذها من داخل الدار، وصرت المقدم على سائر الاطباء من اعواني وغيرهم، وهذا تم لي لما لحقتني السعادة التامة، وهذا ما جرى عليّ بعداوة الاشرار^(١٢٠).

* * *

وربما أفضت المنافسة بين الاطباء الى الجدل فالعداوة أحياناً. ففي سنة ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م جرت المناظرة بين الطبيبين ابن رضوان المصري وابن بطلان البغدادي النصراني حول الحرارة الطبيعية للفراريج وصغار الطير التي تستطيع الطيران وهاجم ابن بطلان في هذا الموضوع، اطباء القاهرة، وقصد الى ابن رضوان، فسارع هذا الى مدافعته، واستمر النزاع بينهما، حتى اضطر ابن بطلان الى مغادرة مصر غاضباً، وتمت هذه المناظرة الحادة في خمس رسائل تبودلت بينهما^(١٢١).

(١٢٠) راجع التفاصيل لدى د. ماهر عبد القادر محمد، حنين بن اسحق، ص ٥٤-٧٥.

(١٢١) خمس رسائل، ... ص ٣٤-٨٣.

وقد حدثت بين ابن التلميذ وأبي البركات هبة الله بن علي بن ملكا عداوة، فأثار ابن ملكا نقمة الخليفة على ابن التلميذ المسيحي، وبعد التحقيق تبين كذب الاول فعفى عن الثاني^(١٢٢).

وعندما اصاب الصاحب بن عباد مرض شديد، أمر عضد الدولة بجميع الاطباء البغداديين وغيرهم وشاورهم في من يصلح ان ينفذ الى الصاحب، فأشاروا عليه بارسال جبرائيل بن عبيد الله ابعادا من بينهم حسداً منه^(١٢٣).

وكانت حلقات الادباء، تعتبر ان السخرية من الاطباء، تأتي بنتائج مثمرة اكثر من مدحهم. وكانوا يجدون لذة في التهكم الخبيث، ولا سيما، اذا كان تهكمهم لا يشكل خطرا عليهم. من ذلك ان طيبيا اسمه عيسى، نصراني المذهب، لم يرض في علاجه مريضا، فاستلهم الشاعر هذه الحادثة ليقول هاجيا الطبيب، بما معناه: "اظهر بعض الشفقة يا طيب عيسى، فانت طوفان نوح المميت، ما فصل الروح عن الجسد الا الغاية الوحيدة من علاجك، فليس بين عيسى الطبيب، ويسوع المسيح، جامع يجمعهما، فالمسيح كما يقول الانجيل كان يُحي الاموات. أما انت يا عيسى فتقتل من هم في تمام العافية"^(١٢٤).

ومن المؤسف ان اهتمام الشعراء، كان موجهها بصورة خاصة الى الطبقة العليا من الاطباء والمتنفذين وذوي الثروة منهم، وقد أهملوا الاشارة الى الاطباء المشعوذين والدخلاء، فقليل في يوحنا بن ماسويه:

(١٢٢) عيون الانباء، ص ٤٥٣.

(١٢٣) تاريخ الحكماء، ص ١٤٨-١٤٩. عيون الانباء، ص ٢١١.

(١٢٤) حنيفة الخطيب، الطب عند العرب، ص ١٣١.

إن الطبيب بطبه وداوئه لا يستطيع دفاع امر قد أتى
ما للطبيب بالداء الذي قد كان برئ منه فيما مضى
مات والمداوي والمداوي والذي جلب الدواء وباعه ومن اشترى^(١٢٥)

وعلى الرغم مما تقدم ذكره من تحاسد ومنافسة وذمّ للطباء، فقد شاعت
الثقافة الطبية، وأقبل الناس على مطالعة الكتب الطبية وتجروا على نقد الاطباء
بمنطق معقول، وكانوا يمدحونهم أحيانا. فقد عالج ابراهيم بن ثابت بن قرّة
السري الرفاء الشاعر^(١٢٦)، فشفي فقال فيه شعراً وهو أحسن ما قيل في
طبيب^(١٢٧):

هل للعليل سوى ابن قرّة شافي
أحيا لنا رسم الفلاسفة الذي
فكانه عيسى بن مريم ناطقاً
مثلت له قارورتي فرأى بها
يبدو له الداء الخفي كما بدا
وله فيه أيضاً:

برز ابراهيم في علمه
أوضح نهج الطب في معشر
كأنّه من لطف أفكاره
إن غضبت روح على جسمها
فراح يدعي وارث العلم
ما زال فيهم دارس الرسم
يجول بين الدّم واللحم
أصلح بي ن الروح والجسم^(١٢٨)

(١٢٥) بروان. الطب العربي، ص ٢٥.

(١٢٦) السري الرفاء (ت ٩٧٦) شاعر موصل. مدح سيف الدولة الحمداني. انتقل الى بغداد
بعد وفاة سيف الدولة فمدح الوزراء والاعيان الى ان تصدّى له الخالديان فكانت بينه
وبينهما مهاجاة فأذياه وابعدها عن مجالس الوزراء.

(١٢٧) وفيات الاعيان، ج ١ ص ٣١٤. معجم الاطباء، ص ٥٦.

(١٢٨) وفيات الاعيان، ج ١ ص ٣١٤.

ومدح الشاعر عبد الرزاق بن أحمد العامري موفق الدين بن المطران بعد
إسلامه بقصيدة مطلعها:

ينهي اليك وليس عنك بمنته

قلب على صاب^(١٢٩) الصبابة مكرمي^(١٣٠)

دخل الاطباء

أولاً: الاطباء العاديون:

ان المصادر والمراجع التي أشارت الى ما كان يتمتع به الاطباء من مكانة بارزة في المجتمع العباسي من قبل الخلفاء والامراء والسلاطين والوزراء والاغنياء، زودتنا بتفاصيل دقيقة عن المبالغ الخيالية التي كان يتقاضاها بعض الاطباء، فضلاً عن نفقاتهم اليومية الخاصة، وطعام مطياتهم. غير انها لا تعطنا صورة واضحة عن اوضاع الطبيب العادي، ولكن يمكننا ان نستنتج بعضنا من اخباره من اشارات متفرقة هنا وهناك في بطون الكتب، إذ نلاحظ ان أجور الاطباء كانت تختلف، نظراً لاهمية الطبيب ومهارته ودرجة نجاحه، والبلد الذي قدم منه.

ويلاحظ ان سيرَ انجح الاطباء في أغلب الاحيان نذكر انهم بدأوا حياتهم الطبية فقراء قبل ان يتوصلوا الى الشهرة والثروة.

فماسويه ابو يوحنا عمل ثلاثين سنة في بدء عمله في دق الادوية في بيمارستان جنديسابور، ثم انتقل الى بغداد وعمل صيدلانيا على باب الحرم عند قصر الفضل بن الربيع وزير الرشيد. وكان يكسب شيئاً فشيئاً حتى

(١٢٩) صاب: مرّ.

(١٣٠) عيون الانباء، ص ٦٥٧.

حسنت حاله، ولم يزل حتى اكتشفه خادم الفضل فطبيب له عينه، ثم شفى عين الفضل بن الربيع نفسه واصبح طبيبه الخاص، ومن ثم حالقه الحظ الى ان صار من اطباء الرشيد^(١٣١).

والمعلومات التالية هي أبرز ما لدينا لتقدير الوضع المادي للطبيب العادي. فقد روي انه كان جبرائيل بن عبيد الله يحصل من عضد الدولة على رزقين وهما برسم خاص ثلثماية درهم شجاعة^(١٣٢). وفي سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م، مرض الخليفة الناصر لدين الله من حصة في المثانة. ولما تمكن ابو نصر المسيحي من شفائه من غير عملية جراحية، حظي عنده وأمر ان يدخل ابا نصر الى دار الضرب ويحمل من الذهب ما يمكنه حمله، ففعل. ثم اتته الخلع والدنانير من ام الخليفة وولديه الاميرين محمد وعلي، والوزير نصير الدين الرازي، ومن سائر كبار الامراء في الدولة. وبلغ ما حصل عليه من هذه الهدايا والعطايا عينا ودنانير عشرين الف دينار، وكمية كبيرة من الثياب والخلع، والزم الخدمة وفرضت له الحامكية السنوية والراتب والاقامة^(١٣٤).

وحظي صاعد بن هبة الله بن توما، ابو الفرج عند الناصر، ووجد عنده بعد مقتله ثمانمائة وثلاثة عشر الف دينار، هذا عدا الاثاث والاملاك مما يقارب المليون دينار^(١٣٥).

(١٣١) عيون الانباء، ص ٥٦٣.

(١٣٢) قيل لعلها منسوبة الى الامير علم الدين سنجر الشجاعي لانه صار وزيراً كبيراً. (تاريخ البيمارستانات، ص ٢٩).

(١٣٤) عيون الانباء، ص ٤٠٤.

(١٣٥) عيون الانباء، ص ٤٠٥.

ثانياً: مشاهير الاطباء

لقد أثرى بعض الاطباء العصر العباسي المسيحيين ثراءً فاحشاً، وباروا الخلفاء في الزي واللباس، مما جرَّ عليهم حسد أقرانهم ونقمة بعض الخلفاء عليهم. فضلاً عن المناصب الكبرى التي كان يتوصل اليها الاطباء اصحاب الجاه والثروة، فيكون لهم السلطة والنفوذ وما يتبع ذلك من ثراء كبير. ومهما يكن فان قصص الاطباء، والاموال التي كانت تغدق عليهم، تدل على تقدير الاسلام واحترامه للمعرفة الطبية.

فجبرائيل بن بختيشوع مثلاً حصل من جهة الخلفاء من الاموال ما لم يحصله غيره من الاطباء^(١٣٦). فقد وجد في خزانة بختيشوع بن جبرائيل مدرج فيه عمل بخط كاتب جبرائيل بن بختيشوع الكبير واصلاحات جبرائيل لما صار اليه في خدمته للرشد يذكر: ان رزقه من رسم العامة في كل شهر عشرة آلاف درهم، أي مائة وعشرين الف درهم في السنة. وفي مدة ثلاث وعشرين سنة، وهي خدمته للرشد استوفى مليونين وستمائة وثمانين الف درهم. ونزله في الشهر خمسة آلاف درهم، أي ستون الف درهم في السنة. ففي مدة ثلاث وعشرين سنة يبلغ مليوناً وثلاثمائة وثمانين الف. ويستوفي من رسم الخاصة في المحرم في كل سنة: من الورق خمسين الف درهم، فيكون قد حاز في ثلاث وعشرين سنة مليوناً ومائة وخمسين الف درهم. ثم خمسين الف درهم من الثياب، فيكون ماله في ثلاث وعشرين سنة قد بلغ مليوناً وخمسون الف درهم. وبذلك يبلغ مجموع ثروته كالتالي:

$$٦,٣٦٠,٠٠٠ = ١١٥٠٠٠٠ + ١١٥٠٠٠٠ + ١٣٨٠٠٠٠ + ٢٦٨٠٠٠٠$$

أي ستة ملايين وثلاثمائة وستين الف درهم.

(١٣٦) عيون الانباء، ص ٢٠٢.

تفصيل ذلك: القصب الخاص الطرازي عشرون شقة، اللحم الطرازي عشرون شقة، الخز المنصوري عشر شقاق، الخز المبسوط عشر شقاق، الوشي اليماني ثلاثة أثواب، الوشي النصيبي ثلاثة أثواب، الطيالة ثلاثة طيالس، والسمور^(١٣٧)، والفنك^(١٣٨) والقماقم^(١٣٩) والدلق^(١٤٠) والسنجاب للقبطين^(١٤١).

وكان يدفع اليه في مدخل صوم النصارى في كل سنة من الورق خمسون ألف درهم أي مليون ومائة وخمسون ألف درهم في مدة ثلاث وعشرين سنة وفي يوم الشعانين في كل سنة ثياب من وشي وقصب وملحم وغيره بقيمة عشرة آلاف درهم، أي مائتا ألف وثلاثون ألفا في مدة ثلاث وعشرين سنة. وكان يهدى اليه يوم الفطر في كل سنة من الورق خمسون ألف درهم أي مليون ومائة وخمسون ألف درهم في ثلاث وعشرين سنة وثياب بقيمة عشرة آلاف درهم، أي مائتا وثلاثون ألف درهم، ومائة ألف درهم ولفصد الرشيد دفعتان في السنة: خمسون ألف درهم، ومائة ألف درهم من الورق، فيكون قد استوفي في ثلاث وعشرين سنة مليونين وثلاثمائة ألف درهم ولشرب الدواء دفعتان في السنة، خمسون ألف درهم، ومائة ألف درهم، فيكون قد أصب في ثلاث وعشرين سنة مليونين وثلاثمائة ألف درهم.

(١٣٧) السمور: حيوان بريّ لونه أحمر مائل للسواد (عيون الانباء، ص ١٩٩).

(١٣٨) ع: نوع من الثعالب فروته من أجود انواع الفراء (لسان العرب ج ٢ ص ١١٣٧). وعيون الانباء، هامش ١٩٩.

(١٣٩) القماقم: صغار القردان. والمقصود هنا جلودها، (عيون الانباء في طبقات الاطباء، ص ١٩٩).

(١٤٠) الدلق، قريب من السمور، أصفر اللون، بطنه وعنقه مائلان الى البياض (عيون الانباء، ص ١٩٩).

(١٤١) القبطين، يظن انها ام جعفر البرمكي زوجة يحيى بن خالد (عيون الانباء، ص ١٩٩).

ومن اصحاب الرشيد اربعمائة الف درهم في السنة أي تسعة ملايين ومائتا الف درهم في مدة ثلاث وعشرين سنة وتفصيل ذلك في السنة.

عيسى بن جعفر ٥٠٠,٠٠٠ درهم.

زبيدة ام جعفر ٥٠,٠٠٠ درهم.

العباسة اخت الرشيد ٥٥٠,٠٠٠ درهم.

ابراهيم بن عثمان ٣٠,٠٠٠ درهم.

الفضل بن الربيع ٥٥٠,٠٠٠ درهم.

فاطمة ام محمد ٧٠,٠٠٠ درهم.

كسوة وطيب ودواب ١٠٠,٠٠٠ درهم.

وتغلّ ضياعه بجنديسابور والسوس والبصرة والسواد في كل سنة ما قيمته بعد المقاطعة ورقا ثمانمائة الف درهم فيكون المجموع في مدة ثلاث وعشرين سنة ثمانية مليون ومائة الف درهم.

وكان يصير اليه من البرامكة في كل سنة من الورق مليونان واربعمائة الف درهم، ويكون المجموع مدة ثلاث عشرة سنة (٣١,٢٠٠,٠٠٠ درهم).

وتفصيل ذلك في السنة:

يحيى بن خالد ٦٠٠,٠٠٠ درهم.

جعفر بن يحيى ١,٢٠٠,٠٠٠ درهم.

الفضل بن يحيى ٦٠٠,٠٠٠ درهم^(١٤٢).

(١٤٢) عيون الانباء، ص ١٩٨-٢٠٠. تاريخ الحكماء، ص ١٤٢-١٤٣.

فيكون قد آل اليه في مدة خدمته للرشيد وهي ثلاث وعشرون سنة ومدة خدمته للبرامكة وهي ثلاث عشرة سنة، سوى الصلات الجسام التي لم تذكر في المدرج من الورق ثمانية وثمانون الف مليوناً وثمانمائة الف (٨٨,٨٠٠,٠٠٠ درهم) ^(١٤٣).

وكتب جبرائيل قبل وفاته وصيته الى ابنه بختيشوع، وجعل الوصي فيها المأمون فسلمها اليه. ولما توفي جبرائيل كان المأمون وبختيشوع في بلد الروم فدفنه صهره في دير مار سرجس بالمدائن. ولما عاد ابنه بختيشوع من بلد الروم جمع للدير رهبانا واجرى عليهم جميع ما يحتاجون اليه ^(١٤٤).

وعن مقتنيات جبرائيل النادرة وبعض موارد دخله، فقد ورد في كتاب الجماهير: "ان المتوكل جلس يوما لهدايا النيروز فقدم اليه كل علق ^(١٤٥) نفيس، وان طبيبه بختيشوع بن جبرائيل دخل عليه... ثم أخرج من كمّه درج ابنوس مضرب بالذهب، وفتح عن جرير اخضر انكشف عن ملعقة كبيرة من جوهر لمع منها شهاب... فرأى المتوكل ما لا عهد به بمثله وقال: من أين كل هذا؟ قال: من الناس الكرام، ثم حدث: انه صار لابي من ام جعفر زبيدة في ثلاث مرات ثلثمائة الف دينار بثلاث شكايات عاجلها فيها: واحداثها انها شكت عارضا في حلقةا منذرة بالحناق فاشار اليها بالفصد والتطفئة والتغذي بحشو وصفه، فاحضر على نسخته في غضارة صينية عجيبة الصفة وفيها هذه الملعقة، فغمزني ابي على رفعها ففعلت ولففتها في طيلسانني وجاذبنيها الخادم: فقال له: لاطفه ومره بردها، وعوضه منها عشرة آلاف دينار. فامتنت وقال أبي: يا ستي ان ابني لم يسرق قط فلا تفضحيه في أول كراته ^(١٤٦) لئلا يكسر

(١٤٣) تاريخ الحكماء، ص ١٤٣. عيون الانباء، ص ٢٠٠.

(١٤٤) تاريخ الحكماء، ص ١٤٢. عيون الانباء، ص ١٩٨.

(١٤٥) العلق، النفيس من كل شيء (لسان العرب، ج ٢، ص ٨٩٥).

(١٤٦) كراته، امره (الوافي بالوفيات، ج ١٠، ص ٨٨).

قلبه. فضحكت ووهبتها له. وسئل عن الآخرتين فقال: انها اشتكت اليه النكهة^(١٤٧)، باخبار احدى بطانتها اياها، وذكرت ان الموت اسهل عليها من ذلك فجوعها الى العصر، واطعمها سمكا ممقورا^(١٤٨)، وسقاها دردى^(١٤٩) نبيذ دقل فغثت نفسها وقذفت وكرر ذلك عليها ثلاثة ايام ثم قال لها: تنكهي في وجه من اخبرك بذلك واستخبريه هل زال؟ والثالثة انها اشرفت على التلف من فوق شديد يسمع من خارج الحجرة فأمر الخادم بإصعاد خوابي على سطح الصحن وتصفيفها حوله على الشفير وملأها ماء، وجلس خادم خلف كل جب حتى اذا صفق بيده على الاخرى دفعوها دفعة الى وسط الدار، ففعلوا وارتفع لذلك صوت شديد اربعها، فوثبت وزايلها الفواق^(١٥٠)."

وروى جبرائيل بن بختيشوع ان الرشيد اعطاه مرة الف الف درهم بعد ان شفاه من وعكة صحية: "كنت مع الرشيد بالرقّة ومعه المأمون ومحمد، وكان أي الرشيد رجلاً كثيراً الاكل والشرب، فاكل في بعض الايام اشياء خلط فيها، ودخل المستراح فغشي عليه، وقوي عليه الغشي ولم يشك غلماؤه انه قد مات وحضر ابناه وشاع عند العامة والخاصة خبره، فارسل اليّ فحضرت، وجسست عرقه، فوجدت نبضاً خفيفاً وقد كان قبل ذلك بأيام يشتكي امتلاء وحركة الدم، فقلت لهم: لم يمّت والصواب ان يحجم^(١٥١)

(١٤٧) النكهة: رائحة الفم (لسان العرب، ج ٣، ص ٧٢٠).

(١٤٨) سمك ممقور: أي منقوع بالخل والملح (لسان العرب، ج ٣، ص ٥١٢).

(١٤٩) دردى: عكر النبيذ (الزبخشري، اساس البلاغة، ص ١٢٨).

(١٥٠) عيون الانباء، ص ٢٠٧-٢٠٨. ويراجع الوافي بالوفيات ج ١ ص ٧٧-٧٨.

(١٥١) يستخرج الدم من قفا العنق بالمحجم، يشرط المحجم القفا بموساه ثم يضع المحجم، وهي اداة كالكأس، فيمتص الدم ويحتذبه، والحجامة، احد ثلاثة اشياء كان الاطباء القدماء يوصون بها في كل سنة وهي: الحجامة، والفصد، وتناول المسهل. وكان الناس يعتبرون القيام بهذه الثلاثة من الواجبات ويكون تحت إشراف الطب ويحتفلون بذلك واذا حجم الانسان او افتصد او تناول مسهلاً، جاءت الهدايا من أصحابه

الساعة... فقلت للحجّام ضع محاجمك، ففعل... ثم قلت اشترط، فشرط فخرج الدم... وكلما خرج الدم يحرك رأسه... الى ان تكلم... وتراجعت اليه قوته... فلما خرج من علقته دعا بصاحب حرسه وصاحب شرطته وحاجبه فسأل صاحب الحرس عن غلته في كل سنة فعرف انها الف الف درهم، وسأل صاحب شرطته عن غلته فعرف انها خمسمائة الف درهم. ثم قال: يا جبرائيل كم غلتك؟ فقلت خمسين الف درهم. فقال: ما انصفناك حيث غلات هؤلاء وهم يحرسوني ويحجبوني عن الناس على ما هي عليه وتكون غلتك على ما ذكرت، وامر باقطاعي ما قيمته الف الف درهم فقلت: يا سيدي، ما لي حاجة الى الاقطاع ولكن تهب لي ما اشترى به الضياع ففعل وتقدم بمعاونتي على ابتياعها فابتعت بهباته وصلاته ضياعاً غلتها الف الف درهم. فجميع ما أمتلكه ضياع لا اقطاع فيه^(١٥٢).

وتطلعنا هذه الارقام الخيالية الواردة في المدرج على ما كان يتمتع به جبرائيل بن بختيشوع من مكانة رفيعة في البلاط العباسي، وكانت فاتحة خير على من تعاقب من اطباء هذه الاسرة على خدمة الخلفاء والعظماء، وعلى الرغم من أنهم لم يضاهاوا جبرائيل في غناه الفاحش، فان منزلة كل منهم في زمانه لم تكن تقلّ احتراماً واکراماً لدى ارباب الدولة.

وقد قيل في بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع انه، "كان سريانياً نبيل القدر، وبلغ من عظم المنزلة والحالة وكثرة المال، ما لم يبلغ به احد من سائر الاطباء الذين كانوا في عصره؟ وكان يضاهاى الخليفة في اللباس والفرش"^(١٥٣).

ومعارفه (الفرج بعد الشدة) ج ٤ ص ٢٢١) فقد روي ان المتوكل اقتصد يوماً فقال لخاصته وندمائيه اهدأوا الى يوم فصدي، فاحتفل كل واحد منهم في هديته (راجع عيون الانباء في طبقات الاطباء، ص ٢٥٣).

(١٥٢) (الفرج بعد الشدة، ج ٤ ص ٢١٩-٢٢٠. عيون الانباء، ص ١٩٤).

(١٥٣) (عيون الانباء، ص ٢٠١).

وقيل في ترجمة جرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع: "وكانت أجداده في هذه الصناعة كل منهم أوجد زمانه وعلامة وقته" (١٥٤).

وهنا يكمن سر بروز هذه العائلة وتعلق الناس بها، إذ أنهم وجدوا في حقبات زمانية لا يضاهيهم فيها في صناعتهم أحد والامثلة على ذلك كثيرة. هذا من جهة، أما من جهة ثانية، فإن من المؤكد أن الخلفاء كانوا يدركون مدى تعلق اطباء آل بختيشوع بمستشفاهم في جنديسابور، وانجح وسيلة لاستقدامهم والاحتفاظ بهم هي اغراقهم بالغنى ومنحهم التقدير والتبجيل. وقد قال الورتري في كتابه تاريخ الطب في العراق: "ويظهر من حكايات الكتب التاريخية ان اهتمام هذه الاسرة بجمع المال كان يفوق اهتمامها بخدمة المهنة والقيام على أعمال البيمارستان" (١٥٥).

واعتقد ان هذا القول مبالغ فيه اذا قارناه بما قاله فثيون الترجمان: "ان جنس جورجيس وولده كانوا اجمل اهل زمانهم، بما خصّهم الله من شرف النفوس، ونبيل الهمم، ومن البرّ والمعروف والافضال والصدقات، وتفقد المرضى من الفقراء والمساكين، والاخذ بأيدي المنكوبين والمرهوقين على ما يتجاوز الحدّ في الصفة والشرح" (١٥٦).

وفي مختلف الاحوال فان ثروة جبرائيل بن بختيشوع الخيالية، وهي حال فريدة في نوعها حتى بين اطباء القصور. فقد اشتهر ماسويه، ابو يوحنا الذي عمل اولاً كحالاً للوزير الفضل بن الربيع وكان يتقاضى شهرياً ستمائة درهم (٦٠٠) وعلوفة دابتين ونزل وخمسة غلمان، واعطاه نفقة واسعة ليستحضر أسرته من جندي سابور. وعندما اصبح كحال الرشيد كان يتقاضى شهرياً

(١٥٤) عيون الانباء، ص ٢١٠.

(١٥٥) هاشم الورتري، ومعمّر خالد الشابندر، تاريخ الطب في العراق، ص ٣٠-٣١.

(١٥٦) عيون الانباء، ص ١٩٨.

الفي (٢٠٠٠) درهم، ومعونة في السنة بقيمة عشرين ألف (٢٠,٠٠٠) درهم ونزل، والزم بالخدمة مع سائر من كان في الخدمة من الاطباء وصار نظيراً لجبرائيل وكان يجضر بحضوره^(١٥٧) وقد بلغ مدخوله السنوي عشرين ألف (٢٠,٠٠٠) درهم^(١٥٨).

وكان جبرائيل كحال المأمون يتقاضى شهرياً ألف (١٠٠٠) درهم^(١٥٩). وتقاضى حنين بن اسحق من المتوكل شهرياً ألفاً وخسمائة (١٥٠٠) درهم^(١٦٠). ومما يحكى ان المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله ويترجمه من الكتب. وكان بنو شاكر له في الشهر خمسمائة (٥٠٠) دينار للنقل والملازمة^(١٦١).

ويوم موت عبيد الله بن جبرائيل طبيب المقتدر، انفذ الخليفة ليلة موته ثمانين فراشا حملوا الموجود من أثاث وآنية. وبعد دفنه اختفت زوجته، فقبض على والدها بسببها وطلب منه ودائع بنت بختيشوع وأخذ منه اموالاً كثيرة^(١٦٢).

وخلف أمين الدولة بن التلميذ نعماً كثيرة، وأموالاً وافرة، وكتباً لا نظير لها في الجودة. وقيل ان كتبه نقلت على اثني عشر جملاً الى دار المجدد بن الصباح^(١٦٣). وكما ذكرنا سابقاً كانت دار القوارير بحرة في اقطاعه^(١٦٤),

(١٥٧) عيون الانباء، ص ٢٢٣.

(١٥٨) حنيفة الخطيب، الطب عند العرب، ص ١٥٠.

(١٥٩) تاريخ الحكماء، ص ١٥٢. عيون الانباء، ص ٢٤٢.

(١٦٠) حنيفة الخطيب، الطب عند العرب، ص ١٥١.

(١٦١) عيون الانباء، ص ٢٦٠.

(١٦٢) عيون الانباء، ص ٢١٠.

(١٦٣) عيون الانباء، ص ٣٥٥.

(١٦٤) عيون الانباء، ص ٣٥١-٣٥٢.

وقيل ان مرسومه ببغداد، كان يزيد في كل سنة على عشرين الف دينار (٢٠,٠٠٠)^(١٦٥) وكان ينفق جميع ذلك على صلاح العلم والغرباء وغيرهم، ومن حكمه "العالم الذي هو غير معلم كمتمول بخيل"^(١٦٦).

ولم تكن منزلة الاطباء، اجتماعياً ومالياً في ظلال الحكم العباسي في مصر أقل مما كانت عليه في بغداد. فقد كان احد الاطباء والمشهورين يتقاضى شهرياً راتباً قيمته الف (١٠٠٠) دينار^(١٦٧) وعندما تمكن بليطيان من شفاء احدى محظيات الرشيد وهبه مقابله ذلك مالاً كثيراً وكتب له منشوراً في كل كنيسة في يد اليعقوبية^(١٦٨) مما اخذها ان ترد اليه. ولما عاد بليطيان الى مصر استردّ من يد اليعقوبيين جميع الكنائس^(١٦٩).

خاتمة:

بهذه المكانة الرفيعة تنعم الاطباء المسيحيين في المجتمع العباسي الاسلامي حيث قربهم الخلفاء والامراء والوزراء وشاورهم واغدقوا عليهم هباتهم لما كانوا يقدمونه من جهد وخدمات لهم ولابناء المجتمع في مساهماتهم بعمل الاحسان.

ومما سبق فان هذا العدد الكبير من الاطباء الذين ظهروا في العصر العباسي، يدل على ان الحياة الاجتماعية قد وصلت الى درجة عالية من

(١٦٥) تاريخ حكماء الاسلام، ص ١٤٥. معجم الاطباء، ص ٨٦. تاريخ الطب العراقي ص ٣٣.

(١٦٦) تاريخ الحكماء الاسلام، ص ١٤٥. معجم الاطباء، ص ٨١.

(١٦٧) حنيقة الخطيب، الطب عند العرب، ص ١٥١.

(١٦٨) اليعقوبية: عرفهم محقق كتاب عيون الانباء، في طبقات الأطباء، في هامش ص ٥٤٠ من المصدر نفسه بانهم طائفة من النصارى قالت بالطبيعة الواحدة يسمون اليوم السريان القديم او الارثوذكس تمييزاً عن السريان الكاثوليك. بينما الصواب: ان كلمة اليعاقبة في العصر العباسي كانت تشير الى الاقباط.

(١٦٩) عيون الانباء، ص ٥٤٠.

الراقي، وان الطب كان يمارس باعتباره حاجة من حاجات تلك الحياة الراقية،
وانه لا يمكن ان يقال: ان الخلفاء قد استخدموا هذا العدد الكبير لحاجاتهم
الخاصة. وإذا لا بد ان تكون طبيعة الحياة قد حملت الدولة على التوسع في
إعداد الاطباء تلبية لحاجة المجتمع الذي بلغ فيه الوعي الصحي درجة كبيرة.
وان اشهر الاطباء الذين خدموا في مستشفى جديسابور، واعتمد عليهم
الخلفاء والسلاطين والامراء قد اسهموا وتمتعوا بنفوذ كبير وبمنزلة عالية، وقد
أسهموا بقسط كبير في الادارة (ادارة المستشفيات) التي اسسها العرب في
مختلف المقاطعات الاسلامية.

الفصل السابع

المسيحيون وحركة الترجمة في الدولة العربية الاسلامية

مقدمة

كان الطابع العربي هو الذي يميز الدولة الاسلامية في عهد الامويين^(١) (٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٤٩م)، فقد ظلت الدولة الاموية عربية المظهر، ولم يبعد الخلفاء الامويون عن هذا الطابع الا في المجالات التي دفعتهم الظروف اليها دفعا. ولم يكن بدّ اذن من ان تواجههم مشكلات نتيجة لما يمارسون من نشاط جديد. كل ذلك جعلهم يلجأون الى ذوي الخبرة فيما جدّ من امور، فهم لم يناقضوا انفسهم حين استمدوا العون من كل قادر عليه من اهل الثقافات اليونانية والسريانية، مما أتاح للعقلية العربية ان تلقح بلقاح جديد حمله اليها السريان على وجه خاص.

يقول ج^(٢) ليفي وللافيدا: "في هذا العصر بدأت الثقافة المسيحية في صبغتها الارمنية البيزنطية تتسرّب الى المسلمين وهذا هو الذي انتهى الى تكوين المدنية الخاصة التي امتاز بها الاسلام".

ولقد توفرت في الدولة الاموية كل العوامل التي تساعد على قيام مراكز ثقافية تعني بالنشاط العقلي وتمثلت هذه المراكز بصورة واضحة في كل من

(١) يقول الجاحظ: "ان دولة بني مروان كانت عربية اعرابية، وفي اجناد شامية" (البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٩٧).

(٢) دائرة المعارف الاسلامية، ج ٢ ص ٦٧٢.

البصرة والكوفة. فلم تكد تمضي مئة سنة على خروج العرب من صحرائهم حتى اصبح العراق مركزاً لاعظم نشاط فكري في ذلك العصر، اذ انه بالنظر الى ما اتصف به المجتمع العربي الجديد من قوة فنية، وعزم متوقد، تقاطر اهل العلم والمعرفة من مختلف البلدان وأقصاها الى مدن العراق المصرة حديثاً مثل البصرة والكوفة^(٣).

يقول ف. بارتولد: "صارت الكوفة والبصرة مركزين نشيطين للحياة العلمية، ولم يكن في القرن الاول الهجري (السابع الميلادي) مدينة تستطيع منافستهما، ففيها وضعت علوم العقائد والفقه من قبل الاعاجم الذين أسلموا وتلاميذهم. ثم نشأت في كلتا المدينتين مدرسة للنحويين واللغويين، فكانت مجادلات ومناقشات بين البصريين والكوفيين"^(٤).

ويقول دي بور: "ان المقر الاكبر للثقافة العقلية كانت في البصرة والكوفة حيث التقى عرب، وفرس، ونصارى ومسلمون، ويهود ومجوس. وهنا حيث ازدهرت التجارة والصناعة، يجب ان نلتمس بواكير العقل الديوي، تلك البواكير التي نشأت من مؤثرات مسيحية مصطبغة بالفلسفة اليونانية في دورها الشرقي"^(٥).

ويشير المستشرق جب الى ان الاثر السرياني في بيئة البصرة بقوله: "ولما كانت مدينة البصرة في واقع الامر هي المركز الرئيسي لدراسات الادب العربي في مبدأ الامر، فهذا يشير الى ان احد العوامل التي عملت على تشجيع تلك الدراسات كانت اكااديمية جنديسابور، ومع ان تلك الاكااديمية وجدت

(٣) نجلاء عز الدين، العالم العربي، ترجمة محمد عوض ابراهيم، ص ١٢.

(٤) تاريخ الحضارة الاسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ص ٧١.

(٥) تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ٧.

في الاراضي الفارسية، فلم تكن مركزاً للدراسات السريانية، وكان اغلب قوادها من العلماء النساطرة"^(٦)

ويذهب الاستاذ حامد عبد القادر الى ان الثقافة السريانية قد وفدت الى الكوفة والبصرة من الحيرة، لا من جنديسابور، فيقول: "وقد استقى الحيريين معارفهم اليونانية من اللغة السريانية، وحلت الكوفة والبصرة في العصر الاسلامي المزدهر محل الحيرة"^(٧).

أما أوليري، فيرى ان البصرة قد اعجبت بالثقافة الإغريقية الوافدة اليها من الحيرة على احتمال، ومن جنديسابور على احتمال آخر"^(٨).

ولقد توفرت عدة اسباب ضاعفت من الاهتمام بالدراسات اللغوية في كل من البصرة والكوفة، ومن ذلك "ما وجد من الهوة الواسعة التي كانت تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم، فتفصل بين لغة القرآن الفصحى، ولغة الكلام اليومية التي كانت تخالطها السريانية والفارسية وغيرها من اللغات واللهجات"^(٩).

وتبدو ملامح التأثير السرياني بشكل واضح في دراسات اللغويين، فالخوارزمي في مفاتيح العلوم يعقد فصلاً^(١٠) "في وجوه الاعراب على مذهب الفلاسفة اليونانيين" يقول فيه "الرفع عند اصحاب المنطق من اليونانيين واو ناقصة، وكذلك الضم واخوته المذكورة. والكسر واخوته عندهم ياء ناقصة، والفتح واخوته عندهم الف ناقصة".

(٦) راجع د. صلاح المنجد، المنتقى من دراسات المستشرقين هـ.أ.ر. جب، خواطر في الادب العربي، ص ١٣٠.

(٧) الاسلام ظهوره وانتشاره.

(٨) أوليري، مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب، ترجمة تمام حسان، ص ٢١٩.

(٩) فيليب حتي، تاريخ العرب، ج ١ ص ٣٠١.

(١٠) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ٣١، ط. الشرق.

وإذا كان المسلمون قد تأثروا بالسريان فيما اتخذوه لضبط لغتهم واعرابها، فإن السريان كانوا وراء المنهج الذي اتخذهُ النحاة لكتبهم، ذلك انهم كانوا يشتغلون بالفلسفة والعلوم اليونانية في مدرسة جنديسابور، ولقد ادى ذلك الى ان اصبحت المعارف اليونانية منتشرة بين الفرس شائعة فيهم. وابن خلدون في مقدمته يذكر ان اصحاب صناعة النحو، كسيبويه والفارسي من بعده. فالزجاج من بعدهما كلهم عجم في انسابهم، وانما رُبوا في اللسان العربي، فاكتسبوه بالمرى ومخالطة العرب، وصيروه قوانين وفنا^(١١).

لذلك ليس غريباً ان نراهم عند وضعهم كتبهم المشهورة يسلكون مسلكاً فلسفياً يتعلق بالمنطق، ومن ذلك ان ارساطاليس قال ان الزمان والمكان كالوعاء للأشياء إذ لا بد لكل شيء مخلوق ان يكون واقعاً في زمان من الازمنة، وفي مكان من الامكنة، فهما كالوعاء، وهذا أصل تسمية النحويين للمفعول فيه ظرفاً، أي وعاء، ومن مذهب ارسطاطاليس في المنطق تقسيم الكلام الى اسم وفعل وحرف، وتعريف الكلام عند نحاة اليونان هو تركيب كلمات تفيد معنى تاماً، وهذا لا يماثل تعريف الكلام عند نحاة العرب، اذ الكلام عندهم لفظ مركب مفيد يحسن السكوت عليه، والصرف عند اليونان هو تحويل آخر الكلمة من حرف الى آخر، ويضاهيه تعريف الاعراب عند نحاة العرب...، ويقال للصرف عند اليونان كليس ومعناه امالة الشيء أي صرفه^(١٢).

ولعلنا بعد ذلك نستطيع ان ننظر في قول أحد الباحثين المعاصرين: "لولا علمنا ان الذي ترجم كتاب الشعر هو متى بن يونس المتوفي سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م ويحيى بن عدى سنة ٣٦٤هـ/٩٧٤م، لا تهمننا النحاه بالنقل

(١١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٥٤٤ ط. مصطفى محمد.

(١٢) جويدي، محاضرات ادبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب، ص ٨٥.

عن ارسطو، لأن النحّاه اشتغلوا بتدوين علمهم قبل ظهور الكتاب بأكثر من قرن من الزمان، بل استوى نحوهم علما قائما بذاته قبل ظهور كتاب الشعر بأكثر من قرن^(١٣).

وهكذا استجلبت البيئات العلمية علوماً كانت حتى ذلك الحين تكاد تكون غريبة على العقلية العربية مما دفع الى تسميتها بالعلوم الدخيلة. ولقد كان السريان هم القنطرة التي عبرت عليها هذه العلوم لتصل الى العرب.

يقول جوستاف جرونيباوم: "وكانت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في بواكير صدر الاسلام مرضية مقبولة"^(١٤).

ويقول ف. بارتولد: "وكان المسيحيون احسن حالاً تحت حكم المسلمين في الازمنة الاولى لحاجة الفاتحين الى هذا العنصر المسيحي المتفوق على العرب حضارة"^(١٥).

ولقد كان انتقال الخلافة من الحجاز الى سورية من العوامل التي فتحت الباب امام السريان ليسهموا بمجهودهم في بناء الدولة الاسلامية. كما كان لهذا الانتقال اثره في تطور الحضارة. فلقد وجد العرب انفسهم حكاماً لمنطقة كانت ولاية رومانية خاضعة لقانون روماني كامل التطور وادارة منظمة جداً، وقد ابقوا كل هذا كما كان^(١٦) كذلك كانت دمشق^(١٧)، وهي العاصمة الرسمية لسورية مدينة اغريقية جزئياً، كما كانت مقر الاساقفة المسيحيين، وكانت بها مدرسة ظلت تحتفظ بشهرتها حتى وقت الفتح العربي.. "ولقد

(١٣) د. ابراهيم سلامه، بلاغة ارسطو بين العرب واليونان، ص ١١٧.

(١٤) جوستاف جرونيباوم، حضارة الاسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ص ٢٢٢.

(١٥) بارتولد، تاريخ الحضارة الاسلامية، ترجمة حمزه طاهر، ص ٥١.

(١٦) اوليري، مسالك الثقافة الاغريقية، الى العرب، ص ٢٠٦.

(١٧) اوليري، مسالك الثقافة الاغريقية، الى العرب، ص ٢١٠.

خضع معاوية وخلفاؤه من بعده في دمشق للعبادات اليونانية، فحول الخلفاء الامويون جمهورية المدينة الدينية العربية الى امبراطورية حقيقة سورية...

فضبوا الدينار الذهبية على نسق الدراهم البيزنطية، وجعلوا الخلافة وراثية بعد ان كانت انتخابية، واستعملوا عمالاً كثيرين من اليونان والسريان، واسندوا الى المسيحيين مركز الوزير الاول^(١٨).

يقول ج. ليفي دلافيدا: "لقد انتفع معاوية في إدارة البلاد الداخلية بخبرة المسيحيين اكثر مما انتفع اسلافه، وكان قد اتصل بالمسيحيين اتصالاً وثيقاً ايام ولايته في الشام في عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وعرف مبلغ علمهم ومقدرتهم العملية"^(١٩).

ويقول اوليري: "وقد ظلت الكتابة في السنوات العشرين الاولى او ما يزيد عنها باللغة الاغريقية، وكان الموظفون المدنيون جميعاً من المسيحيين على وجه التقريب"^(٢٠).

ويبدو ان هذه الظاهرة بعد ان تفشت كانت لا تجد قبولاً من الرأي العربي العام.

يقول جوستاف جرونيباوم: "كان تعيين غير المسلمين في مناصب الحكم يعد أمراً غير قانوني، وان المعينين كانوا يتولون مناصبهم على مضض من الناس، وان دوائر الاتقياء كانت تحارب دائماً مثل ذلك التراخي في التصرفات من جانب بعض حكامهم"^(٢١).

(١٨) ماكس فانتاجو، المعجزة العربية، ص ١٣٩.

(١٩) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ٢، ص ٦٧١.

(٢٠) اوليري، مسالك الثقافة الاغريقية، الى العرب، ص ٢٠٦.

(٢١) جوستاف جرونيباوم، حضارة الاسلام، ص ٢٣٠-٢٣١.

ويذكر اوليري انه: "في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان كانت ثمة غيرة عظيمة لان المسيحيين احتكروا جميع الوظائف الادارية، وحاول الخليفة ان يستخدم العرب في امكتنهم، ولكن التغير لم يكن ناجحاً، واكثر ما استطاع عبد الملك ان يفعله هو ان يحول الكتابة من الاغريقية الى العربية، وان يكتب العربية على النقود".

حركة الترجمة وجهود السريان

إن إصرار الباحثين وإجماعهم على أن أولية الترجمة الى اللغة العربية معقود لخالد بن يزيد^(٢٢) ومن عاونه من علماء النساطرة، يجب ان لا يخذعنا فنصرف النظر عن المرحلة التي تسبق عصره، فالواقع ان الترجمة كانت معروفة قبله، ولكن الذي استحدثه خالد هو انه بذل جهداً مقصوداً لنقل معارف علمية بحتة لا تستلزمها الحياة الجارية.

ولعل الباحث يجد الدليل على صحة هذا الرأي فيما ذكره ابن اسحق وهو بصدد الحديث عن بناء الكعبة على عهد محمد اذ يقول: "حدثت ان قريشا وجدوا في الركن كتابا بالسريانية فلم يدروا ما هو حتى قرأ لهم رجل

(٢٢) انه الشخصية الاسلامية الاولى التي عملت بمشورة علماء السريان فأقدمت على الاشتغال بالكيمياء. قال عنه دي بور انه: "اشتغل بالكيمياء بارشاد راهب نصراني" وتحدث عنه ابن النديم فقال انه كان يسعى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه، وله همّة، ومحبة العلوم. خطر بباله الصنعة فأمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح في العربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي، وهذا اول نقل كان في الاسلام من لغة الى لغة". وكان ما نقل يتضمن كتباً في الطب، ويضم كتباً في النجوم. (انظر دي بور، تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٢٩، وابن النديم، الفهرست ص ٣٥٢ طبعة الاستقامة وانظر ص ٥١١ من المرجع نفسه، والجاحظ في البيان والتبيين ج ١ ص ٢٢٨ ورسائل الجاحظ، ص ٩٣ طبعة السندوبي).

من اليهود فاذا هو: انا الله ذو بكة، خلقتها يوم خلقت السموات والارض، وصورت الشمس والقمر، وحففتها بسبة املاك حنفاء، لا تزول حتى يزول اخشابا، مبارك لأهلها في الماء واللبن" (٢٣).

وخير برهان ما ورد في سيرة ابن هشام عن ورقة بن نوفل عم خديجة زوجة محمد "كان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله ان يكتب" (٢٤) وجاء في صحيح مسلم ان القس ورقة "كان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الانجيل بالعربية ما شاء الله ان يكتب" (٢٥) هذه وغيرها من الروايات تشير الى ان القس ورقة كان ينقل الانجيل من العبرانية الى العربية.

وفي صدر الدعوة الاسلامية اتخذ محمد من يقوم مقام المترجم بينه وبين من يشاء الكتابة لهم من الملوك والحكام.

يقول المسعودي (٢٦)، كان الخزرجي يكتب الى الملوك ويحجب بحضرة النبي. كذلك كان يترجم للنبي بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية. تعلم ذلك بالمدينة من اهل هذه اللسان.

ولقد كانت رغبة محمد في تأمين الدعوى الاسلامية دافعاً له لكي يوجه فريقاً من الصحابة لتعلم هذه اللغات ودراستها حتى يستطيعوا ان يؤدوا عنه ما يريده لاهلها.

(٢٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١ ص ٢٠٨. وايضا انظر، برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية، ج ١ ص ١٩١.

(٢٤) صحيح البخاري يشرح الكرمانى، ج ١ ص ٣٨-٣٩.

(٢٥) صحيح مسلم، ج ١ ص ٧٨-٧٩.

(٢٦) المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ٢٤٦.

يقول زيد بن ثابت^(٢٧): "أمرني رسول الله ان أتعلّم السريانية. قال إني لا آمن يهود على كتابي، فما مرّ بي نصف شهر حتى تعلمت وحذقت فيه. فكنت اكتب له (ص) اليهم واقرأ لهم".

نخلص من كل ذلك الى ان البيئة الاسلامية في هذه الفترة شأنها شأن أي بيئة اجتماعية اخرى يتوفر فيها هذا التفاعل المستمر لا يمكن ان تخلو ممن يعرف غير لغة أهلها خاصة والظروف هنا قد فتحت المجال لاصحاب هذه اللسان الاجنبية ان يجدوا لأنفسهم مجالاً بين ظهرائي القوم.

السريان والترجمة قبل الاسلام

ليس من مصادفات العصر ان نجد الرواد الاوائل الذين يضطلعون بعبء الترجمة والنقل سرياناً، اذ ان هذا الامر الطبيعي الذي كان لا بد ان يحدث، ذلك لان هؤلاء كانوا قد قطعوا في هذا الطريق شوطاً بعيداً. فقد مارسوا الترجمة قبل ظهور الدولة الاموية بكثير، فمنذ القرن الرابع الميلادي شرع السريان^(٢٨) في نقل الكتب اليونانية الى السريانية في مدرسة الرها. فترجمت في هذا القرن مجموعات من الحكم.

وفي القرن الخامس^(٢٩) الميلادي شرح بروبوس كتب أرسطو المنطقية وايساغوجي لفورفوروريوس. كذلك ممن نقلوا علوم اليونان في هذه الفترة من اليونانية الى السريانية سرجيس الراسعيني^(٣٠) اليعقوبي المتوفي سنة ٥٢٦م، وقد

(٢٧) برهان الدين الحلي، السيرة الحلبية، ج ٣ ص ٤٣٥، ط (١٢٩٢هـ).

(٢٨) جويدي، محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب، ص ٨٢.

(٢٩) راجع النقل عن اليونانية في القرن الخامس للدكتور مراد كامل، تاريخ الادب السرياني، ص ١٢١-١٢٥.

(٣٠) سركيس (سرجيس) هذا هو الريشعيني (الراسعيني) الفيلسوف الطبيب الشهير الذي كتب مقالات شتى وترجم كتباً كثيرة فلسفية طبية من اليونانية الى الكلدانية

كان رئيساً لأطباء راس العين، غير انه اشتغل بالفلسفة، وكتب مقالات شتى، وترجم كتباً كثيرة فلسفية وطبية من اللغة اليونانية الى السريانية^(٣١).

ويذكر ابن ابي اصبعة: "انه اول من نقل كتب اليونان الى اللغة السريانية"^(٣٢).

كما يذكر جويدي: "انه اول من علّم ابناء وطنه فلسفة ارسطوطاليس"^(٣٣). وقد ترجم سرجيس كتاب الطب لجالينوس^(٣٤) الذي يعتبر اساس دراسات الطب في الاوساط الطبية الشرقية^(٣٥).

وفي مصر نشط السريان قبل الفتح الاسلامي، وبدأ نشاطهم خاصة في الاسكندرية وفي الاديرة التي إتخذوها لانفسهم، وبسببهم عرفت مصر اللغة السريانية وان ظلت محصورة في محيط هذه الطائفة. وكان لهم نشاط علمي

(السريانية) (انظر السمعاني، المكتبة الشرقية، ج ٢ ص ٣٢٣). والظاهر ان هذا الفاضل (مار آبا) جادل الطبيب وحمله الى نبذ المذهب الاريوسي، فانه لم يلبث ان انحاز الى الكاثوليك (الخلقيدونيين) وحارب معهم البدعة المنوفستية بشدة لا مزيد عليها (انظر لابور ص ١٦٨) وانطلق الى انطاكية سنة ٥٣٥م وسعى بأزولوس اسقف رأس العين اليقوي لدى أفرام البطريك الذي كان الدّعدو للمنوفستيين. وذهب من هناك الى رومية واتى باغايطوس البابا الى القسطنطينية وبمساعده واهتمه طرد البابا من تلك المدينة. كل المنوفستيين (دوفال، الآداب السريانية، ص ٣٦٥-٣٦٦) وراجع عنه ايضا، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٥١، وتاريخ كلدو وآثور للمطران ادي شير، ج ٢ ص ١٧٢، والذي يضيف: ان بعض النساطرة كانوا من أخص تلاميذ سرجيس منهم تتودور اسقف مرو.

(٣١) ادي شير، تاريخ كلدو وآثور، ج ٢ ص ١٧٢.

(٣٢) ابن ابي اصبعة، عيون الانباء في طبقات الاطباء، ج ١ ص ١٠٩.

(٣٣) جويدي، محاضرات ادبيات الجغرافية والتاريخ واللغة، ص ١٨٢.

(٣٤) عيسى اسكندر معلوف، تاريخ الطب عند العرب، ص ٤.

(٣٥) د. كامل مراد، تاريخ الادب السرياني، ص ١٦٧.

ملحوظ، فقد ترجم أحد أساقفتهم نسخة الترجمة السبعينية من الكتاب المقدس الى اللغة السريانية. كما ترجم^(٣٦) جاسيوس مقالات أهرن القس الطبية من اليونانية الى السريانية.

ولقد كانت الترجمة من اليونانية الى السريانية باللغة الدقة حتى ان "من يجيد اللغتين يجد انه من المستحيل ان يفرق بين الاصل والترجمة السريانية"^(٣٧)، غير ان "مطابقة" الترجمة للاصل تبدو في كتب المنطق والعلم الطبيعي اكثر مما تبدو في كتب الاخلاق او ما بعد الطبيعة، فقد حذفوا كثيراً من غوامض هذين العلمين، او فهموه على غير وجهة، وأحلوا عناصر مسحية محل ما هو وثني^(٣٨)، فلقد اصطبغت النظريات الفلسفية في ذهنهم بصبغة مسيحية ولا سيما نظريات افلاطون الذي مثله في اديرتهم في صور راهب شرقي.

ولقد أدى هذا الالتحام المباشر بين السريان وعلوم اليونان الى ان اصبحت الثقافة اليونانية تعيش في كيان هؤلاء القوم، وتخالط عقولهم، مما جعلهم يتمكنون منها، ويصبحون معلمين لها فيما بعد حين ينقلونها الى العرب.

ولقد كان دورهم في العصر الاسلامي امتداداً طبيعياً لما قاموا به قبل ذلك، فقد واصلوا العمل في الترجمة، وصاروا بذلك "واسطة لاقتباس العرب علوم اليونان كالمنطق والفلسفة وعلم الفلك وغيرها من العلوم الطبيعية"^(٣٩).

(٣٦) عيسى اسكندر المعلوف، تاريخ الطب عند العرب، ص ٤ راجع د. مراد كامل، تاريخ الادب السرياني، ص ١٩١. وقرن ذلك بقول ابن ابي اصبعة: "ان اهرن القس ألف كناشة بالسريانية" (عيون الانباء، ج ١ ص ١٠٩).

(٣٧) نقلاً عن خودانجش، الحضارة الاسلامية، ترجمة الدكتور علي الخربوطلي، ص ١٥٧.

(٣٨) دي بور، تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص ٢٠.

(٣٩) جويدي، محاضرات ادبيات للجغرافيا والتاريخ، ص ٨٢.

الترجمة في العهد الاموي

قام يحيى النحوي^(٤٠)، "توفي قبل منتصف القرن الثامن الميلادي"، الملقب بالطريق بدور كبير في نقل العلم المسيحي والآراء اليونانية الى الاسلام، ولقد كان نصرانيا فيلسوفاً، فاراد عامل امير المؤمنين علي بن ابي طالب ازعاجه عن فارس وتخريب دير، فكتب يحيى قصته الى امير المؤمنين وطلب منه الأمان، فكتب محمد بن الحنفية له كتاب الأمان بأمر أمير المؤمنين^(٤١).

وعلى الرغم من ان يوحنا كان يكتب اليونانية الا أنه لم يكن إغريقيا إذ كان سريانيا يتكلم السريانية في بيته، ويعرف فضلاً عن هاتين اللغتين، اللغة العربية، وقد مكّنه هذا من ان يبصر المسلمين بطبيعة الفكر اليوناني وبخاصة الفلسفة، وذلك من خلال المناظرات والجدل.

يقول الفريد جيوم إنه "كان يتجادل مع العرب حول معنى اصطلاح لفظي "كلمة" و"الروح" اللذين نسباً للمسيح في القرآن هل هما مخلوقان ام غير مخلوقين"^(٤٢).

وقد ذكر سويتمان انه "قد بقي لنا قدر كبير مما كتبه، واذا كان هناك شك حول بعض الكتب التي تحمل اسمه، فمن المؤكد انها اذا لم تكن قد كتبت بقلمه فإنها من وضع تلميذه ثيودور"^(٤٣).

ويبدو ان يوحنا كان على خلاف مع اهل مذهبه اذ كان يمّوه^(٤٤) عليهم مما اثار حفيظتهم عليه، وهمّوا بقتله فدفعه ذلك الى يصنف كتباً يردّ فيها على

(٤٠) هو غير يحيى النحوي الذي تزعم بعض الروايات ان له دوراً في قصة حرق عمرو بن العاصي مكتبة الاسكندرية.

(٤١) البيهقي، تاريخ حكماء الاسلام، ص ٣٩.

(٤٢) الاسلام، ص ١٢٤، ترجمة الدكتور محمد مصطفى هدارة.

(٤٣) Islam and Christian, p.64.

افلاطون وارسطو، كذلك وضع كتباً دافع فيها عن المسيحية، وجادل فيها المسلمين.

ولقد ظهر تأثير يوحنا في المسلمين واضحاً، يقول البيهقي "ان اكثر ما أورده الامام حجة الاسلام الغزالي رحمه الله في تهافت الفلاسفة تقرير كلام يحيى النحوي" (٤٥).

وكما ساهم يحيى النحوي في نقل الفلسفة اليونانية الى المسلمين، كان له ايضاً دوره في نقل المعارف الطبية اليهم، ولقد اشار البيهقي (٤٦) الى أن خالد بن يزيد بن معاوية قد أخذ الطب منه، ولا غرابة في ان يحيى النحوي قد جمع بين الدراسات الفلسفية والطبية، فقد كانت سمة العصر ان يجمع الحكماء بين الطب والفلسفة. فقد ذكر ابن ابي أصيبعة (٤٧) "ان النضر بن الحارث بن كلدة الثقفي قد اطلع على علوم الفلسفة واجزاء الحكمة، وتعلم من ابيه ايضاً ما كان يعلم من الطب وغيره".

ويبدو ان المسلمين كانوا يولون الدراسات الطبية عناية فائقة منذ وقت مبكر. يقول صاعد الاندلسي (٤٨): "كانت العرب في صدر الاسلام لا تعني بشي من العلم الا بلغتها، ومعرفة احكام شريعتها حاشا صناعة الطب، فانها

(٤٤) البيهقي، تاريخ حكماء الاسلام، ص ٣٩.

(٤٥) البيهقي، تاريخ حكماء الاسلام، ص ٣٩.

(٤٦) البيهقي، تاريخ حكماء الاسلام، ص ٤٠.

(٤٧) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١١٣.

(٤٨) صاعد الاندلسي (ابو القاسم احمد) (١٠٢٩-١٠٧٠) مؤرخ أندلسي ولد في المرية، قرطبي الاصل، وُلِّي قضاء المالكية في طليطلة. اشتهر بكتابه "طبقات الامم" في تاريخ الاجناس والحضارات. وله مقالات اهل الملل والنحل واصلاح حركات النجوم.

كانت موجودة عند افراد من العرب غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً إليها^(٤٩)..."

ولقد استمد الطب العربي العلمي مقوماته من اليونان والفرس، غير ان الصبغة اليونانية غلبت عليه. وفي مقدمة الاطباء العرب الحارث ابن كلدة^(٥٠)، واصله من ثقيف من أهل الطائف، رحل الى أرض فارس، واخذ الطب عن اهل تلك الديار من أهل جنديسابور النصارى وغيرها في الجاهلية قبل الاسلام، واجاد في هذه الصناعة، وقد أدرك الحارث الاسلام، وكان محمد يأمر من كان به علة ان يأتيه فيستوصفه^(٥١). ويطالعنا البيهقي بخبر يؤكد ذلك في قوله: "أمر رسول الله سعد بن ابي وقاص بأن يأتيه فيستوصفه في مرض نزل به"^(٥٢). وقد بقي حتى أيام الخليفة معاوية بن ابي سفيان الاموي.

ولقد كانت المادة الطبية التي احتكت بها العقلية العربية قد خرجت من أيدي اصحابها، ونعني بهم اليونان، وتلقفها الدارسون والشارحون الذين يعرفون اليونانية والسريانية، وشارك الاطباء السريان في هذه الدراسة بنصيب وافر، وكان لهم دورهم في النقل والترجمة.

وقد اشتهر منهم في العصر الاموي ابن آثال، قال عنه ابن ابي اصيبعة "كان من الاطباء المتميزين في دمشق، نصراني المذهب، ولما ملك معاوية بن

(٤٩) صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص ٥٤، ط. محمد مطر.

(٥٠) القفطي، اخبار الحكماء، ص ١١١. صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص ٥٥. ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٠٩-١١٠. ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٤٦.

(٥١) ابن العري، مختصر تاريخ الدول، ص ١٥٦. يذهب عيسى العلوف الى انه نسطوري من الطائف، ص ٥.

(٥٢) أخبار الحكماء، ص ١١٢.

أبي سفيان دمشق اصطفاه لنفسه، وأحسن إليه، وكان كثير الانتقاد له، والاعتقاد فيه، والمحادثة معه ليلاً ونهاراً^(٥٣).

كذلك كان من اطباء بني أمية، ابو الحكم الدمشقي^(٥٤)، وهو طبيب من اهل دمشق، سيّره معاوية بن ابي سفيان مع ولده يزيد طبيباً الى مكة.

وفي عهد عبد الملك بن مروان اختص بخدمة الحجاج بن يوسف الثقفي ثاودون^(٥٥) وتياذوق^(٥٦) الطبيبان.

أما ثاودون فله كناش كبير عمله لابنه. واما تياذوق (توفي سنة ٩٠هـ/٧٠٨م) فقد كان احد الاطباء السريان المشهورين، وقد تلقى العلم على يديه تلاميذ اجلة كفرات بن شحناثا^(٥٧) الذي خدم الحجاج وهو حدث، وامتد به العمر حتى ادرك الدولة العباسية، وعمل في صحبة عيسى بن موسى ولي العهد في أيام المنصور، وكان يشاوره في كل امر ينويه.

وفي ايام الخليفة عمر بن عبد العزيز (٦١-١٠١هـ/٦٨١-٧٢٠م) زاد الاهتمام بالدراسات اليونانية، ومن الذين شاركوا في ذلك الطبيب عبد الملك

(٥٣) عيون الانباء في طبقات الاطباء، ج ١ ص ١١٦.

(٥٤) انظر تفاصيل اخباره وجهود اسرته في خدمة الدولة الاموية ثم العباسية عند القفطي، اخبار الحكماء، ص ١٢٣، ١٢٤. وابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١١٩.

(٥٥) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ١٩٤. القفطي، اخبار الحكماء، ص ٧٦.

(٥٦) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٢١ از القفطي، اخبار الحكماء، ص ٧٤. ابن قتيبة، عيون الاخبار، ج ٢ ص ٢٧٠. حَرْف الراغب الاصفهاني اسمه الى "تياذوق" محاضرات الادباء والشعراء، ص ٢٠٢.

(٥٧) القفطي، اخبار الحكماء، ص ١٦٩. عيسى معلوف، تاريخ الطب عند العرب، ص ١٣. يذهب الدكتور أحمد عيسى في "التهديب في أصول التعريف" الى ان فرات بن شحناثا سرياني اللغة يهودي المذهب.

بن أبجر الكناني الذي قال عنه ابن ابي اصيبعة^(٥٨): "وكان طبيباً عالماً ماهراً، وكان في أول أمره مقيماً في الاسكندرية لانه كان المتولي التدريس بها... فلما استولى المسلمون على البلاد وملكوا الاسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز، وكان حينئذ أميراً قبل ان تصل الخلافة اليه، وصحبه، فلما افضيت الخلافة الى عمر، وذلك في صفر سنة ٩٩هـ/٧١٧م، نقل التدريس الى انطاكية وحران وتفرق في البلاد، وكان عمر بن عبد العزيز يستطبه ويعتمد عليه في صناعة الطب".

ومن الذين اشتغلوا بالترجمة في العهد الاموي الطبيب البصري ماسرجويه، وهو سرياني^(٥٩) اللغة، يهودي المذهب، وقد اعتقد العرب ان اصله سرياني^(٦٠) ولقد نقل من السريانية الى العربية^(٦١).

وذكر القفطسي انه^(٦٢) "تولى في ايام مروان في الدولة مروانية تفسير كتاب اهلون القس بن اعين الى العربية، ووجده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب، وأمر باخراجه ووضع في مصلاه، واستخار الله في اخراجه

(٥٨) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١١٦. خودابخش، الحضارة الاسلامية، ص ١٥٣. استبعد ماكس مايرهوف ان يكون عبد الملك بن أبجر رئيساً لإحدى المدارس في الاسكندرية. كذلك يرى ان اكثر الفروض احتمالاً اننا بازاء طبيين يشتركان في نفس الاسم، عمل أولهما طبيباً لعمر بن عبد العزيز، بل وكان صديقاً له، اما الثاني فقد اشتهر ايضاً بمعارفه الطبية، وقد ذكر ابن حجر انه توفي بعد سفيان الثوري المتوفي سنة ١٦١هـ/٧٧٨م أي بعد عصر عمر بن عبد العزيز بكثير (ماكس مايرهوف، من الاسكندرية الى بغداد، ص ٦٥، ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١١٦-١١٧).

(٥٩) ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ١٩٢، د. فيليب حتي، تاريخ العرب، ج ١ ص ٢٢٠.

(٦٠) د. مراد كامل، تاريخ الادب السرياني، ص ١٧١.

(٦١) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٧. ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ٢٠٤.

(٦٢) القفطسي، اخبار الحكماء، ص ٢١٣. ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٦٣.

الى المسلمين لينفع به، فلما تم له في ذلك اربعون يوماً اخرجته الى الناس وبثه في ايديهم، وهذا على عكس ما يذهب اليه الدكتور محمد كامل حسين في قوله^(٦٣): "وكتب أهرن القس مقالاته الطبية التي يجمعها، كناش في الطب الذي ترجم الى اللغة العربية بامر الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز".

والدكتور التيجاني الماحي في قوله^(٦٤): "ان ما سرجويه تولى لعمر ابن عبد العزيز ترجمة كتاب اهرن القس في الطب". وعيسى المعلوف في قوله^(٦٥): "ان ماسرجويه عرّب كناش القس اهرن بن اعين في السريانية في خلافة مروان بن الحكم باشارة عمر ابن عبد العزيز".

وكيفما كان الامر فمما لا شك فيه ان ماسرجويه نقل كناش أهرن وكان ثلاثين مقالة^(٦٦)، فزاد عليها مقالاتين، وبذلك يعتبر ماسرجويه الكاتب الاول^(٦٧) لمؤلف علمي بلغة الاسلام، ولماسرجويه من الكتب كتاب قوى الاطعمة ومنافعها ومضارها، وكتاب قوى العقاقير ومنافعها ومضارها.

حركة الترجمة في العصر العباسي

لما جاء العصر العباسي كان المسلمون قد امضوا في التمدن: "ورأوا أن حياة الحضارة لا بد ان تسند الى العلم، فمالية الدولة تحتاج الى حساب دقيق، وعيشة الحضارة المركبة تحتاج الى ادوية مركبة، وعلاج مركب"^(٦٨). وكانت

(٦٣) د. محمد كامل حسين، الحياة الفكرية والادبية بمصر، ص ٢١.

(٦٤) د. التيجاني الماحي، تاريخ الطب عند العرب، ص ٤٦.

(٦٥) عيسى معلوف، تاريخ الطب عند العرب، ص ١٢.

(٦٦) ابن ابي أصيبعة، عيون الانباء في طبقات الاطباء، ج ١ ص ١٠٩. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ١٥٧. القفطي، احبار الحكماء، ص ٥٧.

(٦٧) د. فيليب حتي، تاريخ العرب، ج ١ ص ٣٢٠.

(٦٨) د. فيليب حتي، تاريخ العرب، ج ١ ص ٣١٥.

جنديسابور حتى ذلك الحين ما زالت مركزاً للثقافة ومصدراً للاشعاع العلمي، كما كانت تموج بالعلماء، وتزخر بالطباء، فاخذت الانظار تتجه اليها تسائلها العون، وتناشدها المساعدة. وكان الخليفة ابو جعفر المنصور قد ادركه ضعف في معدته، واصابه سوء استمراء، وعجز معالجوه عن مداواته، فجمع الاطباء، وقال لهم: "اريد من الاطباء في سائر المدن طبيباً ماهراً"، قالوا: "ما في عصرنا أفضل من جورجيس بن بختيشوع رئيس اطباء جنديسابور، فانه ماهر في الطب، وله مصنفات جلييلة، فتقدم المنصور باحضاره، فانفذه العامل بجنديسابور الى حضرة الخلافة بعد ان امتنع عن الخروج... ولم يزل جورجيس يتلطف له في تدبيره حتى برئ المنصور، وعاد الى الصحة، وفرح به فرحاً شديداً، وامر ان يُجابه الى كل من يسأل" (٦٩).

وقد ظل جورجيس (٧٠) في خدمة المنصور حتى تقدمت به السن، وبنى له مستشفى (٧١) على طريقة مستشفى آل بختيشوع بجنديسابور (٧٢).

وعندما جاء المهدي استقدم بختيشوع بن جورجيس (٧٣) من جنديسابور ليعالج ابنه الهادي، ولكن الخيزران عزّ عليها ان يستدعيه المهدي، ولا يستطب ابا قريش طبيبها الذي كان يعرف بعيسى الصيدلاني (٧٤)، فكان ذلك سبباً في ان يعيده المهدي الى جنديسابور.

(٦٩) القفطي، اخبار الحكماء، ص ١٠٩-١١٠، ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢١٤.

ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء ج ١ ص ٨٢٣.

(٧٠) اسرائيل ولفسون، اللغات السامية، ص ١٤٦.

(٧١) عيسى معلوف، تاريخ الطب عند العرب، ص ١٨.

(٧٢) عيسى معلوف، تاريخ الطب عند العرب، ص ٦.

(٧٣) القفطي، اخبار الحكماء، ص ٧١.

(٧٤) ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٢٠.

وفي أيام الرشيد أصابه صداع شديد، وعجز أطباؤه عن مداواته، فاستخدم بختيشوع لذلك الأمر وقال: "بختيشوع يكون رئيس الأطباء كلهم، وله يسمعون ويطيعون" (٧٥).

وقد ذكر صاعد الاندلسي ان "بختيشوع له تآليف في الطب معروفة، منها كتاب التذكرة، وقد عمله لابنه جبرائيل" (٧٦) وبعد موت بختيشوع، خلفه جبرائيل، وقد قام على علاج جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي. كذلك برئت جارية للرشيد بحيلة (٧٧)، لطيفة استعان بها، كما شفى على يديه من مرض ألم به مما دفعه الى ان يقربه منه، ويرفع مكانته لديه.

ولقد كان النجاح الذي أحرزه هؤلاء الأطباء أثره في المكانة التي وصلوا إليها، ذلك لأن الخلفاء ورجال الدولة، وكانوا يعظمونهم لقدر علمهم لا لدينهم".

وقد ذكر القفطي ان "يحيى بن خالد البرمكي احب جبرائيل عندما عالج له مثل نفسه، وكان لا يصبر عنه ساعة، ومعه ياكل ويشرب" (٧٨).

كذلك ذكر ابن ابي اصيبعة ان الرشيد عندما شفى قرب جبرائيل منه، ورفع مكانته لديه حتى انه قال لاصحابه: كل ما كانت له حاجة فليخاطب بها جبرائيل لاني افعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني" (٧٩). وقد ظل جبرائيل

(٧٥) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٢٦-١٢٧. ابن العري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٢٦.

(٧٦) صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص ٤٠ القفطي، اخبار الحكماء، ص ٧١.

(٧٧) عيسى معلوف، تاريخ الطب عند العرب، ص ١٣.

(٧٨) القفطي، اخبار الحكماء، ص ٩٣. ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٢٧.

(٧٩) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٢٧.

على هذه المكانة العالية في عهد المأمون "فكان كل من تقلد عملاً لا يخرج الى عمله الا بعد ان يلقي جبرائيل ويكرمه" (٨٠).

يقول حاجي خليفة "ان اول من عنى من العباسيين بالعلوم الخليفة الثاني ابو جعفر المنصور" (٨١) وقد دفعته العناية الى ان يرسل الى الامبراطور البيزنطي يطلب منه ما لديه من الكتب اليونانية، فاجابه الى طلبه، وارسلها له، ومن بينها كتاب اقليدس (٨٢).

وقد ذكر السيوطي "ان المنصور اول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والاعجمية باللغة العربية" (٨٣).

وقد اسس الرشيد دار الحكمة، كما ارسل رسله الى الامبراطورية الرومانية لطلب المخطوطات، ووضع يوحنا بن ماسويه اميناً على ترجمتها (٨٤).

ولما جاء المأمون، كانت حركة الترجمة قد بلغت ذروتها من حيث النشاط والدقة. فزاد الاهتمام بدار الحكمة، وأرسل الى "ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة، المدخرة ببلاد الروم، فاجاب الى ذلك بعد امتناع، فاعرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فاخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل" (٨٥).

(٨٠) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٢٩.

(٨١) حاجي خليفة، كشف الظنون، ص ٣٤. صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص ٥٥. ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٣٥.

(٨٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٠١.

(٨٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٥٠.

(٨٤) أوليري، مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب، ص ٢٤٠.

(٨٥) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٣. ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٨٧.

واذا كانت الحاجة وحدها هي التي دفعت الى نقل المعارف الطبية، فان الامر نفسه قد حدث في ترجمة الكتب الفلسفية والمنطقية. ولقد كان غروف المسلمين عن ترجمة الكتب الفلسفية في صدر الاسلام واجتهاد الخلفاء في الا يثيغ شيء منها مبنيا على احساسهم بان بعض مبادئها قد لا تتفق مع المعتقادات الدينية وهم حديثو العهد بالاسلام.

وحين جاء العصر العباسي كانت دعائم الاسلام، قد ثبتت وتوطدت واصبحت عقائد الناس لا يخشى عليها من ان تنال منها آراء غريبة على بيئتهم، فتغيّرت المكانة التي كان يضع فيها المسلمون الفلسفة، بل علوم الاوائل كلها.

لقد وجدوا انهم في حاجة الى البحث فيها ودراستها. والتزوّد بما تتيحه من وسائل في الجدل والمناقشة، ليتمكنوا من ردّ الشبهات ومقارعة الخصوم، والدفاع عن الاسلام.

يقول حموده غرابه "حين وجد المعتزلة النساطرة وغيرهم من الفرق المسيحية مسلحين بالثقافة الاغريقية التي عرفوا عنها كثيرا من المناقشات الشفوية، رغبوا هم ايضا في ان يتسلحوا بها، فاستعانوا بالمنصور في ترجمة المنطق الارسطي وهكذا كان المنطق اول علم من علوم الفلسفة بمعناها الضيق" حصل له اشتباك بعلم الكلام الاسلامي^(٨٦).

وقد تنبه القدماء الى هذا الاتجاه، يقول المقرئزي: "أقبلت المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم عليها "كتب الفلاسفة" واكثروا من النظر فيها، والتصفح لها"^(٨٧).

(٨٦) حموده غرابه، ابن سينا بين الدين والفلسفة، ص ٢٦.

(٨٧) المقرئزي، خطط المقرئزي، ج ٢ ص ٣٥٧.

ويقول صاعد الاندلسي "ان اول علم اعتنى به من علوم الفلسفة علم المنطق والنجوم" (٨٨).

ومن هنا يتبين ان الاشتغال بالفلسفة كان وسيلة استعان بها المسلمون بعامة والمعتزلة بخاصة في نصررة الاسلام، ويزيد ذلك تأكيداً ما يذكره الخياط في قوله: "ولقد اخبرني عدد من اصحابنا ان ابراهيم النظم رحمه الله، قال وهو يجود بنفسه: اللهم ان كنت تعلم اني لا اقتصّر في نصررة توحيدك، ولم اعتقد مذهبا من المذاهب اللطيفة إلا لأنشد به التوحيد، فما كان منها يخالف، فانا منه برئ، اللهم ان كنت تعلم اني كما وصفت فاغفر لي ذنوبي وسهل عليّ سكرة الموت" (٨٩).

ولقد اشار الى ذلك الشيخ محمد عبده في قوله "تفرقت السبل باتباع واصل، وتناولوا من كتب اليونان ما لاق بعقولهم، وظنوا من التقوى ان تزيد العقائد بما اثبتته العلم" (٩٠).

ولم تقم حركة الترجمة استجابة لدافع الحاجة الملحة وحده وانما كانت هناك اسباب اخرى استحثت المسلمين على الاشتغال بها، فقد كانت اللغة العربية تنتشر بانتشار الاسلام. وحين جاء العصر العباسي كانت قد تغلبت على السن اهل البلاد التي دخلت فيها، واصبحت لغة الانشاء والتأليف.

يقول ناللينو: "إن وحدة الدين استوجبت ايضاً وحدة اللسان والحضارة والعمران، فصار الفرس واهل العراق والشام ومصر يدخلون علومهم القديمة في التمدن الاسلامي الجديد" (٩١).

(٨٨) صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص ٥٦.

(٨٩) الخياط، الانتصار، ص ٤١.

(٩٠) الشيخ محمد عبده، رسالة التوحيد، ص ١٥.

كذلك شجع على الاشتغال بالترجمة، ميل أفراد من الخلفاء في العصر العباسي الى العلوم الفلسفية، والخلفاء عادة أقدر على الترغيب فيما أحبوه، والناس أسرع ما يكون الى تحقيق اغراضهم، والولوع بما أولعوا به" (٩٢).

يقول ابن خلكان: "كان المأمون مغرمًا بتعريب الكتب وتحريرها واصلاحها" (٩٣).

ويقول صاعد الاندلسي، لما افضت الخلافة الى عبد الله المأمون طمحت نفسه الفاضلة الى ادراك الحكمة، وسمت به همته الشريفة الى الاشراف، على علوم الفلسفة" (٩٤).

ويقول صاحب فوات الوفيات: "لما كبر المأمون عنى بعلوم الاوائل ومهر في الفلسفة" (٩٥).

ويقول الدكتور (أحمد الرفاعي) "ان هذا الميل الى الفلسفة والمنطق عند المأمون كان من آثاره حركة نقل وتأليف عنفية قوية" (٩٦).

ولقد تولد ميل الخلفاء الى الفلسفة من الظروف التي لابتست نشأتهم وحياتهم. فالرشيد تلقى ثقافته في مرور موطن الدراسات الرياضية والفلكية، وكان يستوزر جعفر بن برمك الذي كان يشجع الترجمة، ويعين المترجمين من امثال جبرائيل بن بختيشوع، كما تربى المأمون في بيت الرشيد وبأشراف

(٩١) نالليينو، تاريخ علم الفلك عند العرب، ص ١٤١.

(٩٢) أحمد أمين، ضحى الاسلام، ص ٢٦٦.

(٩٣) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ١ ص ٢٠٩.

(٩٤) صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص ٥٨. حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ص ٢٤. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٩٥) فوات الوفيات، ج ١ ص ٢٣٩.

(٩٦) د. أحمد الرفاعي، عصر المأمون، ص ٣٧٨.

البرامكة، ويذكر اولسيري، انه يكون المأمون تلقى ثقافته في مرو في محيط الهيليزية المحدثه، طبق القواعد الفلسفية على العقائد الاسلاميه" (٩٧).

وقد أولع ذلك العصر بما أولع به الخلفاء، فعمل ذلك على تنشيط حركة النقل والترجمة، و"من عنى باخراج الكتب محمد وأحمد بنو موسى بن شاكر، وهؤلاء القوم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة، وبذل فيها الرغائب، واتعبوا فيها نفوسهم، وانفذوا الى بلد الروم من أخرجها اليهم، فاحضروا النقلة من الاصقاع والاماكن بالبذل السني، فاظهروا عجائب الحكمة، وكان الغالب عليهم من العلوم: الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم" (٩٨). وابلغ من اهتمامهم بامر الترجمة انهم كانوا "يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن اسحق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرة، وغيرهم في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة" (٩٩).

الترجمة والمترجمون

بقي ان نلقي بعض الضوء وبإيجاز كبير على أهم المترجمين وما يترجمون من التراث اليوناني والسرياني ليكمل الموضوع لدى المطالع الكريم:

يوحنا بن البطريق:

عاش في أيام المنصور، واختلف في تاريخ وفاته فيما بين عامي (٧٩٨م وعام ٨٠٦م) وكان ممن يُقرا عليهم كتاب اقليدس، وغيره من كتب الهندسة،

(٩٧) صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص ٥٨. حاجي خليفة، كشف الظنون، ص ٣٤. ابن العبري، تاريخ الدول، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٩٨) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٩٢ و ٣٩٣. القفطي، اخبار الحكماء، ص ٢٠٨. تاريخ ابي الفدا ج ٢ ص ٥٢. ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٦٤.

(٩٩) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٤. ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٨٧.

وله نقل من اليونان^(١٠٠). ذكره القفطي فقال: "كان امينا على الترجمة، حسن التأدية للمعاني، ألكن اللسان في العربية، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب، وهو تولى ترجمة كتب ارسطوطاليس خاصة وترجم من كتب بقراط مثل حنين^(١٠١) وغيره. ومن الكتب التي نقلها كتاب الاربعة في علم النجوم^(١٠٢). "استخرجه في أيام المنصور، ثم نقله ثانية ابراهيم بن الصلت، وأصلح هذه النسخة حنين بن اسحق".

ويرى أوليري^(١٠٣) أن يوحنا وضع ترجمة عربية لمؤلف في التنجيم لبطليموس، وقد كتب عمر بن الفرخان المتوفي حوالي سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م تعليقا على هذا الكتاب، وشرحه محمد بن جابر بن سنان سنة ٩٢٩م. وربما كان هذا هو كتاب الاربعة في علم النجوم.

ويروى ان يوحنا بن البطريق اخرج قصة طيماوس لافلاطون، وانه ترجم أيضا كتاب ارسطو في الآثار العلوية وكتاب الحيوان ومختصراً له في النفس^(١٠٤).

(١٠٠) ابن النديم، الفهرست، ص٤٠٧، طبعة الاستقامة.

(١٠١) القفطي، أخبار الحكماء، ص٢٤٨. ط السعادة، ابن العري، مختصر تاريخ الدول، ص٢٢٩.

(١٠٢) جريدي، محاضرات ادبيات. ص ١١.

(١٠٣) أوليري، مسالك الثقافة، ص٤٧، ٢٣٩.

(١٠٤) دي بور، تاريخ الفلسفة الاسلامية، ص٢٢ اشار القفطي الى ترجمته لهذه الكتب بقوله، لابن البطريق جوامع هذا الكتاب "الاثار العلوية" كتاب الحيوان وهو تسع عشرة مقالة نقله ابن البطريق، اخبار الحكماء، ص٣١.

جورجيس بن جبرائيل^(١٠٥):

عاش في صدر الدولة العباسية، يقول عنه ابن ابي اصبيعة انه: "اول من ابتداء في نقل الكتب الطبية الى اللسان العربي عندما استدعاه المنصور ليعالجه^(١٠٦)، من ضعف ادركه في معدته وسوء استمراء وقلة شهوة، وقد برئ المنصور على يديه، وعادت اليه صحته، ففرح به فرحاً شديداً، وامر ان يجاب الى كل ما يسأل^(١٠٧)."

وقد نقل جورجيس للمنصور كتباً كثيرة من كتب اليونانيين الى العربية، وقد عرف من كتبه كناشه^(١٠٨) ونقله حنين بن اسحق من السرياني الى العربي. ولقد كان نجاح جورجيس في علاج المنصور دافعاً للخلفاء العباسيين على ان يستقدموا أفراد اسرته لكي يباشروا علاجهم، ومن افراد هذه الاسرة ونعني بها أسرة آل بختيشوع الذين وفدوا الى بغداد.

بختيشوع بن جورجيس^(١٠٩)

تخرج على ابيه، استخلفه في مارستان جنديسابور فارقه تلبية لأمر الخليفة^(١١٠)، وذكر القفطي ان بختيشوع هذا كان نصرانيا في ايام ابي العباس السفاح وصحبه وعالجه وعاش الى ايام الرشيد، وكان ضليعا في صناعة الطب.

(١٠٥) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٦.

(١٠٦) ابن ابي اصبيعة، عيون الانباء، ج ١ ص ٢٠٣. ماكس مايرهوف، من الاسكندرية الى بغداد، ص ٥٥.

(١٠٧) القفطي، اخبار الحكماء، ص ١١٠.

(١٠٨) ابن ابي اصبيعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٢٥.

(١٠٩) اخباره في القفطي، انباء الحكماء، ص ٧١. صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص ٤٠.

(١١٠) ابن ابي اصبيعة، عيون الانباء، ص ١٨٦.

وذكر ابن العبري في تاريخه^(١١١): قيل ان الرشيد، مرض من صداع لحقه. فقال ليحيى بن برمك، هؤلاء الاطباء ليسوا يفهمون شيئاً، وينبغي ان تطلب لي طبيباً ماهراً، فقال له: بختيشوع بن جورجيس. فارسل في طلبه الى جنديسابور فاکرمه وخلع عليه خلعة سنة ووهب له مالاً وافراً^(١١٢).
ولبختيشوع من الكتب كناش مختصر، وكتاب التذكرة وقد عمله لابنه جبرائيل.

جبرائيل بن بختيشوع:

كان طبيباً حاذقاً نبيلاً له مصنفات في الطب وخدم الرشيد ومن بعده^(١١٣). اخذ الطب عن والده. ومرض جعفر بن يحيى فعالجه بختيشوع، ولما تماثل للشفاء قال له اريد طبيباً ماهراً، فقال له: لست اعرف من هؤلاء الاطباء أصدق من ابني جبرائيل، فقال له جعفر أحضرني^(١١٤)، فلما احضره شكا اليه مرضاً كان يخفيه فدبره في مدة ثلاثة ايام وبرئ فاحبه جعفر مثل نفسه، وكان مشهوراً بالفضل جيد التصرف في المداواة وحظياً عند الخلفاء رفيع المنزلة عندهم كثير الاحسان اليه، وحصل من جهتهم من الاموال ما لم يحصله غيره من الاطباء، وقال فثيون، وكان محل جبرائيل يقوى في كل وقت. وكان جبرائيل صنيعة البرامكة. وكان يقول للخليفة المأمون، هذه النعمة لم افدها منك ولا من ابيك، هذه من يحيى بن خالد^(١١٥). وقد اهتم بأمر الترجمة الى العربية، كما شجع تهذيب الترجمات السريانية.

(١١١) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ١٣٠.

(١١٢) فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ٣٨٣.

(١١٣) القفطي، اخبار الحكماء، ص ١٣٢.

(١١٤) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ١٣١-١٣٢.

(١١٥) الجشيارى، كتاب الوزراء، ص ٣٢٦. القفطي، اخبار الحكماء، ص ١٣٢.

يوحنا بن ماسويه^(١١٦):

كان ممن قدموا من جنديسابور، ومن هذا الوقت تقريباً بدأت مدرسة الطب فيها تفقد اهميتها لان كبار الاطباء قد ذهبوا الى قصور الخلفاء في بغداد او سُرَّ من رأى (سامراء)^(١١٧).

وكان يوحنا سريانيا نسطورياً، وقد ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة التي وجدت بانقرة وعمورية، وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون وسبوا سبيها، ووضعه أميناً على الترجمة، ورتب له كتاباً حُذِّقاً يكتبون بين يديه^(١١٨). وقد أقام يوحنا مستشفى في بغداد، كذلك جعله الخليفة المأمون في سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م رئيساً لبيت الحكمة.

وقد ألف يوحنا كتباً كثيرة بلغت ثمانية وعشرين كتاباً^(١١٩) منها كتاب البرهان وكتاب دغل العين، وعربية هذا الكتاب ركيكة مع استعمال اصطلاحات اغريقية وسريانية وفارسية^(١٢٠).

وكان يوحنا، يعقد مجلساً للنظر، ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة باحسن عبارة، وكان يدرس، ويجتمع اليه تلاميذ كثيرون^(١٢١) وقد تتلمذ عليه حنين بن اسحق فترة من الزمان. وتوفي يوحنا عام ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م.

(١١٦) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٥-٤٢٦.

(١١٧) ماكس مايرهوف، من الاسكندرية الى بغداد، ص ٥٦.

(١١٨) القفطي، اخبار الحكماء، ص ٢٤٩.

(١١٩) القفطي، اخبار الحكماء، ص ٢٤٩. ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٨٣ ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٥.

(١٢٠) اوليري، مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب، ص ٢٤٦.

(١٢١) ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٢٧.

قسطا بن لوقا البعلبيكي:

مسيحي النحلة، من اصل يوناني، ولذا يعد^(١٢٢) من فلاسفة اليونانيين المتأخرين، وكان له ولع بالعدد والهندسة والنجوم والمنطق والعلوم الطبيعية، كما كان ماهراً في الطب.

وقد ذكر ابن العربي انه "دخل الى بلاد الروم، وحصل من تصانيفهم الكثير، وعاد الى الشام^(١٢٣). كما ذكر القفطي انه استدعي الى العراق ليتّرجم كتباً ويستخرجها من لسان اليونان الى لسان العرب"^(١٢٤) كما أسند اليه الاشراف على ترجمة المراجع الاغريقية في بغداد^(١٢٥).

وكان قسطا جيد النقل لانه كان "فصيحاً باللغة اليونانية جيد العبارة العربية"^(١٢٦). ويشير ماكس مايرهوف الى ما نقله فيقول: "إنه ترجم كثيراً من المؤلفات الطبية والرياضية والفلكية، كما ترجم الى جانبها مؤلفات فلسفية صحيحة او منحولة"^(١٢٧).

وقد أصلح^(١٢٨) قسطا نقولاً كثيرة، كما ألف رسالة قصيرة في الفرق بين النفس والروح ترجمت الى اليونانية وبقيت في ايماننا، وقد ذكرنا الباحثون وانتفعوا بها^(١٢٩).

(١٢٢) صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص ٣٠.

(١٢٣) ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٥٩. القفطي، اخبار الحكماء، ص ٢٤.

(١٢٤) القفطي، اخبار الحكماء، ص ١٧٣.

(١٢٥) د. ابراهيم العدوي، الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم، ص ١٧٠.

(١٢٦) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٤.

(١٢٧) ماكس مايرهوف، من الاسكندرية الى بغداد، ص ٥٩.

(١٢٨) ابن ابي الصبيعة، عيون الانباء، ج ١، ص ٤٤٤.

(١٢٩) دي بور، تاريخ الفلسفة في الاسلام، ص ٢٤.

حنين بن اسحق^(١٣٠):

كان أبوه نصرانيا من العباديين بالحيرة، وكان يشتغل بالصيرفة، فلما نشأ حنين أحب العلم ودرس الطب في مدرسة جنديسابور، وحضر مجلس يوحنا بن ماسويه في بغداد^(١٣١)، غير ان يوحنا انكر عليه تعلم الطب لانه من اهل الحيرة^(١٣٢) "ولان هؤلاء الجنديسابوريين كانوا يعتقدون انهم اهل هذا العلم، ولا يخرجونه عنهم وعن اولادهم"^(١٣٣). ويرى ماكس مايرهوف ان حنينا كره من استاذه ما جبل عليه من غطرسة وكبرياء^(١٣٤)، وصمم على تعلم اللغة اليونانية لأنه رأى فيها خير مساعد له على ارواء غلته من الثقافة الطبية، وقد اندفع بقوة في هذا الاتجاه حتى انه، برئ من دين النصرانية ان رضي ان يتعلم الطب حتى يحكم اللسان اليوناني احكاماً لا يكون في دهره من يحكمه احكامه^(١٣٥) فسافر الى بلاد الروم^(١٣٦)، وهناك "احكم اللغة اليونانية، وتوصل في تحصيل كتب الحكمة غاية إمكانه"^(١٣٧).

وكما تعلم حنين اللغة اليونانية باحساس الحاجة اليها، تعلم اللغة العربية، والفارسية اضافة الى لغته السريانية، وبذلك اصبح متمكناً من اربع لغات اعانته على النقل والترجمة .

(١٣٠) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٢. (ولد سنة ٨١٣ م وتوفي سنة ٨٧٣ م).

(١٣١) القفطي، اخبار الحكماء، ص ١٢٠.

(١٣٢) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٥٠.

(١٣٣) القفطي، اخبار الحكماء، ص ١٢٠.

(١٣٤) ماكس مايرهوف، مقدمة كتاب العشر مقالات في العين، ص ١٥.

(١٣٥) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٨٥.

(١٣٦) القفطي، اخبار الحكماء، ص ١١٩.

(١٣٧) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٥٠.

وحوالي سنة ٢١١هـ/٨٢٦م اتصل حنين بجبرائيل بن بختيشوع طبيب المأمون فامتدح ذكاهه. "قال يوسف الطبيب دخلت يوماً على جبرائيل بن بختيشوع فوجدت عنده حنيناً، وقد ترجم له بعض التشريح وجبرائيل يخاطبه بالتبجيل ويسميه الربّان. فاعظمت ما رأيت، وتبين ذلك جبرائيل مني، فقال لي لا تستكثر هذا مني في امر هذا الفتى، لئن مدّ له في العمر ليفضحن سرجيس" (١٣٨).

ولقد بلغ من سرور جبريل بحنين واعجابه بروعة ترجماته ان قدمه لابناء موسى الثلاثة، وقد كانوا من رعاة العلم الاثرياء، يقول القفطي فيهم، "ومن عنى باخراج الكتب من بلاد الروم محمد واحمد والحسن بنو موسى بن شاكر المنجم، وقد بذلوا في ذلك الرغائب واحضروا الضرائب منها في الفلسفة والهندسة والموسيقى والارثماطيقى والطب وغيرها" (١٣٩). فاحتضنه هؤلاء، وكانوا اصحاب الفضل في اظهار مواهبه كما كانوا يجزلون له العطاء (١٤٠) وقدموه بدورهم الى الخليفة المامون، فعينه عميداً لبيت الحكمة (١٤١).

ويذكر ابن أبي اصيبعة: "أن المأمون احضره، وكان فتى وأمره ينقل ما يقدر عليه من كتب اليونانيين الى العربي واصلاح ما ينقله غيره. فامثل امره (١٤٢)، وقام بما أسند اليه خير قيام. وظل يوالي النقل بهمة واقتدار حتى ايام الخليفة المتوكل (٢٢٢-٢٤٧هـ/٨٣٦-٨٦١م).

(١٣٨) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٥٠. القفطي أخبار الحكماء، ص ١٣٠ وسرجيس هذا هو الراسعيني ممن نقل علوم اليونانيين الى السرياني.

(١٣٩) القفطي، اخبار الحكماء، ص ٢٤.

(١٤٠) اوليري، مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب، ص ٢٤٩.

(١٤١) ماكس مايرهوف، مقدمة العشر مقالات، ص ١٦.

(١٤٢) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١، ص ١٨٦.

يقول ابن العبري: "ولم يزل أمره (حنين) يقوى وعلمه يتزايد وعجائبه تظهر في النقل والتفاسير حتى صار ينبوعاً للعلم، ومعدناً للفضائل. واتصل خبره بالخليفة المتوكل فامر باحضاره^(١٤٣)، واختاره للترجمة وأتمنه عليها، وجعل له كتاباً نحارير عالين بالترجمة كانوا يترجمون ويتصفح ما ترجموا"^(١٤٤).

ولقد كان ميل حنين الى الطب وممارسته^(١٤٥) له دافعاً له على ان يهتم "بنقل الكتب الطبية وخصوصاً كتب جالينوس حتى انه في اغلب الامر لا يوجد شيء من كتب جالينوس الا بنقل حنين او باصلاحه لما نقل غيره"^(١٤٦). كاسطفان بن باسيل وموسى بن خالد، ويحيى بن هارون.

ولقد ذكر ماكس مايرهوف ان حنيناً ترجم الى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتاباً، وترجم الى العربية منها تسعة وثلاثين^(١٤٧).

كذلك ذكر انه كان يؤلف الكتب بالسريانية او يترجمها اليها لعلماء النصارى وأطبائهم. بينما كان يؤلف الكتب العربية ويترجمها اليها لعلماء المسلمين^(١٤٨).

ويذكر سوبتمان^(١٤٩): ان حنيناً كان يترجم الى اللغة السريانية، ثم ينقل ابنه اسحق ما يترجمه الى اللغة العربية. ويقرر اوليري "ان بعض ترجمات حنين قد نقحها فيما بعد كتاب متأخرون"^(١٥٠).

(١٤٣) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٥١.

(١٤٤) القفطي، اخبار الحكماء، ص ١١٨.

(١٤٥) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٨٧.

(١٤٦) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٨٨.

(١٤٧) ماكس مايرهوف، مقدمة العشر مقالات، ص ٢٨.

(١٤٨) ماكس مايرهوف، مقدمة العشر مقالات، ص ٣٧.

ولقد استطاع حنين بفضل تضلعه في اليونانية أن يوضح معاني كتب جالينوس ويلخصها^(١٥١)، أحسن تلخيص، ويكشف ما استغلق منها^(١٥٢)، ويقدم لها، فمن ذلك ما فعله في كتاب الفصد إذ "نقله من اليونانية الى العربية وهذبه، وزاد فيه مقدمة فيما يجب على الطبيب اعتماده في الصنعة والعلاج، وتلاه بكلام جالينوس في الفصد^(١٥٣)."

ولم ينحصر نشاط حنين في نطاق ترجمة الكتب الطبية، فقد قيل انه عرب كتاب اقليدس^(١٥٤) وكتاب بطليموس (المجسطي) اكبر كتبه الفلكية، واصلحها ونقحها.

كذلك عرب حنين عدداً كبيراً من كتب بقراط وأرسطو، كما "جعل المنهج الكامل في مدرسة طب الاسكندرية في متناول أيدي الطلاب العرب، واشتمل على مجموعة مختارة من كتب جالينوس^(١٥٥) فافاد الامة العربية إفادة جزيلة^(١٥٦)، إذ لولا ذلك التعريب الذي قام به حنين وغيره من المترجمين، لما انتفع احد بتلك الكتب لعدم المعرفة بلسان اليونان، لا جرم كل كتاب لم يعرفوه باق على حاله، ولا ينتفع به إلا من عرف تلك اللغة^(١٥٧)."

Islam and Christian theology, v.1, p88 (١٤٩)

(١٥٠) اوليري، علوم اليونان وسبل انتقالها، ترجمة د. وهيب كامل، ص ٢٢٨.

(١٥١) صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص ٤١.

(١٥٢) القفطي، اخبار الحكماء، ص ١١٨.

(١٥٣) القفطي، اخبار الحكماء، ص ٩٢.

(١٥٤) تاريخ أبي الفداء، ج ٢ ص ٥٢، طبع القسطنطينية ١٢٨٦هـ.

(١٥٥) اوليري، مسالك الثقافة الاغريقية، ص ٢٤٩.

(١٥٦) دائرة المعارف للبستاني، مجلد ٧، ص ٢٥٣. مادة "حنين".

(١٥٧) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ١ ص ٢٠٠، طبعة بولاق ١٢٩٩هـ.

ولم يشأ حنين ان يقف عند حقل النقل والتعريب، فقد أحسّ قدرته على التأليف في هذه الموضوعات التي طالما اشتغل بالترجمة فيها، وقد أورد القفطي قائمة^(١٥٨) كاملة لمؤلفاته، وقد كانت باللغتين السريانية والعربية، وكانت كتبه الطبية صورة منعكسة لكتب اطباء اليونان التي استنفد في ترجمتها أهم قسط من نشاطه في حياته العلمية. وقد ذكر ماكس مايرهوف ان اهم كتبه^(١٥٩): تفسير كتاب الصناعة الصغيرة لجالينوس، وقد ترجم الى اللغة اللاتينية، وكتاب "المسائل في الطب" وهو مقدمة للطب العام على هيئة اسئلة واجوبة، ثم كتاب "العشر مقالات في العين" وكتاب "المسائل في العين".

إسحق بن حنين:

كاد يلحق بأبيه في صحة النقل من اللغة اليونانية، والسريانية الى العربية، وقد خلفه^(١٦٠) على الترجمة، وكان بارعا ومقدما في العلوم الرياضية، كما تميز في صناعة الطب.

ولد عام ٢٩٨هـ/ ٩١٠م وقيل عام ٢٩٩هـ/ ٩١١م في الحيرة، ونشأ وتعلم في بغداد. وقد نقل اسحق من الكتب اليونانية الى اللغة العربية كتباً كثيرة الا ان^(١٦١) جلّ عنايته كانت مصروفة الى نقل الكتب الحكيمة. يشير ابن خلكان الى ذلك أيضاً بقوله: "ان الذي يوجد من تعريبه في كتب الحكمة من كلام أرسطوطاليس وغيره اكثر مما يوجد من تعريبه لكتب الطب"^(١٦٢). ويعلل ابن العبري ذلك بقوله، ان نفس اسحق كانت أميل الى الفلسفة^(١٦٣).

(١٥٨) القفطي، اخبار الحكماء، ص ١١٩-١٢٠.

(١٥٩) مقدمة العشر مقالات في العين، ص ٣٣-٣٩.

(١٦٠) صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص ٤١.

(١٦١) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ١ ص ٨٢.

(١٦٢) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٨٨.

(١٦٣) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ١ ص ٨٢.

ومن المؤلفات التي نقلها الى اللغة العربية أصول الهندسة لافليدس، وأصلحه فيما بعد ثابت بن قرة، وكتاب المعطيات لافليدس ايضا، ثم كتاب المجسطي لبطليموس، وقد اصلحه كذلك ثابت بن قرة.

يقول القفطي: "أصلح ثابت النسخة التي نقلها اسحق بن حنين من المجسطي الى العربي اصلاً قضي فيه حق من سأل ذلك او حق اسحق^(١٦٤).

ويذهب ماكس مايرهوف الى ان السبب في أن ما ترجمه اسحق قد أصلحه غيره يرجع الى ان "معلوماته في اللغة العربية كانت قليلة جداً بحيث انه لم يتمكن من حسن الترجمة"^(١٦٥). غير ان ابن النديم يقول "وكان فصيحاً بالعربية يزيد على أبيه في ذلك"^(١٦٦)، والقفطي^(١٦٧) يردد ما قاله ابن النديم بنفس الفاظه، ويبدو لي ان تفوق اسحق على أبيه في العربية لا يعني انه كان يتقنها إذ ان معرفة حنين بالعربية كانت قاصرة في مستهل حياته.

وقد نقل اسحق بن حنين من كتب أرسطو المقولات، والجدل، والعبارة، والخطابة. ولا نستطيع ان نتبين أي هذه الكتب نقل عن السريانية، وأيها نقل مباشرة عن اليونانية^(١٦٨). كذلك لا نعرف على وجه التحقيق اذا كان بعض هذه الترجمات قام به اسحق او ابوه حنين، ومرد ذلك الى انهما كانا يشتغلان معا.

(١٦٤) القفطي، اخبار الحكماء، ص ٨٣.

(١٦٥) ماكس مايرهوف، مقدمة العشر مقالات في العين، ص ٣١.

(١٦٦) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٩.

(١٦٧) القفطي، اخبار الحكماء، ص ٥٧.

(١٦٨) دائرة المعارف الاسلامي، مجلد ٢، ص ٩٨ مادة (اسحق).

ثابت بن قرّة:

ولد سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م. بحران، وتوفي سنة ٢٨٨هـ/٩٠١م، كان من الصابئين من اهل حرّان، وقد تناهت اليهم زعامتهم.

عمل في مبدأ امره صرافاً بسوق حرّان، ثم انتقل الى بغداد، لخلاف بينه وبين ابناء دينه^(١٦٩) فأدخل رئاسة الصابئة الى أرض العراق، فثبتت أحوالهم، وعلت مراتبهم وبرعوا، وقد قدمه محمد بن موسى الى المعتضد فاتخذه صديقا له وأدخله في جملة المنجمين^(١٧٠).

وقد اشتغل ثابت بعلوم الاوائل فمهر فيها، واعانته على ذلك خبرته بلغات ثلاث هي الاغريقية والسريانية والعربية، وغلب عليه الاتجاه الفلسفي والرياضي. ولعل ذلك يرجع الى ما اشتهر به الصابئة عامة في هذه العلوم.

يقول عنه صاعد الاندلسي انه "فيلسوف متوسع في العلوم، متفنن في ضروب الحكم، متقلدا لجوامع الفلسفة، له تأليف حسنة في المنطق، والعدد والهندسة والنجوم وغير ذلك"^(١٧١).

وقد بلغت تأليفه مقدار عشرين تأليفا^(١٧٢)، ومن الكتب التي ألفها بالسريانية كتابه "في السكون بين حركتي الشريان"^(١٧٣) وقد نقله الى العربية عيسى بن أسيد، واصلح ثابت العربي.

كذلك يذكر ابن العبري انه ألّف "بالسريانية" فيما يتعلق بمذهب الصابئة في الرسوم والفروض والسنن وتكفين الموتى ودفنهم"^(١٧٤).

(١٦٩) ماكس مايرهوف، من الاسكندرية الى بغداد، ص ٧٢.

(١٧٠) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٦٥.

(١٧١) صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص ٤١.

(١٧٢) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ١ ص ١٢٥.

(١٧٣) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢١٨، ج ١.

ويعد البيهقي من تصانيفه كتاب الذخيرة^(١٧٥) وهو كتاب نادر في الطب، ويستدل مما اورده القفطي^(١٧٦) من كتب ثابت انه كان على قدر كبير من النشاط إذ انه لم يترك. ناحية من نواحي معارف عصره إلا وألف فيها كتابا، او اصلح فيها ترجمة، او نقل فيها شيئا رآه جديراً بالنقل.

ولقد ذكر ماكس مايرهوف ان ثابت بن قرة قد أصلح عدداً كبيراً من مترجمات اسحق بن حنين الفلسفية والرياضية، ويوجد حتى اليوم عدد من المخطوطات العربية وعليها التعليقات الخاصة بها تصحيحاً لها^(١٧٧).

ومن الترجمات التي اصلحها "النسخة التي نقلها اسحق بن حنين من المجسطي لبطليموس الى العربي. ثم انه نقل هذا الكتاب نقلاً جيداً، واصلحه واوضحه^(١٧٨). كما انه اختصر جزءاً كبيراً منه، كذلك اختصر كتاب اقليدس^(١٧٩) الذي عربّه حنين بن اسحق ايضاً فهذه ونقحه، واوضح ما كان مستعجماً منه.

ولقد كان لثابت كثير من التلاميذ، وكان احدهم مسيحياً ويدعى عيسى بن أسيد، وقد ترجم عيسى هذا^(١٨٠) الى العربية، مؤلفات ثابت التي وضعها بالسريانية، وكان يتولى النقل بحضوره.

(١٧٤) ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٦٥.

(١٧٥) البيهقي، تاريخ حكماء الاسلام، ص ٢١.

(١٧٦) القفطي، اخبار الحكماء، ص ٨١-٨٤، ثبت مفصل لكتب ثابت بن قرة.

(١٧٧) ماكس مايرهوف، من الاسكندرية الى بغداد، ص ٥٩.

(١٧٨) القفطي، اخبار الحكماء، ص ٨٣.

(١٧٩) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ١ ص ١٢٥ و ٢٥٣.

(١٨٠) انظر ترجمته لدى القفطي، اخبار الحكماء، ص ١٦٤، وابن النديم، الفهرست، ص ٣٩٤.

حبيش بن الاعسم

وقيل حبيش بن الحسن الدمشقي، وهو ابن اخت حنين بن اسحق، وأحد تلاميذه، ومنه تعلم صناعة الطب.

يقول البيهقي، وحبيش كان من الاطباء المتقدمين، والمهندسين، وله تصانيف كثيرة في الطب، وكان مصيباً في المعالجات^(١٨١).

وقد استطاع حبيش "بفضل حذب حنين عليه ان يصبح أحد مشاهير المترجمين"^(١٨٢). فاشتغل بالنقل من اليوناني والسرياني الى العربي، وكان يسلك مسلك حنين في نقله إلا انه كان يقصر عنه^(١٨٣)، وبالرغم من ذلك فقد كان حنين يقدمه^(١٨٤) ويعظمه ويرضى نقله، وقد نسب أكثر ما نقله حبيش الى حنين. يقول القفطي: "كثيراً ما يرى الجهال شيئاً من الكتب القديمة مترجماً بنقل حبيش فيظن الغرّ منهم ان الناسخ اخطأ في الاسم، ويغلب على ظنه انه حنين وقد صحف فيكشطه، ويجعله لحنين"^(١٨٥).

(١٨١) البيهقي، تاريخ حكماء الاسلام، ص ١٩.

(١٨٢) ماكس مايرهوف، مقدمة العشر مقالات في العين، ص ١٧.

(١٨٣) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ٢٠٢.

(١٨٤) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٨. ابن العري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٥٢.

(١٨٥) القفطي، اخبار الحكماء، ص ١٢٢. ابن العري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٥٣ ويرى مايرهوف ان هذا الخلط مرده الى تشابه اسم حنين وحبيش في الكتابة الخطية ايام كانت الحروف لا تنقط، فكانا يرسمان هكذا "حس" و"حس"، ونحن نرى هشاشه هذا الرأي وضعفه لان النقاط كانت تستعمل منذ اواسط العصر الاموي. واما دي بور فيرى انهما كانا يشتغلان معا ولهذا فان كتباً كثيرة تنسب للواحد منهم تارة وللآخر تارة اخرى، وهذا ايضا مردود لانه لماذا هذا الخلط بين حنين وابن اخته حبيش وليس مع الآخرين؟

متى بن يونس:

كان ببغداد في خلافة الرازي بعد سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م. كان حكيماً نصرانياً من أهل دير قني^(١٨٦) ممن نشأ في إسكول مرماري. شرح كتب أرسطو، وكان أكثر اهتمامه بالمنطق، وإليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره^(١٨٧) وكان يطنب في الكلام بقصد التعليم والتفهيم. ولعل من أهم الكتب التي ترجمها كتاب سوفطيقا^(١٨٨) لأرسطو، ومعناه الحكمة الموهبة، وقد نقله إلى السرياني.

كما ترجم أيضاً كتاب الشعر لأرسطو، يذكر ذلك في حديثه ابن النديم عن كتب أرسطو، فيقول: "الكلام عن أبو طيقا ومعناه الشعر، نقله أبو بشر متى بن يونس من السرياني إلى العربي"^(١٨٩).

سنان بن ثابت بن قرّة

كان عالماً بالعدد والهندسة^(١٩٠)، وكان طبيباً مقدماً كأبيه، وقد وكل إليه المقتدر امتحان أطباء بغداد سنة ٣١٩هـ/٩٣٢م، وقد نقل إلى العربي نواميس هرمس والسور والصلوات التي يصلي بها الصابئون^(١٩١) كما أصلح كثيراً من الترجمات التي كانت تترجم من السرياني إلى العربي^(١٩٢). من ذلك

(١٨٦) البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، ص ٢٨.

(١٨٧) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٨٢.

(١٨٨) القفطي، أخبار الحكماء.

(١٨٩) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦٣.

(١٩٠) صاعد الاندلسي، طبقات الامم، ص ٤١.

(١٩١) القفطي، أخبار الحكماء، ص ١٣٣.

(١٩٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ١ ص ٢٢٤.

اصلاحه كتاب أفلاطون في الأصول الهندسية، وقد زاد في هذا الكتاب شيئاً كثيراً^(١٩٣) وقد توفي سنان بن ثابت مسلماً ببغداد^(١٩٤)، عام ٢٣١هـ/٨٤٥م.

يحيى بن عدي التكريتي:

كان نصرانياً يعقوبي النحلة، قرأ على أبي بشر متى بن يونس، وعلى أبي نصر الفارابي، وقد انتهت إليه رئاسة اهل المنطق في زمانه، وكان ينسخ بيده^(١٩٥)، فكتب كثيراً من الكتب. وله تصانيف وتفاسير ونقول كثيرة، من ذلك كتاب "طويقا" لارسطوطاليس، يقول ابن النديم في معرض الحديث عن كتب أرسطو، الكلام على "طويقا"، "الجدل" نقل اسحق هذا الكتاب الى السرياني، ونقله يحيى بن عدي^(١٩٦). وقد بقيت لنا ترجمة أبي بشر متى^(١٩٧)، كما نقل سوفسطيكا لأرسطو الى العربي ايضاً.

أبو علي عيسى بن زرة:

ولد سنة ٣٣١هـ/٩٤٢م وتوفي سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م^(١٩٨). كان نصرانياً يعقوبياً، اشتغل بالمنطق في بغداد، وكان متقدماً فيه، كما برع في الفلسفة ذكره ابن النديم فقال انه: "كان ينقل من السرياني الى العربي، واكثر

(١٩٣) القفطي، اخبار الحكماء، ص ١٢٣.

(١٩٤) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٩٤.

(١٩٥) ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٩٧.

(١٩٦) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٦٣.

(١٩٧) نظراً لردائها، فان الدكتور عبد الرحمن بدوي يظن ان الخبر عن يحيى بن عدي وانه نقله خير صحيح. (انظر تصدير فن الشعر لارسطو ص ٥٠ مطبعة مصر.

(١٩٨) ابن العربي، مختصر تاريخ الدول، ص ٣١٥.

نقله يدخل في دائرة الفلسفيات^(١٩٩) وكان جيد النقل، ومما نقله كتاب الحيوان لارسطوطاليس، والقفطي يشير الى ذلك بقوله، ونقله (كتاب الحيوان) ابو علي بن زرعه الى العربي وصححه، وملكت منه نسخة^(٢٠٠).

(١٩٩) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٨٣.

(٢٠٠) القفطي، اخبار الحكماء، ص ٣١...

الفصل الثامن

المسيحيون وتعريب التراث اليوناني أيام الدولة العباسية

يعتبر بلا منازع كتاب "الفهرست" لابن النديم البغدادي الذي وضع كتابه عام ٩٨٧م المصدر الاول في خوض هذا الموضوع، اذ كان ابن النديم متصلاً اتصالاً وثيقاً باغلب علماء عصره وفلاسفته، يورد هو نفسه اسماءهم مع أعمالهم في كتابه هذا "الموسوعة".

ولقد كان فهرست ابن النديم منهلاً اصيلاً استقى منه من جاء بعده من الباحثين بمضمار هذا الميدان أمثال صاعد الاندلس (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م) في كتابه "طبقات الامم" والقفطي (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) في كتابه "اخبار العلماء باخبار الحكماء" وابن ابي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) في كتابه "عيون الانباء في طبقات الاطباء" وغيرهم امثال ابن جليل والبيهقي وآخرين.

ونحن ننقل هنا ما اورده ابن النديم في "الفهرست" اسماء المترجمين من اليونانية الى العربية وهم:

- ١- اصطفان، ونقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة (السيمياء).
- ٢- البطريق، وكان أيام المنصور وأمره بترجمة الكتب القديمة.
- ٣- ابو زكريا يحيى بن البطريق وكان في جملة الحسن بن سهل.
- ٤- الحجاج بن يوسف بن مطر، وهو الذي نقل للمأمون المجسطي واقليدس.
- ٥- عبد المسيح بن عبد الله الحمصي الناعمي (ابن ناعمة).

- ٦- سلام الابرش من المترجمين القدماء في أيام البرامكة ويوجد من ترجمته السماع الطبيعي.
- ٧- حبيب بن بهرنير، مطران الموصل، فسر للمأمون عدة كتب.
- ٨- ذروبا بن ماجوه الناعمي الحمصي.
- ٩- هلال بن ابي هلال الحمصي.
- ١- تذارى.
- ١١- فثيون.
- ١٢- ابو نصر بن ماري بن أيوب.
- ١٣- باسيل المطران.
- ١٤- ابو نوح (ابراهيم) بن الصلت.
- ١٥- اسطاط.
- ١٦- هيرون.
- ١٧- اصطفن بن باسيل.
- ١٨- ابن رائطة التكريتي.
- ١٩- تيوفيل الرهاوي.
- ٢٠- شملي.
- ٢١- عيسى بن نوح.
- ٢٢- قويري واسمه ابراهيم ويكنى ابا اسحق.
- ٢٣- تدروس السنقل.
- ٢٤- دريع الراهب.

٢٥- هيباتيون.

٢٦- صليبا.

٢٧- ايوب الرهاوي.

٢٨- ثابت بن قمع.

٢٩- ايوب وسمعان فسّرا زيغ بطليموس لمحمد بن خالد بن يحيى بن برمك وغير ذلك من الكتب.

٣٠- باسيل وكان يخدم (طاهر بن الحسين) ذا اليمينين.

٣١- ابن شهدي الكرخي يترجم من السريانية الى العربية، وكانت ترجمته رديئة فمما ترجم كتاب الاجنة لسقراط.

٣٢- ابو عمرو يوحنا بن يوسف الكاتب احد المترجمين وترجم كتاب افلاطون في آداب الصبيان.

٣٣- ايوب بن القاسم الرقي ترجم من السريانية الى العربية وما ترجمه كتاب إيساغوجي.

٣٤- مر لاحي، جيد المعرفة بالسريانية، عطني الالفاظ ينقل بين يدي علي بن ابراهيم الدهكي من السريانية الى العربية ويصلح ترجمته ابن الدهكي.

٣٥- داد يشوع كان يترجم لاسحق بن سليمان بن علي الهاشمي من السريانية الى العربية.

٣٦- قسطا بن لوقا البعلبكي جيد الترجمة، فصيح اللسان اليوناني والعربي والسرياني، وقد ترجم، واصلح نقولاً كثيرة.

٣٧- حنين بن اسحق العبادي من الحيرة.

٣٨- اسحق بن حنين العبادي من الحيرة.

- ٣٩- ثابت بن قرّة الحرّاني.
- ٤٠- حبّيش بن الاعسم الدمشقي.
- ٤١- عيسى بن يحيى.
- ٤٢- الدمشقي.
- ٤٣- ابراهيم بن الصلت ابو نوح.
- ٤٤- ابراهيم بن عبد الله.
- ٤٥- يحيى بن عدي التكريتي.
- ٤٦- سنان بن ثابت بن قرّة.
- ٤٧- عيسى بن اسحق بن زرعة.
- ٤٨- ابو بشر متى بن يونس، من دير قُني تفقه في مدرسة مار ماري على يد اساتذة عظام واليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره.
- ٤٩- يوحنا بن ما سويه.
- ٥٠- آل بختيشوع وهم من السريان النساطرة، اطباء ومترجمين امثال سرجيوس وابنه بختيشوع وجراثيل وكثيرون.
- ٥١- سرجيوس الراسعيني، من مدينة راس العين في جزيرة العراق. ترجم كتباً كثيرة وكان متوسطاً في النقل وحنين كان يصلح نقله.
- ٥٢- الجاثليق طيماثاوس الاول النسطوري.
- ٥٣- ابو الفرج ابن الطيّب النسطوري.
- أما ما أنجز هؤلاء وغيرهم من عمل فهو بارز في قائمة الكتب التي ترجموها من اليونانية او الفارسية او السريانية وحتى الهندية الى العربية تعتبر نواة النهضة الفكرية التي حدثت إبان العهد الاموي والعباسي، وان مدارس الترجمة هذه قد لعبت دوراً رئيسياً في عملية ازدهار الحضارة الاسلامية...

الكتب الفلسفية المترجمة

اولاً: كتب أفلاطون

- ١ - كتاب السياسة، نقله او ترجمه حنين بن إسحق.
- ٢ - كتاب المناسبات، ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.
- ٣ - كتاب النواميس، ترجمه حنين بن اسحق ويحيى بن عدي.
- ٤ - كتاب طيماوس، ترجمه ابن البطريق واصلحه حنين بن اسحق.
- ٥ - كتاب افلاطن الى اقريطن، ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.
- ٦ - كتاب التوحيد، ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.
- ٧ - كتاب الحسّ واللذة، ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.
- ٨ - كتاب أصول الهندسة، ترجمه قسطا بن لوقا البعلبكي.

ثانياً: كتب أرسطو طاليس

- ١ - كتاب قاطيغورياس^(١) ومعناه المقولات، ترجمه حنين بن اسحق^(٢).
- ٢ - كتاب باري امينياس ومعناه العبارة، ترجمه حنين بن اسحق الى السريانية وترجمه ابنه اسحق الى العربية^(٣).
- ٣ - كتاب انا لوطيقا الاولى وهو تحليل القياس، ترجمه ثيادورس الى العربية، ويقال انه عرضه على حنين بن اسحق فاصلحه. ونقل حنين قطعة منه الى السريانية.

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦١.

(٢) القفطي، اخبار العلماء باخبار الحكماء، ص ٣٥.

(٣) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦٢.

٤- كتاب انا لوطيقا، وهو البرهان، مقالتين لارسطوطاليس، ترجمه حنين الى السريانية، وترجمه ايضا اسحق بن حنين الى السريانية، وترجمه متى الى العربية وكذلك ترجمه يحيى بن عدي الى العربية^(٤).

٥- كتاب لوغيقا وهو الجدل لارسطوطاليس. ترجمه اسحق بن حنين الى السريانية، وترجمه يحيى بن عدي من السريانية الى العربية. وترجم الدمشقي منه سبع مقالات، وترجم ابراهيم بن عبد الله الثامنة.

٦- كتاب سوفسطيقا وهو الحكمة المموهة لارسطوطاليس ترجمه ابن ناعمة وابو بشر متى الى السريانية وترجمه يحيى بن عدي الى العربية.

٧- كتاب ريطوريقا وهو الخطابة لارسطو^(٥) قيل نقله اسحق بن حنين الى العربية، وكذلك ترجمه ابراهيم بن عبد الله.

٨- كتاب ابوطيقا، وهو الشعر لارسطو^(٦) ترجمه ابو بشر متى بن يونس من السريانية الى العربية وكذلك ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.

٩- كتاب السماع الطبيعي لارسطو ترجمه حنين بن اسحق من اليونانية الى السريانية، وترجمه من السريانية الى العربية يحيى بن عدي التكريتي^(٧) وهذا الكتاب عبارة عن مقالة قصيرة.

١٠- كتاب السماع الطبيعي لارسطو، ترجمه ابو روح الصابي، وحنين بن اسحق وقسطا بن لوقا وابو ناعمة عبد المسيح الذي اكمله ترجمة.

١١- كتاب السماع الطبيعي^(٨) ان الكتاب وهو ثمانى مقالات لارسطو، المقالة الاولى من كلام ارسطو في مقاليتين والموجود منهما مقالة

(٤) القفطي، اخبار العلماء، ص ٣٦.

(٥) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦٣.

(٦) القفطي، اخبار العلماء، ص ٣٨.

(٧) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦٤.

وبعض الاخرى نقلها ابو روح الصابئ واصلح هذا النقل يحيى بن عدي التكريتي. والمقالة الثانية وترجمها من اليونانية الى السريانية حنين بن اسحق وترجمها من السريانية الى العربية يحيى بن عدي. وترجم الثالثة قسطا بن لوقا والظاهر موجود نقل الدمشقي. والمقالة الخامسة ترجمها قسطا بن لوقا.

١٢- كتاب الافرديس يعني الاسكندر لارسطو^(٩) فسرّه ابو زكريا يحيى بن عدي التكريتي في ثلثمائة ورقة^(١٠).

١٣- كتاب السماع والعلم لارسطو، وهو اربع مقالات، ترجم هذا الكتاب ابن البطريق، واصلحه حنين بن اسحق وترجم ابو بشر متى بعض المقالة الاولى.

١٤- كتاب الكون والفساد لارسطو^(١١) ترجمه حنين بن اسحق من اليونانية الى السريانية، وترجمه اسحق بن حنين الى العربية وترجمه ايضا اسحق الدمشقي الى العربية.

١٥- كتاب الآثار العلوية لارسطو ترجمه ابو بشر متى ويحيى بن عدي التكريتي^(١٢).

١٦- كتاب النفس لارسطو وهذا ثلاث مقالات ترجمها حنين بن اسحق الى السريانية ونقله اسحق نقلاً ثانياً الى العربية.

(٨) القفطي، اخبار العلماء، ص ٣٤. وراجع جرجي زيدان، التمدن الاسلامي، ج ٣ ص ١٧٢-١٨٣.

(٩) القفطي، اخبار العلماء، ص ٣٥.

(١٠) ومن فسر هذا الكتاب من المسلمين أو نصر الفارابي.

(١١) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦٥، القفطي، اخبار العلماء، ص ٤٠.

(١٢) القفطي، اخبار العلماء، ص ٤١.

١٧- كتاب الحيوان لارسطو وهو^(١٣) تسع عشرة مقالة ترجمها ابن البطريق. ويوجد نقل سرياني أجود من العربي ونقله ابن زرعة الى العربية.

١٨- كتاب الحروف بالإلهيات لارسطو ترجمه اسحق ونقل حرف مو ونقل هذا الحرف ابو زكريا ابن يحيى بن عدي، ونقل حنين مقالة منها الى السريانية.

١٩- كتاب الاخلاق لارسطو وهو اثنتا عشرة مقالة فسّره فرفوريوس ترجمه اسحق بن حنين.

٢٠- كتاب في السكون بين حركتي الشريان، مقالتان^(١٤). ترجم الى السريانية ونقله الى العربية عيسى بن أسيد النصراني وأصلحه ثابت العربي وذكر قوم ان المترجم لهذا الكتاب هو حبيش بن الحسن، وفيه ردّ على الكندي.

٢١- كتاب الحسّ والمحسوس^(١٥). ترجمه بن بكوس (باكوس) وقيل ايضا ترجمه ابو بشر متى بن يونس.

٢٢- كتاب ما وراء الطبيعة لثامرسطس، ترجمه ابو زكريا يحيى بن عدي التكريتي. وذكر ابن العبري ان يحيى بن عدي ترجمه من السريانية الى العربية^(١٦).

٢٣- كتاب المرأة، ترجمه الحجاج بن مطر.

٢٤- كتاب آثولوجيا، ترجمه حمصي بن نعيمة وراجعه الكندي.

(١٣) ابن النديم، الفهرست، ص ٦٦.

(١٤) القفطي، اخبار العلماء، ص ١١٦.

(١٥) ابن النديم، الفهرست، ص ١٦٧.

(١٦) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٥٠٦.

٢٥- كتاب برقلس في تفسير فادن في النفس، ترجمه من السريانية الى العربية ابو علي بن زرعة^(١٧).

٢٦- كتاب الآراء الطبيعية لفارطرخس وهو خمس مقالات ترجمه قسطا بن لوقا.

٢٧- كتاب تفسير ارسطو في الهالة وقوس قزح اثافوريطس، ترجمه ثابت بن قرّة.

ولكتب ارسطو شرح وتعليق لبعض تلامذته او من جاء بعده كثاوفرستس وديدوخس برقلس والاسكندر الافروديسي وفرفوريوس وأمونيوس وثامسطيوس ونيقولاوس وفلوطرخس ويحيى النحوي وغيرهم.

ولبعض هؤلاء مؤلفات خاصة وكلها في الفلسفة وفروعها، وقد ترجم الكثير منها الى العربية. وذكروا الجالينوس في جملة كتبه الطبية الآتي ذكرها بضعة كتب في الفلسفة والأدب وهي:

ثالثا: كتب أقليدس:

١- كتاب الاسطروسيا لأقليدس ومعناه أصول الهندسة. ترجمه الحجاج بن يوسف بن مطر مرتين احدهما تسمى بالهاروني والثانية المأموني وعليها يعول. وترجمه اسحق بن حنين واصلحه ثابت بن قرّة الحرّاني.

٢- المخروطات، ثمان مقالات (ابلونيوس) ترجمة اربعة اشخاص: الاولى بيد عدي احمد بن موسى بن هلال الحمصي، والاواخر ثابت بن قرّة الحرّاني ونقلت الى العربية.

٣- شرح أرشيميدس في الكرة الاسطوانة (ابو طوفوس)، ترجمها ثابت بن قرّة الى العربية.

(١٧) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٦٧.

٤ - كتاب الاشكال الكروية، وهو كتاب في معرفة كمية تميز الاجرام المختلطة عمله ثابت بن قرّة، وخرج منه الى العربي شيء يسير.

٥ - المجسطي (بطليموس) فهو ثلاث عشرة مقالة، عُني بتفسيره وترجمته الى العربية يحيى بن خالد بن برمك. قيل ان الحجاج ابن مطر نقله ايضا، اما الذي عمله التبريزي اصلح ثابت بن قرّة الكتاب كله بالنقل القديم. نقل اسحق الكتاب^(١٨). وذكره القفطي: "واول من عني بتفسيره واخرجه الى العربية يحيى بن برمك ونقله الحجاج بن يوسف بن مطر.

٦ - كتاب تفسير كتاب بطليموس في سطح الكرة^(١٩) نقل بيس الرومي ونقل ثابت بن قرّة الى العربية.

٧ - مفسّر كتاب اغراض المخروطات.

٨ - المجسطي ابراهيم بن سنان^(٢٠).

٩ - اقليدس في الهندسة، نقله من اليونانية الى العربية ثابت بن قرّة الحرّاني نقحه وهذبه.

رابعا: كتب أبقراط

١ - كتاب عهد ابقراط: بتفسير جالينوس، ترجمه حنين بن اسحق الى السريانية واطاف اليه شيئا من جهته. وترجمه حبش بن الاعسم وعيسى بن يحيى الى العربية بمقالة واحدة.

٢ - كتاب الفصول بتفسير جالينوس، ترجمه حنين بن اسحق الى العربية لمحمد بن موسى (سبع مقالات).

(١٨) ابن النديم، الهرست، ص ٣٦٧.

(١٩) ابن النديم، الهرست، ص ٣٨٥ القفطي، اخبار العلماء، ص ٩٧.

(٢٠) ابن النديم، الهرست، ص ٣٩٠.

٣- كتاب مقدمة المعرفة بتفسير جالينوس، ترجمه نصاً حنين بن اسحق الى العربية، ثم ترجم عيسى التفسير الى العربية.

٤- كتاب الامراض الحادة بتفسير جالينوس، وهو خمس مقالات، والذي ترجم منه ثلاث مقالات، ترجمها عيسى بن يحيى.

٥- كتاب الكسر بتفسير جالينوس، ترجمه حنين بن اسحق الى العربية لمحمد بن موسى (اربع مقالات).

٦- كتاب ابيديميا او الامراض الوافدة، وفسره جالينوس، يتكون الكتاب وتفسيره من سبع كتب الاول في ثلاث مقالات، والثاني في ثلاث مقالات، والثالث في ست مقالات والرابع والخامس والسابع لم يفسرها جالينوس واما السادس ففسره في ثمان مقالات، وفسر ذلك الى العربية عيسى بن يحيى.

٧- كتاب الاخلاط، بتفسير جالينوس، ثلاث مقالات ترجمها عيسى بن يحيى الى العربية لاحمد بن موسى.

٨- كتاب قاطيطون (قاطيطريون) أي حانوت الطبيب بتفسير جالينوس ثلاث مقالات ترجمها بن اسحق الى العربية لمحمد بن موسى، والتفسير لحبيش بن الحسن.

٩- كتاب طبيعة الانسان، ثلاث مقالات، فسر النص حنين بن اسحق وترجمه الى العربية والتفسير عيسى بن يحيى.

١٠- كتاب الماء والهواء، ترجمه حنين بن اسحق وعيسى بن يحيى.

خامساً: كتب أفلاطون:

١- كتاب السياسة، ترجمه حنين بن اسحق.

٢- كتاب المناسبات، ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.

٣- كتاب النواميس، ترجمه حنين بن اسحق ويحيى بن عدي التكريتي.

٤- كتاب طيماوس، ترجمه ابن البطريق، واصلحه حنين بن اسحق.

٥- كتاب افلاطن الى اقرطن، ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.

٦- كتاب التوحيد، ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.

٧- كتاب الحسّ واللذة، ترجمه يحيى بن عدي التكريتي.

٨- كتاب اصول الهندسة، ترجمه قسطا بن لوقا.

سادساً: كتب جالينوس^(٢١)

كان لجالينوس شأن كبير عند العرب فترجموا معظم كتبه الى العربية ولخصوها وفسروها. وقد ذكرها ابن أبي اصبيعة مطولاً في كتابه "عيون الانباء في طبقات الاطباء" ووضع مضمون بعضها. وأشار الى أن أطباء الاسكندرية، قد اختاروا من بين هذه المجموعة من الكتب ستة عشر كتاباً ورتبها سبع مرات بحيث يتدرج المبتدئ من مرتبة الى اخرى بنظام محكم ويشتاق الى المزيد وهي:

١- كتاب الفرق، ترجمه حنين بن اسحق (مقالة).

٢- كتاب الصناعة، ترجمه حنين بن اسحق (مقالة).

٣- كتاب طوثرن في النبض، ترجمه حنين بن اسحق (مقالة).

٤- كتاب اغلوثن في التآني لشفاء الأمراض، ترجمه حنين بن اسحق

(مقالتان).

(٢١) ولد جالينوس في آسيا الصغرى عام ١٣١ م وتوفي في روما عام ٢٠١ م. ألف جالينوس عدداً كبيراً من الكتب الشاملة لجميع أقسام الطب في زمانه. كما ألف كتباً فلسفية. وكان اعجابه بابقراط عظيماً ففسّر أهم كتبه.

- ٥- كتاب المقالات الخمس في التشریح، ترجمه حنین بن اسحق.
- ٦- كتاب الاسطقصات، ترجمه حنین بن اسحق (مقالة).
- ٧- كتاب المزاج، ترجمه حنین بن اسحق (ثلاث مقالات).
- ٨- كتاب القوى الطبيعية، ترجمه حنین بن اسحق (ثلاث مقالات).
- ٩- كتاب العلل والامراض، ترجمه حنین بن اسحق (ست مقالات).
- ١٠- كتاب تعرف علل الاعضاء الباطنية، ترجمه حنین بن اسحق (ست مقالات).
- ١١- كتاب النبض الكبير، ترجمه حبیش ست مقالات منه باربعة أقسام وترجم حنین بن اسحق مقالة واحدة الى العربية.
- ١٢- كتاب الحمیات، ترجمه حنین بن اسحق (مقالتان).
- ١٣- كتاب البحران، ترجمه حنین بن اسحق (ثلاث مقالات).
- ١٤- كتاب أيام البحران، ترجمه حنین بن اسحق (ثلاث مقالات).
- ١٥- كتاب تدبیر الاصحاء، ترجمة حبیش (ست مقالات).
- ١٦- كتاب حيلة البرء، ترجمة حبیش الى العربية واصلح حنین ست مقالات منه. والكتاب اربع عشرة مقالة واصلح الثمان الاواخر محمد بن موسى. أما ما بقي من كتب جالينوس الطبية فاليك اسماءها مع اسماء مترجميها:
- ١- كتاب اختلاف التشریح ترجمة حبیش بن الاعسم الى العربية (مقالتان).
- ٢- كتاب التشریح الكبير: خمس عشرة مقالة، لم يذكر حنین بن اسحق في فهرسته من ترجمه الى اللغة العربية، ولا ابن النديم.

- ٣- كتاب تشريح الحيوان الميت، ترجمه حبش بن الاعسم الى العربية (مقالة).
- ٤- كتاب تشريح الحيوان الحيّ، ترجمه حبش بن الاعسم الى العربية (مقالتان).
- ٥- كتاب في علم ابقراط بالتشريح، ترجمه حبش بن الاعسم الى العربية وهو خمس مقالات.
- ٦- كتاب علم ارسطوطاليس في التشريح، ترجمه حبش بن الاعسم الى العربية وهو ثلاث مقالات.
- ٧- كتاب تشريح الرحم، ترجمه حبش بن الاعسم الى العربية (مقالة واحدة).
- ٨- كتاب حركات الصدر الرئة، ترجمه اصطفن بن باسيل الى العربية واصلحه حنين بن اسحق لاسقاطه ثلاث مقالات.
- ٩- كتاب علل النفس، ترجمه اصطفن بن باسيل وأصلحه حنين بن اسحق لولده، وهو مقالتان.
- ١٠- كتاب الصوت، ترجمه حنين بن اسحق لمحمد بن عبد الملك الزيات الى العربية وهو اربع مقالات.
- ١١- كتاب حركة العضل، نقل اصطفن واصلاح حنين بن اسحق وهو مقالتان.
- ١٢- كتاب الحاجة الى النبض، ترجمه حبش بن الاعسم الى العربية وهو مقالة واحدة.
- ١٣- كتاب الحاجة الى النفس، ترجمه اصطفن، وترجم حنين نصفه، مقالة واحدة.

- ١٤- كتاب العادات، ترجمه حبش بن الاعسم الى العربية مقالة واحدة.
- ١٥- كتاب آراء بقراط وفلاطون، ترجمه حبش بن الاعسم الى العربية وهو عشر مقالات.
- ١٦- كتاب الحركات المجهولة، ترجمه حنين بن اسحق الى العربية، مقالة واحدة.
- ١٧- كتاب الامتلاء، ترجمه اصطفن بن باسيل، وهو مقالة واحدة.
- ١٨- كتاب منافع الاعضاء، ترجمه حبش بن الاعسم واصلحه حنين بن اسحق لاسقاطه سبع عشرة مقالة.
- ١٩- كتاب افضل الهيئات، ترجمه حنين بن اسحق الى السريانية والعربية وهو مقالة واحدة.
- ٢٠- كتاب خصب البدن، ترجمه حبش بن الاعسم الى العربية مقالة واحدة.
- ٢١- كتاب سوء المزاج المختلف، ترجمه حنين بن اسحق، مقالة واحدة.
- ٢٢- كتاب الادوية المفردة، ترجمه حنين بن اسحق، وهو احدى عشرة مقالة.
- ٢٣- كتاب الاورام، ترجمه ابراهيم بن الصلت، وهو مقالة واحدة.
- ٢٤- كتاب المنى، ترجمه حبش بن الاعسم، مقالتان.
- ٢٥- كتاب المولود لسبعة اشهر، ترجمه حنين بن اسحق.
- ٢٦- كتاب المرأة السوداء، ترجمه اصطفن بن باسيل، مقالة واحدة.
- ٢٧- كتاب مقدمة المعرفة، ترجمه عيسى بن يحيى، وهو مقالة واحدة.
- ٢٨- كتاب رداءة النفس، ترجمه حنين بن اسحق لولده اسحق وهو ثلاث مقالات.

- ٢٩- كتاب مقدمة المعرفة، ترجمه عيسى بن يحيى وهو مقالة واحدة.
- ٣٠- كتاب الفصد، ترجمه عيسى بن يحيى وترجمه اصطفن وعيسى.
- ٣١- كتاب الذبول، ترجمه حنين بن اسحق، مقالة واحدة.
- ٣٢- كتاب صفات لصبي يصرع، ترجمه ابن الصلت الى السريانية والعربية.
- ٣٣- كتاب عدد المقاييس، ترجمه اصطفن بن باسيل واسحق العلي بن يحيى.
- ٣٤- كتاب قوى الاغذية، ترجمه حنين بن اسحق، ثلاث مقالات.
- ٣٥- كتاب التدبير المطلق، ترجمه حنين بن اسحق، ثلاث مقالات.
- ٣٦- كتاب اكليموس، ترجمه ثابت وشحلي وحبيش بن الاعسم الى العربية، وهو مقالة واحدة.
- ٣٧- كتاب ارسطوطاليس في مداواة الامراض، ترجمه حنين بن اسحق.
- ٣٨- كتاب تدبير بقراط للامراض الحادة، ترجمه حنين بن اسحق، مقالة واحدة.
- ٣٩- كتاب تركيب الادوية، ترجمه حبيش بن الاعسم، سبع عشرة مقالة.
- ٤٠- كتاب الادوية المقابلة للأدواء، ترجمه عيسى بن يحيى، مقالتان.
- ٤١- كتاب التزياق الى يسن، ترجمه يحيى بن البطريق، مقالة.
- ٤٢- كتاب الى اثراسابولس، ترجمه حنين بن اسحق، مقالة واحدة.
- ٤٣- الرياضة بالكرة الصغيرة، ترجمه حبيش بن الاعسم، مقالة.
- ٤٤- كتاب الرياضة بالكرة الكبيرة، ترجمه حبيش بن الاعسم، مقالة.

٤٥ - كتاب في الطبيب الفاضل فيلسوف، ترجمه حنين بن اسحق، مقالة.

٤٦ - كتب بقراط الصحيحة، ترجمه حنين بن اسحق، مقالة.

٤٧ - كتاب الحث على طلب الطب، ترجمه حبيش بن الاعسم، مقالة.

٤٨ - كتاب محنة الطبيب، ترجمه حبيش بن الاعسم، مقالة.

٤٩ - كتاب ما يعتقد رآيا، ترجمه ثابت، مقالة.

٥٠ - كتاب تعريف المرء عيوب نفسه، ترجمه توما واصلاح حنين، مقالة.

٥١ - كتاب الاخلاق، ترجمه حبيش بن الاعسم، اربع مقالات.

٥٢ - كتاب انتفاع الاخيار باعدائهم، ترجمه حبيش بن الاعسم، مقالة.

٥٣ - كتاب ما ذكره فلاطون في طيماوس الموجود منه عشرون مقالة، ترجمه حنين بن اسحق، وترجم ابنه اسحق الثلاث الباقيات.

٥٤ - كتاب في ان قوى النفس تابعة لمزاج البدن، ترجمه حبيش بن الاعسم، مقالة واحدة.

٥٥ - كتاب المدخل الى المنطق، ترجمه حبيش بن الاعسم، مقالة واحدة.

٥٦ - كتاب المحرك الاول لا يتحرك، ترجمه حنين بن اسحق وترجمه ايضاً عيسى بن يحيى واسحق بن حنين.

٥٧ - كتاب في القوباء (فيلفريوس)، ترجمه ابو الحسن الحرّاني ولم يتمّها^(٢٢).

٥٨ - كتاب الادوية المستعملة (اوريباسيوس): ترجمه اصطفن بن باسيل.

(٢٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٤١٧ - ٤١٨.

٥٩- كتاب السبعين مقالة (اوريباسيوس)، ترجمها حنين بن اسحق وعيسى بن يحيى الى السريانية.

٦٠- كتاب البرسام (اللاسكندروس) ترجمه ابن البطريق^(٢٣).

٦١- كتاب الحقن (سورنوس)، ترجمه اسطاف واصلحه حنين بن اسحق، وهو ثلاثون مقالة كناش بالسريانية لاهرون القس ترجمه مار سرجيس الى العربية وزاد عليها مقالتين^(٢٤).

٦٢- كناش يوحنا الكبير، اثني عشرة مقالة من السريانية الى العربية ليحيى بن سرافيون.

٦٣- كناش يوحنا الكبير، سبع مقالات، ترجمه من السريانية الى العربية ليحيى بن سرافيون.

٦٤- جوابات ثابت لمسائل عيسى بن أسيد ترجمه من السريانية الى العربية عيسى بن أسيد النصراني.

٦٥- كتاب التزيق، ترجمه ابن البطريق.

سابعاً: كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

ويشتمل النظر في ذلك على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكا.

١- كتب أقليدس، منها أصول الهندسة ترجمه الحجاج بن مطر، بنقلين الهاروني نسبة لعهد الخليفة هرون الرشيد، والماموني نسبة للخليفة المامون وترجمه اسحق بن حنين واصلحه ثابت بن قرّة، وترجمه ايضا ابو عثمان الدمشقي.

(٢٣) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٢.

(٢٤) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٢٧، القفطي، اخبار العلماء، ص ٨٠.

ومن كتب اقليدس التي لم يعرف مترجموها: كتاب الظاهرات وكتاب اختلاف المناظر، وكتاب الموسيقى، وكتاب القسمة وكتاب القانون وكتاب الثقل والخفة.

٢- كتب ارشميدس، وهي عشرة ولم يعرف مترجموها.

٣- كتب ابولونيوس، وهي: كتاب المخروطات، وكتاب قطع السطوح، وقطع الخطوط، والنسبة المحدودة، والدوائر الحساسة، ولم يعرف مترجموها.

٤- كتب منالوس، وهي كتاب الاشكال الكروية، وكتاب اصول الهندسة وترجمه الى العربية ثابت بن قرّة.

٥- كتب بطليموس القلوذي، وهي كتاب المجسطي الشهير، ترجمه وشرحه يحيى البرمكي. وله ايضا كتاب الاربعة ترجمه ابراهيم بن الصلت واصلحه حنين بن اسحق، وكتاب جغرافيا المعموز وصفة الارض ترجمه ثابت بن قرّة الى العربية ترجمة جيدة.

ولبطليموس خمسة عشر كتاباً أخرى في الجغرافية وغيرها لم يعرف مترجموها.

٦- كتب ذيوفنطس، ومنها كتاب صناعة الجبر وترجمة قسطا بن لوقا، وهناك كتب عديدة في الرياضيات والهيئة والازياج ونحوها ذكرها ابن النديم ولم يذكر مترجموها منها:

١- كتاب العمل بالاسطرلاب المسطح لايون البطريق.

٢- كتاب جرم الشمس والقمر لأرسطرخس.

٣- كتاب العمل بذات الحلق.

- ٤- كتاب جداول زيغ بطليموس المعروف بالقانون المسير.
 - ٥- كتاب العمل باسطرلاب لثاون الاسكندري.
 - ٦- وقد نقل ايضا الى العربية من كتب الموسيقى عن اليونانية كتاب الموسيقى الكبير لينغوماخس الجهراسيني.
 - ٧- كتاب الموسيقى المنسوب لأقليدس.
 - ٨- ومقالات في الموسيقى لفيثاغورس وغيره.
 - ٩- وكتاب الريموس.
 - ١٠- كتاب الايقاع لارسطكاس.
 - ١١- كتاب الآلات المصوتة المسماة بالارغن البوقي والارغن الزمري لمورطس.
 - ١٢- كتاب الحيل الروحية.
 - ١٣- كتاب شيل الانتقال لايرن.
 - ١٤- كتاب استخراج المياه لبادروجوجيا.
 - ١٥- كتاب الآلات المصوتة على ستين ميلاً لمورطس.
- ثامناً: متفرقات.

- ١- كتاب الآثار العلوية المخيلة في الجو عن البخار المائي^(٢٥) ترجمه ابن الخمار من السريانية الى العربية.
- ٢- كتاب الآثار العلوية، نقله ابن الخمار من السريانية الى العربية.
- ٣- كتابي اوميدوس الشاعر على فتح مدينة ابلون في قديم الدهر ترجمها ثيوفيل السرياني الرهاوي الماروني من اليونانية الى السريانية^(٢٦).

(٢٥) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٨٤.

- ٤- كتاب نيقولاوس في معرفة الحكمة فلسفة أرسطوطاليس ذكره ابن العبري، ترجمه حنين بن اسحق، يوجد منه نسخ بالسريانية.
- ٥- كتاب في الطب لبولس الاجانيطي سَمَّوه القوابلي، تسع مقالات ترجمه حنين بن اسحق، وله أيضا كتاب علل النساء^(٢٧).
- ٦- الدياطسرون^(٢٨) الرباعي، وهو الانجيل الذي جمعه ططيانوس السرياني من البشائر الاربع في القرن الثاني الميلادي، وترجمه من السريانية الى العربية ابو الفرج عبد الله ابن الطيب في القرن الحادي عشر^(٢٩).
- ٧- كتاب ديسقوريد في العلم وقد ترجمه اصطفان بن باسيل من اليونانية الى العربية^(٣٠).
- ٨- الكناش الكبير اثنتا عشرة مقالة، وكتاب الكناش الصغير سبع مقالات بالسريانية، ترجمه يوحنا بن سيرافون الى العربية^(٣١).
- ٩- كتاب الاجنة لبقرات ترجمه عن السريانية الى العربية ابن شهدا الكرخي^(٣٢).
- ١٠- كتاب افلاطون في آداب الصبيان، ترجمه ابو عمر بن يوسف الكاتب^(٣٣).

(٢٦) يوسف الدبس، الجامع المفصل في تاريخ المواردة المؤصل، ص ٦٣.

(٢٧) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٨٢.

(٢٨) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١٠٣.

(٢٩) افرام برصوم، اللؤلؤ المنثور، ص ٦٣٠-٦٤٠.

(٣٠) جرجي زيدان، آداب اللغة العربية، ص ٦٤٥.

(٣١) القفطي، اخبار العلماء، ص ٣٨٠.

(٣٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٥.

١١- كتاب ايساغوجي، ترجمه ايوب بن قاسم الرقي من السريانية الى العربية^(٣٤).

١٢- وهناك كتاب ذا أهمية كبرى في المادة الطبية هو "كتاب الحشائش" لصاحبه ديسقوريدس، وهو طبيب يوناني ولد في عين ذرّبه (Anazarbe) في آسيا الصغرى في القرن الاول الميلادي. وقد صاحب الجيش كطبيب في تنقلاته في بلاد البحر المتوسط مما سمح له الاطلاع على أعشاب جديدة والتحقق الشخصي من صحة ما ورد في كتب سابقه عن المادة الطبية. وظل كتابه المرجع الاساسي على مرّ الاجيال للمفردات الطبية. فما من طبيب ذي قدر الا ودرسه درسا مطولاً وعلّق عليه منذ جالينوس الى ابن سينا وداود الانطاكي.

وقد ترجم الكتاب الى العربية ببغداد في أيام الخليفة المتوكل (٨٤٧-٨٦١م) وكان المترجم له اصطفان بن باسيل، وتصفّح هذه الترجمة حنين بن اسحق فصححها واجازها.

لتاريخ هذه الترجمة وصعوبة اختيار المصطلحات العربية المناسبة وانتشار هذه الترجمة، في البلاد العربية قصة طويلة رواها ابن ابي أصيبعة في كتابه "عيون الانباء في طبقات الاطباء"^(٣٥).

(٣٣) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٥٥.

(٣٤) ابن العربي، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤. يوسف الدبس، الجامع المفصل، في تاريخ الموارنة الموصل، ص ١٦٤.

(٣٥) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ٢ ص ٤٦-٤٨، وانظر أيضا الامير مصطفى الشهابي، تفسير كتاب ديسقوريدس لابن البيطار في مجلة معهد المخطوطات العربية (مايس ١٩٥٧) ص ١٠٥-١١٢.

الفصل التاسع

الكتاب والوزراء النصارى في ديار الاسلام

نظرة تاريخية

أ - الشرع الاسلامي وتوظيف أهل الذمة:

ان الشريعة الاسلامية لا تجيز من حيث المبدأ وظائف الدولة لمن هو ذمي، الا على كره. فالقرآن صريح في هذا الباب: "لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين. ومن يفعل ذلك فليس من الله بشيء، الا ان تتقوا منه تقية ويحذركم الله نفسه والى الله المصير" (٣: ٢٨) ويقول تفسير الجلالين للمسلمين في شرح ذلك: "فلکم موالاتهم باللسان دون القلب، وهذا قبل عزة الاسلام ويجري فيمن هو في بلد ليس قويا فيها".

وجاء في السورة عينها (٣: ١١٨): "يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم، لا يالونكم خبالاً، ودّوا ما عنتم، قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون". ويعلق تفسير الجلالين على ذلك بما مفاده: "لا تتخذوا اصفياء تطلعونهم على سرکم من غيرکم أي من اليهود والنصارى والمنافقين".

وجاء في سورة المائدة بصريح العبارة (٥: ٥١): "يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء، بعضهم اولياء بعض، ومن يتولاهم منكم فانه منهم، ان الله لا يهدي القوم الظالمين".

وفي سورة التوبة (٩ : ٧ - ١٠) اشارة الى ذلك، حيث قيل في عدم ائتمان غير المؤمنين: " كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله (...) كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا (اي : قرابة) ولا ذمة يرضونكم بافواههم وتابى قلوبهم واكثرهم فاسقون " (اطلب ايضاً ٤ : ١٤١ - ١٤٤ ، ٥٧ : ٥ ، ٦٠ : ١ ، ٣) ...

وثمة اعتبارات ادبية، تحتم على المسلمين صدّ باب الوظائف الحكومية في وجه الذميين، وهي، حسبما اوردها ابن النقاش والقلقشندي: ان كل ذمي هو مبدئياً عدو للمسلم تسوّل له نفسه في كل حين التواطؤ مع اعداء الاسلام، وان هو غدر بالمسلم فلا يرى في ذلك إثماً، كما ان توليته المناصب تتنافى مع ما يجب ان يكون عليه من حالة ذل وصغار.

بيد ان هنالك قلة بين العلماء قالوا بانه يجوز للذمي شرعاً تولي المناصب في الدولة، حتى منصب الوزير. ولكنهم ميزوا بين وزير التفويض ووزير التنفيذ، فالاول يفوض اليه الخليفة سلطته فيدير شؤون الدولة بمبادرة شخصية، في حين يكتفي الثاني بتنفيذ اوامر السلطان واجازوا بذلك للذمي تولي المناصب بما فيها وزارة التنفيذ.

فكيف كانت الامور في الواقع:

في عهد الراشدين والامويين

لما انطلقت الدولة الاسلامية وجد الخلفاء انفسهم على راس شعوب عديدة، متوزعة في بلاد شاسعة الاطراف، فاحتاجوا الى من ينشئ لهم ادارة منظمة، ولم يكن لهم بد من اللجوء الى المسيحيين وكانوا السكان الاصليين

الشام ومصر والعراق، يحسنون تسيير امور الحكام لتمرسهم في شؤون الدولة البيزنطية، ويلمون بلغات عديدة كاليونانية والسريانية والعربية فضلاً عن الفارسية. وقد حاول الخليفة عمر بن الخطاب الحدّ من نفوذهم ولكن لم يكن ذلك بالامر اليسير لما كانوا يتمتعون به من خبرة في دائرة عملهم. يحكى عن عمر بن الخطاب انه لما عرف ان لابي موسى الاشعري كاتباً نصرانياً ضرب فخذة وقال: الا اتخذت رجلاً حنيفاً^(١).

واظهر معاوية من الفطنة واللين في هذ المجال ما سهّل له اموره، فاستفاد من الكتّاب المسيحيين كمثّل ابن آثال الذي ولي خراج حمص^(٢). وسرجون بن منصور جدّ القديس يوحنا الدمشقي^(٣).

(١) ابن قتيبة، عيون الاخبار، طبعة كوتنكن، ١٨٩٩، ص ١٩٩.

(٢) ابن آثال - القرن السابع - كاتب

اخبر عنه الجهشيارى في "الوزراء والكتاب" ص ٢٧. انه كتب على مروان خراج حمص في ايام معاوية بن ابي سفيان. وكان له في هذه المدينة قصر يُعرَف به. وروى ابن ابي اصبيحة في عيون الانباء" ج ١: ١١٦ انه كان طبيباً من الاطباء المميزين في دمشق. ولما ملك معاوية دمشق اتخذ طبيباً له واحسن اليه. وكان ابن آثال خبيراً بالادوية المفردة والمركبة وما كان منها سماً قاتلاً. فسمم عبد الرحمان بن خالد بايعاز من معاوية. وقد قتل ابن آثال قتله غيلة خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد. (اطلب قنواتي، المسيحية والحضارة العربية" ص ١٤١).

(٣) سرجون بن منصور (+اواخر القرن السابع - كاتب):

جاء في "العقد الفريد" لابن عبد ربه (٢: ٢١١: "من نبل بالكتابة"): "سرجون بن منصور الرومي - نعت منصور بن سرجون الرومي لا لانه كان رومياً بل لانه خدم الروم - كاتب لمعاوية ويزيد ابنه ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان، الى ان امره عبد الملك بأمر فتوانى فيه وراى منه عبد الملك بعض التفريط فقال لسليمان بن سعد كاتبه على الرسائل: ان سرجون يدلّ علينا بصناعته واطن انه رأى ضرورتنا اليه في حسابه، فما عندك فيه حيلة؟ فقال: بلى، لو شئت لحولت الحساب من الرومية الى العربية. قال: افعل.

ثم حاول عمر بن عبد العزيز وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك تقليص احتكار النصارى للوظائف بصرفهم بعضاً منهم وتعريب لغة الدواوين، إلا أن اليونانية ظلت سائدة في معاملات الدولة فترة طويلة، حتى أنه وجدت قطع من البردي دُوِّنت فيها أمور حكومية باللغتين العربية واليونانية تعود إلى سنة ٨٥٧ للميلاد. ولئن حد التعريب من أفراد المسيحيين بالدواوين، فلم يحل دون بقائهم فيها بكثرة لمعرفتهم العربية خير معرفة إلى جانب غيرها من اللغات. وتفيد الوثائق المدونة على البردي أن سائر كتّاب الريف في الديار المصرية حتى آخر الدولة الأموية كانوا من النصارى.

في العصر العباسي

اتصف الخلفاء العباسيون بسياسة خلت إجمالاً من التعصب الديني. وإن تصرف بعضهم على نحو يمكن اعتباره تجنّياً على المسيحيين عامة وعلى جماعة كتابهم خاصة، فلأسباب غالباً ما ارتبطت بظروف سياسية واجتماعية راهنة. فلقد عرف مثلاً عن المنصور (٧٥٤-٧٧٥) أنه اتخذ بحق المسيحيين سلسلة اجراءات قاسية في السنوات ٧٥٧ و ٧٥٨ و ٧٦٠ (طرد الكتاب المسيحيين من بيت المال) و ٧٦٧ (منع دراسة الآداب المسيحية أي "الرومية") و ٧٧٠ و ٧٧٣. إلا أنه ينبغي الاعتراف بأن هذه القرارات كانت موجهة ضد مسيحيي المناطق الغربية المتاخمة لبلاد الروم. ومنع دراسة الآداب "الرومية" هو خير دليل على ذلك. فضلاً عن تفرّد المؤرخين البيزنطيين والسريان برواية هذه الاحداث^(٤).

قال: انظرني اعاني ذلك. قال: لك نظرة ما شئت. فحوّل الديوان... "قال في "الاغاني" (١٦: ٧٠) "كان يزيد بن معاوية اول من سنّ الملاهي في الاسلام من الخلفاء وآوى المغنين الفتك (كذا) وشرب الخمر وكان ينادم عليها سرجون النصراني مولاه والاخطل... سعى ببناء كنيسة... روي عنه زوراً انه اسلم..."

(٤) جون فيي، السريان النصارى في الدولة العباسية ص ٢٧ (١٩٨٠) لوفان.

ولئن قرر المنتصر طرد الكتاب النصارى من ديوان بيت المال كما رأينا، فقد اضطر بعد ذلك الى استرجاعهم لما كان لهم من نفوذ في دولته. ويحكى من هذا القبيل انه جاءه ذات يوم بعض المسلمين يشكون من الكتاب المسيحيين، فامر الخليفة حاجبه ان يكتب الى عماله في الاقاليم يامرهم بطرد "الذميّين" من الدواوين واستبدالهم بالمسلمين. فما كان من احد المقربين اليه واسمه شبيب بن شبيه ان اشار عليه بالعدول عن مثل هذا الاجراء خشية ان يجد هؤلاء الناس المتنفذين سبيلاً الى الانتقام، ونصح به باستبدال الذميّين بالمسلمين شيئاً فشيئاً ويوماً بعد يوم^(٥).

ومن شدّد الخناق على الكتاب النصارى المتوكل (٨٤٧-٨٦١) فصادر كثيراً منهم ونكّل بهم. ومن ضحاياه ايوب ابن ابراهيم ابن الجنيّد واخوه سليمان الذي ضرب وسجن وصودر بسبعين الف دينار. اما السبب الحقيقي لتصرفات المتوكل فيبدو انه في الدرجة الاولى حاجته الماسة الى المال، كما انه كان يراعي شعور بعض المتزمتين من الذين لا يروقهم يُسرّ الذميّين وتسلّطهم. وقد عرف عن المقتدر ايضاً (٩٠٨-٩٣٢) انه في بدء خلافته قرّر اقصاء النصارى واليهود عن الوظائف العامة في الدواوين وحصرهم في اعمال الجهبذة والطب. وقتل آنذاك ابو ياسر النصراني احد كتّاب مؤنس الحاجب^(٦). بيد ان التشرد سرعان ما زال اذ كان وزير الخليفة نفسه، ابو الحسن علي ابن الفرات، يقربّ النصارى وينادهم، وقد ذكر هلال الصائبي في "تاريخ الوزراء" انه من جملة الذين كانوا يدعون كل يوم الى طعام ابن الفرات اربعة كتّاب نصارى هم ابو بشر عبد الله ابن الفرخان واخوه ابو عمرو سعيد، وابو الحسين سعيد بن ابراهيم التستري وابو منصور عبد الله بن جبير.

(٥) المصدر السابق ص ١٥.

(٦) المصدر نفسه ص ٧٢١.

وثمة قرارات اخرى اتخذها العباسيون في حق الكتاب المسيحيين كمثل ما جرى على يد الناصر لدين الله (١١٨٠-١٢٢٥) في مطلع خلافته اذ أبعد النصارى عن الوظائف الرسمية بحجة انهم يسرقون اموال المسلمين ويحرقونهم. فمن ابعد آنذاك ابن الاشقر الكاتب في ديوان الارض^(٧)، ولم يثبت ابنه في وظيفة ابية الا لاعتناق الاسلام. كما ان ابا غالب بن زطينا أثر التحول الى الاسلام حفاظاً على منصبه^(٨).

غير ان هذه المواقف المتشددة التي لم تخلُ منها العصور العباسية لا تشكل امراً يذكر اذا ما قورنت بما يقابلها من التساهل، وبالفرة الطويلة التي امتد خلالها حكم بني العباس (٧٥٠-١٢٥٨) أي طوال قرون خمسة. وقد قلّد ديوان الجيش الاسلامي نفسه ثلاث مرات لكاتب نصراني في اثناء القرن الثالث الهجري، حتّى وجّه اللوم الى الوزير ابي الحسن ابن الفرات لانه بتقليده الديوان رجلاً مسيحياً "جعل انصار الدين وحمّة البيضة يقبلون يده ويمثلون امره". وعرف عن ابي العلاء صاعد بن ثابت الكاتب النصراني انه خلف الوزير المهلي سنة ٩٧٧. وكان الكتاب المسيحيون منتشرين انتشاراً واسعاً بحيث توجّب على كثير من طالي الوزارة التودد اليهم كما جرى للحسين بن القاسم.

(٧) ابن الاشقر وابنه (اواخر القرن ١٢-كاتبان) كان ابن الاشقر كاتباً بديوان الارض ابان خلافة الناصر لدين الله (١١٨٠-١٢٢٥) ولكنه أبعد عن الوظيفة على اثر قرار الخليفة باقصاء الذميين عن الدواوين في ذي الحجة ٥٧٩ (اذار-نيسان ١١٨٤) وقد اعتنق الاسلام ابنه واخذ منصب والده بالذات. (في، المصدر نفسه ص ٢٥٢).

(٨) ابن زطينا (ابو غالب) (+٦٠١=١٢٠٤-كاتب) ورد ذكره في مرآة الزمان لابن الجوزي (٨: ٣٧٨) حيث قيل انه توفي سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م بعد ان أسلم. وكان قد امر الخليفة ان لا يستخدم في الديوان يهودي ولا نصراني. فاتّهى اليه ان ابن زطينا ليس له نظير في الكتابة. فكتب: "مات ابن زطينا، ايش نعمل، نبطل الديوان؟" فأسلم ابن زطينا يومئذ واستعمل. (في، ص ٢٥٢).

مكانة رجالات الدواوين النصارى وتأثيرهم:

(١) - يتبين لنا من العرض التاريخي السابق ان الشرع الاسلامي يحرم من حيث المبدأ تولية المسيحي على المسلم، ولكن الواقع فرض على الدولة اللجوء الى العديد من الكتّاب والوزراء والنصارى. وقد احصينا في بحثنا هذا وحده (٧٥) خمسة وسبعين وزيراً و(٣٠٠) وثلاثمائة كاتباً و(٣١) وواحداً وثلاثين متنفذاً آخر من مثل القائد وصاحب الشرطة والوالي والسفير وما شابه ذلك. ولا شك اننا رغم تحرياتنا الواسعة لم نهتد الى كل ما ذكره المؤرخون، فضلاً عن ان المؤرخين انفسهم لم يأتوا الا على ذكر عدد محدود من أهل الدواوين النصارى حسبما املته عليهم ظروف تاليف كتبهم واهدافها. ومما يسترعي الانتباه انه كان ثمة عائلات اشتهت افرادها الكتابة فتوارثوها ابا عن جدّ مما يضمن لها الاستفادة من الخبرة المكتسبة في الاسرة، فضلاً عن الامتيازات الناتجة عنها.

فمن هذه البيوتات بنو البقري، وبنو زنبور، وبنو زطينا، وبنو سرجون، وبنو العسال، وبنو صماتي، وبنو الموصلايا، وبنو مكانس، وبنو الهيصم، وآل النشو، واسرة ابن العميد والاخوة ابراهيم وبشر وجبر ابناء هارون، وابنا باطا، وايوب بن ابراهيم ابن الجنيد واخوه سليمان، وابن الاشقر وولده، وعبد الرزاق الارضي وابنه عبد الغني، وكاتب المناخ وابنه، وهبة الله ابن السيد ووالده، وآل الطيب، وغيرهم.

(٢) - اما الاسباب التي اوجبت الاستعانة بالنصارى في الدواوين فقد رأينا بعضها: خبرة المسيحيين في الادارة البيزنطية، ومعرفتهم للغات من رومية وسريانية وفارسية وارمنية الى جانب العربية، مما سهل لهم الافادة من غنى الثقافات الاجنبية^(٩)، ولنا عن المامهم بالعلوم على انواعها وتفوقهم على

(٩) راجع ما قيل عن تنوع مواهب عبد الغني بن عبد الرزاق في كتاب شيخو ص ٢٥.

زملائهم المسلمين شهادة طريفة لاحد مؤلفي القرن العاشر جاء فيها ما مفاده: قلما تجد مسلماً يتعاطى الكتابة إلا في طبرية، وما خلاها فكتاب الشام ومصر هم من النصارى لان المسلمين يعولون عليهم لسلامة انشائهم ولانهم - يعني المسلمين - لا يولون العلم كبير شأن على عكس ما هو حال "الاعاجم" ويردف يقولون: معظم الجهابذة والصيارفة والقصارين والدباغين هم يهود، اما الاطباء والكتاب فهم في الغالب من النصارى^(١٠).

والى جانب علم المسيحيين وخبرتهم ثمة اسباب اخرى دفعت السلطات الاسلامية الى استكتابهم واستوزارهم:

كان من الصعب على الخليفة او السلطان محاسبة اعيان موظفيه من المسلمين في حين محاسبة الذمي اسهل. فالمسلم قد يرى في تسمية الخزينة "بمال المسلمين" مبرراً للافادة منها على انها مباحة، فيما لا يتجاسر الذمي على مثل هذا العمل. والمسلم لا يتورع من التدخل في شؤون الحكم والطمع فيه على عكس الذمي وخاصة المسيحي الذي حُرِّم عليه كل اشتغال بسياسة الدولة الاسلامية. روى ماري بن سليمان في تاريخه "بطاركة المشرق" ص ٨٤ ما يلي: "يقول عبيد الله بن سليمان (بن وهب) للخليفة المعتصد معذراً: ما وليت نصرانيا سوى عمر بن يوسف للانبار (...). واعتهدت عليهم لثقتهم لا ميلاً اليهم، ولكن لثقتي بهم. فقال المعتصد: اذا وجدت نصرانيا يصلح لك فاستخدمه فهو آمن من اليهود لان اليهود يتوقعون عود الملك اليهم، وامن من المسلم لانه بموافقته لك في الدين يردم الاحتيال على منزلتك وموضعك، وآمن

(١٠) المقدسي، في كتابه: احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم. ويستشهد نصر الله بتعليق للمستشرق اندريه ميكال على القسم الاول من كلام المقدسي يقول ما تعريه: "هذا المقطع مهم اذ بين ان المسيحيين بعد ان كانوا آخر الممثلين الرسميين للثقافة اليونانية في الشام على عهد الامويين اصبحوا فيما بعد اخلص ممثلي العروبة".

من المجوس لان المملكة كانت فيهم. ووصاه بالاحسان اليهم وخرج مسروراً^(١١).

وعلى نحو ذلك ذكر ابو الحسن هلال الصابئ في "تاريخ الوزراء"^(١٢) ان الوزير علي بن عيسى قال لابي الحسن ابن الفرات لما عُقد مجلس محاكمته بعد وزارته الثانية: "ما اتقيت الله في تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلاً نصرانيا وجعلت انصار الدين وحماة البيعة يقبلون يده ويمثلون امره؟" فقال ابي الفرات: "ما هذا شيء ابتدأته ولا ابتدعته وقد كان الناصر لدين الله^(١٣) قلد الجيش اسرائيل النصراني كاتبه، وقلد المعتضد بالله مالك بن الوليد النصراني، كاتب بدر، ذلك". فقال علي بن عيسى: "ما فعلاً صواباً" قال: حسبي الاسوة بهما وان اخطأ على زعمك، ولعمري انك لا ترى امانتهما ولا تعتقد طاعتهما، فلذلك لا تقتدي بأرائهما ولا ترتضي بافعالهما، ومع هذا فما وجدت لي روحين، اذا مضى احدهما بقي الاخر" قال: "ما اردت بهذا القول؟" قال: "وجدت العباس بن الحسن^(١٤) قد قلد محمد بن داود ابن الجراح ديوان الجيش فطمع في الوزارة وسعى على العباس حتى قتله وخلع امير المؤمنين اعزه الله واجلس عبد الله بن المعتز، فخفت ان يتم عليّ وعلى الدولة ما تمّ منه"^(١٥).

(١١) شيخو: الوزراء والكتاب، ص ٢٧.

(١٢) تاريخ الوزراء، ص ٩، طبعة أصيدروز، بيروت ١٩٠٤.

(١٣) وهو الوزير ابو محمد الحسن البازوري.

(١٤) وزر الخليفة المكتفي وقتل سنة ٩٠٨.

(١٥) تذكر هذه الحادثة بما قيل عن السلطان الاحمر عبد الحميد انه لم يكن ليقبل الطعام مطبوخا الا بيد الراهبات. اطلب كتاب "حياة جرجي حيراثيل البيطار" بقلم مكسيموس شتوي، دير المخلص، صيدا، ١٩٣٧ ص ١١٧.

ومما شفع أخيراً في الركون الى الكتاب المسيحيين احاديث نبوية تبين اهمية دورهم في الدولة الاسلامية. ففي احدها ذكر: "وهم (الاقباط) اعوانكم على عدوكم واعوانكم على دينكم. قالوا: كيف يكونون اعوانا على ديننا يا رسول الله؟ قال: يكفونكم اعمال الدنيا وتفرغون للعبادة" (١٦).

(٣) ولما كانت الدولة في كثير من الاحيان بحاجة الى الموظفين النصارى، يسّر لهم الحكام الوصول الى المناصب، واذا ما اعترض عائق شرعي ذلّوه بفتوى او ارادة سلطانية ويروى في ذلك ان المأمون ولّى على مدينة بورة في مصر عاملاً مسيحياً، فكان اذا جاء يوم الجمعة لبس السواد وتقلد بالسيف والمنطقة وركب برذونا واصحابه بين يديه حتى اذا وافى المسجد وقف عند بابه ودخل خليفته المسلم يصلي بالناس ويخطب للخليفة ثم يخرج اليه (١٧).

وحكي عن الخليفة الفاطمي الحافظ انه اراد ان يولّي بهرام الارمني الوزارة عام ١١٣٤/٥٢٩ "فأخذ يستشير من يثق به في ذلك فلم يُشير به احد عليه، وقيل اولاً: هو نصراني فلا يرضاه المسلمون، والثاني: من شرط الوزير ان يرقى مع الامام المنبر في الاعياد ليزرر عليه المزرة الحاجزة بينه وبين الناس والثالث: ان القضاة نواب الوزراء من زمن امير الجيوش (بدر الجمالي) ويذكرون النيابة عنهم في الكتب الحكمية (١٨) (...) فقال (الحافظ): اذا رضينا نحن فمن يخالفنا؟ وهو وزير السيف. واما صعود المنبر فيستتيب عنه

(١٦) متر، الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٩٠ وهو يشير الى ان هذا الحديث هو مما ادخله الاقباط منذ اول الامر بين سائر الاحاديث.

(١٧) متر، الحضارة الاسلامية ١: ٨٧.

(١٨) معنى البند الثالث انه لا يمكن ان يكون قاضي القضاة - وهو بالضرورة مسلم - نائباً بالوظيفة لمن ليس بمسلم.

قاضي القضاة. واما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة الى ذلك فاستوزره،
والناس ينكرون عليه ذلك" (١٩).

الا انه نادراً ما قلّد النصارى وزارة التفويض - او وزارة السيف - بل
اقتصرت وزارتهم على التنفيذ والقلم (٢٠).

(٤) - وكان الحكام، اذا ما ارادوا تحاشي انتقاد الرعية لتوظيفهم
النصارى، يسعون في دفعهم الى اعتناق الاسلام. وقد رأينا ان كثيرين من
الوزراء والكتّاب استجابوا للدعوة طمعاً بالحصول على منصب او البقاء فيه،
فحسن دينهم الحديد احياناً وساء في اغلب الاحيان. ولم يندر ان أُجبر البعض
على الاسلام كما كان من امر الفخر محمد بن فضل الله. قاله عنه
المقريزي (٢١) "كان في نصرانيته متأهلاً ثم اكره على الاسلام فامتنع وهمّ بقتل
نفسه وتغيّب ايام، ثم اسلم، وحسن اسلامه وابتعد النصارى (...) ولم يخف
على الكثيرين ما في هذه الاهتداءات المزعومة من زوغ وزور فانشد احد
الشعراء متهمهما:

اسلم الكافرون قهراً واذا ما خلّوا فهم مجرمونا
سَلِمُوا من رواح مال وروح فهم سالمونا لا مسلمونا (٢٢)

(٥) - ومهما يكن من امر، فاستكتاب المسيحيين واستوزارهم أولى
اصحاب المناصب منهم جاهاً اكيدا ونفوذاً واسعا.

(١٩) ابن الحسير، اخبار مصر ص ٧٨-٧٩.

(٢٠) للاطلاع على رسوم الوزراء في الملبس والسكن والعمل اليومي والالقباب وسائر شؤون
وظيقتهم: راجع متر - الحضارة الاسلامية ١: ١٤٤-١٥٦ حيث مختصر مفيد لما جاء
باسهاب في صبح الاعشى للقلقشندي.

(٢١) الخطط، ٤: ١٠٩.

(٢٢) ذكره المقريزي في الخطط ٤: ٤٠٤.

مرّ بنا كيف كان الحسين بن القاسم يتودد الى الكتاب النصارى ليصل الى الوزارة. ومما قيل في ذلك الامر ايضا ان الحسين، لما نال مبتغاه، قال للكاتب المسيحي اصطفن بن يعقوب: "انني اذا تقلدت الوزارة فانت قلدتيها"^(٢٣). ومما عرف عن اصطفن هذا انه حصّل من جراء وظيفته مالاً كثيراً بحيث ذكر في المرجع السابق ان رزقه ورزق زميله الكاتب المسيحي عبد الله بن جبير زاداً اضعافاً لما تقلد صاحبهما ابو الحسن علي ابن الفرات الوزارة: "ان رزق ابن جبير لما كان يكتب وهو بين يدي ابن الفرات في مجلس من مجالس ديوان الخراج خمسة وعشرون ديناراً. فلما تقلد ابن الفرات الوزارة بلغ به مائة دينار. وان رزق اصطفن بن يعقوب كان في ايام مؤنس وهو ينوب عن دانيال بن العباس عشرة دنانير، ثم بلغ اربعين ديناراً في وزارة ابن الفرات الثانية فظهر لهما من الحال ما قدّر فيها الف الف دينار". ولم يكن اصطفن وعبد الله في الثراء الا كمثل سواهم في الكتاب.

(٦) - الا ان هذا المال الوافر وذاك النفوذ السافر قد يوليان الثقة المفرطة بالذات واحياناً حب التعاضم والتظاهر، فيسبب ذلك ردات فعل من قبل السلطان او العامة وخيمة العواقب. من هذا انه في سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٢م عَنفَ عين الغزال الكاتب القبطي سمساراً كان له معه مال وامر غلमानه بأن يكتفوه ويسوقوه، فجعل الناس يتشفعون به فلم يأبه لهم. فتكاثروا عليه والقوة عن حمارة وتفاقت الامور وثار القوم ونكب النصارى من جراء ذلك^(٢٤).

ومن هذا ايضا ما رواه ماري بن سليمان^(٢٥) انه في سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م توفيت زوجة ابي نصر بن اسرائيل، كاتب الوزير الناصح،

(٢٣) الصايي، تاريخ الوزراء، ص ١٤٠.

(٢٤) شيخو، الوزراء والكتاب، ص ٣٠.

(٢٥) اخبار فطاركة المشرق، ص ١١٥.

فاعتز بصاحبه واخرجها نهارا من داره ومعها الطبول والنوائح والرهبان والصليبان والشموع، فانكر احد المسلمين ذلك ورجم الجنازة فضربه واحد من الغلمان واختلط الحابل بالنابل وثار المسلمون ونهبوا البيعة التي لجأ اليها المشيعون. والجدير بالذكر ان الناصح دافع عن كاتبه ولم يسلمه الى الخليفة الا مرغماً ثم افرج عنه بعد قليل.

(٧)- فمثل ردات الفعل العنيفة هذه تشير الى ان ثمة حدوداً مفروضة على الوزراء والكتاب المسيحيين، فما هم الا ذميون وعليهم ان لا يخرجوا عما رُسم لهم. مثال ذلك ما حدث لكاتب يدعى على ابن الهيثم الملقب بمجونقه، كان في خلافة المأمون، فانه تجاسر يوما وجلس الى جانب "العرب" أي المسلمين. فانتهره زملاءه الكتاب واضطر الى العودة الى جانب "النبط" أي المسيحيين. فسواء اقترف الكاتب النصراني ذنبا او لم يقترف، يظل موسوماً "بخطية اصلية" هي كونه مسيحياً ناجحاً يثير في قلوب العامة والخاصة مزيجاً من العواطف: الاعجاب بالحسد، فالازدراء، فالحقد. كان العامة وبعض الخاصة يكبرون عند اهل الدواوين المسيحيين كفايتهم واخلاقهم وثرأهم، ولكهم كانوا في الوقت نفسه يعانون من مركب نقص امام هذا التفوق. وخير برهان على ذلك ما عبّر عنه لسان حالهم ابو عثمان الجاحظ في رسالتيه "الرد على النصارى واليهود" و"ذم أخلاق الكتاب" كما وفي كتاب "البخلاء"^(٢٦). ولنا برهان آخر عن هذه المشاعر في الكتيّب الذي ألفه ابو عمرو عثمان النابلسي بعنوان "تجريد سيف الهمّة لاستخراج ما في ذمة اهل الذمة" حيث عدد مثالب الكتاب الأقباط ومعايهم، يريد التشفي منهم والخط من قدر ما كانوا ليلغوه لولا رجحان كفة محاسنهم عن مساوئهم.

(٢٦) حيث الطبيب المسلم اسد بن جاني يشكو عدم ثقة الناس به لأنه ليس بنصراني واسمه أسد لا صليبا وكنيته أبو الحارث لا أبو عيسى.

(٨) - وان كان حسد العامة للموظفين المسيحيين قد شكّل لهم بعض الازعاج وبعض المصاعب احياناً، فان علاقتهم بالسلطان كانت لهم في غالب الاحيان مصدر اخطار جسيمة، ذلك بان حاجة الدولة المستمرة الى المال كانت تدفع الخلفاء الى بذل المستحيل للحصول على ما ينقصها من نقود، فيحاسبون عملاءهم بمنتهى الشدة ويصادرونهم عن حق او غير حق، والويل لمن ساءت ادارته: فانه يُضْرَب بالمقارع ويعاني من الإهانات مرّها ويصلب أو يسمر على مرأى من الجمهور ويموت شرّ ميتة^(٢٧).

أضف الى ذلك حبائل الواشين والحساد الذين يسعون للنيل منهم، كما جرى للوزير المسيحي فهد بن ابراهيم بدسياسة من ابن العداس وابن النحوي في خلافة الحاكم بأمر الله^(٢٨). أو لأبي بشر النصراني وزير محمود بن نصر

(٢٧) وهناك أمثلة كثيرة على ذلك: راجع كتاب وزراء النصرانية وكتّابها في الاسلام، للأب لويس شيخو حققه وزاد عليه الأب كميل حشيمه بيروت - ١٩٨٧ ضمن سلسلة التراث العربي المسيحي رقم ١١.

(٢٨) وشي ابن عداس وابن النحوي بابن العلاء فهد الوزير انه يتلف المال فأمر الحاكم مسعوداً السيفي بان يمضي الى فهد بن ابراهيم الوزير يستدعيه فإذا دخل بحجرته ضرب عنقه وأحضر رأسه. وان يقبض على ابي غالب اخيه وكان شريراً مبغضاً واليه ديوان النفقات. فمضى ووجد فهداً في الحمام فانتظره حتى يخرج ثم استركبه وشاعره انه يراد بخير وانزعج اولاده واهله وساءت ظنونهم فيه. ووصل مسعود الى باب الرهومة وهو باب من ابواب القصر، فعدل به الى محجة العطب، فلما رأى فهد ذلك احسّ بالهلاك فصاح واستغاث وبكى ولاذ بالفرار وبكى الناس لما شاهدوه من حاله وعرفوه من الامر الذي يراد به... وادخله مسعود الى الحجرة فاقسم عليه فهد ان يراجع الحاكم في بابه وبذل الف دينار (...). فقال له مسعود: لا سبيل الى المراجعة بعدما أمرت به فضرِب عنقه واخذ رأسه وحمله الى حضرة الحاكم فلما شاهده امره ان يُخرج راس كل من يقتله من وجوه الدولة الى قائد القواد. فلما رآه سقط مغشياً عليه. وعاد مسعود ليقبض على ابي غالب اخيه فوجده قد هرب فابلق الحاكم ذلك فامر بطلبه حتى ظفر به بعد شهر وغير حليته وحلق لحيته فألحقه بأخيه واحضر اولاد فهد فخلع عليهم وكتب لهم سجلاً بصيانتهم وحماية دورهم وإزالة الاعتراض عنهم وعن أسبابهم...

المرداسي على يد ابي الحسن ابن الثريا^(٢٩) وكانت المخاطر تتهددهم أيضا اذا ما تبدل الحكم، ولا سيما بشكل عنيف فينتقم المتولي الجديد ممن سبقه ويطيح باعوانه فلا يندر ان يؤخذ البريء باثم لم يرتكبه على نحو ما اصاب قدامة بن زيد، وكان كاتباً للقائد التركي ايتاخ في زمن المتوكل. فلما قتل الخليفة ايتاخ سُجن قدامة وسواه من الكتّاب. ناهيك من تصرفات الخلفاء المزاجية كالثي اتصف بها بعض الحديددين منهم، امثال المتوكل، او الغريبي الاطوار كالحاكم.

(٩) - تلك حال وزراء النصرانية وكتّابها في الدولة الاسلامية، هم اشبه بمن يقيم على كف عفريت، قد يناله السعد او ينال منه النحس. او هم كمن استوطن سفح بركان، فالارض فيه خصيبة تبشر بغلال وافرة لمن جدّ في عمله واجاد، بيد ان الفوهة قد تطلق الحمم في ساعة لم يسبقها اخطار فيحلّ الاذى والخراب. وجودهم في الدولة الاسلامية كوجود قومهم في ديار الاسلام، انه تحدّ مستمر للأقدار والذات. فنصيب الاقليات في كل وطن ان تعايش أخطاراً تحقيق بها على أنواع: خطر الموت والزوال تحت الضغوط، خطر التوقع فالانغلاق على الذات والماضي، خطر التعالي إن هي ارتقت الى رفيع

(٢٩) روى ابن العديم في "زبدة الحلب من اخبار حلب" انه "في سنة ٤٦٤ هـ تغيرت اخلاق محمود (بن نصر بن صالح بن مرداوس الذي تولى زمام الدولة المرداسية من سنة ٤٢٤ الى ٤٦٥) (١٠٣٢-١٠٧٣) بعد رحيل السلطان الب ارسلان السلطان السلجوقي الثاني (١٠٧٣+) وتكرّر لاصحابه وتغيّر على وزيره ابي بشر النصراني وكان هو الذي ساعده بماله حتى املك حلب واستجلب العرب اليه. وكان سبب ذلك التبدل ان احد القواد واسمه ابو الحسن ابن الثريا حسد بشرا وسعى به لدى محمود، وكان محمود قد غلب عليه حب المال والدنيا فطالب ابا بشر بمال جليل. ولما عجز عن ادائه امر بقتل ولد له وبقتل اخيه. وتابع ابن الثريا دسيسته فانتزع فرصة اشغال محمود بالشراب فانزع منه الامر بقتل بشر. ولما مثل بشر امام ابن الثريا قال له غير هاب: "يا قائد السوء قد علمت ان هذا كله من سعيك والاجل لا مرد له. وهذا موت الشهداء. لكن استعد لرجلك بحبل فستموت ميتة الكلاب وتجرح جيفتك الى الخندق وهذا ما حصل.

المستويات مالاً وعلماً واخلاقاً كما هي الحال عند اغلبية الاقليات. الا ان هذه الصعوبات التي تترى بها قد تستحيل مراقبة الى الاعلى والاحسن اذا ما صمدت في وجه الضغوط، فتكتسب قوة ومراساً واذا ما انفتحت على الآخرين، فتغني وتغني، واذا ما ابت ان تستكبر لعلمها ورقها وغناها، فتوظف هذه المواهب لصالح مجتمعتها ونموه. مناصب الاسى أتاحت للمسيحيين خدمة بلادهم خدمة حسنت على وجه الاجمال رغم بعض التعثرات، فعسى ان يتابع "كتاب" اليوم و"وزراء" اليوم ما شرع به اسلافهم، ويرتفعوا به الى اعلى الدرجات...

قائمة بأهم الوزراء والكتاب

١- ابراهيم بن أيوب (القرن العاشر) كاتب:

جاء في "صلة تاريخ الطبري": في تاريخ سنة ٣١٦هـ على الوزير ابن مقلة محمد بن علي: " واجلس ابراهيم بن ايوب النصراني كاتب علي بن عيسى (الوزير السابق) بين يديه على رسمه واقره على "ديوان الجهبذة"^(٣٠).

وجاء ذكره في "تحفة الامراء في تاريخ الزوراء" لـهلال الصابي فقال عنه: انه كان كاتباً للوزير ابي الحسن ابن الفرات. وهو من اصحاب الدواوين في وزارة علي بن عيسى يُنفذه الى الخاقاني^(٣١) ...

وقال ابن مسكويه: ان المقتدر في وزارة علي بن عيسى الكلوزاني قلّد العمال ورتب الدواوين واعتمد على ابراهيم بن ايوب في اثبات امر المال

(٣٠) صلة تاريخ الطبري، ص ١٣٥.

(٣١) هلال الصابي، تحفة الامراء، ص ١٣٦.

بحضرته وفي موافقة صاحب بيت المال على ما يطلقه وينفقه في كل يوم، ومطالبة الروزنامجات في كل اسبوع لتعجل معرفة ما حلّ وما قبض^(٣٢)...

٢- ابراهيم بن بُنان (القرن التاسع) كاتب

قال ابن ابي اصيبعة: "لما استخلف المعتصم سنة ٢١٨هـ إختار لنفسه سَلْمَوِيَه الطيب واکرمه اكراماً يفوق الوصف، وكان يَرِد الى الدواوين توقيعات المعتصم في السجلات وغيرها بخط سلمويه، وولّى اخاه ابراهيم بن بُنان اخزن بيوت الاموال في البلاد وخاتمه مع خاتم امير المؤمنين، ولم يكن احد عنده مثل سلمويه واخيه ابراهيم في التركة"^(٣٣).

وقد ذكر ماري بن سليمان ، سليمان واخاه ابراهيم صاحب بيت المال... واختيارهم لابراهيم اسقف المرج... "ولما اختار غيرهم مار آبا مطران جنديسابور اخبر سلمويه المعتصم بالخبر فكتب الى الطاهري صاحب بغداد برّد مار آبا واسيامية ابراهيم فاسيم"^(٣٤).

٣- ابراهيم بن عبد الرزاق (٨٠٨=١٤٠٦) كاتب

قال ابو المحاسن ابن تغري بردي: "ابراهيم بن عبد الرزاق، القاضي الامير سعد الدين بن علم الدين بن شمس الدين الشهير بالغراب، اصله من اولاد الكتبة الاقباط بالاسكندرية، ثم اتصل بخدمة الامير محمود بن علي الاستادار واختص به حتى صار عارفاً بجميع احواله"^(٣٥)...". ولي ذلك سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٥م وعمره ان ذاك دون العشرين سنة... ولما اهلك الملك

(٣٢) ابن مسكويه، تاريخ، ص ٢٥٦.

(٣٣) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ١: ١٦٤-١٦٥.

(٣٤) ماري بن سليمان، تاريخ فطاركة كرسى المشرق، ص ٧٧.

(٣٥) ابو المحاسن ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ص ٧٤٧.

الظاهر برقوق محمود اصار سعد الدين خصيصاً عند الملك الظاهر الى ان توفي وتسلم ابنه الملك الناصر فرج، فخلع عليه وقربه... وكان شاباً جميلاً كريماً جواداً ممدوحاً رئيساً نالته السعادة في مباشرته، وكان يميل الى فعل الخير والصدقة، توفي ليلة الخميس ١٩ من شهر رمضان سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م ولم يبلغ الثلاثين سنة^(٣٦).

٤- ابراهيم بن عدي (القرن العاشر) كاتب

هو الكاتب ابراهيم بن عيد بن حميد بن زكريا، شقيق المنطقي الشهير يحيى بن عدي. وقد تتلمذ ابراهيم هذا للفارابي واضحى من المقربين الادنين اليه ودون له تصانيفه. ولم يكن على اتفاق دائم مع اخيه يحيى في الآراء الفلسفية على ما جاء في القفطي^(٣٧). ومما ذكره صاحب "تاريخ الحكماء" ان يحيى ألف في ما ألف "مقالة بينه وبين ابراهيم بن عدي الكاتب" بها يناقضه في ان الجسم جوهر وعرض^(٣٨).

٥- ابراهيم بن قروينه (علم الدين) ١٣٦٩+ وزير

هو ابراهيم بن قروينه الملقب بالخليق، وهو اخو ماجد بن قروينه. تولى الوزارة في ذي القعدة ١٣٦٨/٧٦٩ ثم عُزل في ٨ ربيع الثاني عام ١٣٦٩/٧٧٠. واعيد تعيينه في الوزارة في ٤ رمضان ١٣٦٩/٧٧٠ فاستقال في ١٨ محرم ١٣٦٩/٧٧١ وتوفي في السنة نفسها^(٣٩).

(٣٦) لويس شيخو، وزراء النصرانية وكتابتها، ص ٤٩.

(٣٧) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٦٣.

(٣٨) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٦١.

(٣٩) لويس شيخو، وزراء النصرانية، ص ٥٠.

٦- ابراهيم بن نوح الانباري (القرن التاسع) كاتب

كان كاتباً لابراهيم بن المهدي على ما ذكره الجهشيارى في مصنفه "كتاب الوزراء والكتاب" واخبر ماري بن سليمان: انه وكل اليه اختيار مرشحين لمنصب الجاثليق^(٤٠).

وهو والد ابي نوح عيسى الانباري كاتب الفتح بن خاقان، وحفيد ابي نوح عبد المسيح الانباري^(٤١).

٧- ابراهيم بن هارون (القرن التاسع) كاتب

كان كاتب محمد بن عبد الله بن طاهر والي العراق ايام المتوكل. نهبت داره ودار اخيه الكاتب بشر بن هارون في بغداد عام ٢٤٩هـ/٨٦٣م^(٤٢).

٨- ابراهيم بن يوحنا (القرن العاشر) كاتب جهيد

ورد في تاريخ الوزراء للصائى، ان المحسن ابن الفرات أخذ منه خطأ بمال صادره به في ايام الراضى بمائة الف دينار، وكان ابراهيم جهيد (محصل الضرائب) حامد بن العباس (الذي قتل وصودر بالف الف وثلاثمائة الف دينار)^(٤٣).

٩- ابراهيم الوزير (٧٨٩هـ/١٣٨٨م)

شمس الدين، كاتب أرنا، قال ابو المحاسن ابن تغري بردي: "ابراهيم الوزير شمس الدين المعروف بكاتب ارنا ووزير الديار المصرية. قال الشيخ

(٤٠) الجهشري، الوزراء والكتاب، ص ٣١٢.

(٤١) ماري بن سليمان، فطاركة المشرق، ص ٧٨.

(٤٢) ابن العبري، تاريخ الدول السرياني في المشرق ٤٥ (١٩٥١) ص ٤٤.

(٤٣) الصائى، تاريخ الوزراء، ص ٢٢٦.

تقي الدين المقريري: كان اصله من نصارى مصر، وظهر الاسلام، وخدم في دواوين الامراء حتى تعلّق بخدمة الملك الظاهر برقوق وهو امير، فولّاه نظير ديوانه ثم فوّض اليه الوزارة لما تسلطن، فنفذ الامور ومشى الاحوال احسن تمشية الى الغاية مع وفور الحرمة ونفوذ الكلمة والتقليل في الملبس وسائر اسبابه... توفي في ليلة الثلاثاء ١٦ شعبان سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٨م بالقاهرة^(٤٤).

١٠-١١ إينا باطا (القرن العاشر)

كانا كاتبين مسيحيين مسؤولين عن ادارة مدينة داقوق وكانا ظالمين يعتنان الناس، المسلمين منهم والنصارى، فلما مرّ قائد الجيش البغدادي جبرائيل بن محمد بالمدينة في طريقه لمحاربة البيزنطيين، شكا الاهلون امرهم اليه، فقبض على المستبدّين واهلكهما. وكان ذلك في آذار-نيسان عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م^(٤٥).

١٢- ابن البشري (سعد الدين ابراهيم بن بركة)

(٧٦٦-٨١٨هـ/١٣٦٥-١٤١٥م)

قال ابن تغري بردي: "توفي الوزير صاحب سعد الدين ابراهيم بن بركة المعروف بابن البشري بالقاهرة في يوم الاربعاء رابع عشر من صفر، ومولده في ليلة السبت سابع ذي القعدة سنة ٧٦٦هـ بالقاهرة. وكان معروفا من رؤساء الاقباط نُقل في عده وظائف الى ان ولي الوزارة غير مرة ونظر الخاص^(٤٦).

(٤٤) لويس شيخو، وزراء النصرانية، ص ٥٢.

(٤٥) بابو اسحق، احوال نصارى بغداد، ص ٢٢٥ قناتى، المسيحية والحضارة، ص ١٤٠.

(٤٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص ٤٥٠.

١٣- ابن حاجب قيصر (اوائل القرن ١٣)

كاتب مسيحي، كان متنفذاً لدى الخليفة الناصر لدين الله العباسي بحيث ان العالم ابا عبد الله محيي الدين أحمد ابن فضلان رفع عريضة الى امير المؤمنين يحتج بها، فيما يحتج، على تصرفات ابن حاجب قيصر الذي بدّل بين الموظفين واحلّ المسيحي جبريل ابن زطينا مكان الفقيه المسلم مهرز.

وورد ذكره ايام الخليفة المستنصر بالله العباسي (١٢٢٦-١٢٤٢) إذ استعمل نفوذه ليحلّ المسيحي هبة الله ابن زطينا محل ابيه جبريل الذي اسلم، فجعل هبة الله كاتباً للسكة سنة ٦٣١هـ/١٢٣٢م.^(٤٧)

١٤- منصور بن سرجون (اواخر القرن ٦ و اوائل القرن ٧)

كان كاتباً مسيحياً، قال يحيى الانطاكي في تاريخه "الذيل" انه كان عاملاً على الخراج، أي رئيساً لديوان المال، و اواخر القرن السادس بدمشق في ايام الدولة البيزنطية. وانه هو الذي سلّم دمشق الى خالد بن الوليد عام ٦٣٥م/١٤هـ. ويبدو ان تسليمه هذا لم يكن عن خيانة بقدر ما كان عن رغبة في التخلص من المستعمر البيزنطي، وكان من جراء ذلك ان نالت المدينة الأمان. ولما تولى يزيد بن ابي سفيان دمشق، ثبت منصور بن سرجون في سابق وظيفته وجعله من مواليه^(٤٨).

١٥- سرجون بن منصور (اواخر القرن السابع)

كاتب مسيحي. جاء في "العقد الفريد" من نبل بالكتابة سرجون بن منصور الرومي، كاتب لمعاوية ويزيد ابنه ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان، الى ان امره عبد الملك بأمر فتوانى فيه ورأى منه عبد الملك بعض

(٤٧) شيخو، وزراء النصرانية، ص ٦١-٦٢.

(٤٨) دائرة المعارف، ٣: ١٦٦-١٦٧.

التفريط فقال لسليمان بن سعد كاتبه على الرسائل: ان سرجون يدلّ علينا بصناعته واظن انه رأى ضرورتنا اليه في حسابه، فما عندك من حيلة؟ فقال: بلى، لو شئت لحوّلت الحساب من الرومية الى العربية. قال: إفعل، قال: انظرني اعاني ذلك. قال: لك نظرة ما شئت. فحوّل الديوان^(٤٩).

١٦- منصور بن سرجون بن منصور (نحو ٦٥٥-٧٤٩)

هو القديس يوحنا الدمشقي. كان كاتباً للخلفاء الامويين كما اتفق عليه المؤرخون مثل ابن النديم والمقرئزي وسواهما. ومما قاله ميخائيل السمعاني الانطاكي في ترجمته ليوحنا الدمشقي انه "بعد ذلك توفي منصور (يعني سرجون) وصار ابنه يوحنا كاتباً لأمير البلد متقدماً عنده، صاحب سره وجهره وامره ونهيه". ثم ان منصور بن سرجون تخلّى عن وظيفته كهلاً وترهب في دير القديس سابا بفلسطين^(٥٠).

١٧- ابن الطرغال (+٤٤٩هـ/١٠٥٧م)

هو ابو نصر يوحنا، كاتب، ورد ذكره في تاريخ ماري بن سليمان قال: انه كان كاتباً من اهل دار الروم (حي من احياء بغداد) وان ايليا الجاثليق (١٠٢٨-١٠٤٩) اسامه في المداين اسقفا على القصر والنهروانات. كان قديماً يخدم ابا الحارث البساسيري أحد اصحاب الجيوش ببغداد ويلتجئ اليه. نصبه جاثليقا رفيقه في الديوان ابو الحسن بن عبيد. وبعد سبع سنين واشهر توفي سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م^(٥١).

(٤٩) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢: ٢١١.

(٥٠) ميخائيل سمعان الانطاكي، سيرة القديس يوحنا الدمشقي، حريصا، ١٩١٢.

(٥١) ماري بن سليمان، فطارقة المشرق، ص ١١٨-١١٩.

١٨- ابن غسان (القرن العاشر)

كاتب مسيحي. ذكره القفطي ودعاه ابا الحسن (ويروى الحسين) بن غسان الطبيب البصري^(٥٢).

وذكره ماري بن سليمان فكنّاه بابي علي بن غسان، وروى هناك نصرانيته (كان نسطوريا) وما انفقه لبناء دير مار فثيون في بغداد عام ٣٤٣هـ/٩٥٣م. وقال ثمة انه كان كاتباً لركن الدولة بن بويه (ت ٩٧٦م)^(٥٣).

١٩-٢٠ ابنا الفرّخان (القرن العاشر)

هما ابو بشر عبد الله وابو عمرو سعيد. ذكرهما الصابئ بقوله: ابا عمرو وسعيد، وابا بشر عبد الله كعاملين او كاتبين للوزير ابي الحسن علي ابن الفرات في وزارته الاخيرة. وذلك ايضاً ابا عمرو سعيد ابن الفرّخان النصراني وابا بشر عبد الله اخاه في جملة الذين كانوا يُدْعَوْنَ كل يوم الى طعام ابن الفرات، مع وصف الطعام وآداب المدعوين.

وذكر الصابئ قصة جميلة جداً يخبر فيها ابو عمرو سعيد ابن الفرّخان كيف استتر يوم توفيق ابن الفرات بعد وزارته الثانية، وكيف خلّصه رجل مُزَيّن واکرمه ولم يقبل تعويضاً عن فعله ومروءته، وروى راي ابي بشر عبد الله لابن الفرات ليمتنع عن تأدية ٢٠٠,٠٠٠ دينار للخليفة المقتدر^(٥٤).

(٥٢) القفطي، تاريخ الاطباء، ص ٤٠٢.

(٥٣) مارين بن سليمان، فطاركة كرسي المشرق، ص ٥٦.

(٥٤) الصابئ، تاريخ الوزراء، ص ١٦١ و ٢٠٥ و ٢٤٠ وايضاً ص ٢٠٥-٢٠٧.

٢١- أبو علي الخازن (القرن العاشر)

جاء ذكره في تاريخ ماري بن سليمان. كان في أيام الخليفة المطيع ومعز الدولة بن بويه وروى نفوذه في انتخاب الجاثlique. كان في خدمة معتز الدولة يطلب مشورة الجاثليق عمانوئيل. يموت قبل معتز الدولة بقليل. وقد ذكره ايضا في مكان آخر ودعاه "ابن علي الخازن" (٥٥).

٢٢- ابو غالب ابن الاصباغي (القرن الحادي عشر)

كاتب مسيحي اسلم. قال عنه عماد الدين الاصفهاني في "فريدة القصر": "هو تاج الرؤساء أبو غالب بن الاصباغي الكاتب. كتب بديوان النعام في بعض الايام المستظهيرية. وناب عن ديوان الذمام في أيام الخليفة المقتدي، وله تصنيف في علم الكتابة، وجماعة الحساب، وكتاب العراق يكتبون الحساب في طريقته. وأسلم في صفر سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م قبل اسلام ابن موصلايا بيوم، حيث خرج التوقيع الشريف بالزام اهل الذمة بالغيار، وكان من بركات ذلك اسلامهم". وهو أخو ابو طاهر بن الصباغي الكاتب (٥٦).

٢٣- أبو الفتح بن داود (القرن الثاني عشر)

كان كاتباً نسطوريا في بغداد على عهد الخليفة المسترشد بالله (١١١٨-١١٣٥م) حلّ البطريك برصوما الاول ضيفا عليه لما جاء الى بغداد ليسام جاثليقا في أوائل آب ١١٣٤ (٥٧).

(٥٥) ماري بن سليمان، فطاركة كرسي المشرق، ص ٩٨ و ٩٩ و ٨١.

(٥٦) دائرة المعارف ٥: ١٢. قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، ص ١٤٠.

(٥٧) هذا ما رواه الاب جون فييه، اشور المسيحية، ص ٢٣٤ ولكنه لم يورد مصدره (شيخو، وزراء النصرانية، ص ١١٣).

٢٤- ابو نصر بن اسرائيل (اواخر القرن ١٠ واول القرن ١١)

كان كاتباً للناصح (ابو طاهر محمد ابن البقية) تقلد الوزارة سنة ٩٧٣ ولقب فيما بعد بنصر الدولة. بايام الجاثليق يوحنا ابن نازوك (١٠١٢-١٠٢٠). ورد في تاريخ ماري بن سليمان: انه لما توفيت زوجته "اعتز بصاحبه واخرجها نهراً من داره يريد دار الروم والصلاة عليها، فثار المسلمون ورجعوا التابوت (...) ونهبوا وفتحوا البيع وهرب النصارى لهيحة سائر الاسواق (...). عرض عليه الاسلام فأبى^(٥٨).

٢٥- ابو نوح الانباري (اواخر القرن ٨ واول القرن ٩)

هو بعد المسيح. ذكره ابو البركات في "مصبح الظلمة" بين مشاهير الكتبة فقال: "مسائل واجوبة في معاني الاعتقاد" لعبد المسيح، يعرف بابن نوح.

كان كاتباً لوالي الموصل في عهد طيموثاوس الجاثليق المعروف بالكبير، وهو يثني عليه برسائله سنة ٧٩٠ و٨٠٥. له كتاب فندّ فيه القرآن وردّ على الهرطقة^(٥٩).

وورد ذكره ايضاً في تاريخ ماري بن سليمان، قال: ان أبا نوح الانباري كان كاتباً لابي موسى بن مصعب والي الموصل (نحو السنة ٧٨٠م) يعضد الجاثليق طيماثاوس لِيُنتَخَبَ بطرڪاً^(٦٠) ويسعى في تنصيب طيماثاوس جاثليقاً.

(٥٨) ماري بن سليمان، فطاركة المشرق، ص ١١٥. ابن العبري، تاريخ الدول السرياني في المشرق، ٤٥ (١٩٥١) ص ١٩٠-١٩١. آدم متر، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ١: ٨٨-٨٩.

(٥٩) السمعاني، المكتبة الشرقية، ٣: ٨٢، ٢١٢، ١٦٤.

(٦٠) ماري بن سليمان، فطاركة كرس المشرق، ص ٧٢.

٢٦- عيسى ابو نوح الانباري (القرن التاسع)

هو ابن ابراهيم بن نوح الانباري كاتب ابراهيم بن المهدي. كان في خدمة الفتح ابن خاقان في خلافة المتوكل (٨٤٧-٨٦١) مات مقتولاً هو وصاحبه احمد بن اسرائيل في خلافة المعتز بعد ان ضربا بالمقارع ٥٠٠ ضربة، ويروى ان الجلادين غاظهم ثبات ابي نوح على دينه فصاحوا به: "وتبقى على دينك يا نصراني"^(٦١).

٢٧- اثناسي بن جومية (اواخر القرن السابع)

يعد آل جومية (جوميا) م اشهر الاسر الرهاوية السريانية دام ظلهم بين ٦٨٥-٨٠٤م. وكان قطبها الاعلى الشيخ الرئيس اثناسي (اثناسيوس) الذي كتب سيرته المؤرخان ميخائيل الكبير وابن العبري والرهاوي المجهول نقلاً عن تاريخ ديونوسيوس الاول التلحري الذي نقل عن تواريخ جدّه لامة دانيال بن شموئيل الطورعديني وكان معاصراً للمترجم^(٦٢) على ما يأتي باختصار:

كان اثناسيوس رجلاً حكيماً ذو غيرة على الايمان، انتشر صيته في الاقطار حتى وصل الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥) فاستقدمه اليه ولما عرف كفاءته جعله كاتباً ومدبراً لاختيه عبد العزيز بن مروان عندما أقرّه على أمرة مصر، واطلق يده في تدبير الولاية فكان اليه توزيع الخراج وعهد الى اولاده ادارة بلاد غوندا (كذا) واطهر في الامر وفاء واضطلاعاً وانصرف الى احسن سياسة فحمد اثره وكبر شأنه واصاب ثروة طائلة، واقتنى اربعة آلاف عبد وقصوراً وقرى وبساتين ومالا جماً من الذهب والفضة، فكان الامير يجزل له الاموال والصّلات وكان مقطوعاً على كل

(٦١) الطبري، تاريخ ٣: ١٤٦٢، ٣: ١٧٠٦، ٧: ٦٠١، ٩: ٢٢٨...

(٦٢) ميخائيل السرياني ٢: ٤٤٧-٤٤٩، ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، ص ١١٢-

١١٣. تاريخ الرهاوي المجهول، ١: ٢٩٤-٢٩٥.

جندي من الجيش المصري البالغ ثلاثين الفا ان يؤدي لأولاده ديناراً ديناراً سنوياً عند قبضه راتبه وذلك مدة عشرين سنة. وبعث ابنه الأكبر بطرس إلى الرها للنظر في أملاكه فيها فأنشأ له أربع مائة دكان وتسعة خانات وأمر فبني من دخلها بيعة فخمة باسم والده الإله وقيل أنه جدد لها. وابتنى في مدينة القسطنطينية بمصر هيكلين عظيمين، وبني بمصر عدة ديورة وكنائس.

وحكى كاتب سيرة يوحنا الثالث بطريرك الاسكندرية القبطي (٦٧٧-٦٨٦) قال: "ان الخليفة مروان جعل لابنه عبد العزيز امير مصر كاتبين مؤمنين ارثذكسيي من خيار الناس على جميع كورة مصر ومربوط ولوية اسم احدهما اثناسيوس الرهاوي وكان له ثلاثة اولاد. والآخر اسمه اسحق هو وولده من اهل شيراتي (من اقباط مصر) وكان اثناسيوس متولي الديوان وكان مراعي آخر البيع" (٦٣).

فلما مات الامير عبد العزيز برح اثناسيوس وولده مصر وجاء دمشق من اهله وحاشيته وامواله وكان سرجيس بن منصور الرومي الملكي المذهب (والد يوحنا الدمشقي) كاتب الخليفة قد وشى به حسداً إلى الملك بقوله: "لقد جرف ابن جوميه كنوز مصر مستأثراً به لنفسه" غير انه لما دخل اثناسي على الخليفة قابله بطلاقة وجه وأنسه وقال له: "اننا لا نرضى ان يكون هذا المال كله لنصراني فاعطنا منه سهماً" ففعل الرجل مختاراً واعطاه حتى اكتفى وفضل له شيء عظيم وافر جداً. اما كاتب سيرة البطريرك يوحنا وخلفائه المذكور آنفا فروى ان الخليفة قبض على المترجم وحاسبه وصادره على المال الذي كسبه بمصر بحجج تعلق فيها عليه؟ على ان رواية مؤرخي السريان اثبت واصح وذلك واضح من ثراء هذا الرجل العظيم.

(٦٣) راجع تاريخ بطاركة الاسكندرية للاقباط نشره ايفيش في باريس سنة ١٩٠٤، ص ١٢ و ٤٨ و ٥٤.

فلما عاد اثناسي الى وطنه بنى بيتا بديعا للمعمودية المقدسة ووضع فيه صورة السيد المسيح التي ارسلها المخلص الى ابجر الملك. وجعل له مجاري مياه مثلما صنع اموزينس الاسقف (؟) في كنيسة الرها القديمة ودبّجه بالذهب والفضة المطعمة بالنحاس.

وقد روى ميخائيل الكبير في حولياته هذه الاخبار، ولعله اقتبسها من التلمحري.

٢٨- اسحق بن يحيى ابن شريح (٩١٣-٩٨٧م)

كاتب مسيحي. ورد في "معجم الادباء": "اسحاق بن يحيى ابن شريح ابو الحسين النصراني، ذكره محمد بن اسحاق النديم وقال كان جيد المعرفة بأمر الدواوين والخراج ومناظرة العمال، وله معرفة تامة بالنجوم، ومولده في شعبان سنة ٣٠٠هـ (٩١٢م). قال: وهو يحيى. قال: وله من الكتب "الخراج الكبير" في الف ورقة، جزأه جزئين وجعله ستة منازل، كتاب "الخراج الذي في ايدي الناس" مائتا ورقة، كتاب "الخراج الصغير"، نحو مائة ورقة، كتاب "جمل التاريخ".

وقال ابن النديم: "ابن سريح، في زماننا، ويحيا الى وقتنا، واسمه اسحاق بن يحيى بن سريح النصراني، ويكنى ابا الحسين، حسن المعرفة بامور الدواوين ومناظرة العمال وصناعة الخراج، وله كتاب "الخراج الكبير" جزئين، كتاب "الخراج الصغير" وجعله منازل، كتاب "علم المؤامرات بالحضرة" كتاب "تحويل سني الموالي" نحو مائة ورقة، كتاب "جمل التواريخ" جمعها^(٦٤).

(٦٤) كحالة، معجم المؤلفين ٢: ٢٣٩، دائرة المعارف ٣: ٢٦١.

٢٩- اسحاق الوكيل (القرن العاشر)

كاتب مسيحي. كان من القيمين على بيت الخليفة في أيام المتقي (٩٤٠-٩٤٤) والمستكفي (٩٤٤-٩٤٦)^(٦٥).

٣٠- اسرائيل (ابو الفرج بن عيسى) (القرن العاشر)

كاتب مسيحي، ذكره ابن مسكويه في تاريخه^(٦٦) وقال انه كان كاتباً للوزير ابي العباس الخصبي.

ذكر ماري بن سليمان، دخوله على الجاثليق يوم السليحين نحو السنة ٣٢٣هـ/٩٤٣م، ولعله هو اسرائيل النصراني صاحب الجيش.

ذكر ابن الحسن هلال الصابي^(٦٧)، ان علي بن عيسى قال لأبي الحسن ابن الفرات، لما عُقد له مجلس محاكمته بعد وزارته الثانية: "ما اتقيت الله في تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلاً نصرانياً وجعلت أنصار الدين وحمة البيضة يقبلون يده ويمثلون فقال ابن الفرات: "ما هذا شيء ابتدأته ولا ابتدعته، وقد كان الناصر لدين الله (هو غير الناصر لدين الله الخليفة العباسي. هو الوزير ابو محمد الحسن البازوري) قلّد الجيش اسرائيل النصراني كاتبه، وقلّد المعتضد بالله ملك بن الوليد النصراني، كاتب بدر ذلك"^(٦٨). فقال علي بن عيسى: "ما فعلا صوباً" قال: "حسي الاسوة بهما وان اخطأ على زعمك. ولعمري انك لا ترى امانتهما ولا تعتقد طاعتهما، فلذلك لا تقتدي بآرائهما ولا ترتضي بافعالهما. ومع هذا فما وجدت في روحين، إذا مضى احدهما

(٦٥) شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٢٩.

(٦٦) ابن مسكويه، تاريخ، ص ٩٣.

(٦٧) ماري بن سليمان، فطاركة كرسى المشرق، ص ٩٣.

(٦٨) شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٣٠.

بقي الآخر". قال: "ما اردت بهذا القول؟" قال: "وجدت العباس بن الحسن قد قلد محمد بن داود ابن الجراح ديوان الجيش فطمع في الوزارة وسعى على العباس حتى قتله وخلع امير المؤمنين اعزّه الله واجلس عبد الله بن المعتز فحفت ان يتم علي وعلى الدولة ما تم منه"^(٦٩).

٣١-اصطفان بن يعقوب (اوائل القرن العاشر)

ذكره ابو الحسن هلال الصايغ في "تاريخ الوزراء"^(٧٠) قال ان ابن الفرات "اخذ من بيت المال القلعة الف الف دينار واطلق منها لعبد الله بن جبير (ت ٩٢٤) مائة الف دينار، ولاصطفن بن يعقوب كاتب بيت مال الخاصة وخليفة دانيال بن العباس كاتب مؤنس الخادم الملقب بالمظفر مائة الف". قال: "ان رزق ابن جبير لما كان يكتب وهو بين يدي ابن الفرات في مجلس من مجالس ديوان الخراج خمسة وعشرين ديناراً. فلما تقلد ابن الفرات الوزارة "بلغ به مائة دينار، وان رزق يعقوب بن اصطفن (كذا) كان في ايام مؤنس وهو ينوب عن دانيال بن العباس عشرة دنائير. ثم بلغ اربعين ديناراً في وزارة ابن الفرات الثانية فظهر لهما من المال ما قدر فيها الف الف دينار".

وقال ابن مسكويه في تاريخه^(٧١): "اصطفن بن يعقوب كاتب مؤنس، وله يقول الخطير الحسين بن القاسم الوزير: انني اذا تقلدت الوزارة فانت قلدتنها".

(٦٩) ومما جاء عن اسراييل بن عيسى انه كتب لليقطاني ولعله محمد بن علي اليعقوبي المتوفي سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م.

(٧٠) ابن مسكويه، تاريخ، ص ٣٥٢.

(٧١) لويس شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٣٨.

٣٢- باسيل (+٨٢٩م)

كان كاتباً من مدينة "بَلَد" (تقع قرب الموصل) له مداخلات في الشؤون القضائية وتحصيل الضرائب. وكان يؤخذ عليه تكبره وصلفه وعدم اعتداله في معالجة الامور. وكان يتعالى على المسيحيين والمسلمين على حد سواء حتى انه فرض الضرائب على المسلمين انفسهم مما دفعهم الى الثورة ورفع الشكاية الى الخليفة، فانهمزم باسيل واختبأ في دير عين قنايا قرب مسقط رأسه "بَلَد" وما عثم ان توفي سنة ٨٢٩م^(٧٢).

٣٣- جبرائيل بن بختيشوع بن جورجيس (+٢١٣هـ/٨٢٨م)

هو سليل آل بختيشوع الاطباء المشهورين. ادخله أبوه في خدمة جعفر البرمكي فاحبه حبه لنفسه وكان لا يصبر عنه ساعة. ولما قُتل جعفر جعله هارون الرشيد رئيساً على جميع اطبائه وحظي جبرائيل لديه بنعمة وافرة وخدمه ٢٣ سنة. ومن بعد الرشيد خدم الامين ابنه، وكان الامين لا يشرب ولا ياكل الا باذنه، وجعله كاتبه الخاص. ومما يحكى عن نفاذ كلمته عند الخلفاء انه توسط عدة مرات لدى الرشيد لموازرة طيماثاوس البطريق (+٨٢٣) في مشاكل اعترضته فكان له فيها خير معين. واستطاع ايضاً ان يوقف امراً كان الخليفة أصدره عام ٨٠٧ بهدم كنائس الاديار المتاخمة لبلاد الروم، كما حمله على العدول عن قراره بفرض الزنار والثياب المميزة على الذميين^(٧٣).

(٧٢) لويس شيخو، وزارة النصرانية، ص ١٣٩.

(٧٣) شيخو، علماء النصرانية، ص ١٢٢-١٢٤.

٣٤- الحارث بن بختيشوع (القرن الحادي عشر)

هو ابو سعيد الحارث بن بختيشوع الخازن. كان كاتباً رفيع المنزلة واليه وُكِّل تشييد بیمارستان میافرقین وجامعها سنة ٤١٤هـ/١٠٢٣م. وهو غير ابي سعيد عبيد الله بن جبرائيل بن بختيشوع الطبيب المشهور صاحب "الروضة الطبية" الذي اقام بمیافرقین وتوفي عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م^(٧٤).

٣٥- بشر بن عبد الله الانباري (اوائل القرن العاشر)

هو أبو نصر. ورد ذكره في "تحفة الامراء في تاريخ الوزراء"، ومن قوله يؤخذ انه كان كاتباً لمفلح الخادم وصاحب الوزير حامد بن العباس وخليفته ومختصاً ببني الفرات^(٧٥).

وقال عريب القرطبي في تاريخ سنة ٣١١هـ/٩٢٣م: "ان الامر في عهد ابن الفرات كان كله الى ملح الخادم الاسود والى كاتبه النصراني المعروف ببشر بن عبد الله بن بشر وكان محبوباً"^(٧٦).

وقال ابو الحسن هلال الصابي، انتشيت بين أبي القسم الحواري (الساعي في خلاص ابي الحسن ابن الفرات) وبين ابي نصر بشر بن عبد الله النصراني الانباري كاتب مفليح الخادم مودة "وترددت مراسلة، ثم جمع بينهما ابو سهل نثر بن علي الطبيب النصراني كاتب المحسن في دار بين القصرين على شاطئ دجلة"، فوعده المحسن "بثلاثة آلاف دينار والـف وخمسمائة دينار في كل يوم اذا اطلق اباه ابا الحسن واستوزره وسلم اليه حامد بن العباس (...). وكتب بذلك رقعة سلمها الى بشر بن عبد الله كاتب مفليح ... فبلغها

(٧٤) شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٣٨.

(٧٥) هلال الصابي، تحفة الامراء، ص ٢٤٣.

(٧٦) القرطبي، صلة تاريخ الطبري، ص ١١١-١١٢.

مفلح مع زيدان القهرمانه الى الخليفة المقتدر... فبعد ان رضي ابو الحسن بتلك الشروط اعاده المقتدر الى الوزارة سنة ٣١١هـ/٩٢٣م^(٧٧).

٣٦- بشر بن هارون (منتصف القرن التاسع)

هو ابو نصر. كان ايام الخليفة المستعين بالله (٨٦٢-٨٦٦)، وكان كاتباً لحمد بن عبد الله الطاهري والي خراسان وطبرستان والري وسائر المشرق. وهو اخو جبر بن هارون، وابراهيم بن هارون وكلاهما كان كاتباً. وانهتبت دراه عام ٢٤٩/٨٦٣. وهو غير بشر بن هارون بن جملا (ابن الجمال) والمتوفي عام ١٠٠٩. وقد غلط شيخو في كتابه "شعراء النصرانية بعد الاسلام" فجعل منهما شخصاً واحداً غير متنبه الى تضارب التواريخ في النصوص التي اوردها، وعلى شيخو عول قنواتي فجاء كلامه مغلوطاً ايضاً^(٧٨).

٣٧- بشر بن علي (اوائل القرن العاشر)

هو ابو نصر الكاتب المسيحي. ذكره ابن مسكويه في تاريخه^(٧٩): كما وذكره ابو الحسن هلال الصايغ وقال انه كان صاحب الوزير حامد بن العباس وخليفته^(٨٠)... وقال: "ان ابا نصر بشر بن علي خليفة حامد ببغداد ختم جميع الدواوين"^(٨١) يوم قبض المقتدر علي أبي الحسن ابن الفرات سنة ٣٠٦هـ (٩١٨م) وروى، ان بشر بن علي كاتب حامد كان صديقا لابي علي ابن هبنتي القنائي ولاخيه أبي يعقوب وان المحسن بن ابي الحسن ابن

(٧٧) هلال الصايغ، تاريخ الوزراء، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٧٨) شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٤٢. شيخو، شعراء النصرانية، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٧٩) ابن مسكويه، تاريخ، ص ١٢٧.

(٨٠) هلال الصايغ، تاريخ الوزراء، ص ٢٤٣.

(٨١) هلال الصايغ، تاريخ الوزراء، ص ٣٣.

الفرات لما صارت الوزارة للمرة الثالثة لابن الفران (ابا الحسن علي بن محمد ابن الفران) (ت ٩٢٤م) طلب بشراً مستقصياً أمره "لكنه كان استتر واخفى نفسه" (٨٢) ثم يخبر ابن هبتي ما كاتب به بشراً في حق المحسن وجواب بشر دون تحفظ، ثم كيف جرى التفتيش في بيت ابن هبتي ونقل الاوراق في المحسن وفي جملتها رقعة الى بشر... وكيف وقعت تلك الرقعة مصادفة في يد صهر ابن هبتي فألقاها في الكنيف (٨٣).

٣٨- بشر بن هارون ابن الجمال (١٠٠٩م)

هو ابو نصر الكاتب. وهو غير بشر بن هارون الذي مر ذكره. وهو بغدادى عاش في أواخر القرن العاشر وكان من كتاب الدولة ايام الخليفة المطيع (٩٤٦-٩٧٤) والخليفة الطائع لله (٩٧٤-٩٩١) والخليفة القادر بالله (٩٩١-١٠٣١). ومما عُرف به شعره اللاذع، كان يرشق به الرؤساء والوزراء. فقد روى له التتوخي ابياتاً هجا بها سنة ٩٧٠ أبا الفضل العباسي بن الحسين الشيرازي، فانتقم العباس لما اعيد الى الوزارة بعد غيابه عنها فترة وفرض على اهل الذمة وكنائسهم ضريبة خاصة وهجا بشر سابور بن ازدشير وزير شرف الدولة بن عضد الدولة بن بويه (٢٤٧هـ/١٠٢٥م) فقال فيه:

سابور ويحك ما اخسّك ما اخصّك بالعيوب
واكد وجهك بالشناءة للعيون وللقلوب
وجه قبيح في التبسّم كيف يحسّن في القطوب

وهجا ايضاً محمد المهلبى الوزير وابراهيم الصايى، واما رفاة بن كامل أحد أخوان قاضي بغداد للسواد (٨٤).

(٨٢) هلال الصايى، تاريخ الوزراء، ص ١٥٩-١٦١.

(٨٣) شيخو، وزارة النصرانية، ص ١٤٢.

(٨٤) شيخو، شعراء النصرانية بعد الاسلام، ص ٢٦٢-٢٦٣ و ٣٩١.

٣٩- بطرس (اواخر القرن السابع)

والي مسيحي، كان والياً للصعيد في أيام عبد العزيز بن مروان الأموي حاكم مصر (ت ٧٠٤م) وقد اضطر الى اعتناق الاسلام لما اضطهد عبد العزيز هذا المسيحيين. ذكر الخبز ساويروس بن المقفع في كتابه "سير البيعة"^(٨٥).

٤٠- بنان بن بنان (القرن العاشر)

أبو الفضل، كاتب مسيحي. كان كاتباً للوزير عبد الله بن محمد الخاقاني، كما يؤخذ من كتاب "تحفة الامراء" ويدعى هناك أبا الفضل بنان بن بنان^(٨٦).

وجاء في تاريخ عريب القرطبي في تاريخ سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م انه "لما ضعف أمر الخاقاني واعتلّ ولزم بيته، تولى أعماله ونظره عبيد الله بن محمد الكلوذاني صاحب ديوان السواد. وبنان النصراني كاتبه، ومالك بن الوليد النصراني وكان اليه ديوان الدار، وابن القنائي النصراني (...). واخوه ابن شروكان أوكل اليه ديوان الخاصة وبيت المال، وابنا سعد حاجباه"^(٨٧).

وقال هلال الصابئ انه بعد صرف الخاقاني وجد له ابو الحسن علي بن عيسى الوزير توقيعات بخطه مع توقيعات اخرى لكتاب آخرين^(٨٨).

وذكر ابن مسكويه كأحد عمال ابي علي الخاقاني الوزير وانه قبض عليه مع الوزير سنة ٣٠٠هـ^(٨٩).

(٨٥) ساويروس بن المقفع، سير البيعة، ص ١٤٣.

(٨٦) هلال الصابئ، تحفة الامراء، ص ٢٦٥ و ٢٧٨.

(٨٧) عريب القرطبي، تاريخ ص ١٢٥.

(٨٨) هلال الصابئ، تحفة الامراء، ص ٢٧٨.

(٨٩) ابن مسكويه، تاريخ ص ٨٦ و ٩٠.

٤١ - تاوفيل الرهاوي (أواخر القرن الثامن)

قهرمان مسيحي، ذكره ماري بن سليمان، وذكر شفاعته لدى هارون الرشيد لإطلاق سراح عون الجوهرري، ودعاه ثمة بالقهرمان^(٩٠). وهو غير سميّه ومعاصره توفيل بن توما الرهاوي المنجّم الماروني، رئيس منجّمي المهدي، والمتوفي عشرين يوماً قبل المهدي في ٢ فحرم سنة ١٦٩هـ/١٦ تموز ٧٨٥م. أما تاوفيل فقد عاش الى ما بعد هذا التاريخ اذ خدم الرشيد الذي تقلّد الخلافة سنة ٧٨٦م.

٤٢ - توما بزا (أواخر القرن ١٠ وأوائل القرن ١١)

كان من الكتاب في عهد الخليفة العباسي القادر بالله (٩٩١-١٠٣١م). روى ميخائيل الكبير انه لما قدم مطران (مفريان) تكريت "اليعقوبي" اغناطيوس برقيقي الى بغداد سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م، احسن الجميع وفادته بمن فيهم المسلمون والنساطرة، والفضل في ذلك يعود فيما يعود الى الكاتب "لدى الملك" توما بزا ابن بطرس برقيقي ونسيب المطران المذكور^(٩١).

٤٣ - الحسن بن خليل بن المبارك بن محضار (+١٢٠٣م)

أبو سعيد الكاتب، من ماردين برع في العلوم ثم تنسّك. ولما ملّك زميله في الدراسة قطب الدين الغازي الثاني على ديار بكر عام (١١٧٦م) ألح عليه فدخل في خدمته. ودعاه بعد ذلك يروق شاه بن قلع ارسلان ليكون وزيره فاعتذر عن القبول. ويبدو انه رحل الى بغداد بعد وفاة صاحبه قطب الدين في سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م ونزل عند البطريك ايليا الثالث ابي حليم (+١١٩٠م). ثم عاد الى مسقط رأسه ماردين حيث توفي سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م^(٩٢).

(٩٠) ماري بن سليمان، فطاركة كرسي المشرق، ص ٧٥.

(٩١) لويس شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٥٣.

(٩٢) لويس شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٥٨.

٤٤- الحسن بن بشر الراعي (اواخر القرن العاشر)

كاتب نصراني، ور ذكره في كتاب "تاريخ منتخب الزمان" لدى الكلام عن بني بويه، ان محمد بن بقية كان اصطنع رجلاً يقال له الحسن بن بشر الراعي، وكان في الاصل نصرانياً من راس العين يصحب بني حمدان بالموصل، فدخل في الاسلام لشيء ظهر منه وخاف فأسلم، ثم خاف خوفاً ثانياً فهرب الى بغداد واتصل بمحمد بن بقية وحظي عنده وقرب منه ورفع من حال الى حال حتى قلده واسطاً، ثم استدعاه الى بغداد فقلده خلافته (...) (٩٣).

٤٥- الحسن بن عمر (٩٠٣م)

ذكره ماري بن سليمان وقال عنه انه كان كاتباً للخليفة المكتفي (٩٠٢-٩٠٨م) نحو السنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م وانه في تنصيب الجاثليق كان مائلاً الى يوانيس اسقف الموصل فاخثاروه (٩٤).

وجاء عنه ايضاً: الحسن بن عمرو (كذا) كاتب المكتفي الخليفة العباسي، وناظر الاموال، كان نصرانياً، وهناك أبيات شعرية في هجائه منها.

حسين بن عمرو عدو القرآن	يصنع في العرب ما يصنع
يقوم لهيته المسلمون	صفوفاً لفرد اذا يطلع
فان قيل قد اقبل الجاثليق	تحفى له ومشى يطلع

٤٦- الحسن بن مَخلَد (نحو ٨٨٢م)

وزير مسيحي. هو الحسن بن مَخلَد بن الجراح. كان نصرانياً فأسلم. ولي ديوان الضياع عام ٢٤٣هـ/٨٥٧م في خلافة المتوكل، واستوزره الخليفة المعتمد عام ٢٦٣هـ/٨٧٧م، ثم مرة ثانية عام ٢٦٤هـ/٨٧٨م، وعُزل من

(٩٣) شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٥٨.

(٩٤) ماري بن سليمان، فطاركة كرسي المشرق، ص ٨٣.

منصبه بعد تدخل أخيه المعتمد وولي عهده محمد الموفق فنفي على ما يبدو الى مصر حيث لقي حظوة عند ابن طولون. ثم رحل الى انطاكية حيث توفي حوالي ٢٦٩هـ/٨٨٢م في ظروف غامضة^(٩٥).

٤٧- الحسن بن وهب (القرن السابع)

كان من الكتاب النصارى في خلافة يزيد بن معاوية. ولما توفي خلفه ابنه قيس بن الحسن^(٩٦).

٤٨- صاعد بن هبة الله بن توما (+٦٢٠هـ/١٢٢٣م)

هو أبو الكرم صاعد بن توما النصراني الطبيب البغدادي، ويلقب بأمين الدولة. حظي عند الخليفة الناصر بالله العباسي (١١٨٠-١٢٢٥)، فصار لديه بمنزلة الوزراء واستوثقه على حفظ امواله وخواصه "وكان حسن الوساطة، فُضيت على يده حاجات واستُكشفت بواسطته شرور، ولم يُر له غير شاكر"^(٩٧).

قُتل في جمادي الاولى سنة ٦٢٠هـ باغراء الخادم تاج الدين رشيق وامرأة من النساء البغداديات تُعرف بالست نسيم كان الخليفة قربها وجعلها بين يديه تكتب الاجوبة، والرقاع لشبه خطها بخطه، وكان صاعد قد انتبه الى تلاعب نسيم ورشيق بامور الدولة وكشف امرهما الى الوزير المؤيد القبي^(٩٨).

(٩٥) شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٥٩.

(٩٦) شيخو، وزراء النصرانية، ص ١٥٩.

(٩٧) ابن القفطي، ص ٢١٢-٢١٤.

(٩٨) دائرة المعارف، ٢: ٣٨٨. ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات ٢: ١١٥-١١٦.

٤٩ - صاعد بن مَخْلَد (+٢٧٦هـ/٨٨٩م)

هو ابو العلاء، وزير مسيحي، قال الصفدي: "صاعد بن مخلد ابو العلاء الكاتب النصراني، أسلم وكتب للموفق محمد بن جعفر المتوكل، وولي الوزارة لأخيه أحمد المعتمد، وما زال كثير الصدقة وله خط من الليل (?) وكان صفرًا (كذا) من الأدب وسمي ذو الوزارتين (...). وكان من أحسن من اسلم دينا (...). وكان صاعد ينفرد فيصلي ويكي وغلمانة يظنون انه مشغول بعمله وكان لا يركب كل يوم ولا يبدأ العمل حتى يتدئ باخراج صدقاته على أوفر ما يقدر عليه. وقبض عليه الموفق فقبض من ضياعه وضياع ولده الف الف دينار (...). وما زال في حبسه مكرّمًا يدخل اليه من يريد (...). توفي صاعد سنة ٢٧٦هـ بوجع عرض له في حلقة" (٩٩).

قال الاربلي: "صاعد بن مخلد وزير المعتمد على الله، كان نصرانيًا فاسلم" (١٠٠). وقال الحصري: "صاعد بن مخلد صار وزيرًا للموفق محمد بن المتوكل وكان اخوه المعتمد الخليفة والامر والنهي للموفق" (١٠١) وجاء في تاريخ ابن مسكويه: "ان رسولين من قبل ملك الروم أتيا الى بغداد مع هدايا على طريق الفرات، فانزلهما الوزير ابو الحسن بن الفرات في دار صاع بن مَخْلَد سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م (١٠٢).

(٩٩) الصفدي، الوافي بالوفيات.

(١٠٠) الاربلي، خلاصة الذهب المسبوك، طبعة بيروت ١٨٨٥.

(١٠١) الحصري، تاريخ، ص ٢٨٩.

(١٠٢) الزركلي، الاعلام، ٣: ١٨٧. المسعودي، مروج الذهب، ٨: ١٢٢-١٢٣.

٥٠- الفضل بن مروان (+٣٥٠هـ/٨٦٢م).

هو ابو العباس الفضل بن مروان بن ماسرجس وزير الخليفة المعتصم، وهو الذي اخذ له البيعة (...). واعتدّ له المعتصم بها يداً عنده وفوض اليه الوزارة يوم دخوله بغداد مستهل رمضان سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م، وخلع عليه وردّ أموره كلها اليه، فغلب عليه بطول خدمته وتربيته اياه واستقلّ بالامور. وكذلك كان في اواخر ولاية المأمون، فانه غلب عليه كثيراً. وكان نصراني الاصل، قليل المعرفة بالعلم، حسن المعرفة بخدمة الخلفاء. وله ديوان رسائل وكتاب "المشاهدات والاحبار" التي شاهدها (...). ثم ان الخليفة المعتصم تغير عليه سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م فقبض عليه وحبسه خمسة اشهر واخذه من داره مما نكبه الف الف دينار وأخذ آنية وآثافاً بألف ألف دينار. ثم خدم بعد ذلك جماعة من الخلفاء، ثم توفي في ربيع الآخر سنة ٢٥٠هـ/٨٦٢م (في أيام الخليفة المستعين)^(١٠٣).

قال فيه ابن النديم: "الفضل بن مروان بن ماسرجس (كذا) النصراني ونرجح أن ماسرجس من قرية بسلى من طسوج نهر بوق (قرب بغداد) عمر ٩٣ سنة وخدم المأمون والمعتصم ووزر له وخدم من بعدهما من الخلفاء، وكان قليل المعرفة بالعلم حسن المعرفة بخدمة الخلفاء. وله من الكتب كتاب "المشاهدات والاحبار" التي شاهدها ورآها. وكتاب رسائله^(١٠٤).

وقد روى ابن خلكان وابن الطقطقي ابياتاً للهيثم بن فراس قالها في الفضل^(١٠٥):

(١٠٣) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ١: ٥٢٤.

(١٠٤) ابن النديم، الفهرست، ص ١٢٧.

(١٠٥) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ١: ٥٢٤.

تَفَرَّعْتَ يَا فَضْلُ بْنُ مَرَّوَانَ فَاعْتَبِرْ

فَقَبْلِكَ كَانَ الْفَضْلُ وَالْفَضْلُ وَالْفَضْلُ^(١٠٦)

ثَلَاثُو أَمْلَاكٍ مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ

أَبَادَتُهُمْ الْأَقْيَادَ وَالْحَبْسَ وَالْقَتْلَ

وَأَنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ فِي النَّاسِ ظَالِمًا

سُودِي كَمَا أَوْدَى الثَّلَاثَةُ مِنْ قَبْلُ

بهذا القدر نكتفي من ذكر الكتاب والوزراء. ويجدر بنا القول ان دليلنا في هذا العمل تحقيق قام به مؤخرًا الاب كميل حشيمه اليسوعي لكتاب في صميم الموضوع كان قد ابتداءً بتجميع مادته وتصنيفه العلامة الاب لويس شيخو اليسوعي (١٨٥٩-١٩٢٧) بعنوان (وزراء النصرانية وكتابها في الاسلام: ٦٢٢-١٥١٧م) وزاد عليه ونشره في سلسلة التراث العربي المسيحي برقم ١١ لسنة ١٩٨٧م. وكان الاب كميل حشيمة قد حقق ونشر سنة ١٩٨٣، برقم ٥ من السلسلة عينها: كتابا للاب لويس شيخو بعنوان (علماء النصرانية في الاسلام: ٦٢٢-١٣٠٠م).

ومجمل ما قلناه، ان التأخي والتعاون كانا في أساس التعايش المسيحي الاسلامي عبر قرون عديدة، وإيماننا انهم مدعوون جميعاً الى مزيد من تلاحم وتكاتف، لان الاصول البعيدة واحدة والجذور العميقة مشتركة، والهدف سام، والمسيرة وحدة وانسجام وخير وعمران.

(١٠٦) الفضل البرمكي، والفضل بن الربيع، والفضل بن سهل.

الفصل العاشر

دور الاطباء المسيحيين الاجتماعي والسياسي في العصر العباسي (٧٥٠-١٢٥٨)

مقدمة:

أيدت كتب التاريخ، أن مسيحيي العراق، أسهموا في حياة المسلمين الاجتماعية والسياسية وشاركوهم في الحياة الاقتصادية، بل سكنوا بينهم وشادوا الكنائس والأديار بين ظهرائهم، وهم، يتعاطون بحرية تامة، أشغالهم اليومية ويزاولون معاملاتهم التجارية.

إن التشريع الإسلامي لم يغلق أمام المسيحيين أي باب من ابواب العمل. ولهذا كثر منهم الأطباء والصيادلة والمهندسون والمترجمون والتجار والموظفون في دواوين الدولة العربية الإسلامية. فقاموا بتأدية واجباتهم خير قيام حتى أضحوا من المتقدمين لما اتصفوا به من الأخلاق العالية والفضائل السامية والتضحية الغالية.

فكان إبراهيم أخو سلمويه بن بنان طبيب المعتصم خازن بيوت الأموال في البلاد. ولم يكن عنده مثل سلمويه وأخيه إبراهيم في المنزلة. وصار إبراهيم بن هارون المسيحي قهرماناً لمحمد بن عبد الله بن طاهر.

وفي سنة ٨٤٩، بعدما شاد المتوكل قصره الجعفري وأجلى إليه نهراً صير النفقة عليه إلى دليل بن يعقوب النصراني، وأضحى عبد الله شمعون كتوماً، أي أمين السر، في ديوان الخليفة المكتفي (ت ٩٠٨م).

وفي سنة ٩٢٥م، أصبح بنان النصراني كاتباً لصاحب الديوان. وأسند إلى مالك بن الوليد النصراني ديوان الدار، كما أسند ديوان الخاصة وبيت المال إلى نصرانيين هما ابن القناني وأخوه. ولا ريب أن هؤلاء وغيرهم قد جدّوا كل الجدّ وأخلصوا كلّ الإخلاص في إنجاز ما عهد إليهم.

وكان وزير الخليفة المقتدر (ت ٩٣٢م) أبو الحسن ابن الفرات يدعو كلّ يوم أربعة من النصارى إلى طعامه. وهؤلاء من جملة الكتاب التسعة الذين اختصّ بهم.

وكان أبو الجمال الحسين بن القاسم ابن عبيد الله بن سليمان بن وهب يسعى لطلب الوزارة ويتقرّب إلى مؤنس وحاشيته وإلى النصارى الكتاب، ويقول لهم: "إن أهلي منكم، وأجدادي من كباركم، وإن صلياً سقط من عبيد الله بن سليمان جدّي في أيام المعتضد، فلمّا رآه الناس قال: هذا شيء تتبرّك به عجائزنا، فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم".

وكان النصارى يُقسمون اليمين لدى تسنّمهم المناصب الرفيعة وتولّيهم المدن والقرى التي أكثر سكانها نصارى. وقد تقلّد ديوان جيش المسلمين رجل نصراني، مرتين في أثناء القرن الثالث الهجري. ولما لام الناس ابن الفرات ورموه بالكفر لسوّقه الجيش إلى أحد المسيحيّين دافع عن نفسه بأنه اقتدى بالخلفاء السابقين الذين ولّوا المسيحيّين وظائف الدولة.

وفي النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة، اتخذ عضد الدولة البويهيّ (ت ٩٨٢م) في بغداد وزيراً نصرانياً وهو نصر بن هارون. وقد أذن له في عمارة البيع والديارات، وإطلاقه الأموال لفقراء المسيحيّين.

ودخل في بغداد أحد الوزراء المسيحيّين اسمه عبدون بن صاعد على القاضي إسماعيل بن إسحق بن إسرائيل (ت ٨٩٥م)، فقام ورحّب به فرأى إنكار اليهود ومن حضره. فلما خرج قال لهم: لا ينهاكم الله عن الذين لم

يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم^(١) وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين وهو سفير بيننا وبين خليفتنا وهذا من البرّ. فسكتت الجماعة.

ولما كان موضوع النصارى في العصر العباسي: خاصّتهم وعامّتهم، أحوالهم الاجتماعيّة ودورهم السياسيّ طويلاً، لا يتّسع هذا البحث المتواضع، لذا فضّلت أن أتطرّق إلى موضوع خاصّ جداً - دور الأطباء المسيحيين السياسيّ والاجتماعيّ في العصر العباسيّ ما بين عامين ٧٥٠-١٢٥٨م - فأقول^(٢):

حظي الأطباء المسيحيون بشكل عام بالاحترام والثقة، ونالوا المكانة التي لا يمكن للوصف أن يفحصها حقّها من قبل الخلفاء والوزراء والعامة والأمراء، تقديراً لجهودهم في السهر على راحة الخاصة والعامة من المجتمع، والعناية بصحتهم آنذاك^(٣) وقد كان ذلك واضحاً في بغداد عاصمة الخلافة العباسية، إذ كانت ساحةً لتجمع الأطباء من مختلف أقاليم الإسلام. فمنهم من تلقى دراسة الطبّ ومنهم من درّسه. ونتيجة لهذه المنزلة ارتفعت مكانة الأطباء الى أعلى المراتب، ومن خلال ذلك مارسوا نشاطاتهم السياسيّة والاجتماعيّة^(٤).

وبحثنا المتواضع هذا ما هو إلّا محاولة للكشف عن ذلك النشاط السياسيّ والاجتماعيّ الذي بقي بعيداً عن أيدي الباحثين، حيث انصبّ جلّ اهتمامهم على العلوم الطيّبة، وتاريخها وذكر أشهر الأطباء، ونشاطاتهم الطيّبة

(١) للتفاصيل عما ورد في المقدمة اعلاه، راجع كتابنا: لمحات من تاريخ نصارى العراق، بغداد، مطبعة شفيق، ١٩٨٢.

(٢) د. كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، في جزئين، بغداد ١٩٨٤، ج ٢، ص ٤٤٨.

(٣) محمد مرسى عرب، التراث الطيّبيّ بين الأصالة والتجديد، مجلّة "المورّخ العربي" (بغداد ١٩٧٨)، العدد ٩، ص ٩٩.

ونتاجاتهم الفكرية. ولكننا وجدنا الحاجة ماسة لأن نكشف عن النشاط السياسي والاجتماعي لهذه الفئة العلمية.

أولاً: النشاط السياسي

الكشف عن نشاط الأطباء المسيحيين السياسي، يقتضي أن نبحث في علاقتهم بالمسؤول عن إصدار القرار السياسي وهو الخليفة، وما يدور في البلاط وعلاقة ذلك بالوزراء. لقد عدّ الخلفاء وجود الأطباء الى جانبهم من مستلزمات الحكم للإشراف على صحتهم وصحة أسرهم وحواشيهم^(٤) وجندهم. أو ليكونوا مثل سائر موظفي البلاط أداة للفخر وإظهار الملك، إذ كان بلاط الخليفة يضمّ عدداً غير قليل من العلماء والأدباء وكذلك الأطباء الذين هم وسيلة لتزيين وتجميل بلاط الخليفة وإظهار عظمتهم^(٥). فعندما يعدّد نظامي عروضي أهمّ خواصّ الملك نجد أن الطبيب جزء أساسي من خواصّ الخليفة لرعاية صحة بدنه فيقول: "الكاتب والشاعر والمنجم والطبيب من خواص الملك ولا غنى للملك عنهم، فقوام الملك بالكاتب، وتخليد الاسم بالشاعر، ونظام الأمور بالمنجم، وصحة البدن بالطبيب"^(٦).

وقد بلغت مرتبة الأطباء - ولا سيّما المسيحيين منهم - عند الخلفاء، من الحبّ والإكرام مقاماً رفيعاً على نحو ما قام به الخليفة هارون الرشيد^(٧) عندما

(٤) القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، تاريخ الحكماء، مكتبة المثنى، بغداد ١٩٥٣، ص ٢٣٢.

(٥) د. السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، ج ٢، ص ٤٤٨.

(٦) السمرقندي، جهار مقالة (المقالات الأربع في الكتابة والشعر والنجوم والطب) ترجمة عبد الوهاب عزّام، يحيى الخشاب، الطبعة الاولى، القاهرة ١٩٤٩م، ص ٢٠-٢١.

(٧) هارون الرشيد، الخليفة العباسي الخامس (١٧٠-١٩٣هـ/٧٩٦-٨٠٩م) ابن المهدي والخيزران، ولد بالريّ وتوفي بسندباد من قرى طوس بإيران. جاء الى الخلافة بعد اغتيال

ذهب للحجّ، إذ دعا الله أن يحفظ طبيبه جبرائيل^(٨)، فكان بذلك أول صنيع يقوم به خليفة. وعندما استغرب بنو هاشم الأمر قائلين: "يا سيّدنا، جبرائيل ذميّ، فقال نعم، ولكن صلاح بدني وقوامه به، وصلاح المسلمين بي، فصلاحهم بصلاحه وبقائه. فقالوا صدقت يا أمير المؤمنين"^(٩).

وهذا دليلٌ على أن الخلفاء كانوا يدركون أهميّة الطبيب، بل إن الخليفة كان يعي أهميّة وهو إمام المسلمين، وأن بقاء الأمّة الإسلامية (الدولة الإسلامية) رهنٌ بوجود الخليفة، وقيام الخليفة بتأدية مهامّه ومسؤولياته مرهون بصحّته^(١٠)، وللطبيب دورٌ مهمٌ وحاسمٌ في الحفاظ على سلامة الخليفة وصحّته. ومن هنا تأتي أهميّة الطبيب للحفاظ على أحد الأسس التي تقوم عليها الملة الإسلامية، هو الإمام. ولهذا لا نستغرب عندما يصف الخليفة

أخيه المهدي. حارب البيزنطيين وهو لا يزال حاكماً على المقاطعات الغربية، وبلغ أبواب القسطنطينية. ثم حمل عليهم مرات بعد خلافته، وأقرّ الأمن في المقاطعات الفارسية وبين الربر (شمالي إفريقيا). إتصل بملك فرنسا شارلمان. وازدهرت في عهده التجارة والأدب والعلوم، ولعب البرامكة دوراً هاماً قبل أن يقع بهم.

(٨) جبرائيل بن بختيشوع بن جيورجيس (+٢١٣هـ/٨٢٨م). كان مشهوراً بالفضل، جيّد التصرف في المداواة، سعيد الجّد، حفيظاً عند الخلفاء، رفيع المنزلة عندهم، كثيري الإحسان إليه. وحصل عند الخلفاء من الاموال ما لم يحصله غيره من الاطباء (ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ١: ١٢٧-١٣٨).

(٩) ابن أبي اصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥، ص ١٩٢، د. خليل إبراهيم السامرائي، دراسات في تاريخ الفكر العربي، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٨٣، ص ٣٠٩.

(١٠) والذي يتغيّر به حاله فيخرج به عن الإمامة شيثان: أحدهما جرحٌ في عدالته، والثاني نقصٌ في بدنه، نقص الحواس والأعضاء. الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مطبعة مصطفى البابي/الحلي، ١٩٦٠، ص ١٧-١٨.

المعتصم^(١١) طبيعة العلاقة بينه وبين طبيبه سلمويه^(١٢) بقوله: "سلمويه طبيبي أكبر عندي من قاضي القضاة لأن هذا يحكم في نفسي، ونفسي أشرف من مالي وملكي"^(١٣). ومعنى ذلك أن أهمية الأطباء لم تأت من مجرد أهميتهم في الحفاظ على صحة الإنسان (ال خليفة) أو المسؤولين الآخرين، بل إن محتوى المهنة هو أشرف من محتوى ما تنطوي عليه المهن الأخرى، لأن الطبيب يهتم بالنفس (الروح) الانسانية وهذه من حيث المنزلة أشرف من المال (المادة) فكيف إذا كانت هذه النفس نفس أمير المؤمنين (الإمام)؟

وعندما يقارن الخليفة هارون الرشيد بين من يجرسه من الناس (كصاحب الحرس والحاجب)، وبين من يجرسه من الأمراض والأسقام (الطبيب)، يفضل الخليفة الرشيد الطبيب عليهما، ويأمر بزيادة تخصيصاته^(١٤).

وقد وصف الخليفة المتوكل^(١٥) طبيعة العلاقة، أو المنزلة، بينه وبين الطبيب بختيشوع^(١٦)، قائلاً لوزيره: "اكتب في ضياع بختيشوع فإنها ضياعي وملكي، فإن محلّه منا محلّ أرواحنا من أبداننا"^(١٧).

(١١) المعتصم بالله (محمد بن هارون الرشيد) الخليفة العباسي الثامن (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣/٨٤٢م) ولد سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م. كان أمياً. تولى الحكم في مصر قبل خلافته. إستعاد بالجنود الأتراك. قضى على الزط الذين عاشوا فساداً بين البصرة وبغداد، وأجلاهم الى قليقية. كما قضى على حكم بابك الخرمي في أذربيجان بفضل قائده الافشين. أنزل بالبيزنطيين هزيمة نكراء واحتل عمورية. بنى سامراء.

(١٢) سلمويه بن بنان (٨٤٠م)، كان طبيباً فاضلاً في وقته. خدم المعتصم وخصّ به حتى إن المعتصم قال لما مات سلمويه: سألحق به لأنه كان يُمسك حياتي ويدبّر جسمي. وكان عالماً بصناعة الطبّ. ولما مرض عاده المعتصم وبكى عنده. ولما مات امتنع المعتصم عن الأكل في ذلك اليوم وأمر بإحضار جنازته إلى دار الخلافة وأن يصلّى عليها بالشمع والبخور على رأي النصارى. ففعلوا ذلك وهو يراهم (القفطي، ص ٢٠٧).

(١٣) ابن أبي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٣٤.

(١٤) المصدر السابق، ص ١٩٤.

ولم يقتصر دور الأطباء على حدود المعالجة، والتطبيب، بل كان عليهم أن يلازموا الخلفاء ويرافقوهم في الأسفار، سواء أكانت للحجّ أم للنزهة أو للحرب بل حتى عند تناولهم الطعام^(١٨).

وكان للأطباء طرقٌ متعدّدة للتدخل أو ممارسة التأثير السياسيّ: فأحياناً يحصل التقرب عند شفاء الخليفة أو إحدى نساء الحاشية من مرض، ويكون ذلك مجالاً لبروز الطبيب. وهذا ما حصل للطبيب جبرائيل بن بختيشوع من الخليفة الرشيد: "وجعله رئيساً على جميع الأطباء"^(١٩). وفي أحيان أخرى، يحصل التأثير عن طريق الاتصال بأحد الأمراء المسجونين حيث يقيم الطبيب معه علاقة قويّة وعند إطلاق سراح الأمير وتنصيبه خليفة يزداد نشاط الطبيب السياسيّ. ومن الأمثلة التي يدوّنها لنا التاريخ، ما يلي:

(١٥) المتوكل على الله (جعفر بن محمد المعتصم) (٢٠٦-٢٤٧هـ/٨٢١-٨٦١م) الخليفة العباسي العاشر (٢٣٢هـ/٨٤٧م) ابن المعتصم من جارية فارسية، حارب المعتزلة. حاول نقل عاصمته الى دمشق غير أنه عاد الى سامراء حيث اغتاله القادة الأتراك بالاشتراك مع ابنه الأكبر المنتصر. كان موته بداية انحطاط الخلافة العباسية.

(١٦) بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع بن جيورجيس (+٢٥٦هـ/٨٦٩م) طبيب معروف مشهور. متقدّم عند الملوك. خدم الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل. وكسب بالطبّ ما لم يكسبه مثله. وكان الخلفاء يثقون به على أمهات أولادهم. وأخباره مشهورة. (ابن النديم، الفهرست، ص ٢٩٦).

(١٧) ابن أبي اصبيعة، المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

(١٨) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٤٠٥ يُنظر، الصائبي، أبو الحسن هلال بن الحسن (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م)، رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٤، ق ٢، ص ٨٦. ابن أبي اصبيعة، المصدر نفسه، ص ٢٢٤، ٤٧٥-٤٧٦.

(١٩) ابن أبي اصبيعة، عيون الأنباء، ص ٢٩٥.

"إن الموفق" (٢٠) لما غضب على ابنه أبي العباس المعتضد بالله (٢١) حبسه في دار إسماعيل بن بلبل وكان أحمد الحاجب موكلاً به، وتقدم إسماعيل بن بلبل إلى ثابت بن قره (٢٢) يدخل إلى أبي العباس يؤنسه. فأنس أبو العباس بثابت بن قره أنساً كثيراً. وكان ثابت يدخل إليه إلى الحبس في كل يوم ثلاث مرات يحادثه ويسليه، ويعرفه أحوال الفلاسفة وأمر الهندسة والنجوم وغير ذلك. فشغف به ولطف منه محله. فلما خرج من حبسه قال لبدر غلامه:

يا بدر، أي رجل أفادنا بعدك؟ فقال: من هو يا سيدي؟ فقال ثابت بن قره. ولما تقلد الخلافة أقطعه ضياعاً جليلاً وكان يجلسه بين يديه كثيراً بحضرة الخاص والعام. ويكون بدر غلام الأمير قائماً والوزير، وهو جالس بن يدي الخليفة" (٢٣).

ولم تقتصر طرق اتصال الأطباء برجال السياسة إلى معالجة الأمراض البدنية بل يكون الاتصال أحياناً أقوى تأثيراً عندما يكون الإشراف الطبي على الأمراض العصبية والنفسية. وهذا ما حصل للطبيب سنان بن ثابت (٢٤)، مع

(٢٠) الموفق بالله (طلحة بن جعفر المتوكل) (ت ٢٧٨هـ/ ٨٩١م) أمير عباسي، كان ولياً للعهد في خلافة أخيه المعتمد على الله. وكان الحاكم الفعلي إذ ظهر ضعف المعتمد في القيام بأعباء الدولة. قضى على ثورة الزنج بمعاونة لؤلؤ سنة ٨٨٣م.

(٢١) المعتضد بالله (أحمد بن طلحة أبو العباس) الخليفة العباسي السادس عشر (٢٧٩-٢٨٩هـ/ ٨٩٢-٩٠٢م) وُلد في بغداد عام ٢٤٢هـ/ ٨٥٧م. أقام العدل وأصلح أمور بيت المال. عقد صلحاً مع حمارويه الطولوني واقرن بابنته. أخضع الخوارج الشيبانيين وقضى على الدلفيين. أوقع الجنابي هزيمة بجيشه. توفي ببغداد.

(٢٢) ثابت بن قره (٨٣٦-٩٠١) وُلد في حرّان. رياضي وطبيب وفيلسوف صابئي. عاش في ظل الخليفة المعتضد في بغداد. نقل إلى العربية وشرح المؤلفات اليونانية في الرياضيات والفلك، له "الذخيرة في علم الطب".

(٢٣) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩٥.

(٢٤) سنان بن ثابت بن قره (أبو سعيد) (ت سنة ٩٤٣) طبيب صابئي من أصل حرّاني. نشأ ببغداد. رئيس الأطباء في عهد المقتدر العباسي، عمل في خدمة القاهرة أيضاً.

الامير ابي الحسين بجكم^(٢٥). قال ثابت بن سنان: "لما مات الراضي بالله^(٢٦) استدعى الأمير أبو الحسين بجكم والدي سنان بن ثابت وسأله أن ينحدر إليه الى واسط... فانحدر إليه والدي... وقال له: أريد أن أعتمد عليك في تدبير بدني وتفقدته والنظر في مصالحه، وفي أمر آخر هو أهم إليّ من أمر بدني، وهو أمر أخلاقي، لثقتي بعقلك وفضلك ودينك ومحبتك. فقد غمّني غلبة الغضب والغيط عليّ، وإفراطهما بي حتى أخرج إلى ما أندم عليه عند سكونهما من ضرب وقتل"^(٢٧).

وهذا يشير إلى أن الطبيب قد أعطي صلاحيةً أوسع في الإشراف على بعض القرارات التي يتخذها الأمير، والقدرة على منعه في أثناء غضبه من اتخاذ ما يضرّ بمصالح الناس، مما كان يفسح المجال لأن يصبح الطبيب مرشداً سياسياً ينبّه الأمير إلى مواطن الخطأ والصواب. يقول الأمير بجكم: "وأنا أسألك أن تتفقد ما أعمله. وإذا وقفت لي على عيب لم تحتشم أن تصدقني عنه وتذكره لي وتنهني عليه، ثم ترشدني إلى علاجه ليزول عني".

ويواصل ثابت بن سنان قوله: "وما زالت أخلاقه تصلح ووالدي ينبّهه على شيء مما ينكره منه من أخلاقه وأفعاله، ويرشده إلى طريق إزالته، إلى أن

(٢٥) بجكم (ت ٣٣٠هـ/ ٩٤١م) قائد تركي من المماليك في عهد الخليفة الراضي. فتح بغداد عام ٩٣٩م ولقب بأمر الأُمراء. وكان مع ابن رائق الساعي في تدبير الأمور لحساب خليفة بغداد وقع الفتن في الأقاليم. جارب البريدي. مات قتيلاً.

(٢٦) الراضي بالله (محمد بن جعفر المقتدر) الخليفة العباسيّ العشرون (٣٢٢-٣٢٩هـ/ ٩٣٤-٩٤٠م) وُلد عام ٢٩٧هـ/ ٩١٠م. عجز عن إصلاح أمور الدولة وأضحى العوبة في يد وزرائه، ولا سيما أمير الأُمراء ابن رائق الذي ولّاه قيادة الجيوش، فلم تعد له أية سلطة ما عدا الزعامة الدينية مما جعل أمويي الاندلس يتخذون لقب خليفة.

(٢٧) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣٠٢.

لانت أخلاقه، وكفّ عن كثير مما كان يُسرع إليه من القتل والعقوبات والغليظة" (٢٨).

وتأكيداً لما سبق بلغ الأمر بالأطباء أن يكونوا عند الخلفاء بمنزلة تعلقو القادة والأمراء، وأصبحوا هم الوساطة التي من خلالها يصل الآخرون بها إلى الخليفة. فنرى الخليفة هارون الرشيد يوجّه أصحابه قائلاً: "كل ما كانت له إلّي حاجة فليخاطب بها جبرائيل، لأنني افعل كلّ ما يسألني فيه ويطلبه مني. فكان القواد يقصدونه في كل أمورهم" (٢٩).

وفي حالات أخرى كانت المراسيم الخلافية (التواقيع) لا تصدر إلا بخطّ بعض الأطباء. وهذا ما حصل عندما اختار المعتصم طبيبه سلمويه ابن بنان إذ "كان يردّ إلى الدواوين وتوقيعات المعتصم في السجلات وغيرها بخط سلمويه، وكلّ ما كان يرد على الأمراء والقواد من خروج أمر وتوقيع من حضرة أمير المؤمنين فبخطّ سلمويه" (٣٠).

ولم يقتصر الأمر على الأطباء في المنزل، بل ذهب إلى أن مارس أقارب الأطباء، كإخوتهم، شأناً في ذلك. فنجد إبراهيم بن بنان أخا الطبيب سلمويه قد وُلّي "خزن بيوت الأموال في البلاد وخاتمه مع خاتم أمير المؤمنين. ولم يكن أحدٌ عنده مثل سلمويه وأخيه إبراهيم في المنزل" (٣١).

كما أناط الخلفاء بالأطباء مهمات ذات طابع سياسي: فقد كان بعضهم مستشاراً ومعلماً للخليفة، ومنهم من كُلف مهمات سياسية أخرى كالسفارة

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٠٣.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٨٨-١٩٠.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٢٣٤، ٣١٦، أمين أسعد خير الله، الطبّ العربيّ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٤٦، ص ٥١.

(٣١) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

أو رئاسة الوفود والوجاهة. وهذا ما حصل للطبيب فثيون^(٣٢) الذي "كان هو السفير بين بختيار^(٣٣) والخليفة"^(٣٤).

ولم يقتصر الأمر على هذه المهمات، بل وصل بعضهم الى منزلة الوزير في الموقع كالطبيب صاعد ابو الفرج^(٣٥) الذي "تقدّم في ايام الخليفة الناصر^(٣٦)، إلى أن كان بمنزلة الوزراء واستوثقه على حفظ خواصّه، وكان يودعها عنده ويرسله في أمور خفيّة إلى وزرائه ويظهر له في كل وقت. وكان حسن الوساطة قضيت على يده حاجات واستكفيت بواسطته شرور^(٣٧)."

(٣٢) فثيون (القرن العاشر) طبيب وناقل. وهو أصحّ الناقلين نقلاً وأحسنهم عبارة ولفظاً (الفهرست ص ٢٤٤). وابن ابي اصيبعة يقول: "وجدت نقله كثير اللحن، ولم يكن يعرف علم العربية أصلاً" (عيون الانباء، ص ٢٠٤).

(٣٣) بختيار أبو منصور، عزّ الدولة ابن معز الدولة أحمد بن بويه (ت ٣٦٧هـ/١٠٧٨م) أحد الأمراء البويهيين ديلمى الاصل. (الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم ٨ أجزاء، ط ٤، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩، ج ٤، ص ٤٤). يُنظر ابن الأمير، عز الدين ابي الحسن علي بن ابي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ (١٢ جزءاً)، دار صادر، بيروت ١٩٦٥، ج ٨، ص ٥٧٥.

(٣٤) ابن أبي الصيبعة، عيون الانباء ص ٣٢١، ٢٣٥.

(٣٥) صاعد بن يحيى بن هبة الله بن توما النصراني. من أهل بغداد. وكان من الأطباء المتميّزين والأكابر المتعّين. حظي عند الناصر الحظوة التامة. وسلّم اليه عدة جهات يخدم بها. وكان بين يديه عدة دواوين. قتل سنة ٦٢٠هـ (ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٣٠٢).

(٣٦) الناصر لدين الله (أحمد بن المستضيء) الخليفة العباسي الرابع والثلاثون (٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م) قضى على نفوذ قادة الجيش في بغداد وأعاد للخلافة هيبتها منهيًا تسلّط السلاجقة. بلغت جيوشه خوزستان (١١٩٦) وأذربيجان (١٢١٤). شيد باب الطلسم في بغداد اشتهر بحزمه ودهائه.

(٣٧) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢١٢-٢١٣ ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٤٠٥.

وقد وصلت مرتبة الأطباء الى مستوى أجلاء القواد، فبعضهم، أصبح موكبه أشبه بموكبهم، ومن الأمثلة على ذلك الطبيب اسرائيل بن زكريا الطيفوري^(٣٨)، كان اذا "ركب الى دار المتوكل يكون موكبه مثل موكب الامراء، وأجلاء القواد، وبين يديه أصحاب المقارع"^(٣٩).

سبق ان اشرنا الى ان الطبيب هو أحد خواصّ الملك، ومعنى ذلك ان يختصّ طبيب بخليفة أو أمير ويلازمه، ولا يجوز أن يتّصل بالآخرين إلا بعد موافقة سيده واستئذانه، خشية ان يستغلّ الاطباء للمؤامرات والدسائس أو أن تمرّ من خلالتهم، خاصة اذا ما اشتركوا بمعالجة أكثر من واحد في البلاط. وعلى الرغم من التخصص كان التبادل قائماً بين طبقة الأعيان، وبخاصة في الحالات الصعبة العلاج. وهذا ما حصل مع إحدى نساء بلاط الخليفة هارون الرشيد عندما مرضت. فقال جعفر بن يحيى^(٤٠) البرمكي للرشيد: لي طبيب ماهر، جبرائيل بن بختيشوع يشفيها. وقد تحقّق لها الشفاء، بعد أن عالجها^(٤١).

وهناك إشارات تاريخية في فترة الخليفة المنصور^(٤٢)، تؤكد أن بعضاً من الأطباء أدركوا خطورة شأنهم فمارسوا نشاطاً سياسياً سلبياً، ولذلك يقول

(٣٨) زكريا الطيفوري، صيدلاني (القرن التاسع) ولد اسرائيل متطبب الفتح بن خاقان وكان في خدمة الافشين (القفطي، ١٨٧).

(٣٩) ابن أبي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٣٢١، ٢٣٥.

(٤٠) جعفر بن يحيى البرمكي، قرّبه الرشيد وفضّله على أخيه الفضل وسماه الوزير الصغير. ولآه مصر وخراسان وحراسة الجيش وديوان الخاتم. قتل في النكبة الشهيرة للبرامكة، العام ١٩٧هـ/٨٠٣م.

(٤١) ابن أبي اصيبعة، عيون الانباء، ص ١٨٨.

(٤٢) المنصور (عبد الله بن محمد أبو جعفر) الخليفة العباسي الثاني (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م) ولد في الحميمية سنة ٩٥هـ/٧١٤م. خلف أخاه السفاح. انتصر على عمّه عبد الله ابن علي المطالب بالخلافة، ثم أطاح بقائده ابي مسلم الخراساني. أخضع ثورات

الطبيب عيسى بن شهلاتا^(٤٣) مخاطباً في كتابه أحد المطارنة: "أست تعلم أن امر الملك بيدي، إن شئت أمرضته وإن شئت عافيته"^(٤٤).

وبفعل النتائج السلبية الناجمة عن تدخل بعض الاطباء في الشؤون السياسية ومسائل التآمر ظهر تيار آخر من الاطباء أحجم عن التدخل في شؤون الدولة أو استخدام نفوذه لأموال سياسية، ولم يتجاوز حدود المهنة. ومثال ذلك الطبيب ابن التلميذ^(٤٥) الذي اقتصر امره على المداواة وعدم تجاوز وظيفته الطبية. فعندما حضر السلطان محمد بن محمود^(٤٦) خوارزمشاه إلى بغداد، مرض عندما كان عسكره بظاهر بغداد فكان الطبيب ابن التلميذ يعالج الخليفة المقتفي (٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦٠م)، داخل بغداد، ويعاود السلطان بظاهر بغداد. "فقال له الوزير، وزير السلطان، ايها الرئيس إنني قد كنت عند السلطان وذكرت له من فضلك وأدبك ورأستك، وقد أمر لك بعشرة آلاف دينار. فقال: يا مولانا قد أمر لي من بغداد باثني عشر ألف دينار. أفيأذن لي في قبولها السلطان"^(٤٧). وهذا يشير إلى محاولة استدراج

العلوين كما قضى على ثورة المقتنع في فارس، والبربر في شمالي افريقيا، بنى بغداد ودعاها "دار الاسلام". نظم الشؤون الإدارية والمالية والبريد. توفي محرم بالحج.

(٤٣) عيسى بن شهلاتا الجنديسابوري، تلميذ جيورجيس بن بختيشوع. طبيب نسطوري، عاش في منتصف القرن الثامن. كان شماساً. وكان يعطي يده الى الأساقفة حتى يقبلوها. تولى خدمة المنصور، سنة ٧٧٠م.

(٤٤) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ١٨٥.

(٤٥) ابن التلميذ (هبة الله بن صاعد موفق الملك أمين الدولة) طبيب وقته وفاضل زمانه وعالم اوانه. خدم الخلفاء من بني العباس وتقدم في خدمتهم وكان موفقاً في المباشرة والمعالجة عالماً بقوانين هذه الصناعة وصنف فيها عدة مؤلفات وانتهت اليه رئاستها (القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٤٠).

(٤٦) ابن ملكشاه (ت عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م) محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه، سلطان سلجوقي، كان في همدان وحاصر بغداد فامتنعت عليه (الزركلي، الأعلام، ٧: ٨٦).

(٤٧) ابن أبي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٣٤٨.

طبيب الخليفة للتأمر عليه من خلال منحه مبالغ من المال، فكان جواب الطبيب ابن التلميذ: "يا مولانا، أنا رجل طبيب لا أتجاوز وظائف الأطباء وما يلزمهم ولا أعرف إلا ماء الشعير والنقوع وشراب البنفسج والنيلوفر. ومتى اخرجت عن هذا لا اعرف شيئاً".

ونقل عنه قوله: لا ينبغي للطبيب أن يداخل الملوك في أسرارهم... ولا يتجاوز حدود الطب، فإن تجاوز هذا تلف وكان سبب هلاكه. وكان ينشد^(٤٨):

وإذا انبت المهيمن للنمل جناحاً أطارها للتردي
ولكل امرئ من الناس حدٌ وهلاك الفتى جواز الحد

وإذا أردنا أن نستكشف أو نبحث عن دوافع هذا التيار لوجدناها تكمل في اجابة الطبيب حنين بن اسحق^(٤٩) عندما استفسره الخليفة المتوكل سبب امتناعه تحضير سُم يقتل به عدوًّا.

يحدثنا ابن القفطي في "تاريخ الحكماء"، وابن ابي اصيبعة في "عيون الانباء" ما ملخصه: إن الخليفة المتوكل لما سمع بعلم حنين كان لا يأخذ منه دواءً إلا بعد أن يستشير غيره، وأراد امتحانه حتى يزول ما في نفسه، ظناً منه أن ملك الروم قد يكون قد اتفق معه على المكيدة بالخليفة. فاستدعاه وأسرَّ اليه بحاجته الى دواء يريد به قتل عدوّه له، فقال حنين: "يا امير المؤمنين لم أتعلّم إلا الادوية النافعة، وما علمت ان امير المؤمنين يطلب مني غيرها، فإن

(٤٨) المصدر نفسه، ص ٣٤٨-٣٤٩.

(٤٩) حنين بن اسحق (٨٠٨-٨٧٣) طبيب سرياني وشماس نسطوري من قبيلة عباد العربية. ولد في الحيرة. درس الطب في بغداد وتضلّع باليونانية. عيّنه المأمون على "بيت الحكمة" انصرف الى الترجمة فنقل الى السريانية والعربية بعض كتب أفلاطون وأرسطو. له كتاب "عشر مقالات في العين" و"المدخل في الطب".

احبّ أمضي وأتعلّم فعلت". وكان بهذه الحجّة يريد التملّص مما طُلب إليه، فلما علم الخليفة نيّته قال له: "هذا شيء يطول". ورغبه وهدّده وهو لا يزيد على ما قاله، إلى أن أمر بحبسه في بعض القلاع ووكل به من يوصل خبره إليه وقتاً بوقت، وهو هادئ ساكن في حبسه، دأبه النقل والتفسير والتصنيف، غير مكترث بما هو فيه.

"ثم أمر الخليفة بإحضاره وإحضار أمواله يرغبه فيها، وأحضر سيفاً ونطعاً وسائر آلات العقوبات وهو مع ذلك مصرّ على رأيه، والخليفة يقول له: "هذا شيء لا بدّ منه، فإن أنت فعلت قد فزت بهذا المال، وكان لك عندي أضعافه، وإن امتنعت قابلتك شرّ مقابلة، وقتلتك شرّ قتلة". وحين يجيبه: "قد قلت لأمر المؤمنين إنني لم أحسن غير الشيء النافع ولم أتعلّم غيره". فقال له الخليفة: "فإنني قاتلك"، قال حين: "لي ربّ يأخذ حقّي غداً في الموقف الأعظم، فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل". فتبسّم الخليفة وقال له: "يا حنين طِبْ نفساً وثِبْ إلينا، فهذا الفعل كان لامتحانك لحذرنا من كيد الملوك وإعجابنا بك. فأردنا الطمأنينة إليك والثقة بك لتنتفع بعلمك".

ولما سأله الخليفة عن سبب إصراره على امتناع تقديم السمّ قال له: شيثان، يا أمير المؤمنين. قال: وما هما؟ قال: الدين والصناعة، قال: فكيف؟ قال: الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا، فكيف أصحابنا وأصدقائنا، ويُعبد ويحرم من لم يكن كذلك. الصناعة تمنعنا من الإضرار بأبناء الجنس البشريّ لأنها موضوعة لنفعهم، ومقصورة على مصالحهم^(٥٠).

(٥٠) ابن أبي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٦١ - إدوار براون، الطب العربي، ترجمة داود سليمان علي، بغداد ١٩٨٦، ص ٢٨.

ومع هذا فقد جعل الله في رقاب الاطباء عهداً مؤكداً بإيمان مغلظة ألا يعطوا دواءً قتالاً او مؤذياً. فلم أرَ أن اخالف هذين الأمرين من الشريعتين، ووطّنت نفسي على الموت، ما كان الله ليضيّع من بذل نفسه في طاعته. ولسوف يثيبني". فقال الخليفة: إنهما الشريعتان جليلتان، وأمر له بمال^(٥١).

إننا لنرى في هذه الحادثة عبرة كبرى، نرى فيها منتهى الإخلاص للمهنة إلى درجة تفضيل الموت على خيانة العهد، وفهماً عميقاً لجوهر الدين. فالدين يريد الخير للبشر دونما تمييز بين عباد الله. هكذا فهم حنين بن اسحق الدين، وهكذا وقف في سبيل مبداه وقفة الأبطال الذين يستخفون بكل شيء حتى يحياتهم في سبيل مبادئهم.

وإننا لنقف أيضاً مطأطي الرأس أمام ذلك الخليفة العباسي الذي شاء كخليفة وأمير المؤمنين وإمام لجميع المتدينين بشرع محمد، أن يقدّر حيناً كمسيحي ملتزم قد احترم دينه، ولم يقف اختلاف المذهب حاجزاً بين خليفة

(٥١) وعكس هذا الموقف ويدلّ على تجاوز الاطباء، ما حصل للطبيب ابن صفية المسلم، فعندما اطلعت الخلافة على تجاوزه لم تتأخر عن ردعه فاستحضره الخليفة المستضيء بأمر الله (٥٦٦-٥٧٥هـ/١١٧٠-١١٨٠م) ليلاً وقال له: يا حكيم، عندي من أكره رؤيته وأريد إبعاده بوجه لطيف غير شفيع. فقال له: نرتّب له شربة قويّة بالغة يشربها وقد حصل الخلاص منها كما تؤثر. فمضى وركّب شربة، كما وصف وأحضرها ليلاً ودخل بها عند الخليفة ففتحها. ونظر اليها، وقال: "يا حكيم، إستقِ هذه الشربة حتى تجرّب فعلها، فتتلوّى من ذلك. وقال: الله، الله، يا مولانا في؟ فقال له: الطبيب من تعدّى حدّه وتجاوز طوره وقع في مثل هذا وليس لك من هذا الخلاص إلا السيف. فاستقى الحكيم الشربة التي ركّبها وفرّ من الهلاك الى الهلاك" (ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٣٤٨).

المسلمين والعلماء المسيحيين. إنّا فخورون بتلك النواحي المجيدة من تاريخنا العربي في التعاون العلمي والتسامح الديني.

ولعلنا لا نغفل موقف الدولة عندما كانت تشعر أن بعض الاطباء يقومون باستغلال بعض الناس او يتدخلون في الشؤون السياسية، فلم تكن تتوانى عن ردهم كالذي حدث للطبيب عيسى بن شهلاتا - المارّ ذكره - حيث نفى وصودت جميع املاكه^(٥٢).

ثانياً: النشاط الاجتماعي

كان للأطباء نشاطات اجتماعية جلية واضحة، وإذا أردنا ان نعرف دوافع تلك النشاطات الاجتماعية فيمكن أن نرجعها الى ما يأتي:

١ - علاقتهم بالسلطة

تحدّثنا سابقاً عن العلاقة السياسية للأطباء برجال الدولة، والتي نتج عن بعضها علاقات اجتماعية حميمة، أدّت الى تقريب الطبيب من أسرة الخليفة، كونه مشرفاً على صحّته، على نحو ما جرى للطبيب جيورجيس بن

(٥٢) خلف جيورجيس تلميذه عيسى في خدمة المنصور، فبدأ يسطر يده في التشاور والأذية، خاصة على الأساقفة والمطارنة ومطالبتهم بالرشى وأخذ أموالهم، وكان فيه شرارة وطمع. ولما خرج المنصور في بعض سفراته وصل الى قرب نصيبين فكتب عيسى الى مطران نصيبين يتهدّده ويتوعّده إن منع عنه ما التمسّه. وكان عيسى قد التمس إليه من آلات البيعة أشياء جلية ثمنية لها قدر، وكتب في كتابه الى المطران: أليس تعلم أن أمر الملك في يدي، إن أردتُ أمرضته وإن أردتُ شفّيته؟ فلما وقف المطران على الكتاب احتال في التوصل الى الربيع (بن الفضل، وزير المنصور وكتّام سرّه) وشرح له صورة الحال وأقرأه الكتاب، وأوصله الربيع الى الخليفة وأوقفه على حقيقة الامر. فأمر المنصور بأخذ جميع ما يملكه عيسى المطيب وتأديبه ونفيه مع زوجته الى الهند، ففعل به ذلك ونفي أقبح نفي، وهذه ثمرة الشرّ (الفقطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٤٨).

جبرائيل^(٥٣) إذ أمر الخليفة المنصور ان يدخل جيورجيس الى نساء حاشيته ويخدمهن^(٥٤).

وقد بلغت العلاقة الاجتماعية بين الأطباء والخلفاء، أن يحضر الطبيب موائد الخليفة لاهتمامه بغذائه، وكان الطبيب باستمرار أحد المدعوين إلى الأكل، بل وفي بعض الاحيان لا يأكل الخلفاء إلا بحضور الأطباء. فعندما قدّمت الموائد "بين يدي الرشيد في بعض الايام وجبرائيل بن بختيشوع غائب... طلب جبرائيل ليحضر أكله على عادته في ذلك"^(٥٥).

فضلاً عن ذلك، فإن جعفر بن يحيى بن برمك كان "لا يصبر ساعة عن الطبيب جبرائيل ومعه يأكل ويشرب"^(٥٦).

وأكثر من ذلك، نجد الخليفة الامين^(٥٧) "لا يأكل ولا يشرب الا بإذنه"^(٥٨). وهنا تصبح الثقة مطلقة.

(٥٣) جيورجيس بن جبرائيل من آل بختيشوع. كان فاضلاً وله كتب كثيرة. كان رئيس أطباء جنديسابور. وكان له خبرة بصناعة الطب ومعرفة بالمداواة وأنواع العلاج. وخدم بصناعة الطب المنصور. وكان حظياً عنده رفيع المنزلة، ونال من جهته أموالاً جزيلة.

(٥٤) أحازه المنصور بثلاثة آلاف دينار وثلاث جوار ردّهـن الى الخليفة بقوله: "لا يجوز أن يكون مثل هؤلاء في منزلي لأننا معشر النصارى لا نتزوج أكثر من امرأة واحدة، ما دامت المرأة حيّة لا نأخذ غيرها". فحسن موقع هذا من الخليفة وأمر له في الوقت ان يدخل جيورجيس الى حظاياه وحرمه بلا إذن، وزاد موضعه عنده. وهذا ثمرة العفة" (القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٥٨-١٦٠).

(٥٥) ابن أبي اصبيعة، عيون الانباء، ص ٤٧٥-٤٧٦، ١٨٨، ١٩١.

(٥٦) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٣٤، ابن أبي اصبيعة، عيون الانباء، ص ١٨٨.

(٥٧) الأمين (١٧٠-١٩٨ هـ-٧٨٧-٨١٣ م) الخليفة العباسي السادس (١٩٤ هـ/٨٠٩ م) ابن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور. قام بينه وبين أخيه المأمون نزاعٌ حول الخلافة قتل خلاله.

(٥٨) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٤١، ابن أبي اصبيعة، عيون الانباء، ص ١٨٩.

ومن الأمثلة التاريخية الأخرى ما حصل زمن الطبيب يوحنا بن ماسويه^(٥٩)، "إذ كانت ملوك بني هاشم لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم"^(٦٠)، إلا بحضرته. وكان يقف على رؤوسهم ومعه البراني والجوارشات^(٦١) الهاضمة المسخنة الطابخة المقيوية للحرارة الغريزية في الشتاء، وفي الصيف الأشربة الباردة والطابخة المقيوية والمعاجين^(٦٢).

وبحكم تقدّم العلاقة الاجتماعية^(٦٣) بين الأطباء والخلفاء كانوا لا يرضون أن يقوم الخليفة بأيّ عمل طبيّ لنفسه دون أخذ شورتهم، وإذا ما حصل ذلك، كان الأطباء يظهرون عدم ارتياحهم للخلفاء. وكان الخلفاء حراساً على رضا أطبائهم. ومن الإشارات التي تؤكد ذلك غضبُ الطبيب اسرائيل بن زكريّا الطيفوري على الخليفة المتوكل عندما احتجم بغير إذنه^(٦٤).

وكان الخلفاء يتابعون أطباءهم ويهتمّون بسكنهم ومشربهم ومأكلهم حتى وصل الأمر الى ان يهتمّ المنصور بسكن الطبيب جيورجيس إذ قال

(٥٩) يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م) هو أبو زكريا يحيى بن ماسويه. وكان فاضلاً طبيباً مقدّماً عند الملوك، عالماً مصتفاً. خدم المأمون والمعتمد والواثق والمتوكل. وولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة. ترك كتباً عديدة في الطب والعلاج.

(٦٠) "بل بلغ الاهتمام بغذاء الخليفة الى الحدّ الذي يؤلّف له كتابٌ في (الطبخ). وكثيراً ما يُصار الى تنظيم قائمة طبخ تراعي التبدلات الجوية التي لها علاقة بتأثر البدن في التقلّبات والمواسم كـ "كتاب الطبخ" الذي ألّفه الطبيب أحمد بن الطيّب السرخسي على الشهور والأيام للخليفة المعتضد" (ابن ابي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٩٤).

(٦١) الجوارش: القميحة، وهي كالسفوف يُتخذ للهضم وهو الجوارش.

(٦٢) ابن جلجل (ابو داود سليمان بن حسان الأندلسي)، (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م)، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد السيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ١٩٥٥، ص ٦٥، القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٨٠، ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٤٦.

(٦٣) راجع كتابنا لمحات في تاريخ نصارى العراق، بغداد ١٩٨٢.

(٦٤) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٢٥.

للربيع: "أنزله في منزل جليل من دورنا وأكرمه كما تكرم أحص الأهل... وأمر أن يُحباب الى كلّ ما يسأل" (٦٥).

ولم يقتصر الحال على ذلك بل وصل الاهتمام إلى حدّ أن يتفقّد الخلفاء الحالة الاجتماعية لأطبّائهم، كالزواج مثلاً (٦٦).

ومن اهتمام الخليفة بغذاء الاطبّاء ومشربهم، استفسار الخليفة المنصور من الربيع عن أحوال جيورجيس إذ قال له: "أرى هذا الرجل قد تغيّر وجهه، لا يكون قد منعه ممّا يشربه على عادته؟ قال له الربيع: لم نأذن له ان يدخل الى هذه الدار مشروباً. فأجابه بقبّيح العبارة وقال له: لا بدّ ان تمضي بنفسك حتى تُحضر من المشروب كلّ ما يريده. فمضى الربيع الى قطرّبل (٦٧) وحمل منها غاية ما أمكنه من الشراب الجيّد" (٦٨).

ويذكر عن الطبيب يوحنا بن ماسويه، أنه كان من مجلس الخليفة الواصل (٦٩) وقدّم له الساقى "شرباً غير صافٍ ولا لذيق... فوجّه أمير المؤمنين كلاماً في السقّة وقال: يسقون أطبائي وفي مجلسي مثل هذا الشراب؟! (٧٠).

(٦٥) المصدر نفسه، ص ١٨٤.

(٦٦) راجع الحاشية، رقم ٥٤ من هذا البحث.

(٦٧) قطرّبل، قرية بين بغداد وعكبرا، وقيل هو إسم الطسوج من طساسيج بغداد، فما كان من شرقيّ الصراة فهو بادورياً. وما كان غربيّها فهو قطرّبل: الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، راجع معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٥٥، ج ٤، ص ٣٧١.

(٦٨) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ١٨٤.

(٦٩) الواصل بالله (هارون بن محمد المعتصم) تاسع الخلفاء العباسيين (٢٧٧-٢٣٢هـ/٨٤٢-٨٤٧م)، ولد في بغداد، العام ٢٠٠هـ/٨١٥م، ومات بسامراء. شغل بعلم الكلام والاختلافات الكلامية.

(٧٠) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٣٦.

وكان للأطباء مجالس خاصة، أحيانا ما تعقد مع الخلفاء، كالذي حصل مع الطبيب سلمويه بن بنان الذي كان يصل الخليفة المعتصم في مجالس جدّه وهزله^(٧١).

وفي أحيان أخرى يعقد الأطباء مجالس للظرف والمنادمة يجتمع فيها أكابر العلماء والأطباء، ومن أمثلة ذلك مجلس الطبيب سهل بن كوسج^(٧٢) الذي كان يجتمع فيه مع الطبيب يوحنا بن ماسويه وجيورجيس بن بختيشوع وعيسى بن حكم^(٧٣) وزكريا بن الطيفوري وغيرهم، وكانوا يهابون سهلاً لكبر سنّه وطول لسانه وسلطته^(٧٤).

ويُروى أيضاً في إطار احترام الأطباء وارتفاع منزلتهم كعلماء ذوي مكانة مرموقة لدى الدولة والمجتمع ما حصل للطبيب أبي الحسن ثابت بن قره الخرائي عندما كان يمشي مع الخليفة المعتضد في بستان دار الخليفة: "وكان الخليفة فيها متكئاً على يد ثابت، فنثر يده عن يد طبيبه وقال: "يا أبا الحسن... سهوتُ ووضعْتُ يدي على يدك واستندتُ عليها، وليس هكذا يجب أن يكون، فإن العلماء يعلون ولا يُعلون"^(٧٥).

(٧١) المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

(٧٢) سهل بن سابور (الكوسج) (+٨١٣) كان بالأهواز ومات قبل وفاة المأمون بأشهر. صاحب الأقرباذين. كثير الهزل، غلب هزله على جدّه وكلّهم كان يخاف لسانه (القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٩٦، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ١: ١٦٩).

(٧٣) عيسى بن الحكم الدمشقي (القرن التاسع) والمشهور بمسيح صاحب الكناش الكبير الذي يعرف به (قصة معالجته لفضيض أمّ ولد الرشيد) كان خبيراً بالطب، حسن المباشرة والمعالجة (القفطي، المصدر نفسه، ص ٢٤٩).

(٧٤) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٢٨-٢٢٩، السامرائي، مختصر الطب العربي، ٢: ٤٥٢.

(٧٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٩٦، العلوجي، عبد الحميد، تاريخ الطب العراقي، مطبعة أسعد، بغداد ١٩٦٧، ص ٣٦.

إن طبيعة العلاقة قد تجاوزت حدود فحص الخلفاء ومعالجتهم الى الحد الذي كان فيه الطبيب للخليفة، صديقاً وندماً وسميراً وعشيراً حميماً^(٧٦)، بل تصل العلاقة أحياناً الى حد أنهم ينادون الطبيب بـ(أبي) على نحو ما جرى بين الطبيب سلمويه والخليفة المعتصم^(٧٧)، بل كان يكتني الأطباء ولا يسميهم إكراماً وإكباراً^(٧٨).

وكان الخلفاء يتابعون أطباءهم عندما يمرضون ويعودونهم إما شخصياً أو بإرسال الكتاب والحجاب إليهم. وهذا ما حصل عند مرض الطبيب جيورجيس سنة ١٥٢هـ/٧٦٩م، طبيب الخليفة المنصور. وكان يتفقد أوضاعه الصحية بإيفاد خدّمه كل يوم للاطلاع على حاله، وعندما اشتدّ مرضه أمر الخليفة أن يُحمل على سرير إلى دار العامة، وتوجّه إليه الخليفة ماشياً، وأطلع على خبره، وأذن له بالانصراف إلى بلده نزولاً عند رغبته^(٧٩).

وكذلك عندما مرض سلمويه بن بنان طبيب الخليفة المعتصم، عاده الخليفة شخصياً وبكى عنده، وعند وفاته امتنع الخليفة عن الطعام بعد أن أحضر جنازته إلى دار الخلافة وتمّت الصلاة عليها بالشموع والمحارم^(٨٠).

وقد حصل ذلك أيضاً في زمن الخليفة المتوكل عندما مرض طبيبه إسرائيل بن زكريا الطيفوري. عاده الخليفة "يوماً وقد غشي عليه، فصير يده

(٧٦) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٨٧، ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٤٩، القس سليمان صائغ، تاريخ الموصل، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٢٨، ج ٢، ص ٤٦.

(٧٧) ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء، ٢٣٤، ١٩٠.

(٧٨) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٠٠، ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٥٦.

(٧٩) ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء، ص ١٨٥، عبد الحميد العلوجي، تاريخ الطبّ العراقي، ص ٣٥.

(٨٠) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٠٧، ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٣٤.

تحت رأسه مخدّة، ثم قال للوزير: يا عبد الله، حياتي معلقة بحياته، إن عدمته لا أعيش. ثم اعتلّ فوجّه اليه سعيداً ابن صالح حاجبه، وموسى بن عبد الملك كاتبه يعودانه^(٨١).

وفي المجتمع، عندما يكون الانتماء الديني أو المذهبي أساساً في تصنيف الفئات الاجتماعية وتحديد منزلتها ومقامها في بلاط الخليفة والتزامها بمراسيم ذلك البلاط، يؤثر ذلك على منزلة الأطباء بسبب انتمائهم الديني. وهذا ما لوحظ على الطبيب أوحد الزمان وقد كان في خدمة المستنجد بالله^(٨٢) - أبي البركات (ت. حوالي ٥٦٠هـ/١١٧٢م).

وقد قيل إن سبب إسلامه أنه دخل يوماً الى الخليفة فقام جميع من حضر إلا قاضي القضاة فإنه كان حاضراً ولم ير أنه يقوم مع الجماعة لكونه ذمياً. فقال: يا أمير المؤمنين إن كان القاضي لم يوافق الجماعة لكونه يرى أنني على غير ملتة: فأنا أسلم بين يدي مولانا، ولا أتركه ينقصني بهذا. وأسلم^(٨٣).

كما كان للأطباء نشاط اجتماعي يوازنون من خلاله علاقتهم مع الفئة التي ينتمون اليها دينياً وغيرها. فوازنوا المسألة الاجتماعية بين علاقتهم مع المسلمين من الخلفاء وبين علاقتهم مع فئتهم. وهذا ما يلاحظ في إهداء الطبيب قسطا بن لوقا البعلبكي^(٨٤) كتاب في "معرفة الخدر وأنواعه وعلله

(٨١) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٢٥.

(٨٢) المستنجد بالله (يوسف بن المقتفي) الخليفة العباسي الثاني والثلاثون (٥٥٥-٥٦٦هـ/١١٦٠-١١٧٠م). ولد سنة ٥١٠هـ/١١١٦. قطع دابر الفساد وكان من أحسن الخلفاء سيرة مع رعيته.

(٨٣) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٣٧٥-٣٧٦.

(٨٤) قسطا بن لوقا البعلبكي (٨٢٠-٩١٢) رياضي، ناقل، طبيب، فيلسوف فلكي. كان يجب أن يُقدّم على حنين لفضله ونبله وتقدمه في صناعة الطب. وقد ترجم بعض الكتب

وأسبابه وعلاجه" إلى قاضي القضاة أبي محمد الحسن بن محمد، لتمتين علاقته، في حين أهدى بطريق البطارقة، أبي غانم العباس بن سنباط "كتاب في الأغذية على طريق القوانين الكلية"^(٨٥).

٢- الشراء

لا شك أن المردودات الاقتصادية التي كان يحصل عليها الأطباء، عند معالجة الخليفة أو إحدى نساء بلاطه، كانت أحد الأسباب التي زادت من أهمية الطبيب ومنزلته اجتماعياً. فقد كان يحمل الإيراد السنوي لبعضهم، مثل الطبيب جبرائيل بن بختيشوع^(٨٦)، (٤,٩٠٠,٠٠٠ درهم) على الوجه الآتي^(٨٧):

(أ) من رسوم العامة: (في كل شهر).

١٠,٠٠٠ درهم (عن الورق)

٥,٠٠٠ درهم (نزل في الشهر).

القديمة، وكان بارعاً في اللغة اليونانية، جيد العبارة بالعربية. توفي بأرمينية عند بعض ملوكها (ابن النديم، الفهرست، ص ٢٩٥).

(٨٥) ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ٣٣٠.

(٨٦) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٤٢-١٤٣، ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص ١٩٨-٢٠٠.

(٨٧) هو بختيشوع (جبرائيل بن بختيشوع بن جيورجيس) (٢١٣هـ/٨٢٨م) طبيب ومنطقي. قال ابن أبي أصيبعة عنه في "عيون الأنباء" (١: ١٢٧-١٣٨): "كان مشهوراً بالفضل. جيد التصرف في المداواة، سعيد الجَدَّ حظياً عند الخلفاء، رفيع المنزلة عندهم، كثير الإحسان إليه. وحصل من جهته من الأموال ما لم يحصله غيره من الأطباء... أحبه جعفر البرمكي مثل نفسه وكان لا يصبر عنه ساعة، ومعه يأكل ويشرب... أمر له الرشيد بخسمائة ألف درهم فأحبه مثل نفسه رئيساً على جميع الأطباء..."

(ب) من رسوم الخاصة:

(في كل سنة من الورق).	درهم	٥٠,٠٠٠
(ثياب).	درهم	١٠,٠٠٠
(بدفعتين بالسنة لفصد الخليفة الرشيد).	درهم	١٠٠,٠٠٠
(بدفعتين بالسنة لشرب الدواء).	درهم	١٠٠,٠٠٠
(كل سنة من الورق من أصحاب الرشيد عن قيمة الكسوة والطيب والدواب) وعلى النحو الآتي:	درهم	٤٠٠,٠٠٠
(يؤخذ من عيسى بن جعفر).	درهم	٥٠,٠٠٠
(يؤخذ من زبيدة أم جعفر).	درهم	٥٠,٠٠٠
(يؤخذ من العباسة).	درهم	٥٠,٠٠٠
(يؤخذ من فاطمة أم محمد).	درهم	٧٠,٠٠٠
(يؤخذ من إبراهيم بن عثمان).	درهم	٣٠,٠٠٠
(يؤخذ من الفضل بن الربيع).	درهم	٥٠,٠٠٠
(كسوة وطيب ودواب).	درهم	١٠٠,٠٠٠

(ج) من أملاكه في جنديسابور:

(في كل سنة غلة ضياعه بجنديسابور والسوس والبصرة والسواد).	درهم	٨٠٠,٠٠٠
(من فضل مقاطعته).	درهم	٧٠٠,٠٠٠

(د) ومن البرامكة:

٦٠٠,٠٠٠ درهم (في كل سنة تؤخذ من يحيى بن خالد).

١,٢٠٠,٠٠٠ درهم (في كل سنة تؤخذ من جعفر بن يحيى).

٦٠٠,٠٠٠ درهم (في كل سنة تؤخذ من الفضل بن يحيى).

وعلى الرغم مما يلاحظ من المبالغة التي كان يتقاضاها الطبيب جبرائيل، إلا انها تشير إلى اعظم الثراء الذي كان عليه، وإلى تنوع الجهات لتلك المبالغ^(٨٨).

ومن التخصيصات التي حُدِّدت للأطباء، وكانت مجالاً للثراء، ما أجراه الفضل على ماسويه في كل شهر ستمائة درهم، وعلوفة دابّتين، ونزل خمسة غلمان^(٨٩).

وغالباً ما ترتفع هذه التخصيصات بفعل نشاط الطبيب وجهوده. وهذا ما حدث عندما عالج الطبيب ماسويه عيون الخليفة هارون الرشيد وبرئت، "فأمر بأن يجري عليه ألفا درهم في الشهر، ومعونة في السنة عشرون ألف درهم، وعلوفة ونزل"^(٩٠).

ومما يذكر بهذا الصدد أن الطبيب أبا نصر المسيحي^(٩١)، طبيب الخليفة الناصر لدين الله، حصل من أجل الشفاء، العين من الدنانير عشرين ألف

(٨٨) مؤيد عيدان كاطع، الخدمات الصحية في العراق خلال العصر العباسي، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة الموصل ١٩٨٥، ص ٩٦.

(٨٩) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٢٤٣.

(٩٠) ابن ابي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٤٣. فرات فائق خطاب، الكحالة عند العرب، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الحرية للطباعة. بغداد ١٩٧٥، ص ٣٤-٣٥.

(٩١) هو سعيد بن أبي الخير بن عيسى (بدء القرن الثالث عشر) كان من المتميزين في صناعة الطب والأفاضل من أهلها والأعيان من أربابها. مات وقد قارب مائة سنة (ابن أبي اصيبعة) عيون الأنباء: ص ٣٠١.

دينار، ومن الثياب والخلع جملة وافرة وألزم الخدمة، وفُرضت له الجامكية السنّية والراتب والإقامة^(٩٢). وذلك بعد أن عالج الخليفة الناصر لدين الله وشفاء من حصاة في مثانته^(٩٣).

ودليل آخر على ثراء الأطباء ما ذكر عن الطبيب أبي الفرج صاعد بن هبة بن توما^(٩٤)، من أهل بغداد، بعد أن قُتل، سنة ٦٢٠هـ/١٢٢١م، "أنه حمل من داره الى الخزانة من الدنانير العين ثمانمائة الف وثلاثة عشر ألف دينار، وبقي الأثاث والأموال بما يقارب تتمة ألف الف دينار فترك لولده^(٩٥)".

وبالرغم من الجهد التي توصل اليه الاطباء وعاشوا تحت كنفه لم تخل حياتهم من نكبات أو أحداث، لأن العلاقة بين الأطباء والخلفاء مهما تكن راسخة وقوية، إلا أنها تبقى قلقية، ومتعلّقة بنجاح الأطباء بالشفاء أو إخفاقهم. فالطبيب مُلزم أن يهب السلامة لكي يحافظ على نفسه. وحين أخفق الأطباء في علاج الخليفة موسى الهادي^(٩٦)، قال لهم: "أنتم تأخذون أموالى وجوازى وفي وقت الشدة تتقاعدون بي". فامر بمعاقبتهم^(٩٧).

(٩٢) ابن أبي اصبيعة، المصدر نفسه، ص ٤٠٤ د. السامرائي، المصدر نفسه، ٢: ٤٢١.

(٩٣) ابن أبي اصبيعة، المصدر نفسه، ص ٤٠٤، د. السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، الجزء الثاني، ص ٤٢١.

(٩٤) صاعد بن هبة الله بن توما (+٦٢٠هـ/١٢٢٣م) جاء عنه في تاريخ ابن العبري، ص ٤٢١: "وفي السنة ٦٢٠ في ٢٨ جمادى الأولى ليلة الخميس قُتل أبو الكرم صاعد بن توما النصراني الطبيب البغداديّ ويلقب بأمين الدولة. كان فاضلاً، حسن العلاج كثير الإصابة، وكان من ذوي المروءات، تقدم في أيام الناصر الى ان صار في منزلة الوزراء على حفظ أمواله وخواصّه. وكان يودعها عنده...".

(٩٥) ابن أبي اصبيعة، المصدر نفسه، ص ٤٠٥.

(٩٦) موسى بن محمد المهدي، الخليفة العباسي الرابع (١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٦م). ولد بالريّ سنة ١٤٤هـ/٧٦١م. حاول إكراه اخيه الرشيد على التنازل عن الولاية، ولاية العهد، فقتل في دار الحريم بالموصل بتحريض من أمه الخيزران.

(٩٧) ابن أبي اصبيعة، المصدر نفسه، ص ١٤٠.

وهناك حالة أخرى تمثل موقفين نقيضين من خليفة واحد الى طبيب واحد: فعند مرض إحدى نساء حاشية الخليفة الرشيد عالجها الطبيب جبرائيل وبرئت فأمر الخليفة له بخمسمائة ألف درهم، وأحبّه وجعله رئيساً لجميع الأطباء^(٩٨) ولكننا نجد الخليفة الرشيد ايضاً يسأل طبيبه في مرضه: "لم لا تُبرئني؟" فيجيب جبرائيل: "إنني نصحتك بالامتناع من التخليط بالطعام، وتخفيف الجماع، وأن تعود من طوس، وأرجو أن يمنّ الله بعافيتك". فأمر بحبسه^(٩٩). وهذا ما يبيّن درجة الثقة القائمة بين الخليفة وطبيبه، بحيث أنه مهما يكن المرض، فعلى الطبيب أن يشفيه ويمنحه السلامة. ولدى آية صعوبة تواجه الطبيب، وتحول دون شفاء المريض، أو أن يردّ بجواب موضوعي عن سبب المرض يغيب الخليفة مثلاً، فإنه يعرض نفسه للخطر.

إلا أن أهمّ حدث في هذا المجال ذلك الذي جاء في عهد الخليفة الناصر لدين الله، إذ اشتدّ مرضه وطال أمده وزاد ألمه. وعندما لم يوفق طبيبه أبو الخير المسيحيّ في معالجته، دعا الطبيب أبا نصر بن المسيحي، "فقال الخليفة: هذا الشيخ أخطأ ولا بدّ من صلبه. فقام ابو نصر بن المسيحي وقبّل الأرض وقال: يا مولانا، بحق نعمة الله عليك، وبمن مضى من أسلافك الطاهرين لا تسنّ على الأطباء هذه السنّة، وأما الرجل فلم يخطئ في التدبير، ولكن، لسوء حظّه لم ينتهِ المرض"^(١٠٠). فعفا عنه الخليفة.

وأحياناً تكون المظاهر الاجتماعية غير العادية سبباً آخر في نكبة الأطباء وتعرضهم للخطر. وهذا ما حصل للطبيب بختيشوع بن جبرائيل في زمن الخليفة المتوكل، "إذ بلغ في الجلالة والرفعة، وعظم المنزلة وحسن الحال وكثرة

(٩٨) القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٣٥.

(٩٩) القفطي، المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(١٠٠) ابن ابي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٠٤.

المال، وكمال المروءة ومباراة الخلافة في الزيّ واللباس، والطيب، والفرش والصناعات والتفسيح، والبذخ في النفقات مبلغاً يفوق الوصف، فحَسَدَه المتوكل وقبض عليه" (١٠١).

ومن الأطباء من أدركوا مخاطر هذه العلاقة وقلقها، فحافظوا على علاقتهم وصولاً الى استقرارها وإبعادها عن المخاطر، وأحكموا الموازنة بدقّة وتواصلوا مع سلسلة من الخلفاء كالطبيب يوحنا بن ماسويه "الذي خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل" (١٠٢).

-
- (١٠١) ابن ابي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٥، ينظر أيضاً: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٨٥.
- (١٠٢) ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحق (ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م)، الفهرست، مكتبة خيَّاط، بيروت ١٩٦٤، ص ٤١١ القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٨١.

الفصل الحادي عشر

دور أهل الذمة في الحضارة العربية الإسلامية (في العلوم والآداب والفنون)

كان لقدوم العرب المسلمين الى بلاد الرافدين أثر كبير في تغيير الحياة الفكرية لديهم كما وحدث توسعاً ثقافياً وحركة علمية كبرى من تمازج الافكار وتزاوجها، افكار الجيش الفاتح والشعب المفتوحة بلاده مما جعل سكان العراق يقبلون على دراسة اللغة العربية وآدابها وعلى المراجع الإسلامية (القرآن والحديث) لشرحها وتوضيحها فانشتت المدارس التي بدورها تركت نتائج عظيمة انعكست على المسلمين والنصارى على حدّ سواء حيث برز الكثير من العلماء، واشتغلوا بالثقافة العربية على مستوى رفيع، فلمع اسماء كثيرة منهم في كتب التاريخ والطبقات^(١).

لقد اقبل اهل الذمة بعد الفتح الاسلامي للعراق على تعلّم اللغة العربية ودراسة آدابها، واخذوا يصوغون افكارهم، وعلومهم وآدابهم بما ينسجم والدين الاسلامي والتقاليد العربية، فاصبحت اللغة الحضارية السائدة في العراق هي العربية، ولذلك فان الشعوب غير الاسلامية (غير العربية) فقدت ذاتيتها اللغوية^(٢) واخذ العرب من ثقافات البلاد المفتوحة، ما يتلاءم ودينهم الاسلامي، وتقاليدهم العربية، فاخذوا من اليونان الرياضيات والحساب والهندسة والفلسفة والطب، وقليلاً من الثقافة الهندية، وتأثروا بالتقاليد

(١) ابن النديم، الفهرست، البلاذري، فتوح البلدان، ابن سعد، الطبقات.

(٢) Goitein, Jews and Arabs, p.127

الفارسية ونظام الحكم ونظام الطبقات^(٣) وفي الحياة السياسية والاجتماعية فيقول الجاحظ^(٤) (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م): (وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونان وحولت آداب الفرس، فبعضها ازداد حسناً وبعضها ما انتقص شيئاً، ولو حولت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن مع انهم لو حولوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم التي وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم)^(٥).

ان إقبال أهل الذمة على تعلّم اللغة العربية للتقرّب من الفاتحين وقد أدّى انتشارها الى شعور المجتمع العراقي بالانسجام والتجانس على اختلاف قومياتهم وأديانهم، فوحدت اللغة شعورهم واهدافهم وكان لها اثر في إقبال الكثير من اهل الذمة على الدخول في الاسلام^(٦).

لم يكن إقبال أهل الذمة على دراسة العربية بسبب الاكراه او الاجبار وانما كما يقول المستشرق بارتولد^(٧): ان غلبة اللغة العربية كان بالاختيار لا بسلطان الحكومة، وان تسامح العرب المسلمين أدّى الى انتشار العربية فدرس حنين بن اسحق^(٨) في مدرسة الخليل بن احمد الفراهيدي^(٩)، وسيبويه^(١٠)،

(٣) احمد امين، ضحى الاسلام، ج ١ ص ٣٧٧.

(٤) الجاحظ: البيان والتبيين، الجزء الأول.

(٥) الجاحظ، كتاب الحيوان، ج ١ ص ٣٨.

(٦) دمجين، النظم الاسلامية، ص ١١.

(٧) بارتولد، الحضارة الاسلامية، ص ٣٠.

(٨) حنين بن اسحق (٨٠٩-٨٧٣م) طبيب مسيحي نسطوري من قبيلة عباد العربية. ولد في الحيرة/العراق. درس الطب في بغداد وتخلّع باليونانية. عينه الخليفة المأمون (٨١٣-٨٣٣م) على بيت الحكمة. انصرف الى الترجمة فنقل الى السريانية والعربية بعض كتب افلاطون وارسطو وديوسقوريدس وجالينوس. له كتاب (عشر مقالات في العين).

حتى أصبح حجة في العربية^(١١). وتلمذ يحيى بن عدي^(١٢) في المنطق على يد الفارابي^(١٣) حتى أصبح افقه رجال عصره^(١٤). ودرس ثابت بن قرّة^(١٥) على يد محمد بن موسى. وتلقى بن جزلة^(١٦) على يد الوليد من رجال المعتزلة^(١٧).

(٩) الخليل بن احمد الفراهيدي (ت نحو ٧٨٦ م) اشهر علماء اللغة العربية واضع علم العروض من اهل البصرة، معلم سيبويه والاصمعي، له كتاب "العين" اول معجم عربي على الحرف.

(١٠) سيبويه (ابو بشر عمرو بن عثمان) (ت نحو ٧٩٦ م) نحوي، ولد في البيضاء قرب شيراز ونشأ في البصرة، تعلّم على الخليل بن احمد. إمام مذهب البصريين وكتابه في النحو هو "الكتاب" شرحه ابن السراج والسيوافي والرّماني.

(١١) ابن ابي اصيبعة، عبون الانباء، ج ١ ص ١٨٥ و ١٨٩.

(١٢) يحيى بن عدي (٨٩٣-٩٧٤ م) منطقي تكريتي مسيحي. تلميذ ابي بشر والفارابي، نقل الى العربية كتاب النفس لارسطو.

(١٣) الفارابي (ابو نصر محمد) ولد في فاراب (تركستان) وتوفي في دمشق عام ٩٥٠ م. من اعظم فلاسفة الاسلام. درس في بغداد وحرّان ثم اقام في حلب في بلاط سيف الدولة الحمداني (٩٤٤-٩٦٧) حاول التوفيق بين الفيلسوفين ارسطو وافلاطون من جهة، وبين الدين والفلسفة من جهة اخرى. لقب بالمعلم الثاني بعد ارسطو وكان متضلعا من الرياضيات والموسيقى. اهم مؤلفاته: رسالة نصوص الحكم و"اراء المدينة الفاضلة".

(١٤) ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص ٢٩٦.

(١٥) ثابت بن قرّة (٨٣٦-٩٠١ م) كان طبيباً حاذقاً واديباً بارعاً وله كتاب التاريخ الذي ابتدأ به ايام الخليفة، المقتدر. كان صيرفيا بحران. قصد بغداد فاشتغل بالفلسفة والطب وبرع فيها. صنف مائة وخمسين كتابا للمعتضد منها الذخيرة في الطب.

(١٦) ابو علي يحيى بن عيسى بن جزلة (ت ١١٠٠ م) كان مسيحياً، طبيباً فاضلاً وقد قرأ الطب على مسيحي الكرخ الذين كانوا في زمانه، ومن تصانيفه: كتاب المنهاج الذي جمع فيه الادوية والاغذية المفردة والمركبة. ورسالة في الردّ على النصارى ومدح فيها الاسلام.

(١٧) ابن ابي اصيبعة، عبون الانباء، ج ٢ ص ١٩٢.

يقول الخربوطلي^(١٨): (كان اهل الذمة مضطرين الى تعلّم العربية لصلتهم بالعرب في شؤون الزراعة والصناعة والتجارة، كما أدّى تعريب الدواوين في عهد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان^(١٩) وتعريب الثقافة الى انتشار العربية على نطاق واسع بين اهل الذمة فقد كان عليهم اتقانها حتى يحتفظوا بوظائفهم في الدولة).

الترجمة

بعد أن قطع اهل الذمة مرحلة كبيرة في تعلّم العربية وآدابها، أخذوا ينقلون علومهم الى العربية، فاستطاعوا بذلك اضافة علومهم وافكارهم الى ما عند العرب المسلمين، فتكونت من ذلك مزيج من الحضارات، اصبحت في ذاتها تختلف عن غيرها من الحضارات السابقة مصوغة بالطابع العربي، والاسلوب الاسلامي، فسميت بالحضارة العربية الاسلامية، التي اخذت تنمو وتزدهر منذ العصور الاسلامية الاولى، واتت ثمارها في العصر العباسي الاول حيث اصبحت بغداد حاضرة الامبراطورية العباسية، فتهافت عليها رجال العلم والثقافة، والادب والاقتصاد والمال، لما كانت تتمتع به من المركز الثقافي والعلمي والسياسي والاقتصادي، فنبغ اعداد كبيرة من الشعراء والادباء والعلماء والفلاسفة، وكان أبرزهم في هذه الميادين المسيحيون والفرس^(٢٠). واهم ما برزوا فيه الترجمة من اليونانية والفارسية والهندية. أما اليهود والصابئة

(١٨) الخربوطلي، الاسلام واهل الذمة، ص ١١٦.

(١٩) عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥م) الخليفة الاموي الخامس، وحّد الامبراطورية بعد أن قضى على مصعب بن الزبير عام ٦٩١م واخيه عبد الله منافس البيت الاموي، على الخلافة عام ٦٩٢م. حارب الخوارج ووقع بهم عام ٦٩٩م. اخضع ثورة عبد الرحمن بن الاشعث في دير الجماجم، انصرف الى تدعيم اسس الامبراطورية. أنشأ البريد. عربّ دواوين الدولة وصلك النقود الذهبية.

(٢٠) روافيل بابو اسحق، احوال نصارى بغداد، ص ١٣٥.

فكان نصيبهم ضئيل جداً من الحضارة لانعزالهم لحد كبير عن المجتمع العربي. ويؤيد ذلك ما رواه المستشرق لوبون عن اليهود قبل الاسلام فيقول: (لم يكن لليهود علوم، ولا فنون، ولا صناعة، ولا أي شيء تقوم به حضارة)^(٢١).

الادب العربي والشعر

نعم المسيحيون بعد الفتح الاسلامي بنوع من التسامح الديني وحرية المعتقد، ولما كانوا عرباً او سرياناً، فقد التفوا حول المسلمين للروابط القومية واللغوية التي تربطهم باخوانهم العرب المسلمين، فاقبلوا على بعث التراث العربي وذلك بالناية باللغة العربية وآدابها فاخذوا ينقلون من اللغة السريانية الى العربية، ولان اللغة العربية اوسع من السريانية بدليل ما فيها من أسماء كثيرة ليس عند السريان ولا عند غيرهم الا اسم واحد فقط^(٢٢).

كما عني المسيحيون بدراسة الأدب العربي. فلما قامت الدولة العربية في العصر الاموي، وقبض الامويون على مقاليد الامور، اعتمدوا على الاحزاب السياسية لضرب خصومهم، فقرّبوا الشعراء والادباء، واغدقوا عليهم الاموال لمدهم، ولتايد حقهم في الخلافة^(٢٣)، ومن مشاهير شعراء المسيحية في العصر الاموي الاخطل^(٢٤) الملقب (بذي الصليب) لانه كان يعلق صليبا على صدره^(٢٥). من اهل الحيرة، وموضعه من الشعر كبير اكبر من ان يحتاج الى وصف. فهو وجريز والفرزدق طبقة واحدة، وقد لقبه عبد الملك بن مروان

(٢١) لوبون، اليهود في تاريخ الحضارات الاولى، ص ٢٥-٣١.

(٢٢) ايليا برشينايا، المجالس السبعة (مخطوط) ورقة ٢٨.

(٢٣) روفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٩٥.

(٢٤) الاخطل (غيات التغلي) (٦٤٠-٧١٠م) هكذا لقب لطول لسانه او لارتقاء أذنيه. كان مسيحياً من بني تغلب المنتمين الى الكنيسة السريانية الارثوذكسية. وهو ابن غوث بن الصلت بن طرفة التغلي الحيري (الاصفهانى، الاغانى، ج ٧ ص ١٦٢).

(٢٥) روفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٩٥.

بـ(اشعر العرب) وقال فيه الخليفة ايضاً: (لكل قوم شاعر، وان شاعر بني أمية الاخطل)^(٢٦). وقد هجا اعداء الامويين من قيسيين وزبيريين فليل فيه: يا عجب للأخطل النصراني يهجو المسلمين. وكان يدخل على الخليفة عبد الملك بن مروان بغير اذن، وفي عنقه سلسلة ذهب فيها صليب وتنفض لحيته خمرأ^(٢٧). وقال حماد الراوية فيه: حينما سُئل عن الاخطل: ما تسألوني عن رجل حبب الى شعره النصرانية^(٢٨).

واشتهر من شعراء النصرانية في العصر الاموي اعشى بني تغلب^(٢٩) وكان مكرماً من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك^(٣٠) واقام مع قومه بنواحي الموصل وديار ربيعة^(٣١).

واشتهر اعشى ربيعة^(٣٢) (ابي ربيعة) وهو من ساكني الكوفة، وكان مرواني المذهب شديد التعصب لبني أمية. رحل الى الشام ومدح الخليفة عبد الملك، والخليفة سليمان ابن عبد الملك، ونال صلاتهم^(٣٣).

(٢٦) الاصفهاني، الاغاني، ج ٧ ص ١٦٢-١٦٧.

(٢٧) الاصفهاني، الاغاني، ج ٧ ص ١٦٩.

(٢٨) المدور، حضارة الاسلام في دار السلام، ص ٣٦.

(٢٩) قيل اسمه ربيعة وقيل النعمان بن يحيى بن معاوية بن تغلب، (الاصفهاني، الاغاني، ج ١٠ ص ٩٣).

(٣٠) الوليد ابن عبد الملك، الخليفة الاموي السادس (٧٠٥-٧١٥م) في عهده نعمت الامبراطورية بالاستقرار بعد الحروب الداخلية المنهكة وبلغت اوجها. مدّ حدود الامبراطورية فتوغلت الجيوش العربية بقيادة قتيبة بن مسلم في الشرق واحتلت بخارى وسمرقند وخوارزم وفرغانة (٧٠٦-٧١٢) بينما فتح محمد بن القاسم الهند واجتاز السند واحتل دلتاه وبلغ حيدر آباد. اما في الغرب ففتح موسى بن نصير طنجة عام ٧١٠ واحتل قائده طارق بن زياد الاندلس (٧١١-٧١٤) سيّد الجامع الاموي في دمشق واعاد بناء جامع المدينة. توفي في الاربعين من عمره.

(٣١) الاصفهاني، الاغاني، ج ١٠ ص ٩٣.

ومنهم مرقس الطائي واسمه عبد الرحمن ظهر ايام الدولة الاموية^(٣٤).

ومنهم ايضا حنين الحيري الشاعر المغني، وكان من نصارى الحيرة ويعتبره صاحب مسالك الابصار من مشاهير اهل الموسيقى ومن سراة اهل الغناء^(٣٥). ذكره ابن النديم في الفهرست واليه تنسب الحنينيات التي ورد ذكرها في شعر دعبل الخزاعي^(٣٦). وذكر الاصفهاني^(٣٧) حنيناً: بانه كان شاعراً ومغنياً اما شعره فلم يبق منه الا القليل، واما غناؤه فكثير. وله الاصوات المتعددة^(٣٨). ومنهم الشاعر القطامي^(٣٩)، التغلي، ابن اخت الاخطل، كان ابوه من أصحاب خالد القسري^(٤٠) والي الكوفة. وقال الاصفهاني^(٤١) كان القطامي نصرانياً، وهو شاعر اسلامي (عاش في العصور الاسلامية) وذكر ديوانه حاجي خليفة (١٠٦٨هـ/١٦٥٦م)^(٤٢) في كشف الظنون ومات سنة ١٠١هـ.

(٣٢) الاصفهاني، الاغاني، ج ١٦ ص ١٦٠.

(٣٣) الجاحظ، التاج، ج ٤ ص ١٦٣.

(٣٤) شيخو، شعراء النصرانية قبل الاسلام.

(٣٥) العمري، مسالك الأبصار.

(٣٦) شيخو، شعراء النصرانية قبل الاسلام.

(٣٧) الاصفهاني، الاغاني.

(٣٨) الاصفهاني، الاغاني.

(٣٩) القطامي (عُمير بن شَيْم بن عمر) من قبيلة تيم بن اسامة التغلي. شاعر عاصر الاخطل. ساهم في النضال بين تغلب وقيس عيلان. وصف مغامراته في شعره. توفي سنة ٧١٠م والقطامي لقب غلب عليه وهو من اسماء الصقر.

(٤٠) خالد بن عبد الله القسري، من قبيلة بجيلة حاكم مكة في عهد الوليد سنة (٧٠٩م) عهد اليه هشام بن عبد الملك بحكم العراق عام ٧٢٤م اشتهر بحزمه وانصرف الى الاصلاحات الاقتصادية، فشجع الزراعة وجفف المستنقعات ووطد السلام شيد كنيسة في الكوفة اكراماً لوالدته المسيحية وظهر تسامحاً كبيراً. توفي ودفن في الحيرة عام ٧٤٣م.

(٤١) الاصفهاني، الاغاني، ج ٢٠ ص ١١٨.

(٤٢) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٣ ص ٣٠٢.

وكان الشاعر كعب بن جميل التغلبي موالياً لبني أمية، كالاخطل وحارب مع قومه في صفين^(٤٣). واتصل كعب بسعد بن العاص، وكان امير الكوفة لعثمان بن عفان^(٤٤) وامتدحه بشعر، وعاصر الدولة الاموية، الا انه كان حسناً ايام خلافة معاوية بن ابي سفيان وابنه يزيد وقد ضاع ديوان شعره^(٤٥). وروى الجاحظ^(٤٦) ان يزيد بن معاوية طلب من كعب بن جميل ان يهجو الانصار فقال له كعب: أراد انت الى الكفر بعد الاسلام، لا اهجو قوماً نصرُوا رسول الله وآووه ولكني سادلك على غلام في الحي كافر كان لسانه لسان الثور، يعني بذلك الاخطل.

ومن شعرائهم العديل بن الفرغ البكري، وكان نصرانياً عاصر حكم الحجاج الثقفي^(٤٨) بواسط^(٤٩)، وعاش في البصرة، وكان ينادم الفرزدق ويصاحبه^(٥٠).

(٤٣) صفين: موضع على الحدود السورية على شاطئ الفرات الايمن بين الرقة وبالس، عنده تلاحم جيشا علي بن ابي طالب ومعاوية ابن ابي سفيان عام ٦٥٧م. وبعد هدنة مؤقتة استؤنف القتال الذي انتهى بتحكيم القرآن بين المحاربين.

(٤٤) عثمان بن عفان: ثالث الخلفاء الراشدين (٦٤٤-٦٥٦م) قريشي من عائلة أمية وأحد تجار مكة الكبار. اعتنق الاسلام باكراً تزوج برقية بنت محمد ثم بام كلثوم. بويع له بالخلافة بعد عمر. عهد الى افراد عائلته بالمناصب القيادية. جمع القرآن. قتل في داره وهو في الثامنة والثمانين من عمره دافعت عنه زوجته نائلة بن القرافصة الحيرية المسيحية.

(٤٥) لويس شيخو، شعراء النصرانية ج ٢ ص ٢٠٣-٢٠٨.

(٤٦) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١ ص ٦٣.

(٤٨) الحجاج بن يوسف الثقفي: ولد في الطائف واشتهر بولائه للبيت الاموي. حارب عبد الله بن الزبير منافسهم في الخلافة، وحاصر مكة، والمدينة والكعبة، عينه عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥) واليا على العراق (٦٩٤-٧١٤). اسس مدينة واسط في العراق ووسّع حدود الامبراطورية العربية حتى آسية الوسطى. قضى على الخوارج عام ٦٩٧ عني بشؤون الري والاصلاح النقدي. اشتهر بالخطابة.

(٤٩) واسط: مدينة في العراق بين البصرة والكوفة. أنشأها الحجاج بن يوسف الثقفي (٧٠٢-٧٠٥) كانت قاعدة العراق الجنوبي في العهد الاموي. اخذت بالانحطاط في العهد العباسي.

وأما العجاج بن رؤبة، وهو عبد الله بن رؤبة من تميم عاش في البصرة منذ أيام الراشدين والامويين ومدح من خلفاء بني أمية يزيد بن معاوية، وسليمان بن عبد الملك وبشر بن مروان. ومدح عاملهم في العراق الحجاج الثقفي. وعاش الى أيام الوليد بن عبد الملك، ومات سنة ٩٠ هـ^(٥١).

العلوم والآداب في العصر العباسي

وقد ازدهرت العلوم والآداب والفنون في العصر العباسي (٧٥٠-١٢٥٨م) وشجعهم على ذلك خلفاء بني العباس كما اهتموا ايضا بدراسة اللغة العربية وآدابها وادى هذا الاهتمام الى ظهور جمهرة من الكتاب تنافسوا في صناعة الانشاء العربي وتفننوا في اساليبه ومقاصده ومعانيه^(٥٢).

فعرف من شعراء النصرانية في العصر العباسي: ابو قابوس عاش في عهد الرشيد^(٥٣)، وكان منقطعاً الى شعراء البرامكة كالرقاشي، واشجع السلمي، جحظة البرمكي. وتقرب بهم الى الرشيد فقال فيه البغدادي (ت ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ م)^(٥٤): (دخل ابو قابوس على جعفر البرمكي في يوم بارد

(٥٠) الاصفهاني، كتاب الاغاني، ج ٢٠ ص ١٩.

(٥١) لويس شيخو، شعراء النصرانية، ج ٢ ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٥٢) روفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٩٦. لويس شيخو، شعراء النصرانية، ج ٢ ص ٢٤١.

(٥٣) هارون الرشيد، الخليفة العباسي الخامس (٧٨٦-٨٠٩) ابن المهدي والخيزران. جاء الى العرش بعد اغتيال اخيه الهادي (٧٨٥-٧٨٦) حارب البيزنطيين وهو لا يزال حاكماً على المقاطعات الغربية (٧٩٧-٨٠٢) وبلغ ابواب القسطنطينية، حمل مرات على البيزنطيين بعد خلافته واقر الامن في افريقيا. ازدهرت في عهده التجارة والادب والعلوم. لعب البرامكة دوراً هاماً قبل ان يوقع بهم عام ٨٠٣. توفي في طوس بايران. قبره في المشهد الرضوي.

(٥٤) البغدادي، تاريخ بغداد، ص ٨٣، عن نسخة باريس.

خاصا به برد فقال جعفر: يا غلام اطرَح عليه كساء، فطرَح عليه كساء من خَزَّ قيمته الف دينار).

ومن اشهرهم ابو تمام الطائي، وهو حبيب بن أوس الطائي، ويكنى بأبي تمام. وتام ابنه كان يعمل بدمشق عند حائك. ثم رحل إلى العراق وبلغ الخليفة المعتصم^(٥٥) خبره فحمل اليه فمدحه ابو تمام بقصائد عدة فاجازه المعتصم وقدمه على شعراء عصره^(٥٦).

وظهر شعراء وأدباء آخرون من النصارى بعد عصر المتوكل^(٥٧) منهم: ثابت بن هارون، وبشر بن هارون، وعيسى بن فرخنشاه الذي اشتهر في أيام الخليفة المستعين والمهتدي والمعتز والمعتد، واسمه يدل على ان اصله من نصارى العجم^(٥٨). وابن بطريق، وقد تسمى غير واحد بابن بطريق كسعيد ابن بطريق صاحب التاريخ، ويحيى او يوحنا بن بطريق، وعيسى بن بطريق، وكلهم نصارى عاشوا في القرن الثالث الهجري، والارجح ان احدهم هو الشاعر، وغيرهم كثيرون ممن عاشوا في القرن الرابع والخامس الهجريين.

(٥٥) المعتصم بالله: الخليفة العباسي الثامن (٨٣٣-٨٤٢م) ابن هارون الرشيد من جارية تركية. تولى حكم مصر قبل خلافته. قضى على الزط الذين عاثوا فساداً بين البصرة وبغداد واجلاهم الى قيليقية. كما قضى على حكم بابك الخرمي في اذربيجان بفضل قائده الافشين عام ٨٣٧م. انزل بالبيزنطيين هزيمة نكراء واحتل عمورية، بنى عاصمة جديدة له في سامراء.

(٥٦) لويس شيخو، شعراء النصرانية، ج ٢ ص ٢٥٧.

(٥٧) المتوكل على الله (٨٤٧-٨٦١م) الخليفة العباسي العاشر. ابن المعتصم من جارية فارسية. سعى الى اعادة السلطة للخلافة وحارب المعتزلة. حاول نقل عاصمته الى دمشق ليتخلص من تأثير القادة الاثراك غير انه عاد الى سامراء حيث اغتاله القادة الاثراك بالاشتراك مع ابنه الاكبر. كان موته بداية انحطاط الخلافة العباسية.

(٥٨) لويس شيخو، شعراء النصرانية، ج ٢ ص ٢٦٤.

النساطرة ودورهم الثقافي

ولقد قام النساطرة في العراق بدور كبير في نشر الثقافة بين الفرس قبل الفتح الاسلامي، وبين العرب المسلمين بعده، فانشأوا مدرسة طبية في الرها^(٥٩)، وبعد خرابها انتشر النساطرة في بلاد فارس ونالوا نفوذاً سياسياً فيها، وأسسوا في جنديسابور^(٦٠) من أعمال خوزستان كلية طبية جديدة^(٦١).

وأول من علّم الطب فيها أطباء من الروم. وقد روى ان الحارث بن كلدة الثقفي^(٦٢) طبيب العرب، تعلّم قبيل الاسلام في مدرسة جنديسابور^(٦٣). وكانت تدرّس فيها الثقافة الهندية بجانب الثقافة اليونانية، واشترك بعض الهنود في التدريس بها باللغة الفهلوية^(٦٤).

يقول المستشرق ديورانت^(٦٥)، كان بنو أمّية حكماء اذ تركوا المدارس الكبرى المسيحية او الصابئية او الفارسية قائمة خاصة في حرّان^(٦٦)

(٥٩) الرها (اورفا - إديسة) مدينة بين النهرين في تركيا. اشتهرت بمدرستها اللاهوتية، التي أنتقلت اليها من نصيبين عام ٣٦٣م بعد فتح الفرس لهذه المدينة، فاصبحت الرها عاصمة الآداب السريانية حتى القرن السابع الميلادي. من اشهر اساتذتها مار افرام السرياني ورايولا الرهاوي. فتحها العرب المسلمون عام ٦٣٩م.

(٦٠) جنديسابور: مدينة ايرانية في خوزستان. اسسها سابور الاول واسكن فيها الشعوب اليونانية التي اسرها. فتحها موسى الاشعري سنة ٦٣٨م في عهد الخليفة عمر بن الخطاب. اشتهرت بمدرستها الطبية ولغتها الآرامية (السريانية).

(٦١) سيديو، تاريخ العرب العام، ص ٢٨٦.

(٦٢) الحارث بن كلدة.

(٦٣) القفطي، اخبار الحكماء، ص ١٦١.

(٦٤) احمد أمين، ضحى الاسلام، ج ١ ص ٢٥٦.

(٦٥) ديورانت، قصة الحضارة، ج ١٣ ص ١٧٧.

(٦٦) حرّان: مدينة قديمة في ما بين النهرين. قاعدة بلاد مضر. فتحها العرب المسلمون على يد عياض بن غنم عام ٦٣٩. اشتهرت بالفلاسفة والعلماء واعظمهم ثابت بن قرّة

ونصبيين^(٦٧) وجنديسابور وغيرها، ولم يمسوها باذى. وقد احتفظت هذه المدارس بامهات الكتب الفلسفية والعلمية ومعظمها في ترجمته السريانية. وما لبث ان ظهرت ترجماتها الى العربية على ايدي النساطرة المسيحيين، وقد بقيت هذه المدارس تؤدي عملها في العصور الاسلامية. وزاد اتصالها بالمسلمين في العصر العباسي، وذلك منذ عهد الخليفة المنصور^(٦٨) حيث تعذر على اطبائه علاج معدته، فدلّوه على جيورجيس بن بختيشوع^(٦٩) رئيس اطباء مدرسة جنديسابور^(٧٠).

وتعاقب غيره من خيرة اطباء مدرسة جنديسابور على الانصراف لعلاج خلفاء بني العباس، وكانوا جميعاً مسيحيين.

أما في العراق فقد انشأ المسيحيون فيه خمسين مدرسة وكانت تدرّس فيها العربية وآدابها السريانية واليونانية والفارسية. وكانت تقام في الكنائس

واولاده والبتاني. ذكرت التوراة انها كانت موطن أسره ابراهيم الخليل بعد هجرته من اور. كانت مركزاً هاماً على طريق التجارة بين نينوى الى كركميش. دعاها الرومان كارهاي، فيها سقط كاسيوس قاتل قيصر في معركة ضد الفريثيين.

(٦٧) نصبيين: مدينة في ما بين النهرين على نهر جفجف، اشتهرت قديماً بمدرستها السريانية. (٦٨) المنصور (ابو جعفر): الخليفة العباسي الثاني (٧٥٤-٧٧٥) خلف اخاه السفاح. انتصر على عمه عبد الله بن علي المطالب بالعرش عام ٧٥٤. ثم اطاح بقائده ابي مسلم الخراساني. اخضع ثورات العلويين: ثورة محمد الملقب بالنفس الزكية في المدينة عام ٧٦٢ وثورة ابراهيم اخي محمد في الكوفة التي انتهت بمقتله في باخمري كما قضى على فتنة المقنع في فارس عام ٧٧٠ م والبربر في شمالي افريقية بنى بغداد ودعاها دار السلام. نظم الشؤون الادارية والمالية والبريد. توفي بعد عودته من الحج عام ٧٧٥ م.

(٦٩) جيورجيس بن بختيشوع: عالج الخليفة المنصور منذ عام ٧٦٥ م وله معه اخبار كثيرة وكلمة بختيشوع عبد يسوع، وخلفه اولاده واحفاده في معالجة البلاد العباسي نحو ثلاثة قرون.

(٧٠) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٧٥. روفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٧٨. وكتابه احوال نصارى بغداد.

والبيع والديارات^(٧١). وقد درّس في هذه المدارس المختلفة العلوم العقلية واللغوية والنحو والشعر والتاريخ والجغرافية والموسيقى والهندسة والفلك والطب والمنطق والفلسفة والرياضيات والدين (اللاهوت) بالإضافة الى اللغة العربية والسريانية واليونانية والهندية^(٧٢). وقد الحق بهذه المدارس خزائن لكتب والمكتبات^(٧٣).

شجع الامويون حركة الترجمة الى العربية واول كتاب طبي ترجم الى العربية كان في خلافة مروان بن الحكم^(٧٤) وهو كناش^(٧٥) أهرن القس بن اعين، وقد احتوى على ثلاثين مقالة نقلها من السريانية الى العربية ماسرجويه الطبيب البصري^(٧٦)، وزاد عليه مقالتين^(٧٧).

وقد أقام الرهبان المدارس والاديرة، فكانت في دير مار فتيون مدرسة كبيرة، وقال المؤرخ ماري بن سليمان: (لما بنى الخليفة المنصور مدينة (في

(٧١) روفائيل بابو اسحق، مدارس العراق قبل الاسلام، ص ٣٧.

(٧٢) ادي شير، تاريخ كلدو وآثور، ص ٧.

(٧٣) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٤٣. روفائيل بابو اسحق، احوال نصارى بغداد، ص ١٣٧.

(٧٤) مروان بن الحكم، الخليفة الاموي الرابع (٦٨٣-٦٨٥م) به انتقلت الخلافة من السفينيين الى المروانيين. دافع عن عثمان بن عفان واشترك في معركة الجمل ببيع بالخلافة في مؤتمر الجابية ثم في دمشق عام ٦٨٤م. انتصر على القيسيين الذين ايدوا ابن الزبير في معركة مرج راهط شمالي دمشق واستولى على مصر مات بالطاعون.

(٧٥) كناش جمعها كناشات وهي اوراق تجعل كالدفتر يقيدها الفرائد والشوارد (تاج العروس ج ٤ ص ٣٤٧، مصر، ١٩٤٨).

(٧٦) ماسرجويه او ماسرجيس: طبيب يهودي، نقل من السريانية الى العربية عند طلب الخليفين مروان وابنه عمر بن عبد العزيز (٦٨٢-٧٢٠م) "كتاب الطب" للقس هارون وهو من اقدم التأليف العربية الطبية.

(٧٧) روفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٧٨.

الكرخ) ونزلها الناس هدم سبريشوع (جاثليق النصارى) وجدد بناء بيت الاشهاد (الشهداء) والاروقة ونصب اسكولا (مدرسة) وجمع المتعلمين بها^(٧٨).

وكان للمسيحيين في الكرخ مدرسة اخرى، فذكر ابن القفطي^(٧٩) (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) ان ابن بطلان الطبيب البغدادي قرأ الطب على علماء زمانه من نصارى (الكرخ).

وذكر ابن العبري^(٨١): (ان الطبيب البغدادي يحيى بن عيسى بن جزلة درس الطب لدى نصارى الكرخ الذين كانوا في ايامه)^(٨٢) ودرب القراطيس^(٨٣)، وبيعة الكرخ^(٨٤)، ودرب دينار^(٨٥)، وسوق الثلاثاء^(٨٦)،

(٧٨) ابن القفطي، اخبار الحكماء، ص ١٩.

(٧٩) القفطي (جمال الدين ابو الحسن علي) (١١٦٧-١٢٤٨م). ولد في قفط. سمع الحديث في مصر وحلب. وزير الملك العزيز (١٢٣٥م) جمع من الكتب ما لا يوصف فاوصى بها للناصر صاحب حلب. له "اخبار او تاريخ العلماء باخبار الحكماء". طبع في لايبزك عام ١٩٠٤م.

(٨١) ابن العبري (غريغوريوس ابو الفرج) (١٢٢٦-١٢٨٦م) ولد في ملطية وتوفي في مراغة (اذريجان) من المع رجالات الادب والعلم لدى السريان. هاجرت عائلته الى انطاكية بعد الغزو المغولي (١٢٤٣م) درس الطب والفلسفة في طرابلس. اسقف حلب السرياني ثم مغريان تكريت (١٢٦٤م) كتب في اللاهوت والفلسفة والنحو والعشر له "مختصر تاريخ الدول" و"التاريخ الكنسي" و"تاريخ الازمنة".

(٨٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٣٣٩.

(٨٣) بطرس نصري، ذخيرة الأذهان، ج ١ ص ٣٩١.

(٨٤) يقع في غرب الكرخ ببغداد. وكانت فيه مدرسة (اخبار فطاركة كرسي المشرق ص ٨٥).

(٨٥) راجع المجلد، ص ١١٩.

(٨٦) اخبار فطاركة كرسي المشرق، ص ١٣١.

مدارس واسعة تضم بين جدرانها مئات من الطلاب. واكبر هذه المدارس مدرسة مار ماري التي تقع بعيدا عن بغداد في دير قني^(٨٧) وقد نبغ فيها اعظم مشاهير علماء النصارى^(٨٨). ويبدو أن هذه المدارس كانت دينية خاصة بالنصارى وتدرّس فيها بالاضافة الى العلوم الدينية اللغة السريانية واليونانية، لذا اصبحت من مراكز الثقافة اليونانية والسريانية حتى الفتح الاسلامي.

مدارس الموصل

واشتهرت الموصل بمدارسها منها مدرسة دير مار كبريل المعروف بالدير الاعلى على نهر دجلة في جوار الطابية العليا (باشطابية)^(٨٩). ومدرسة مار ايليا الجزري (الحيري) في غربي الموصل^(٩٠). وكانت تدرس في هذه المدارس مختلف العلوم والفلسفة واللاهوت واللغات.

ومن المدارس التي اسسها المسيحيون في العراق مدرسة قطسفون^(٩١) او طيسفون او المدائن. وفي اوائل القرن السابع للميلاد اشتهرت مدرسة قنسرين^(٩٢) على الفرات بتعليم فلسفة اليونان، وابرز تلامذتها الاسقف

(٨٧) دير قني: موضع في العقار جنوبي بغداد، كان فيه دير عظيم في العهد العباسي اشتهر بكرومه. اندثر قبل القرن الثالث عشر. مسقط رأس الكثيرين من الرجال الذين لعبوا دوراً كبيراً في البلاط العباسي.

(٨٨) مجلة المشرق، ج ١ ص ٤٤٥.

(٨٩) باشطابية: لفظة تركية تعني التل الرئيسي وهو بقايا آثار قلعة الموصل. راجع بطرس نصري، ذخيرة الاهان، ج ١ ص ١٩١.

(٩٠) سليمان صائغ، تاريخ الموصل، ج ١ ص ٩٣، ج ٢ ص ٤٤.

(٩١) قطيسفون او طيسفون: انقاض مدينة جنوبي بغداد هي اليوم سلمان باك. دعاها العرب "المدائن" شيدها الفريثيون وجعلوها مع الساسانيين العاصمة الشتوية عقد فيها مجمع سلوقية-قطيسفون (٤١٠م). اهم آثارها طاق كسرى.

(٩٢) قنسرين: قرية في سورية تعرف باسكي حلب. حصنها سلوقس نيكاتور ودعاها كالسيس ادبيولم. كانت على طريق القوافل بين حلب وانطاكية: فتحها ابو عبيدة الجراح عام ٦٣٧م.

ساويرس الذي نقل بعض علوم الفلسفة واللاهوت الى السريانية، وبرز من تلامذته يعقوب الرهاوي^(٩٣) واضع علم النحو السرياني. وجيورجيوس المعروف بأسقف العرب^(٩٤) فقد ترجم بعض كتب ارسطو^(٩٥).

أثر المدارس السريانية في الثقافة العربية

وكان لهذه المدارس أثر كبير في نشر الثقافة، وبما أنجبت تلك المدارس من العلماء والادباء والمؤلفين، وكان ابرزهم في العصر العباسي يوحنا بن ماسويه^(٩٦) رئيس اعظم مدرسة في بغداد في العصر العباسي. ويعقوب الكندي^(٩٧) فيلسوف العرب، وحنين بن اسحق^(٩٨) شيخ ترجمة عصره ورئيس الفلاسفة والاطباء.

(٩٣) يعقوب الرهاوي (نحو ٦٣٣-٧٠٨م): ولد في انديا (مقاطعة انطاكية) ودرس في دير قنسرين لاهوتي وفيلسوف ومؤرخ سرياني مونوفيزي. تلمذ لساويرس شابخت اسقف الرها. اعاد النظر في ترجمة العهد القديم (البسيطة) له تاريخ ينتهي بعام ٦٩٢م ومؤلفات طقسية ومواعظ (طرازي، عصر السريان الذهبي، ص٧).

(٩٤)

(٩٥) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ج ٣ ص ١٥٠.

(٩٦) يوحنا بن ماسويه: طبيب سرياني مسيحي. عهد اليه الرشيد ترجمة الكتب الطبية. طبيب البلاط العباسي منذ عهد المأمون (٨١٣-٨٣٣م) حتى أيام المتوكل (٨٤٧-٨٦١م) توفي بسامراء عام ٨٥٧م.

(٩٧) ابو يوسف الكندي: من كبار مفكري التاريخ. لقب بـ"فيلسوف العرب" مارس نشاطه الفلسفي والعلمي في بغداد على عهد المأمون (٨١٣-٨٣٣) عني بالرياضيات والمنطق والعلوم الطبيعية والفلك والموسيقى. اقتبس ونقل الى العربية مؤلفات اليونان الفلسفية والعلمية، توفي نحو عام ٨٧٠م.

(٩٨) حنين بن اسحق (٨٠٩-٨٧٣) طبيب مسيحي نسطوري من قبيلة عباد العربية. ولد في الحيرة/العراق. درس الطب في بغداد وتضلّع باليونانية. عينه الخليفة المأمون (٨١٣-

وقد تأثر هؤلاء الى حدّ كبير بتشجيع العرب المسلمين لهم في ميادين العلوم والمعارف ويؤيد ذلك المستشرق ديورانت بقوله: (كان المسلمين شديد التحمس بتوسيع ونشر علوم الطب والعلوم الصيدلانية فانشأوا مدارس للطب والصيدلة، وانشأوا المستشفيات (المارستانات) ولدينا اسماء اربعة وثلاثين بيمارستان كانت قائمة في البلاد الاسلامية. في ذلك الوقت).

المدارس والترجمة

وقد كانت هذه المدارس لا تقوم فقط بمهمة التعليم لمختلف صنوف العلم والمعرفة وانما كانت دوراً للترجمة والتأليف، فتعتبر الفترة الواقعة بين ظهور الفرق المسيحية وبين الفتح الاسلامي للطرق غنية بالترجمة من اليونانية الى السريانية لتأييد معتقداتها، وكانت الترجمة منصبة على علم اللاهوت والدراسات الدينية. وبعد الفتح الاسلامي حيث ابتدأت الترجمة من اليونانية الى العربية وذلك منذ العصر الاموي بتأثير المسيحيين في القرن الاول الهجري، فان خالد بن يزيد الاول^(٩٩) (ت ٨٥هـ) كان اول المحبين لعلوم اليونان، فامر بترجمة الكتب في علم الهيئة والطب والكيمياء حتى يروى انه وجد الحجر الفلسفي الذي يصنع به الذهب الاصطناعي^(١٠٠).

ومن اشهر ما نبغ في العصر الاموي من المترجمين يعقوب الرهاوي الذي ترجم كثيراً من كتب الالهيات اليونانية الى العربية^(١٠١) ودخلت علوم اليونان وفلسفتهم الى العرب في العصر العباسي منذ خلافة المنصور حيث كان شغوفاً

٨٣٣ على بيت الحكمة. انصرف الى الترجمة. فنقل الى السريانية والعربية بعض كتب افلاطون وارسطو وديوسقوريدس وجالينوس. له كتاب "عشر مقالات في العين".

(٩٩) خالد بن يزيد.

(١٠٠) بارتولد، تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٦٩.

(١٠١) احمد امين، فجر الاسلام، ص ١٦٢.

بالطب والهندسة والفلك والنجوم، وهو اول من راسل ملك الروم يطلب منه كتب الحكمة، فبعث اليه بكتاب اقليدس^(١٠٢)، وبعض كتب الطبيعيات^(١٠٣). وجمع حوله صفوة مختارة من العلماء في مختلف نواحي المعرفة. وشجع على ترجمة العلوم من اللغات الاخرى.

وترجم يحيى بن بطريق^(١٠٤) كتاب المجسطي، وترجم كل من جورجيس بن جبرائيل الطبيب^(١٠٥)، وعبد الله بن المقفع^(١٠٦) كتب المنطق لارسطو طاليس^(١٠٧) وافلاطون^(١٠٨). واعتنى يوحنا بن ماسويه وسلام الابرش^(١٠٩) وباسيل المطران بكتب الطب^(١١٠).

(١٠٢) اقليدس (القرن الثالث قبل الميلاد) علّم الهندسة في الاسكندرية، على ايام بطليموس الاول، ووضع مبادئ الهندسة، المسطحة.

(١٠٣) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١ ص ٦٧٩.

(١٠٤) يحيى (يوحنا) بن البطريق: ولد نحو سنة ٨١٥م. انصرف الى ترجمة المؤلفات الغربية، اهم ما نقله الى العربية "السياسة" و"المقولات العشر" لارسطو وكتاب "الاربعة" لبطليموس.

(١٠٥)

(١٠٦) عبد الله بن المقفع: مؤلف عربي من اصل فارسي. لقب ابوه بالمقفع لانه اتهم باختلاس مال الخراج فضرب على يده فتفقت أي تشنجت. امر المنصور والي البصرة بقتله لاسباب سياسية وكان الوالي يكرهه فاغتاله واماته شرّ ميتة عام ٧٥٩م نقل من البهلوية الى العربية كتاب "كليلة ودمنه" وله من الكتب المنقولة التي وصلت الينا "الادب الكبير" و"الادب الصغير".

(١٠٧) ارسطو (ارسطوطاليس) (٣٨٤: ٣٢٢ ق.م) مربّي الاسكندر: فيلسوف يوناني من كبار مفكري البشرية تأثرت بواحد التفكير العربي بتأليفه التي نقلها الى العربية النقلة السريان واهمهم اسحق بن حنين، مؤسس مذهب "فلسفة المشائين" مؤلفاته في المنطق والطبيعيات والالهيات والاخلاق: اهم "المقولات" "الجدل" "الخطابة" كتاب ما بعد الطبيعة "السياسة".

وقد زادت عناية الرشيد^(١١١) واهتمامه بترجمة الكتب فامر بترجمة جميع ما وقع في حوزتهم من الكتب اليونانية. كما وسع ديوان الترجمة الذي كان قد انشأه المنصور لنقل العلوم الى العربية وزاد عدد موظفيها^(١١٢). فولّى الخليفة تعريب الكتب الى الطبيب يوحنا بن ماسويه وعين له كتاباً حُذِّق يشتغلون بين يديه ويساعدونه في عمله^(١١٣).

ولما تولى المأمون^(١١٤) الخلافة اهتم بالترجمة والتأليف واخذ يضمن شروط الصلح مع ملوك الروم ارسال كتب الحكمة. فكان احد شروط الصلح بينه

(١٠٨) افلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) من مشاهير فلاسفة اليونان. تلميذ سقراط ومعلم ارسطوطاليس. درّس في بستان اكاذموس في اثينا. اساس فلسفته "نظرية الافكار" الحقيقية، ليست في الطواهر العابرة والزائلة ولكن في الافكار السابقة لوجود الكائن والتي هي مثال له. من مؤلفاته: "الجمهورية" او "السياسة". "المحاورات" "كريتون"، "فيدون"، "تيمة"، "الوليمة"، "الشرائع". وقد وصلت نصوصها في الغالب الى العرب ملخصة او مجزأة ما عدا "الشرائع" التي احرزت التأثير البليغ.

(١٠٩)

(١١٠) رفاعي، عصر المأمون، ج ١ ص ٣٧٩.

(١١١) هارون الرشيد: الخليفة العباسي الخامس (٧٨٦-٨٠٩ م). ابن المهدي والخيزران. جاء الى العرش بعد اغتيال أخيه الهادي (٧٨٥-٧٨٦ م). حارب البيزنطيين وهو لا يزال حاكماً على المقاطعات الغربية (٧٩٧/٨٠٢ م) وبلغ ابواب القسطنطينية. حمل مرات على البيزنطيين بعد خلافته واقرّ الامن في المقاطعات الفارسية وبين البربر (شمالي افريقيا). ازدهرت في عهده التجارة والادب والعلوم. ولعب البرامكة دوراً هاماً قبل ان يوقع بهم عام ٨٠٣ م). توفي في طوس بايران. قبره في المشهد الرضوي.

(١١٢) رفاعي، عصر المأمون، ج ١ ص ٣٧٩.

(١١٣) ابن القفطي، اخبار الحكماء، ص ٢٤٩. ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٧٥. خليفة، كشف الظنون، ج ١ ص ٦٨.

(١١٤) المأمون (٨١٣-٨٣٣ م) ابن هارون الرشيد من جارية فارسية. عهد اليه ابوه بالقسم الشرقي من الامبراطورية، احتل بغداد وقتل اخاه الامين عام ٨١٩ م. قضى على

وبين ميخائيل الثالث ان ينزله له (للمأمون) عن احدى المكتبات الشهيرة في القسطنطينية وكان بين ذخائرها الثمينة كتاب بطليموس^(١١٥) في الفلك، فامر المأمون بنقله الى العربية وسماه المجسطي^(١١٦). وأنشأ المأمون في بغداد بيت الحكمة، وهو مجمع علمي ومرصد فلكي ومكتبة عامة وأقام فيه طائفة من المترجمين من اهل الذمة واجرى عليهم الارزاق من بيت المال^(١١٧). وأرسل المأمون بعد ذلك بعثة علمية لشراء كتب من بلاد الروم مكوّنة من الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسَلَمَ صاحب دار الحكمة. (ت ٢١٥هـ/ ٨٣٠م) فآخذوا مما اختاره عدداً كبيراً وحملوه الى بغداد فامرهم المأمون بنقلها الى العربية. فاجتمع عند المأمون في دار الحكمة مجموعة كبيرة من كتب الفلسفة والمنطق والموسيقى والفلك وغيرها.

أهل الذمة والترجمة

ازدهرت الترجمة على ايدي اهل الذمة في الفترة الواقعة بين العام ٧٥٠-٩٠٠م، فقد عكفوا على ترجمة امهات الكتب السريانية واليونانية والفهلوية والهندية (السنسكريتية) الى العربية، وكان على رأس اولئك المترجمين في بيت

الخوارج في خراسان. حارب الامبراطور البيزنطي تيوفيل (٨٢٩-٨٤٢م) واجبره على قبول الصلح عام ٨٢٠م. عني بالثقافة والادب والفلسفة والعلوم، فأنشأ "بيت الحكمة". ازدهرت في عهده حركة النقل والترجمة. انحاز الى المعتزلة. توفي بالقرب من طرسوس. (١١٥) بطليموس (كلود) فلكي وجغرافي يوناني (نحو ٩٠-١٦٨م). ولد في مصر ونشأ في الاسكندرية. اشهر مؤلفاته "المجسطي" و"جغرافية بطليموس" وله النظرية البطليموسية في هيئة الافلاك القائلة ان الارض لا تتحرك والفلك يدور حولها. (١١٦) المجسطي: ومعناه الترتيب الكبير في علم الفلك وكان المرجع المهم في الفلك عند المسلمين وعند الاوربيين في القرون الوسطى (جواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام، ج ٣ ص ٣٥٤).

(١١٧) ديورانت، قصة الحضارة، ج ١٣ ص ١٧٨.

الحكمة. حنين بن اسحق الطبيب النسطوري، فقد ترجم الى اللغة السريانية مئة رسالة من رسائل جالينوس^(١١٨)، والى العربية تسعا وثلاثين رسالة اخرى. وترجم ايضا كتب المقولات الطبيعية والاخلاق الكبرى لارسطو، وكتب الجمهورية وطيماوس والقوانين وكتاب السياسة لافلاطون^(١١٩). فكان المامون يعطيه ذهباً زينة ما ينقله من الكتب^(١٢٠).

وقام ابنه اسحق^(١٢١) في أعمال الترجمة ايضا فنقل الى العربية من كتب ارسطو الميتافيزيقيا او النفس، وفي توالد الحيوانات وفسادها. كما نقل اليها شروح الاسكندر الافروديسي^(١٢٢) وهو كتاب كان له اثر كبير في الفلسفة الاسلامية^(١٢٣). وكان يعمل معه نقلة مجيدين امثال اصطفان بن باسيل^(١٢٤)،

(١١٨) جالينوس (نحو ١٣١-٢٠١م) طبيب يوناني. له اكتشافات خطيرة في التشريح من اكبر مراجع اطباء العرب.

(١١٩) ديورانت، قصة الحضارة، ج ١٣ ص ١٧٨.

(١٢٠) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٠٩-٤١٠. القفطي، اخبار الحكماء، ص ١١٧-١٢٢. ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٠٠.

(١٢١) اسحق بن حنين، توفي في بغداد عام ٩١١م. طبيب وفيلسوف مسيحي. نقل الى العربية عن اليونانية، او عن ترجماتها السريانية، كتب الفلسفة والرياضيات منها "اصول الهندسة" لافقليدس و"المسطوي" لبطليموس و"الكرة والاسطوانة" لارخميدس.

(١٢٢) اسكندر الافروديسي، (القرن الثاني الميلادي). فيلسوف يوناني. لنظريته في العقل الفعّال تأثير لا ينكر. من اهم شراح ارسطوطاليس. عرف العرب مؤلفاته وقَدروها حق قدرها. نعته ابن سينا بافضل المتأخرين واعتدَّ بأرائه اعتداداً كبيراً. وقد خالفه ابن رشد.

(١٢٣) ديورانت، قصة الحضارة، ص ١٣، ص ١٧٨.

(١٢٤)

وموسى ابن شاكر^(١٢٥)، ويحيى بن هارون^(١٢٦)، وحبيش بن الاعسم^(١٢٧)، وعيسى بن يحيى بن ابراهيم^(١٢٨).

وكان قسطا بن لوقا^(١٢٩) يشرف على الترجمة من اللغات اليونانية والسريانية الى العربية. كما كان يحيى بن هارون يشرف على الترجمة من الفارسية الى العربية^(١٣٠). وقد أقام المامون يوحنا بن البطريق الترجمان امينا على ترجمة الكتب الفلسفية من اليونانية الى العربية وتولى ترجمة كتب ارسطو وبقرات^(١٣١) في الفلسفة وغيرها^(١٣٢).

(١٢٥) اشتهر مع أخويه بعلم الحساب والهيئة والآلات من عهد المأمون (٨١٣-٨٣٣) الى عهد المتوكل (٨٤٧-٨٦١) وساهموا في حركة الترجمة وجمع المخطوطات.

(١٢٦)

(١٢٧) حبيش بن الاعسم الدمشقي. عاش على أيام المتوكل وبعده (القرن التاسع الميلادي). نقل الى العربية "حلف بقراط" وكتاب "المياه" لبقرات. وكتاب "الفواكه" لجالينوس ولديوسقوريدس.

(١٢٨) عيسى بن يحيى بن ابراهيم: تلميذ حنين بن اسحق (٨١٠-٨٧٣م) نقل الى العربية "الخصائص" لديوسقوريدس و"تدبير الامراض الحادة" و"الاخلاط" لابقرات، و"الاوراق الذوارب هل يجري فيها الدم بالطبع ام لا" لجالينوس.

(١٢٩) قسطا بن لوقا البعلبيكي: (٨٢٠-٩١٢م) طبيب ومنطقي مسيحي. نقل الى العربية مؤلفات اليونان واشتغل في صنع الآلات الفلكية، له مؤلفات عديدة منها "المرايا المحرقة" و"الفلاحة اليونانية".

(١٣٠) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ج ٢ ص ٢٩٩.

(١٣١) بقراط (نحو ٤٦٠-٣٧٧ ق.م) ولد في جزيرة كوسى (اليونان) اشهر الاطباء الاقدمين جعل للأمراض مصدرين: الهواء والغذاء. دعاه ارتحششتا لمعالجة الوباء المتفشي في بلاده فابى ان يخدم اعداء وطنه. نقلت بعض مصنفاته الى العربية منها: "تقدمة المعرفة" و"طبيعة الانسان".

(١٣٢) ابن القفطى، اخبار العلماء، ص ٢٤٨. ابن النديم، الفهرست ص ٤١٥.

ولم يكن الخلفاء وحدهم يهتمون بالترجمة والنقل الى العربية بل نafسهم الوزراء والامراء والاغنياء، واخذوا ينفقون الاموال الطائلة عليها، فيقول ابن الطقطقي^(١٣٣). (ان البرامكة^(١٣٤). شجعوا تعريب صحف الاعاجم حتى قيل ان البرامكة. كانت تعطي المعرب زنة الكتاب المعرب ذهباً)^(١٣٥).

وبالغ الفتاح بن خاقان^(١٣٦) في انفاق الاموال على الترجمة والتأليف. وكان عبد الملك بن الزيات^(١٣٧) لا يقل عنه سخاء في هذا المجال، ومن اشتهر من الاغنياء بتشجيع حركة الترجمة والتأليف محمد واحمد والحسن ابناء موسى بن شاكر، المنجم^(١٣٨) الذين انفقوا الاموال الضخمة في الحصول على كتب الرياضيات وكانت لهم آثار قيّمة في الهندسة والموسيقى والنجوم، وقد انفذوا

(١٣٣) ابن الطقطقي (محمد) (١٢٦١-١٣٠٩م) مؤرخ ولد في الموصل ونشأ فيها. وله "الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية" طبع في غوطا (١٨٦٠) وباريس مع ترجمة فرنسية (١٩١٠) ومصر (١٩٢٦).

(١٣٤) البرامكة او آل برمك: أسرة فارسية تقلدت الوزارة في عهد العباسيين (٧٥٠-٨٠٩) منهم: خالد: عهد اليه السفاح بديواني الجند والخراج ثم بالوزارة. لعب دوراً كبيراً في عهد المنصور، ويحيى ابنه وزير الرشيد. كان قبل ذلك حاكماً على اذربيجان ثم اصبح مؤدباً لهرون. لعب دوراً في ابعاد الهادي عن الخلافة. الفضل بن يحيى: اخو الرشيد بالرضاعة ومؤدب الامين. عيّن والياً على اقاليم ايران الغربية ثم على خراسان. اغاظ الرشيد فنزع عنه وظائفه توفي عام ٨٠٨، وجعفر ولأه الرشيد على مقاطعات ايران الغربية دون مغادرة البلاط. اصبح ناظراً للبريد والنقود، مؤدب المامون. قتل في النكبة الشهيرة عام ٨٠٣ التي لا تزال اسبابها الحقيقية مجهولة.

(١٣٥) ابن الطقطقي، الفخري، ص ٢٣٥.

(١٣٦) الفتاح بن خاقان: وزير المتوكل. كان أثيراً لدى الخليفة فناصر ابنه الاصغر المعتز على ابنه الاكبر المنتصر. قتل مع المتوكل عام ٨٦١م.

(١٣٧) عبد الملك بن الزيات:

(١٣٨)

حنين بن اسحق الى بلاد الروم فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات^(١٣٩).

اهل الذمة والطب

ولم يقتصر اهتمام النصارى بالترجمة ولا سيما ترجمة فلسفة اليونان بل تعداها الى غيرها من العلوم، فقد اهتموا بالطب، واشادوا قبل الاسلام المستشفيات في العراق واقاموا المدارس الطبية واعتنوا بصناعة الادوية.

ولما جاء الاسلام اهتم الخلفاء عامة برعاية الطب والاطباء قبل غيرهم من العلوم. ففي العصر الاموي (١٣٢هـ/٧٥٠م) استخدم الخلفاء الاطباء النصارى في بلاطاتهم وقصورهم. ومن هؤلاء ابن آثال^(١٤٠) وكان طبيباً مسيحياً للخليفة معاوية بن ابي سفيان^(١٤١) ويقول ابن ابي اصيبعة^(١٤٢): ان الخليفة عمر بن العزيز^(١٤٣) أمر بنشر كتاب الطب الشرعي الذي نقله الى

(١٣٩) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٤٠.

(١٤٠)

(١٤١) معاوية بن ابي سفيان زعيم بني امية. حاكم سورية في عهد عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤) وعثمان بن عفان (٦٤٤-٦٥٦). عارض عليا وقاتله في صفين (٦٥٧) فانهت المعركة بقبول التحكيم الذي انتهى بانتقال الخلافة اليه. حارب البيزنطيين واتم فتح شمالي افريقيا. اشتهر بدهائه. (راجع ايضا أحمد امين، فجر الاسلام، ص ٢٠٠).

(١٤٢) ابن ابي اصيبعة (١١٩٩-١٢٩٦م) ولد في دمشق وتوفي في صرخد. تعلم الطب على ابيه ثم كمل في المارستان الناصري في القاهرة. له "عيون الانباء في طبقات الاطباء".

(١٤٣) عمر بن عبد العزيز بن مروان (٦٨٢-٧٢٠م) ولد بالمدينة. أمير الحجاز (٧٠٦-٧٢٠م) خليفة اموي (٧١٧-٧٢٠م) اشتهر بتقواه وتمسكه بالسنة، انصرف الى اصلاح الداخلي والمالي واطهر تسامحا مع العلويين والنصارى والموالي.

العربية ومتطبب البصرة ماسرجويه في عهد الخليفة مروان بن الحكم، وقد وجده في خزائن الكتب بالشام^(١٤٤).

ومن اشهر اطباء النصارى في العراق في العهد الاموي تشاذوق^(١٤٥). وكان طبيباً فاضلاً وله نوادر في صناعة الطب، وكان مشهوراً عند الامويين بالطب، سحب الحجاج الثقفي في العراق، وخدمه بصناعة الطب، وكان الحجاج يعتمد عليه ويثق بمداواته^(١٤٦). ولتشاذوق من الكتب كناش كبير الفه لابنه، وكتاب ابدال الادوية وكيفية صنعها واذابتها، وشيء من تفسير اسماء الادوية^(١٤٧).

وقد دأب خلفاء بني أمية على رعاية الاطباء وتشجيع دراسة الطب، فانشأوا لاجل ذلك المستشفيات لمعالجة المرضى من الناس، واول مستشفى شاده الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨ هـ لمعالجة المجذومين^(١٤٨)، كما اتخذوا لانفسهم الاطباء من النصارى للإشراف على علاجهم.

وفي العصر العباسي اكثر الخلفاء من انشاء المستشفيات واختاروا لها الاماكن التي تمتاز بالهدوء والهواء العليل والماء النقي^(١٤٩). وجعلوا فيها اماكن خاصة للرجال واخرى للنساء وخصصوا لكل مرض قاعات خاصة ووضعوا للاشراف عليها اطباء متخصصين ومن أشهر المستشفيات في العصر العباسي

(١٤٤) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٦٣.

(١٤٥) تشاذوق:

(١٤٦) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ٢ ص ٣٢.

(١٤٧) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ٢ ص ٣٥.

(١٤٨) الطبري، تاريخ، ج ٢ ص ٦٦.

(١٤٩) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ٣٠٩-٣١٠.

الاول مستشفى العميان الذي انشأه المنصور^(١٥٠). ومستشفى الرشيد التي انشأها سنة ١٧٠هـ، ومستشفى علي ابن عيسى الوزير، واخذ الخلفاء فيما بعد ينشئون المستشفيات باسمائهم لعلاج العامة، ويوقفون لها الاموال الطائلة، ويشرفون احيانا بانفسهم على رعايتها^(١٥١). فكان الاطباء والصيادلة، خاضعين للامتحان ليحصلوا على اجازة الطب والتطبيب، وكان بكل مدينة مفتش خاص للصيدليات وتحضير الادوية^(١٥٢).

الاطباء والأسر الطبية

ومن ابرز الأسر المسيحية التي اشتهرت بالطب وبقي احفادها يتوارثون معالجة خلفاء بني العباس هي اسرة بختيشوع، فكانوا اطباء ومترجمين وفلاسفة، عالجوا المنصور والرشيد والامين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل. كما عالجوا الوزراء والامراء والقواد، وقال فيهم ابن ابي اصيبعة^(١٥٣): (ان جورجيس وولده كانوا من اجل اهل زمانهم بما خصهم الله من شرف النفوس ونبل الهمم، ومن البر المعروف والافضال والصدقات، وتفقد المرضى من الفقراء والمساكين، والاخذ بايدي المنكوبين والمرهوقين على ما يتجاوز الحد من الصفة والشرح).

وقد كان الخليفة المنصور قد استقدمه من مدرسة جنديسابور، وكان رئيس الاطباء فيها. وعينه طبيبه الخاص^(١٥٤) ومنذ ذلك الوقت توارث الاطباء

(١٥٠) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٣٦٦.

(١٥١) روفائيل بابو اسحق، احوال نصارى بغداد، ص ١٥٦.

(١٥٢) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٣٣.

(١٥٣) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٣٦.

(١٥٤) ابن جليل، طبقات الاطباء، ص ٦٤.

النساطرة وظيفه التطب في قصور الخلفاء العباسيين، واسسوا مدرسة للطب في بغداد، وكان بينهم ابنه بختيشوع الذي استقدمه الخليفة المهدي من جنديسابور أيضاً، فظل في خدمة ولده الهادي والرشيد الى ان توفي عام ٨٠٩م^(١٥٥) وقد قرّبه الرشيد اليه كثيراً وقال له: تكون رئيس الاطباء ولك يسمعون ويطيعون^(١٥٦).

واشتهر من هذه الاسرة جبرائيل بن بختيشوع (ت ٢١٣هـ/٨٢٨م) الذي كتب مدخلاً لعلم المنطق ورسالة للمأمون في التغذية والمشاريب وكتب في وصايا طبية كثيرة وفي الروائع^(١٥٧) وقد بلغت مقادير ثروته خلال عهود الرشيد والمأمون تسعة وثمانين مليون درهم^(١٥٨).

واشتهر منهم ايضا بختيشوع بن جبرائيل (ت ٢٥٧هـ/٨٧٠م) وقد تنعم بعطف المتوكل حتى انه كان يضاهيه في ملابسه، وحسن الحال وكثرة المال والمروءة، ومباراته في الطيب والجواري والعبيد^(١٥٩).

ومنهم ايضا يوحنا بن بختيشوع، وبختيشوع بن يوحنا (ت ٣٢٩هـ/٩٤٠م).

واشتهر من اطباء المنصور ايضا عيسى بن شهلا، وهو تلميذ جورجيس بن جبرائيل^(١٦٠) ومن اطباء المهدي^(١٦١) ابو قريش ويعرف بعيسى الصيدلاني

(١٥٥) ابن جلجل، طبقات الاطباء، ص ٦٤.

(١٥٦) ابن القفطي، اخبار الحكماء، ص ١٠٠.

(١٥٧) اسماعيل مظهر، تاريخ الفكر العربي، ص ١٧.

(١٥٨) ديورانت، قصة الحضارة، ج ١٣ ص ١٩٠.

(١٥٩) الخربوطلي، الاسلام واهل الذمة، ص ١٤٥-١٤٦.

(١٦٠) ابن العربي، تاريخ مختصر الدول، ص ١٢٤.

ولم يذكر في جملة الاطباء لانه كان ماهراً بصناعة الادوية^(١٦٢). ومن اطباء الهادي^(١٦٣) المتطبب الطيفوري، نقل له حنين عدة كتب في الطب، وكان احظى الناس عند الهادي^(١٦٤).

ومن الاطباء الكحالين جبرائيل الكحال، وقد اختصّ بخدمة الخليفة هارون الرشيد، وكانت وظيفته في كل شهر الف درهم^(١٦٥). ووضع المامون رئيساً لبيت الحكمة، وله مقالة في الحميات اصبحت المعول عليها في دراسة الامراض. ونقلت من بعد الى اللاتينية والعبرية^(١٦٦).

ويذكر ابن جليل (٩٩٤/هـ-٣٨٤/هـ): (ان له ثلاثون كتاباً منها كتاب البرهان وكتاب الكمال والتمام، وكتاب في الفصد والحجامة، وفي الادوية والجذام، والاغذية، وفي علاج المعدة، وفي الطب النسائي وتركيب الادوية)^(١٦٧).

(١٦١) المهدي: (٧٧٥-٧٨٥م) ثالث الخلفاء العباسيين ابن المنصور وخلفه. أنشأ الطرق العامة وحسن جهاز البريد فازدهرت التجارة في عهده، تعقب الخوارج في خراسان ولاحق الزنادقة. حارب البيزنطيين فتوغلت جيوشه حتى انقره والبوسفور.

(١٦٢) ابن القفطي، اخبار الحكماء، ص ٤٣٠.

(١٦٣) الهادي (موسى): الخليفة العباسي الرابع (٧٨٥-٧٨٦م) ابن المهدي، حاول اكراه الرشيد (٧٨٦-٨٠٩م) على التنازل عن ولاية العهد فقتل في دار الحريم بالموصل بتحريض من امه الخيزران يوم ١٥ ايلول عام ٧٨٦م.

(١٦٤) ابن القفطي، اخبار الحكماء، ص ٢١٩.

(١٦٥) ابن القفطي، اخبار الحكماء، ص ١٥٢.

(١٦٦) اسماعيل مظهر، تاريخ الفكر العربي، ص ٤٧.

(١٦٧) ابن جليل، طبقات الاطباء والحكماء، ص ٦٥. ابن النديم، الفهرست، ص ٢٩٥.

واشتهر منهم ماسوية بن يوحنا وقد رأس مدرسة الطب في بغداد، وله مترجمات ومؤلفات، ويوحنا بن ماسويه الذي اشتهر بالطب والصيدلة، واستخصه المامون لمهارته.

وكان سلمويه بن بنان طبيب المعتصم، وقد قرّبه اليه، وكان يرد الى الدواوين توقيعات المعتصم في السجلات وغيرها بخطه، وكان كل ما يرد على الامراء والقواد من خروج امر، وتوقيع من حضرة امير المؤمنين فبخط سلمويه^(١٦٨). ولما مرض سلمويه بعث المعتصم ابنه لزيارته، ولما مات امر بان تحضر جنازته الى القصر، وان يُصلّى عليه بالشموع والبخور جريا على عادة النصارى، وامتنع المعتصم يومه موته عن اكل الطعام^(١٦٩) وقال المعتصم سالحق به لانه كان يمسك حياتي ويدبر جسمي^(١٧٠). وله عشر مقالات في طب العين^(١٧١)، وفي الاغذية، وفي تدبير الناقهين، وفي الادوية^(١٧٢).

ومن اطباء النصارى المشهورين ايضا حنين بن اسحق العبادي، وقد برز بالاضافة الى الطب بالفلسفة وقد جعله المامون رئيسا لدار الحكمة ومشرفا على المترجمين فيها، وفي خلافة المتوكل قرّبه اليه واقطع له الاقطاعات^(١٧٣) واشتهر ابن اخته حبيش بن الاعسم وابنه اسحق (٢٩٨هـ/٩١١م) بالطب. فقال ابن القفطي عن اسحق (كان ابو يعقوب النصراني في منزلة ابيه في الفضل، وصحة النقل من اللغة اليونانية والسريانية، وكان فصيحاً يزيد على

(١٦٨) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ج ١ ص ١٦٤.

(١٦٩) الخربوطلي، الاسلام واهل الذمة، ص ١٤٥.

(١٧٠) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٩٦.

(١٧١) ديورانت، قصة الحضارة، ج ١٣ ص ١٩٠.

(١٧٢) ابن جليل، طبقات الاطباء والحكماء، ص ٦٩.

(١٧٣) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٥١.

ابيه في ذلك^(١٧٤) وقال فيه ابن خلكان (٦٨١هـ/١٢٨٢م)^(١٧٥): (كان اوحده عصره في علم الطب ويلحق بابيه في النقل وفي معرفته باللغات، وفصاحته فيها، وكان يعرّب كتب الحكمة التي بلغة اليونان الى العربية، كما كان يفعل أبوه. وله من الكتب، كتاب الكناش، وكتاب تاريخ الاطباء، وكتاب الادوية المفردة^(١٧٦)).

وألّف بعض النصارى كتباً طبية بالعربية وهم ابراهيم بن بگوس، ويحيى بن عدي^(١٧٧) وعيسى بن زرعة، والبيوردي، والفضل بن جرير، ويحيى بن جرير^(١٧٨). وقسطا بن لوقا، وكان حاذقاً في الطب والفلسفة، والتنجيم والهندسة والحساب، وله تأليف في الطب منها الفرق بين النفس والروح، وكتاب بين الناطق والصامت وكتاب في غلبه الدم^(١٧٩).

وقد لازم هؤلاء الاطباء النصارى الخلفاء في قصورهم وبلاطاتهم ويجلسون الى موائد طعامهم ويسامرونهم ويعالجون مرضاهم ويرافقونهم احياناً في حروبهم واسفارهم^(١٨٠). وكان الخلفاء بدورهم يجلبونهم، ويرحبون بهم، ويمنحونهم العطايا السخية ويعودونهم في منازلهم حين مرضهم، ويحضرون احياناً الصلاة عليهم بالشمع والبخور في جنازاتهم^(١٨١).

(١٧٤) ابن القفطي، اخبار الحكماء، ص ٥٧.

(١٧٥) ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ١ ص ١٨٥.

(١٧٦) ابن النديم، الفهرست، ص ٢٩٨.

(١٧٧) يحيى بن عدي (٨٩٣-٩٧٤م) منطقي تكريتي مسيحي. تلميذ ابي بشر يونس بن متى والفارابي. نقل الى العربية كتاب "النفس" لارسطو.

(١٧٨) افرام برصوم، اللؤلؤ المنشور، ص ٢٠٣.

(١٧٩) ابن جليل، طبقات الاطباء، ص ٧٦.

(١٨٠) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٢٦-٢٦٥.

(١٨١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٣. طرازي، عصر السريان الذهبي، ص ٢١.

الفلسفة والفلك

أما في الفلسفة فلم يكن للمسيحيين فلسفة أصلاً، وإنما جاءت اليهم عن طريق النقل والترجمة عن اليونانية، وبعد الفتح الاسلامي للعراق وفارس والشام نقلت من السريانية الى العربية. وقد قام السريان بتدريس الفلسفة اليونانية في مدارسهم، وعلّقوا عليها، وشرحوها ولا سيما فلسفة ارسطو وافلاطون. وابرز الفلاسفة السريان القس سرجيوس الراسعيني، ورهبان دير قنسرين الذين تعلقوا بدراسة فلسفة فيلوفوس فيلون الاسكندري الذي عاش في اواسط القرن السادس الميلادي.

كما ترجم السريان الكتب الفلسفية التي تناولت حِكَم فيتاغورس في الفضيلة وحدود افلاطون وحكمه التي كتبها الى تلاميذه، والحدود عن الله والايمان والمحبة والعدل وحِكَم الفلاسفة في النفس ونصائح الفلاسفة^(١٨٢).

ولقد اهتم النصارى بدراسة علم الفلك وعلم التنجيم^(١٨٣)، لأنها تصلح فيما يهم كل احد، مثل الكسوفات، والخسوفات، وتغيير الازمنة والاهوية والحرّ والبرد، وغير ذلك مما يتعلق بقرب الشمس وبعدها واتصال القمر بالكواكب وان هذا العلم مبني على جميع ما يجري في العالم من حركة الكواكب، ويتعلق هذا العلم بالحساب وعلم الهيئة^(١٨٤).

(١٨٢) افرام برصوم، اللؤلؤ المنتور، ص ١٩١-١٩٩.

(١٨٣) وهو ما يعبر عنهما بعلم الهيئة الذي يعرف باسماء مختلفة مثل علم التنجيم او الافلاك، وان كانت كلمة التنجيم قد انحصرت في قراءة الطالع في التنبؤ بالحوادث المستقبلية. وهذه اطلق عليها صناعة، وبذلك فصل بين علم الهيئة والتنجيم. وعلم الهيئة نظري وعلمي يرمي الى رصد حركات الكواكب لاهميتها في تحديد الوقت والمواقيت وفي الحياة العملية مثل السير في الصحاري والبحار.

(١٨٤) ايليا برشينايا، المجالس السبعة، مخطوط، ورقة ٣١-٣٢ و.ظ

وأول من عنى بدراسة علم الفلك والتنجيم الخليفة العباسي المنصور، فقد كان شغوفا به، وقد تابع الخليفة المامون ما بدأ به جدّه المنصور فاقبل على طلب العلم، وارسل الى ملوك الروم الذين بعثوا اليه منها فاستجد لها مهرة الترجمة، وشجع الناس على قراءتها ورغّبهم فيها وفي تعليمها، ومن اوائل المنجمين في ايام الخليفة المهدي توفيل بن توما المسيحي^(١٨٥) المنجم الرهاوي وكان رئيسا للمنجمين في عهد المهدي^(١٨٦).

ومن مشاهير المنجمين في عهد المامون حبش الحاسب المروزي، وله ثلاثة ازياج اولها المؤلف على مذهب السند هند، والثاني المتحن، والثالث الزيج الصغير المعروف بالشاه. وعبد الله بن سهل بن نوبخت كبير المنزلة في علم النجوم، وله الاسطرلاب سفرا اودعه في علم الكواكب وسيرها وحرركاتها، ويعيرها العلماء جانب الثقة والاعتبار، ويرجعون اليها في علم التنجيم والفلك. وكان في عهد الرشيد بدار الترجمة، وقام بتعريب الكتب والتي تبحث في علم الافلاك^(١٨٧).

وفي الوقت الذي جدّ المسيحيون واجتهدوا في ترجمة كتب اليونان في مختلف العلوم، انكب فريق آخر على تاليف الكتب في صنوف المعرفة. وقد قام الرهبان بالدرجة الاولى بهذا الجهد فقد تركوا هذه الكتب المترجمة والمؤلفة في مكتبات الكنائس والاديرة، بالاضافة الى الكتب التي ترجمت في عهود الخلفاء، والتي اودعت المكتبات، وبيوت العلم، خاصة والعصر العباسي، وقد احصى الاب شابو المستشرق الفرنسي كتب النصارى سواء كانت دينية او علمية او ادبية والتي كانت في البيع والاديرة حوالي نيفاً وثلاثة آلاف في

(١٨٥)

(١٨٦) ابن العري، تاريخ مختصر الدول، ص ١٢٧.

(١٨٧) المدور، حضارة الاسلام في دار السلام، ص ١٧٨.

سبع خزائن من مكتبات اوربا^(١٨٨). وقد امتازت هذه الكتب بنقوشها وزخارفها وخطوطها الرائعة.

الموسيقى والغناء

ومن المآثر الفنية عند المسيحيين الموسيقى والغناء. ويرجع ازدهار الموسيقى الى انها جزء من الطقوس الدينية عند المسيحيين، وكانوا يطلقون عليها اسم (الموسيقى الكنسية)^(١٨٩) فقد استعملوا آلات الطرب في الحانهم الدينية، ووضع ادباؤهم اناشيد البيع، ونظموا الموشحات الموزونة والمضبوطة القياس فضلاً عن الطقوس الاخرى التي تتلى صباحا ومساءً في كنائسهم ذات انغام شجية تسمى بالليتورجيات او النافورات^(١٩٠) والحسايات^(١٩١).

ولم تقتصر استعمال الموسيقى للاغراض الدينية فقد استعملها اول الامر نصارى الحيرة في اعراسهم ومجالسهم ومآدبهم، وشملت فيما بعد نصارى العراق، وتعداها الى عامة الناس في مختلف الاديان.

وقد استعمل نصارى الحيرة الطبول والدفوف والصنج والجلجل والابواق والنواقيس، واقتبسوا من البيزنطيين الارغن والبريط^(١٩٢) والسنتور والقانون والقيثارة. واخذوا من الحجازيين المزهر والمعزف والقصة^(١٩٣).

(١٨٨) طرازي، عصر السريان الذهبي ص ٩٢-١٠٨ مجلة المشرق، ٢٢، ص ٤٢٣.

(١٨٩) مجلة المشرق ج ١ ص ٨٤٥، برصوم، اللؤلؤ المنشور، ص ٤١١. عصر السريان الذهبي، ص ٥٦-٥٧.

(١٩٠) روفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٢٦.

(١٩١) الليتورجيا، او النافور، كلمتان يونانيتان ومعناها خدمة او صلوات القداس (روفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٢٦).

(١٩٢) الحسايات، مفردها الحساية، كلمة ارامية يراد بها صلاة الاستغفار او الدعاء. (روفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٢٦).

وقد دُرِّس فن الموسيقى في مدارس الحيرة، فقد ارسل بهرام جور^(١٩٤) اليها وبرع في العلوم العربية والموسيقى، وتعلّم في الحيرة النادر بن الحارث الموسيقى، واجاد في الضرب على العود^(١٩٥).

(١٩٣) البريط، آلة تشبه العود والمزهر.

(١٩٤) روفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٢٨.

(١٩٥) روفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق، ص ٥٣.

كلمة أخيرة

بعد هذه الجولة المضنية والممتعة بنفس الوقت في واحات تاريخ الدولة العربية الاسلامية منذ نشأتها في العام ٦٢٢م يوم هجرة الرسول من مكة الى المدينة، والى يوم سقوط بغداد عام ١٢٥٨م بيد المغول - بعمق تاريخها ووسع حدودها التي عاش على أرضها وضمنها شعوب وقبائل متباينة الاصول، متناقضة الفروع، بقوميات شتى واديان مختلفة، بمذاهب يفرقها الشعائر ويجمعها الحوار، يوحدّها الايمان بالله، ويصهرها في بوتقة واحدة خرجنا بعدة لوحات اجتماعية وثقافية واقتصادية وفكرية وحتى فنية تؤكد لنا عمق تأثير العدالة الاجتماعية، في تكوين المجتمعات وصراع الحضارات ان لم نقل تزاوجها.

هذه الامبراطورية المترامية الاطراف، الغريبة بالاجناس التي نمت فيها ونهضت لتخلق حضارة واحدة تنيرها منارة واحدة ألا وهي منارة الانفتاح والتطور بما له من ابعاد وشمولية.

نعم، مجتمع الدولة العربية الاسلامية الواسع والكبير، استطعنا ان نقف عند محطات الاقليات اللااسلامية التي كانت تعيش فيها وبالذات محطة "المسيحية" بابنائها الذين وجدناهم في خضم هذا البحر المتلاطم الامواج باحزابه وشيعه ومضارباته يبرزون في المجتمع كنخبة كفوءة إستطاع ابنائها المسيحيون ان يبنوا لهم كيانا خاصاً بخصوصيتهم ومكانتهم وأصالتهم، يتألقون كالنجوم المضيئات في الليالي الداجيات.

قرّبهم الخلفاء اليهم وجالسوهم وشاوروهم، ثم سلّموا لهم مقاليد مهمة في الامة الاسلامية كالوزارة والكتابة والحجابه، ثم ضبطوا باجتهداهم

ونظرتهم المستقبلية مفاتيح العلوم والفلسفة والحكمة والطب والصيدلة والرياضيات، فسطعت شمس كثير منهم في البيمارستانات التي شيدها وحلقات الدراسة التي أداروها ومغاليق المعرفة بما ترجموه من التراث السرياني واليوناني والفارسي والهندي. وما زالت آثار أعلامهم تلك تنطق وتحاور الشعوب والأمم معلنة مكانتهم في صرح الحضارة العالمية والانسانية.

أجل، فالمسيحيون برهنوا واكدوا أهم في كل عصر ومصر حملة المشاعل الحضارية العلمية والادبية والفنية، بما يملكونه من القناعة والثقة والامانة والصدق والاخلاص.

فالدولة الاموية والدولة العباسية، عرفت بخلفائها ووزرائها، بأمرائها وقادتها مكانة المسيحية واجتهاد المسيحيين اولاً فافسحوا المجال ان لم نقل فتحو ابواب العلم والمعرفة على مصراعيه للوصول الى ينابيعها فينتهل منها أبناءهم كل بما يستسيغه ويشتهي.

فبالعدالة والتعاون، بالأخاء والمساواة، بالحق والحقيقة التي عشقها أغلب الخلفاء والأمراء، نمت شجرة الحضارة العربية الاسلامية وأثمرت ثماراً يانعة بأبناء جندوا لها كل الطاقات والقابليات ولا سيما المسيحيون منهم الذين أحبوا وما زالوا يحبون دوالي تقدّم البشرية وكرومها في الطب والفلك، الفلسفة والحكمة، الصيدلة والكحالة، الترجمة والكتابة، والتفتيش عن كل بنات المعرفة والتي لاحقوها في ظلمات مغاورها ومفازاتها، وقبضوا على ناصيتها في المروج الخصبة في الاسكولات والتكيات تحت سقوف دار الحكمة والمساجد والاديرة والكنائس.

فاتى كتابنا هذا دليلاً قاطعاً على ثمة المجتمع المتوحد الواحد، وبرهاناً صادقاً على تعاون السلطة بالتابعين لها. فكان الخلفاء والوزراء والقادة يعشقون ينابيع الحضارة كلها والتي كان يدلّهم اليها ابناؤها - وبالاخص

المسيحيون منهم - الذين انصرفوا كلياً لاستخراج لآلئها بعد ان فتحوا قلوبهم النابضة بالحبّة والتعاون والبناء مع مواطنيهم المسلمين منهم وغيرهم من ابناء الذمّة فنشأ منهم اجيال من الذين كرّسوا انفسهم لخدمة الدولة والوطن والامة.

عزيزي القارئ،

خلاصة ما أريد قوله هنا بهذه الكلمة الاخيرة، هي التأكيد على العيش المشترك والحوار البناء، تحت خيمة التأخي والتسامح لبناء مجتمع سعيد وعالم افضل، والحوار البناء لبناء الامة الواحدة لاهداف واحدة وغايات مشتركة تقودنا الى الحياة الكريمة فتبأوا مكائنا اللائقة بنا في عالم اليوم، كما كان أجدادنا في عالم الامس مفخرة الشعوب، وأجدادنا يسرهم جداً ان نكون افضل منهم.

تقول الآية الكريمة من سوره المائدة: "ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون". هذه الكلمات نبّهت المسلمين وزعمائهم على مكانة النصارى المسيحيين واحبارهم، فتكاتفوا بنفس واحد للسير قدماً وتشيد صرح الحضارة الزاهر الذي برّ سائر الحضارات بكل ميادينها الفكرية والعلمية، الثقافية والاجتماعية، الاقتصادية والفنية، وهذه كانت حصيلة ما اردناه من وراء بحثنا المتواضع هذا، الوقوف عند حقيقة الدور الفعّال، والنتائج الايجابية لبعض ابناء المذاهب غير الاسلامية في عصر الدولة العربية الاسلامية، مع بيان علاقتها بالخلفاء وولاتهم وبعض قضاة وفقهاء الاسلام بالاضافة الى الدور الذي قامت به هذه الديانات لا سيما المسيحية منها على صعيد تنشيط الحضارة العلمية العربية وذلك من خلال مشاركتهم لاطباء وعلماء كبار المسلمين.

فاعتمدنا في بحثنا هذا الدؤوب - اكثر من عشر سنوات - على عدد كبير من المصادر العربية والاجنبية القديمة منها والحديثة لنكوّن فكرة واضحة لابناء هذه الديانات على الصعيد السياسي والعسكري والثقافي، إنّ من الوجهة العامة للعصر العباسي بالاضافة الى صدر الاسلام والدولة الاموية، او من الوجهة الخاصة لدور الكنيسة بابنائها في دفع عجلة البحث والاستقصاء.

ومن يحمل البحث والقراءة التي مرت بين ايدينا استنتجنا ناحية خصوصية، وركزنا في توضيح بنودها باسهاب في بحر بحثنا الواسع وهي الناحية العلمية والمعرفية التي كانت لها الاثر الكبير في الازدهار العلمي للعصر العباسي، وفي نفس الوقت توخينا بكل قدرتنا على استنتاجات ومقارنات دارت بين مؤرخي القرون العباسية الخمسة وبين ما ورد في بعض المراجع الاجنبية والعربية الحديثة. فهنا كان لا بد لنا وقد مرت قبل ذلك بحوث فيها من وجه التقارب مع بحثنا، فاعتمدنا نوعا ما التوسع في بعض الفترات وان يجدها القارئ العزيز كأنها مكررة، انما لكل منها في موضعها لها نكهة خاصة لنكون على بيّنة ولو لبيان بعض الحقوق والحقائق التاريخية التي استقينها من امهات المصادر مع المقارنة لهذا العصر الذي غدا بفضل الرعاية الاسلامية لاطباء وعلماء ومترجمين ومهندسين من غير الاسلام، حتى صار في بعض الاحيان كأنه الحامي والمحامي القوي الذكي لهم من وراء اعطائهم الحرية الكاملة لاقامة طقوسهم وشعائهم الدينية، وخاصة المسيحيين منهم.

ومن ناحية ثانية بيّنا دور المسيحيين ضمن الدولة العباسية مع بيان دور الطائفة المتمثلة بالكنيسة ضمن الذي توفر لنا من المصادر والمراجع القديمة والحديثة، فرأينا ان الحظ الاوفر كان لهؤلاء بشهادة جميع المؤرخين والباحثين عرباً كانوا ام سرياناً ام اجانب. كذلك ركزنا على تبيان دورهم ومدى تأثير العصر العباسي بهم.

فقسمنا بحثنا الى عدة ابواب وفصول - كما اشرنا في المقدمة - ليكون لكل باب او فصل له وجهة نظر من الناحية او النقطة التي برز منها عمل كل شخص او طائفة. ومن هنا رأينا ان اكثر الاقليات بروزاً هي المسيحية وان كانت المجوسية او الزرادشتية او الصابئية وقد افرزت علماء واطباء ومترجمين وفلكيين اكثر من غيرها، إذ انهم دخلوا الدين الاسلامي ولم نتطرق اليهم لانه خارج بحثنا.

ولا بد لنا من الذكر كيف انهم تبؤوا الوزارات وقيادة الجيوش الاسلامية واصبحوا ولاة وفي بعض الاحيان وخازني بيت المال، وكتبة اسرار الخلفاء، حتى غدوا في بعض العصور الأمرين الناهين، لشؤون الدولة والخلفاء العباسيين، اذ ان بعض الخلفاء كانوا لا يطيقون الفراق او البعاد عن اطبائهم وندمائهم من غير المسلمين لحاجتهم الماسة والضرورية لطبهم وترجمتهم ولتعريبهم الكتب القديمة والتي استحصلت عليها الخلافة العباسية من القسطنطينية. هذا فضلاً عن اننا اعتمدنا كما اشرنا على اشهر المؤرخين للعصر الاسلامي بدءاً من القرن الاول حتى الرابع للهجرة لننهل من ثمرات كتبهم الحقيقة الناصعة للتاريخ القويم في احداثه والوقوف على ما ورد في كتب باحثين عرب ام اجانب يمتازون بالنزاهة والحياد.

عسى ان يكون قد وضعنا وبثقة لبنة صالحة وقوية في صرح المكتبة العربية فينهل منها طلاب البحث العلمي الصحيح والرصين، واللّه وليّ التوفيق.

دير يسوع الملك

٢٠٠١/٣/٢١

مصادر الحديث والفقه والأحكام

أولاً: المخطوطات

ابن زير (أبي محمد عبد الله بن أحمد بن زير القاضي)

١- شروط النصارى (الشروط العمرية على أهل الذمة) - دار الكتب/المكتبة

التيمورية برقم ٢٢٥٢ تاريخ. تاريخ النسخ سنة ٨٥٩ هـ/١٤٥٤ م.

ابن المخلطة (عزيز الدين بن محمد بن محمد بن محيي بن المخلطة) ولد عام

٨٢٤ هـ/١٤٢١ م وكان موجوداً عام ٨٩٦ هـ/١٤٩٠ م.

٢- العزيزي الحلبي - دار الكتب/المكتبة التيمورية برقم ٦٨٢ أدب.

ابن النقاش (شمس الدين أبي أمانة محمد بن علي بن عبد الواحد المغربي

النقاش المصري)

٣- المذمة في استعمال أهل الذمة - دار الكتب المصرية برقم ١٦٩٣ فقه

شافعي.

ابن شينايا (إيليا - مطران نصيبين)

٤- كتاب المجالس السبعة - من مقتنياتنا بخزانتنا.

الخونكي (الشيخ محمد بن عمر) (من علماء القرن الحادي عشر).

٥- مجموع - دار الكتب المصرية، المكتبة التيمورية برقم ٥٤٤ أدب.

الرازي (الشيخ أبي حاتم أحمد بن حمدان) (ت ٣٢٢ هـ/٩٣٣ م).

٦- كتاب الزينة في الكلمات الاسلامية العربية - مكتبة كلية الآداب/
جامعة عين شمس.

صبري (أيوب صبر عبد الله) (ت ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م).

٧- رسالة في الردّ على النصارى - دار الكتب المصرية/المكتبة التيمورية
برقم ١٠٥ عقائد.

الحنفي (كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى الغزّي).

٨- جلاء الظلمة عن حقوق أهل الذمّة - دار الكتب المصرية/المكتبة
التيمورية برقم ٣٢٤ عقائد، ألفه عام ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م باسم السلطان
عبد الحميد.

الحنبلي (الشيخ عبد الله محمد بن الشيخ مفلح المقدسي) (ت عام
١٣٦١هـ/ ١٧٦٣م).

٩- الآداب الشرعية والمصالح المرعية - دار الكتب المصرية/المكتبة التيمورية
برقم ٢٢٢ أخلاق
مجهول (مؤلف)

١٠- مرسوم بعض الملوك الصلاحية في الزام أهل الذمّة بالشروط العمرية
معهد المخطوطات في الجامعة العربية، تاريخ النسخ سنة
١٣٥٤/٧٥٥م.

ثانياً: الكتب المطبوعة

- ابن إدريس الحنبلي (منصور بن ادریس) (١٠٥١هـ/١٦٤١م)
- ١١- كشف القناع عن متن الاقناع - المطبعة الشرقية بمصر ١٣١٩هـ/١٩٠١م.
- ابن آدم (يحيى القرشي) (ت ٢٠٣هـ/٨١٨م)
- ١٢- الخراج - المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.
- ابن حزم (أبي محمد علي الاندلسي الظاهري) (٤٥٦هـ/١٠٦٣م).
- ١٣ - المخلّى - المطبعة المنيرية - القاهرة ١٣٥٠هـ/١٩٣١م.
- ابن حنبل (الامام أحمد بن محمد بن حنبل من هلال بن اسد الشيباني الروزي البغدادي) (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م).
- ١٤ - سند الامام - المطبعة اليمنية - القاهرة بمصر ١٣١٣هـ/١٨٩٥م.
- ابن البديع (الامام عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الربيع الشيباني الزبيدي الشافعي) (ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م).
- ١٥ - تيسير الوصول الى جامع الاصول من حديث الرسول - المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦هـ.
- ابن عابدين (محمد أمين الشهير بابن عابدين) (٢٥٢هـ/٨٦٦م).
- ١٦- رد المختار على الدر المختار - شرح تنوير الابصار المطبعة العثمانية ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م.
- ابن قدامه (ابي محمد عبد الله بن أحمد المقدسي) (٦٢٠هـ/١٢٢٣م).

- ١٧- المغني - الطبعة الثالثة، طبع إدارة المختار ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٧م.
- ابن قَيم الجوزية (شمس الدين ابي عبد الله محمد بن ابي بكر)
(ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)
- ١٨- احكام أهل الذمة (جزءان) تحقيق الدكتور صبحي الصالح، مطبعة
جامعة دمشق ١٩٦١م/ ١٣٨١هـ
- إبن ماجه (الامام محمد بن يزيد ابو عبد الله القزويني) (٢٧٣هـ/ ٨٨٦م).
- ١٩- سنن المصطفى - المطبعة النازية/ كصر ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م
- ابن داود (سليمان بن الاشعث الازدي السجستاني) (٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)
- ٢٠- مختصر وشرح وتهذيب سنن ابن داود للمنذري، والخطابي، وابن
القيم الجوزية - مطبعة السنة المحمدية/ القاهرة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م.
- أبو عبيدة (الامام القاسم بن سلام) (ت ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م).
- ٢١- الاموال - تحقيق خليل هراس محمد نشر مكتبة اللكيات الازهرية، بلا
تاريخ.
- أبو يعلى (محمد بن الحسن الفراء الحنبلي) (٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م)
- ٢٢- الأحكام السلطانية - القاهرة ١٩٣٨م/ ١٣٥٧هـ.
- أبو يوسف (القاضي يعقوب بن ابراهيم الانصاري) (١٨٢هـ/ ٧٩٨م).
- ٢٣- الخراج - المطبعة السلفية/ القاهرة، ط ٣ (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م)
- أنس (الامام مالك بن أنس) (١٧٩هـ/ ٧٩٥م)

- ٢٤- المدونة الكبرى - برواية سحنو بن سعيد التتوخي عن عبد الرحمن بن قاسم. مطبعة السعادة. بمصر ٣٢٣هـ/١٩٠٥م.
- الترمذي (ابو عيسى محمد بن عيسى) (٧٢٩هـ/١٣٢٨م)
- ٢٥- صحيح الترمذي - بشرح الامام ابن العربي المالكي، المطبعة المصرية بالأزهر - القاهرة بلا تاريخ
- جماعة العلماء (جماعة من علماء الهند)
- ٢٦- الفتاوي المالكية المعروفة بالفتاوي الهندية - المطبعة الاميرية، بولاق، مصر ١٣١٠هـ/١٨٩٢م.
- الحصكفي (علاء الدين محمد) (١٠٨٨هـ/١٦٧٧م)
- ٢٧- الدر المختار، شرح تنوير الابصار - مطبوع على هامش كتاب رد المحتار لأبي عابدين.
- الخرشي (ابن عبد الله محمد) (١١٠١هـ/١٦٨٩م)
- ٢٨- شرح الخرشي - مطبعة بولاق - القاهرة، ط ٢، ١٣١٧هـ/١٨٩٩م.
- الزيلعي (فخر الدين عثمان بن علي) (٧٤٢هـ/١٣٤١م)
- ٢٩- تبیین الحقائق، شرح كنز الدقائق - المطبعة الاميرية، بولاق، مصر ١٣١٥هـ/١٨٩٧م.
- الرملي (شمس الدين بن شهاب الدين أحمد) (١٠٠٤هـ/١٥٩٥م)
- ٣٠- نهاية المحتاج الى شرح المنهاج - شرح على المنهج للنووي، مطبعة بولاق - مصر، بلا تاريخ.
- السرخسي (أبي بكر محمد) (٤٩٠هـ/١٠٩٦م)

- ٣١- المبسوط - مطبعة السعادة - مصر ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م
- ٣٢- شرح السير الكبير - مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الهند، ١٣٣٥هـ/١٩١٦م.
- الشافعي (الامام محمد بن أدريس) (٢٠٤هـ/٨١٩م)
- ٣٣- الأم - (برواية الربيع بن سليمان المرادي) مطبعة بولاق مصر - ١٣٢١-١٣٢٥هـ/١٩٠٣-١٩٠٧م
- ٣٤- أحكام القرآن - (جمعه ابو بكر أحمد بن السحين) البيهقي النيسابوري، (٤٥٨هـ/١٠٦٥م) ط ١ - القاهرة - ١٩٥٢م/١٣٧٢هـ.
- الشربيني (الشيخ حمد بن أحمد الخطيب) (٩٧٧هـ/١٥٦٩م)
- ٣٥- مغنى المحتاج الى معاني الفاظ المنهاج - شرح على متن (المنهاج) للنووي. مطبوع على متن المنهاج الشعاريني (محمد الحنبلي)
- ٣٦- غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب - مطبعة النجاح، مصر، ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م
- الطبري (ابو جعفر محمد بن جرير) (٣١٠هـ/١٩٢٢م)
- ٣٧- اختلاف الفقهاء - طبع ليدن - ١٩٣٣م/١٣٥٢هـ.
- العروسي (الشيخ السيد العروسي) (١٢٠٨هـ/١٧٩٣م)
- ٣٨- محاضرة الاوائل - القرطبي (ابي عبد الله محمد بن أحمد الانصاري) (٧٦١هـ/١٣٥٩م)

- ٣٩ - تفسير القرطبي الجامع لاحكام القرآن - مطبعة دار الكتب المصرية،
ج ٥ طبع ١٣٥٢هـ ج ٢ طبع ١٣٥٧هـ ج ٨ طبع ١٣٥٨هـ.
الكاساني (علاء الدين ابي بكر بن مسعود الحنفي الملقب بملك العلماء)
(١١٩١/٥٨٧م)
- ٤٠ - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع - المطبعة الجمالية بمصر
١٣٢٨هـ/١٩١٠م
كاشف الغطاء (أحمد آل كاشف الغطاء)
- ٤١ - سفينة النجاة - المطبعة الحيدرية، النجف، العراق ١٣٣٨هـ/١٩١٩م.
الماوردي (ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري البغدادي)
(١٠٥٨/٤٥٠م)
- ٤٢ - الاحكام السلطانية والولايات الدينية - مطبعة البابي الحلبي، مصر،
ط ٢ ١٩٦٦م/١٩٨٦م المارغيتاني (برهان الدين علي بن بكر)
(٥٩٣هـ/١١٩٦م) المطبعة الاميرية - بولاق، ١٣١٥ -
١٣١٨هـ/١٨٩٧-١٩٠٠م
- مسلم (الامام مسلم ابو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري)
(٨٧٩/٢٦١م)
- ٤٤ - صحيح مسلم (شرح النووي) - (مطبوع على حاشية ارشاد لشرح
صحيح البخاري) المطبعة اليمنية بمصر ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م

المصادر الأصلية

أولاً: المصادر القديمة:

- ٤٥ - الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد)
- ٤٦ - القرآن الكريم
- إبن أبي اصيبعة (موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي) (٦٦٨هـ/١٢٧٠م)
- ٤٧ - عيون الانباء في طبقات الاطباء - بيروت، دار الفكر، ١٩٥٦م/١٣٧٦هـ وطبعات اخرى.
- إبن الاثير (أبي الحسن علي بن الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الاثير الجزري الملقب بعز الدين) (٦٣٠هـ/١٢٣٢م)
- ٤٨ - الكامل في التاريخ - المطبعة المنيرية، مصر، ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م
- إبن بطريق (البطريقك افثيشوع المكنى بسعيد البطريق) (٣٢٨هـ/٩٣٩م)
- ٤٩ - التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق - مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ.
- إبن جبير (أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الاندلسي) (٦١٤هـ/١٢١٧م)

٥٠- رحلة ابن جبير (٥٧٨-٥٨٠هـ/١١٨٢-١١٨٤م) نشر سنة ١٩١١م/١٣٣٠هـ.

إبن جلجل (أبي داود سليمان بن حسان الاندلسي) (ت بعد ٣٨٤هـ/٩٩٤م)

٥١- طبقات الاطباء والحكماء (ألفه عام ٣٧٧هـ/٩٨٧م) تحقيق فؤاد السيّد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٥٥م/١٣٧٥هـ.

إبن حزم (أبي محمد علي بن حزم الاندلسي) (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م)

٥٢- الفصل في الملل والاهواء والنحل - طبع مطبعة المتنبي ببغداد والخانكي بمصر بلا تاريخ.

إبن حوقل (أبي القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبيني) (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م)

٥٣- صورة الأرض - مطبعة نبيان - بيروت، بلا تاريخ

إبن خرداذبه (أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله) (ت ٣٠٠هـ/٩١٢م)

٥٤- المسالك والممالك - طبع بمكتبه المتنبي ببغداد عن طبع ابريل ١٨٨٩م/١٣٠٧هـ.

إبن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون المغربي) (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)

٥٥- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم ذوي السلطان الاكبر - المطبعة الباسيلية - نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٦م/١٣٧٦هـ.

٥٦- المقدمة - مطبعة مصطفى محمد، القاهرة، بلا تاريخ.

ابن رُسْتَه (احمد)

٥٧- الاعلاق النفسية - ألفه نحو ٩٠٣م/نحو ١٤٩٧م. طبع ليدن،

١٨٩١م/١٣٠٩هـ.

ابن خلكان (شمس الدين أبي العباس احمد) (٦٨١هـ/١٢٨٢م)

٥٨- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان - المطبعة اليمنية، القاهرة،

١٣١٠هـ/١٨٩٢م.

ابن الساعي (أبي طالب علي بن أنجب تاج الدين الملقب بابن الساعي)

٦٧٤هـ/١٢٧٥م.

٥٩- الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير - تحقيق الدكتور

مصطفى جواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد

١٩٣٤م/١٣٥٣هـ.

إبن اسحق (عبد المسيح الكندي) (القرن التاسع الميلادي)

٦٠- رسالة - طبع لندن، ١٨٨٥م/١٣٠٣هـ وطبعات اخرى.

إبن الطقطقي (فخر الدين محمد بن علي بن طباطبات)

٧٠٩هـ/١٣٠٩م)

٦١- الفخري في الآداب السريانية - مطبعة محمد علي صبيح واولاده،

القاهرة، بلا تاريخ.

إبن عبد الحكم (أبي محمد عبد الله بن عبد الحكم) (٢١٤هـ/٨٢٩م)

- ٦٢- سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز - المطبعة الرهبانية القاهرة -
١٩٧٢م/١٣٩٢م.
- إبن العري (غريغوريوس يوحنا بن هارون بن توما الملطبي)
(٦٨٥هـ/١٢٨٦م)
- ٦٣- تاريخ مختصر الدول - المطبعة الكاثوليكية، بيروت ط ١
١٨٩٠م/١٣٠٨م، ط ٢ سنة ١٩٥٨-١٣٧٨.
- ٦٤- تاريخ كنيسة المشرق (بالسريانية) - طبعة لوفان ١٨٧٧م/١٢٩٤هـ
إبن عساكر (أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله)
(٥٧١هـ/١١٧٥م)
- ٦٥- التاريخ الكبير - تحقيق عبد القادر بدران، مطبعة روضة الشام،
١٣٣١هـ/١٩١٢م
- ابن قتيبة (أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري)
(٢٧٦هـ/٨٨٩م)
- ٦٦- عيون الاخبار - مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة،
١٩٣٠م/١٣٤٩هـ.
- إبن القفطي - جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف
(٦٤٦هـ/١٢٤٨م)
- ٦٧- تاريخ الحكماء - ويسمى (مختصر الزوزني) من كتاب (أخبار العلماء
بأخبار الحكماء)، طبع ليزك، ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م
- إبن كثير (أبي الفداء الحافظ اسماعيل بن عمر الدمشقي)
(٧٧٤هـ/١٣٧٢م)

٦٨- البداية والنهاية - طبع مكتبة المعارف ببيروت ومكتبة النصر الرياضي
١٩٦٦م/١٣٨٦هـ.

ابن النديم (ت) (٣٨٣ أو ٣٨٥هـ/٩٩٣ أو ٩٩٥م)

٦٩- الفهرست - سلسلة روائع التراث العربي، نشر مكتبة خياط، بيروت.

أبي الورد (زين الدين عمر بن الورد) (١٧٥هـ/٦٩٤م)

٧٠- مختصر تاريخ الدول - طبع القاهرة، ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م.

الاصفهاني (الامام ابي الفرج عماد) (٣٥٦هـ/٩٦٦م)

٧١- الأغاني - تصحيح احمد الشنقيطي، مطبعة التقدم، مصر، بلا تاريخ

البغداد (ابن المنصور عبد القاهر بن طاهر) (٤٢٩هـ/١٠٣٧م)

٧٢- الفرق بين الفرق - طبع مؤسسة نشر الثقافة الاسلامية، مصر

(١٩٤٨م/١٣٦٨م)

البغداد (أبي بكر احمد بن علي الخطيب) (٤٦٣هـ/١٠٧٠م)

٧٣- تاريخ بغداد أو مدينة السلام - دار الكتاب العربي، بيروت، بلا تاريخ.

البلاذري (احمد بن محيي بن جابر) (٢٧٩هـ/٨٩٢م)

٧٤- فتوح البلدان - نشره ووضع ملاحقه وفهارسه صلاح الدين المنجد،

مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، بلا تاريخ

البيروني (أبي الريحان محمد بن أحمد الخورزمي) (٤٤٠هـ/١٠٤٨م)

- ٧٣- الآثار الباقية من القرون الخالية - مطبعة لايزك ١٩٢٣م/١٣٤٢م
التطيلي (بنيامين بن يونه التطيلي الاندلسي) (٥٦٩هـ/١١٧٣م)
- ٧٤- رحلة بنيامين - ترجمها عن الاصل العبري وعلّق حواشيها وكتب
ملحقاتها عزرا حداد، المطبعة الشرقية، بغداد، ١٩٤٥م/١٣٦٥هـ.
الجاحظ (أبي عثمان بن بحر الجاحظ البصري) (٢٥٥هـ/٨٦٨م)
- ٧٥- التاج في اخلاق الملوك - تحقيق احمد زكي. المطبعة الاميرية، القاهرة
١٩١٤م/١٣٣٣هـ
- ٧٦- البيان والتبيين - تحقيق عبد السلام هارون، نشر مكتبة المتنبي ببغداد
والخانجي بمصر ١٩٦٠
- ٧٧- الحيوان - مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٧م/١٣٢٥هـ
- ٧٨- ثلاث رسائل وتسمى رسائل الجاحظ - باعثناء فنكل
١٩٢٥م/١٣٤٤هـ طبع القاهرة
الجهشياري (محمد بن عبدوس) (٣٣١هـ/٩٤٢م)
- ٧٩- الوزراء والكتاب - مطبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٣٨م/١٣٥٧هـ
خليفة (مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة)
(١٠٦٧هـ/١٦٥٦م)
- ٨٠- كشف الظنون من أسامي الكتب والفنون - طبع دار المعارف التركية
١٩٤١م/١٣٦٠هـ.
- الدميري (جمال الدين) (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)

- ٨١- حياة الحيوان الكبرى - القاهرة ١٩٥٤م/١٣٧٤هـ
الدينوري (أبي حنيفة أحمد بن داود) (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م)
- ٨٢- الأخبار الطوال - دار إحياء الكتب العربية البايع الحلبى
١٩٦٠م/١٣٨٠هـ.
الذهبي (الحافظ شمس الدين) (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)
- ٨٣- العبر في خبر من غير - طبع دار المطبوعات، الكويت
١٩٦١م/١٣٨١هـ.
الرازى (الامام فخر الدين) (٦٠٦هـ/١٢٠٩م)
- ٨٥- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين - راجعه على سامى النشار،
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨م/١٣٥٧هـ.
السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر) (٩١١هـ/١٥٠٥م)
- ٨٦- تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة - المطبعة الخيرية، مصر
السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) (٩٠٢هـ/١٤٩٦م)
- ٨٧- الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ - تحقيق أحمد تيمور، مطبعة الترقى،
دمشق ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م
الشابشتى (أبى الحسن على بن محمد) (٣٨٨هـ/٩٩٨م)
- ٨٨- الديارات - تحقيق كوركيس عواد، ط ١ بغداد، ١٩٥١، ط ٢ نشر
مكتبة المتنبي ببغداد
الشهرتاني (أبى الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر احمد)
(١١٥٣هـ/١٥٤٨)

٨٩- الملل والنحل - تحقيق محمد سيد كيلاني نشر مصطفى البابي الحلبي،
مصر ١٩٦١م/١٣٨١هـ.

الصائبى (أبى الحسين هلال بن المحسن الصائبى) (١٠٥٦هـ/١٠٥٦م)

٩٠- رسوم دار الخلافة - تحقيق ونشر ميخائيل عواد، مطبعة العاني -
بغداد، ١٩٦٤م/١٣٨٤هـ

٩١- تحفة الامراء في تاريخ الوزراء - مطبعة البابي الحلبي، مصر، بلا تاريخ
الصولي (ابى بكر محمد بن يحيى) (٣٣٥هـ/٩٤٦م)

٩٢- أدب الكتاب - تصحيح وتعليق محمد بهجة الاثري
الطبري (ابى جعفر محمد بن جرير) (٣١٠هـ/٩٢٢م)

٩٣- تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، طبع دار
المعارف بمصر ١٩٦٠-١٩٦٣، الحسينية القاهرة
الطرطوشي (أبى بكر محمد بن الوليد الفهرى) (٥٢٠هـ/١١٢٥م)

٩٤- سراج الملوك - مصر، ١٣١١هـ/١٨٩٣م.
العمرى (ابن فضل الله) (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

٩٥- مسالك الابصار في الممالك والامصار - مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٢٤م/١٣٤٣

الغزالي (أبى حامد الطوسي) (٥٠٥هـ/١١١١م)

٩٦- فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة - تعليق مصطفى القباني
الدمشقي، مطبعة الترقى مصر، ١٩٠١-١٩٠٧/١٣١٩-١٣٢٥هـ
القزوينى (زكريا محمد بن محمود) (٦٨٢هـ/١٢٨٣م)

٩٧- آثار البلاد وأخبار العباد - طبع دار صادر بيروت للطباعة، والنشر،
بيروت ١٩٦٠-١٣٨٠.

القلقشندي (أبي العباس أحمد بن علي) (٨٢١هـ/١٤١٨م)

٩٨- صبح الاعشى في صناعة الانشا - المطبعة الاميرية، القاهرة،
١٩١٣م/١٣٢٢هـ

الكندي (أبي عمر محمد بن يوسف الكندي المصري) (٣٥٠هـ/٩٦١م)

٩٩- الولاة وكتاب القضاة - تصحيح كست، مطبعة الآباء اليسوعيين،
بيروت، (١٩٠٨م/١٣٢٦هـ)

المسعودي (أبي الحسن علي بن الحسين بن علي) (٣٤٦هـ/٩٥٧م)

١٠٠- مروج الذهب ومعادن الجوهر - مطبعة دار الرجاء - القاهرة، بلا
تاريخ

١٠١- التنبيه والاشراف - ليدن، مطبعة بريل، ١٩٦٧م/١٣٨٧هـ.

مسكوية (أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب) (٤٢١هـ/١٠٣٠م)

١٠٢- تجارب الامم - طبع مكتبة المتنبي، بغداد، بلا تاريخ.

المغربي (السموأل بن يحيى بن عباس) (ومن أخبار اليهود قبل اسلامه)

١٠٣- بذل الجهود في إفحام اليهود - مطبعة الفحالة بمصر، بلا تاريخ

المقدسي (المطهر بن طاهر) (٣٨٧هـ/٩٩٧م)

- ١٠٤ - البدء والتاريخ - المنسوب تأليفه لابي زيد أحمد بن سهل البلخي
عني بنشره كلمان هوار، طبع باريس ١٩٠٣م مطبعة المتنبي ببغداد
المقدسي (شمس الدين ابي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء
الشامي المعروف بالبشاري) (٣٧٥هـ/٩٨٥م)
- ١٠٥ - احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم - ليدن - مطبعة بريسل، ج ١
١٩٦٧م/١٣٨٧هـ.
- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد الله عبد القادر بن محمد)
(٨٤٥هـ/١٤٤١م)
- ١٠٦ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - طبع بولاق، القاهرة،
١٢٧٠هـ/١٨٥٣م.
- مجهول (مؤلف)
- ١٠٧ - العيون والحدائق في أخبار الحقائق - طبع مكتبة المتنبي، بغداد، بلا
تاريخ.
- مجهول (مؤلف)
- ١٠٨ - التاريخ السعدي - نشره المطران أدي شير (ت ١٩١٧م)، طبعة
باريس ١٩٠٧م/١٣٢٥هـ
- مجهول (مؤلف - الرهاوي)
- ١٠٩ - تاريخ الرهاوي المجهول - تعريب ونشر الاب البير أبونا، مطبعة
شفيق، بغداد، ١٩٨٥م/١٤٠٦هـ
- ميخائيل (البطريك ميخائيل الكبير)

١١٠- تاريخ ميخائيل الكبير - تعريب المطران غريغوريوس صليبا شمعون،
حلب، دار الرها/ ١٩٩

١١١- تاريخ اليعقوبي - (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب
المعروف بابن واضح الاخباري) (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) مطبعة الغري،
النجف، العراق، بلا تاريخ

ثانياً: المراجع العربية الحديثة

أبو زهرة (محمد شاهين حمزة)

١١٢- محاضرات في النصرانية - مطبعة يوسف، ط، ١٩٦٦م/ ١٣٨٦هـ

١١٣- أصول الفقه الاسلامي - المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، بلا تاريخ
إسحق (روفائيل بابو)

١١٤- تاريخ نصارى العراق - مطبعة المنصور، بغداد ١٩٤٨م/ ١٣٦٨هـ

١١٥- مدارس العراق قبل الاسلام - بغداد ١٩٥٥م/ ١٣٧٥هـ

١١٦- احوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية - مطبعة شفيق،
بغداد، ١٩٦٠م/ ١٣٨٠هـ.

الآلوسي (محمود شكري البغدادي) (١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م)

١١٧- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب - شرح وتصحيح محمد
بهجت الاثري، المطبعة الرحمانية، مصر، بلا تاريخ
أمين (أحمد)

- ١١٨- فجر الاسلام - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٣، القاهرة-
١٩٣٥هـ/١٣٥٤م
- ١١٩- ضحى الاسلام - نشر دار الكتاب العربي، ط ١٠
بدوي (عبد الرحمن)
- ١٢٠- تاريخ الاتحاد في الاسلام - نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،
١٩٤٥/١٣٦٥م
- برصوم (البطريك اغناطيوس افرام الاول) (١٩٥٧+) (١٩٤٣)
- ١٢١- اللؤلؤ المنشور في تاريخ العلوم والآداب السريانية - طبع في حمص،
١٩٤٣
- بولص (الراهب بولص اسقف صيدا)
- ١٢٢- الفرق النصرانية - مقالة نشرها الاب لويس شيخو اليسوعي،
المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٤م
الجومرد (الدكتور عبد الجبار)
- ١٢٣- هارون الرشيد - مطبعة دار الكتاب، بيروت، ١٩٥٦م
جوهري (طنطاوي)
- ١٢٤- براءة العباسية - مطبعة البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٦م/١٣٥٥هـ
حتي (الدكتور فيليب)
- ١٢٥- الدولتان الاموية والعباسية - مطبعة التفويض، بغداد،
١٩٤٦م/١٣٦٦هـ

- ١٢٦- تاريخ العرب (المطول) - مطبعة التفيّض، بغداد، ١٩٥٣م/١٣٧٣م
حسن (حسن ابراهيم)
- ١٢٧- تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - مطبعة
مكتبة النهضة المصرية، ط ٣ ١٩٥٣
- ١٢٨- التاريخ الاسلامي العام - القاهرة، ١٩٥٩م/١٣٧٩هـ.
الحبابي (محمد عزيز)
- ١٢٩- الشخصانية الاسلامية - نشر دار المعارف، مصر، بلا تاريخ
الحيدر آبادي (محمد حميد لله)
- ١٣٠- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة - مطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، القاهرة ١٩٥٨م/١٣٧٨هـ
الخربوطلي (علي حسني)
- ١٣١- تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي - دار المعارف، مصر
١٩٥٩م/١٣٧٩هـ
- ١٣٢- الاسلام وأهل الذمة - مطابع شركة الاعلانات الشرقية
١٩٦٩م/١٣٨٩هـ
الخشاب (يحيى)
- ١٣٣- التقاء الحضارتين العربية والفارسية - المطبعة العالمية، القاهرة،
١٩٦٩/١٣٨٩هـ.
داود (الخوري يوسف السرياني) (١٨٩٠م)

- ١٣٤ - مختصر المختصر في تاريخ الكنيسة - طبع بدير الآباء الدومنيكان،
الموصل، ١٨٧٧م/١٢٩٤هـ
الدوري (الدكتور عبد العزيز)
- ١٣٥ - تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري - مطبعة
المعارف، بغداد، ١٩٤٨م/١٣٦٨هـ
- ١٣٦ - العصر العباسي الاول - مطبعة التفويض الاهلية، بغداد
١٩٤٢م/١٣٦١هـ
- ١٣٧ - الجذور التاريخية للشعبوية - دار الطليعة، بيروت ١٩٦٢م/١٣٨٢هـ
الرافعي (مصطفى)
- ١٣٨ - الاسلام نظام انساني - نشر مكتبة الحبال
الراوي (ثابت اسماعيل)
- ١٣٩ - العراق في العصر الاموي في الناحية السياسية والادارية
والاجتماعية - مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٦٥م/١٣٨٥هـ
رحمة الله (الدكتورة مليحة)
- ١٤٠ - الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين -
مطبعة الزهراء، بغداد، ١٩٧٠م/١٣٩٠هـ
رفاعي (أحمد فريد)
- ١٤١ - عصر المأمون - مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٨م/١٣٤٧هـ
الرئيس (محمد ضياء الدين)

١٤٢- الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية - دار المعارف بمصر، ط ٣،
١٩٦٩م/١٣٨٩هـ

زيدان (عبد الكريم)

١٤٣- أحكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام - مطبعة البرهان، بغداد،
١٩٦٣م/١٣٨٣هـ.

زيدان (جرجي)

١٤٤- تاريخ التمدن الاسلامي - مراجعة وتعليق حسين مؤنس، طبع دار
الهلل، القاهرة، بلا تاريخ

سالم (ابراهيم علي)

١٤٥- النفاق والمنافقون - مطبوعات دار الشعب، ١٩٧٠م/١٣٩٠هـ
السامرائي (الدكتور عبد الله سلّوم)

١٤٦- الفرق الغالية في الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري حتى
القرن الخامس - رسالة دكتوراه غير مطبوعة بمكتبة كلية الآداب
جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧١م/١٣٩١هـ.

سرور (محمد جمال)

١٤٧- الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الاول
والثاني بعد الهجرة - نشر دار الفكر العربي، ط ٣،
١٩٦٦م/١٣٨٦هـ.

شيخو (الاب لويس اليسوعي)

- ١٤٨- النصرانية وآدابها بين الجاهلية - طبع بيروت ١٩١٩
- ١٤٩- شعراء النصرانية بعد الاسلام - المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين
بيروت ١٩٢٤م.
- شير (المطران أدي) (١٩١٧+)
- ١٥٠- شهداء المشرق - طبع الموصل للآباء الدومنيكان ١٩٠٠
- ١٥١- تاريخ كلدو وآثور، الجزء الثاني - بيروت ١٩١١
شليبي (أحمد)
- ١٥٢- المجتمع الاسلامي أسس تكوينه، أسباب تدهوره - دار الطباعة
الحديثة بمصر، ط ٢، ١٩٦٣م/١٣٨٣م
- القس (سليمان صانع الموصل) (١٩٦١+)
- ١٥٣- تاريخ الموصل - المطبعة السلفية، مصر، ١٩٢٣م/١٣٤٢هـ.
- الصالح (الدكتور صبحي)
- ١٥٤- النظم في الاسلام، نشأتها، تطورها - دار العلم للملايين، بيروت،
١٩٦٥م/١٣٨٥هـ
- عبد الغني (محمد)
- ١٥٥- صراع العرب خلال العصور - طبع مؤسسة المطبوعات الحديثة،
مصر، بلا تاريخ
- العدوي (ابراهيم احمد)
- ١٥٦- المجتمع العربي ومناهضة الشعبية - طبع ونشر مكتبة النهضة
المصرية، ١٩٦١.

- ١٥٧- حركات التسلل ضد القومية العربية - منشورات وزارة الثقافة
والارشاد، مصر، ١٩٦١م.
العقاد (محمود عباس)
- ١٥٨- أبو الأنبياء الخليل ابراهيم - سلسلة كتاب اليوم، مطابع دار اخبار
اليوم، ١٩٥٣
علي (الدكتور جواد)
- ١٥٩- تاريخ العرب قبل الاسلام (ثمانية اجزاء) - شركة الرابطة للطبع
والنشر، بغداد، ١٩٥٣م
علي (محمد كرد)
- ١٦٠- الاسلام والحضارة العربية - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،
القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٠م/١٣٧٠هـ.
العلي (الدكتور صالح احمد)
- ١٦١- التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول
الهجري - دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٦٩م
الغزالي (محمد)
- ١٦٢- نظرات في القرآن - مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٣
الفياض (عبد الله)
- ١٦٣- تاريخ البرامكة - مطبعة الرشيد، بغداد، ١٩٤٨م
قطب (سيد)

- ١٦٤ - مشاهد القيامة في القرآن - دار المعارف بمصر ١٩٦٦
كاشف (سيرة اسماعيل)
- ١٦٥ - الوليد بن عبد الملك - سلسلة اعلام العرب، عدد ١٧، نشر
المؤسسة المصرية للطباعة والنشر ١٩٦٢
الليثي (سميرة مختار)
- ١٦٦ - الزندقة والشعوبية وانتصار الاسلام والعروبة عليهما - طبع ونشر
مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٨ م / ١٣٨٨ هـ
ماجد (عبد المنعم)
- ١٦٧ - التاريخ السياسي للدولة العربية - طبع ونشر مكتبة الانجلو المصرية،
ط ٢ ١٩٦٠
- ١٦٨ - تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى - مطبعة مكتبة
الانجلو المصرية ١٩٦٣
محمود (حسن أحمد)
- ١٦٩ - الاسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي
والتركي - نشر دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧
المدور (جميل نخلة)
- ١٧٠ - حضارة الاسلام في دار السلام - مطبعة الاعتماد، مصر
١٩٣٢ م / ١٣٥١ هـ
مظهر (اسماعيل)

١٧١- تاريخ الفكر العربي - نشر مجلة العصور لنشر المعرفة والآداب،
القاهرة، ١٩٢٨م/١٣٤٧هـ.

نافع (محمد مبروك)

١٧٢- عصر ما قبل الاسلام - القاهرة، ط٢، ١٩٥٢م/١٣٧٢م
النجار (عبد الوهاب)

١٧٣- قصص الانبياء - ط٤، مطبعة مصر، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م
نصري (القس بطرس الكلداني)

١٧٤- ذخيرة الازهان في تواريخ المشاركة والمغاربة من السريان - طبع دير
الآباء الدومنيكان بالموصل، ١٩١٣م
يعقوب (البطريك اغناطيوس) (+١٩٨٠)

١٧٥- تاريخ كرسي بطاركة المشرق - طبع دمشق ١٩٦٩م
اليوزبكي (الدكتور توفيق سلطان)

١٧٦- الوزارة، نشأتها وتطورها في الدولة الاسلامية العباسية - مطبعة
الارشاد، بغداد، ١٩٧٠

١٧٧- تاريخ اهل الذمة في العراق (١٢-٢٤٧هـ) - طبع في جامعة
الرياض السعودية ١٩٨٠

ثالثاً: المراجع الاجنبية المترجمة

آرنولد (توماس)

١٧٨- الدعوى الى الاسلام - ترجمة حسن ابراهيم حسن مطبعة مكتبة

النهضة، القاهرة، ١٩٤٧

بارتولد (ف)

١٧٩- تاريخ الحضارة الاسلامية - ترجمة حمزة طاهر، ط٣، طبع دار

المعارف، بمصر

بخشي (خودا)

١٨٠- الحضارة الاسلامية - ترجمة وتعليق علي الخربوطلي، نشر دار الكتب

الحديثة، القاهرة

ترتون (أ.س)

١٨١- اهل الذمة في الاسلام - ترجمة حسن حبشي، مطبعة دار المعارف

بمصر، ١٩٦٧

جلوب (جون)

١٨٢- امبراطورية العرب - تعريب وتعليق خيرى حماد، دار الكتاب

اللبناني، ١٩٦٦

جولدتسهير (اجناس)

١٨٣- العقيدة والشرعية في الاسلام - ترجمة علي حسن عبد القادر

ورفاقه، مطابع دار الكتاب العربي، بمصر، ط٢

دوزي (ر.ب.أ)

- ١٨٤- نظرات في الاسلام - ترجمة كامل كيلاني، مطبعة الحلبي، ١٩٣٣
ديموجين (موريس غود فروا)
- ١٨٥- النظم الاسلامية - ترجمة صالح الشماع، مطبعة الزهراء، بغداد، ١٩٥٢
ديورانت (ول)
- ١٨٦- قصة الحضارة - ترجمة محمد بدران، طبع الادارة الثقافية بجامعة
الدول العربية
ريسler (جاك، س)
- ١٨٧- الحضارة العربية - ترجمة غنيم عبدون، طبع الدار المصرية للتأليف
والترجمة، القاهرة ١٩٦٦
سيديو (ل.أ)
- ١٨٨- تاريخ العرب العام - ترجمة عادل زعيتر، نشر البابي الحلبي، مصر،
١٩٤٨
الشلي (الشيخ نعمان)
- ١٨٩- حكومة عمر - ترجمة عن التركية العميد الركن طه الهاشمي، نشره
الدكتور سهيل الهاشمي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٦
علي (سير أمير)
- ١٩٠- مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي - مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٨
فارمر (هنري جورج)

١٩١- تاريخ الموسيقى العربية - ترجمة جرجيس فتح الله المحامي، نشر
مكتبة مصر، القاهرة
لوبون (غوستاف)

١٩٢- حضارة العرب - ترجمة عادل زعيتر، طبع دار احياء الكتب العربية،
ط٣، القاهرة ١٩٥٦
متر (آدم)

١٩٣- الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري - ترجمة محمد عبد الهادي
ابو ريده، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، القاهرة، ١٩٤٧
ولهاوزن (يوليوس)

١٩٤- الدولة العربية وسقوطها - ترجمة يوسف العش، مطبعة الجامعة
السورية، دمشق ١٩٥٦

رابعاً: المعاجم والمجلات

١٩٥- دائرة معارف البستاني - بطرس البستاني، م١-٤، مطبعة المعارف،
بيروت ١٨٨٠

١٩٦- الاعلام قاموس وتراجم - خير الدين الزركلي، ط٢

١٩٧- القامون المحيط - مجد الدين الفيروزآبادي، ١٣٥٧

١٩٨- لسان العرب - ابن منصور (ت ٧١١هـ/١٣١١م)

١٩٩- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد المغربي الرافعي
(٧٧٠هـ/١٣٦٨م)، المطبعة الاميرية، القاهرة، ط٧ (١٩٢٨)

٢٠٠- معجم البلدان - شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت الحموي
(٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، مطبعة السعادة - مصر

٢٠١- معجم الادباء - ياقوت الحموي، مطبوعات دار المأمون

٢٠٢- معجم ما استعجم - ابي عبد الله بن مصعب البكري (٤٨٧-
١٠٩٤)، مطبعة دار الكتب المصرية - ١٩٤٦

٢٠٣- المنجد - لويس معلوف اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية ١٩٣٧

٢٠٤- الموسوعة العربية الميسرة، محمد شفيق غربال، القاهرة ١٩٦٠

٢٠٥- مجلّة المسرة - سهيل قاشا، الطب في العصر العباسي، العدد ٥٩٨
و٥٩٩ - ١٩٧٤، ص ٧٥٤-٧٦٣، ٨١٩-٨٢٩.

٢٠٦- مجلّة الفكر المسيحي - سهيل قاشا، حنين بن اسحق، العدد ٢٢،
شباط ١٩٧٤، ص ٥٨-٦٤.

٢٠٧- مجلّة المسرة - الأب سمير خليل.

٢٠٨- مجلّة المسرة - سهيل قاشا، دور الاطباء المسيحيين الاجتماعي
والسياسي، العدد ٨١٧ - ١٩٩٥، ص ٤٨١-٥٠٦.

٢٠٩- مجلّة بين النهرين - سهيل قاشا، يحيى بن عدي التكريتي،
العدد ١١ - ١٩٧٥ ص ١٨٣-٢٠٢.

٢١٠- مجلّة المشرق البيروتية - أعداد متفرقة لسنوات عديده بأقلام كتاب
عديدون سيما الأب لويس شيخو اليسوعي لم نحصرها في حينه إنما
هي مذكورة في حواشي الكتاب.

- ٢١١- مجلة البطريكية - سهيل قاشا، الطب والترجمة في العهد الأموي، عدد ١١٨ - ١٢٠ - ١٩٧٤، ص ٥٤٩ - ٥٥٩.
- ٢١٢- مجلة الجامعة - سهيل قاشا، أثر العرب في الحضارة الانسانية، عدد خاص - ٢ حزيران ١٩٧٤، ص ٦٨ - ٧٥.
- ٢١٣- كرنيب (الدكتور حسين) - الدولة العباسية وعلاقتها بالديانات الإسلامية، دار اليوسف، بيروت - ١٩٨٧.
- ٢١٤- محمد (الدكتور ماهر عبد القادر) - حنين بن اسحق، العصر الذهبي للترجمة، دار النهضة العربية، بيروت.
- ٢١٥- قنواطي (الاب الدكتور جورج) - المسيحية والحضارة العربية، دار الثقافة، ودار نوبار للطباعة، القاهرة - ١٩٩٢.
- ٢١٦- غزال (الدكتور موسى يونان مراد) - حركة الترجمة والنقل في العصر العباسي، مطبعة مار افرام، العطشانة، بيروت - ١٩٧٣.
- ٢١٧- قاشا (الاب سهيل بطرس) - لمحات من تاريخ نصارى العراق، بغداد، مطبعة شفيق - ١٩٨٢.
- ٢١٨- الامراي (الدكتور كمال) - مختصر تاريخ الطب العربي، جزءان، منشورات دار النضال، بيروت - ط ١، ١٩٨٩ - ١٩٩٠.
- ٢١٩- زغلول (الدكتور الشحات السيد) - السريان والحضارة الاسلامية، مصر، ١٩٧٥.
- ٢٢٠- حافظ (الدكتورة شادية توفيق) - السريان وتاريخ الطب، مصر، ١٩٩٣.

فهرس محتويات الكتاب

الإهداء	٥
تقديم	٧
المقدمة	١٣
الفصل الأول / أحكام الإسلام في أهل الذمة	٢٠ - ٤٤
التعريف بأهل الذمة	٢٠
عقد الذمة	٢١
المستأمنون	٢٣
أهل الكتاب	٢٥
المعاهدون	٢٦
عقد الذمة	٢٦
نقص عقد الذمة	٢٨
شروط عقد الذمة	٢٩
الأحكام المالية	٣١
أولاً: الجزية	٣١
قيمة الجزية	٣٥
مقدار الجزية	٣٦
ثانياً: الخراج	٣٩
جباية الخراج	٤٠
عشور التجارة	٤٣
أحكام العقوبات والجرائم على أهل الذمة	٤٥ - ٥٣
١- عقوبة القصاص	٤٦
٢- الديّة	٤٨

جرائم الزنا	٥١
اللواط	٥١
الاعتداء على الاموال	٥٣
احكام الاموال الشخصية لأهل الذمة	٥٤ - ٦٢
م. زواج المسلم بالذمية	٥٤
د. زواج المسلمة بالذمي	٥٦
ح. احكام عامة	٥٧
ع. حكم الشهادة	٥٧
هـ. اقتناء العبيد	٥٨
و. الخمرة	٥٨
الاحكام الإسلامية في حقوق أهل الذمة	٦٢ - ٧٤
١- الحقوق السياسية	٦٣
٢- الحقوق الدينية	٦٤
حقوق أهل الذمة في اموال الدولة الإسلامية	٦٨
حقوق أهل الذمة في العمل والوظائف	٧٠
الفصل الثاني / أحكام أهل الذمة في الدولة العباسية	٧٥ - ٩٦
التنظيم الاداري	٧٦
الوضع الاقتصادي والاجتماعي	٨٤
مكانة أهل الذمة في الدولة العباسية	٨٨
الفصل الثالث / حياة أهل الذمة الاجتماعية	٩٧ - ١٣٥
١- افراحهم	٩٧
٢- اتراحهم	٩٨
٣- سكنهم	١٠١
٤- لباسهم	١٠١

- ١٠٧ ٥- اعيادهم
 ١٢٤ ٦- عاداتهم
 ١٢٥ ٧- حرياتهم
 ١٢٧ ٨- كنائسهم ومعابدهم

الفصل الرابع / أهل الذمة والنهضة العلمية في الدولة الإسلامية ١٢٦-١٤٧

- ١٤٦ الحميات
 ١٤٧ طب الاسنان
 ١٤٧ التشريح والجراحة

الفصل الخامس / الاطباء وعلاقتهم بالخلفاء العباسيين ١٤٨-١٩٤

- ١٤٨ جيورجيس بن بختيشوع
 ١٥١ جبرائيل بن بختيشوع بن جيورجيس
 ١٥٤ بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع
 ١٥٥ جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع بن جبرائيل
 ١٥٦ عبيدالله بن جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع
 ١٥٧ جبرائيل الكحال
 ١٥٨ اسرائيل بن زكريا الطيفوري
 ١٥٩ سلمويه بن بنان
 ١٦٠ يوحنا بن ماسويه
 ١٦١ ميخائيل بن ماسويه
 ١٦٢ حنين بن اسحق
 ١٦٥ حبيش بن الحسن الاعسم
 ١٦٥ اسحق بن حنين
 ١٦٦ سعد بن توفيل

١٦٧	قسطا بن لوقا البعلبكي
١٦٩	بختيشوع بن يوحنا
١٧٠	ماسويه بن يوحنا
١٧٢	ابو الفرج بن يحيى بن التلميذ
١٧٤	هبة الله بن التلميذ
١٨٢	صاعد بن توما
١٨٤	يوحنا بن بختيشوع
١٨٤	ابن الطيّب
١٨٧	ابن بطلان
١٨٩	سابور بن سهل
١٩٠	ابو الحسن بن المسيحي
١٩١	الاركياذ ياقون ابو الخير بن المسيحي
١٩١	ابن ديلم
١٩٢	ابو مخلد بن بختيشوع
١٩٢	ابو الخير بن ابي الفرج
١٩٢	ابو الخير بن ابي البقاء
١٩٣	ابو علي بن ابي الخير
١٩٣	الطبيب كثيفات
١٩٤	يحيى بن اسحق

الفصل السادس / الاطباء المسيحيون في المجتمع العباسي الاسلامي .. ١٩٥-٢٥٤

٢١٤	نوادير الاطباء وطرائفهم
٢١٩	نكبات الاطباء
٢٢٥	تنافس الاطباء

٢٢٨	محنة حنين ونكبته
٢٢٩	المحنة الاولى
٢٣٠	نكبة حنين
٢٣٣	نكبة حنين من خلال رسالته
٢٤٣	دخل الاطباء

الفصل السابع /

٢٩٥-٢٥٥	المسيحيون وحركة الترجمة في الدولة العربية الاسلامية
٢٥٥	مقدمة
٢٦١	حركة الترجمة وجهود السريان
٢٦٣	السريان والترجمة قبل الاسلام
٢٦٦	الترجمة في العهد الاموي
٢٧١	حركة الترجمة في العصر العباسي
٢٧٨	الترجمة والمترجمون
٢٨٠	جورجيس بن جبرائيل
٢٨٠	بختيشوع بن جورجيس
٢٨١	جبرائيل بن بختيشوع
٢٨٢	يوحنا بن ماسويه
٢٨٣	قسطا بن لوقا البعلبيكي
٢٨٤	حنين بن اسحق
٢٨٨	اسحق بن حنين
٢٩٠	ثابت بن قرّة
٢٩٢	حبيش بن الاعسم
٢٩٣	حتى بن يونس

ستان بن ثابت.....	٢٩٣
يحيى بن عدي التكريتي.....	٢٩٤
ابو علي عيسى بن زرعة.....	٢٩٤

الفصل الثامن / المسيحيون وتعريب التراث اليوناني

ايام الدولة العباسية.....	٢٩٦-٣١٧
الكتب الفلسفية المترجمة.....	٣٠٠
اولاً: كتب افلاطون.....	٣٠٠
ثانياً: كتب ارسطو.....	٣٠٠
ثالثاً: كتب اقليدس.....	٣٠٤
رابعاً: كتب ابقراط.....	٣٠٥
خامساً: كتب افلاطون.....	٣٠٦
سادساً: كتب جالينوس.....	٣٠٧
سابعاً: كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم.....	٣١٣
ثامناً: متفرقات.....	٣١٥

الفصل التاسع / الكتاب والوزراء النصارى في ديار الاسلام..... ٣١٨-٣٥٨

١- الشرع الاسلامي وتوظيف اهل الذمة.....	٣١٨
في عهد الراشدين والامويين.....	٣١٩
في العصر العباسي.....	٣٢١
مكانة رجال الدواوين النصارى وتأثيرهم.....	٣٢٤
قائمة بأهم الوزراء والكتاب.....	٣٣٣

الفصل العاشر / دور الاطباء المسيحيين الاجتماعي والسياسي

في العصر العباسي (٧٥٠-١٢٥٨).....	٣٥٩-٣٨٧
----------------------------------	---------

الفصل الحادي عشر / دور أهل الذمة في الحضارة العربية الإسلامية	
في العلوم والآداب والفنون.....	٣٨٨-٤٢١
كلمة أخيرة.....	٤٢٢
مصادر الحديث والفقه والأحكام.....	٤٢٧-٤٥٨
فهرس محتويات الكتاب.....	٤٥٩



يأتي هذا الكتاب لينشر إضاءات جديدة على واقع العلاقات الإسلامية - المسيحية، خلال مرحلة مهمة من تاريخ الحضارة العربية - الإسلامية، فبين الوجه المشرق لهذه العلاقة، منطلقاً من انخراط المسيحيين في المشروع العام للأمم في كثير من جوانب الحياة، لا سيما تصديهم لمهام حضارية كبيرة استجابوا لها بفعل دورهم الرائد في كثير من معارف وعلوم ذلك العصر.

ولا شك ان الاقتراب من النظرة الموضوعية الى واقع شديد الحساسية والتعقيد، يؤكد على ما عُرف عن الكاتب الأب سهيل قاشا من حرص على الالتزام بمنهجية علمية ترمزها مزايا روحية وانسانية يتمتع بها، ويدعو وفقاً لها الى تأسيس علاقة إسلامية - مسيحية سليمة ورائدة، لكي تأتي منسجمة مع دعوة الأديان الى الانفتاح والمحبة والتعاون لما فيه خير الإنسان، ومع التجربة التاريخية التي قدمت في كثير من الأحيان صوراً مشرقة لهذه العلاقة.

إن هذا الكتاب، وإن اختلفنا مع صاحبه في النظرة الى بعض الوقائع او النتائج التي يصل إليها، لجدير بالقراءة، لأنه يسلط الأضواء على تجربة انسانية غنية وهامة، يفترض أخذ العبر منها والاستفادة من نتائجها بما يخدم قضايانا الكبيرة، بعيداً عن التعصب والأحقاد.